الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

الرقم التسلسلي
الرقم ..../2005

الجدلية التاريخية في القرآن الكريم

بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه الدولة
في الدراسات القرآنية

إعداد :
عيسى لحيلح

إشراف :
الأستاذ الدكتور : رابح دوب

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د. أحميدة عميراوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية	رئيسا
أ.د. رابح دوب	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية	مشرفا و مقررا
أ.د. محمد بالغيث	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر – الخروبة –	عضوا
د. حسن كاتب	أستاذ محاضر	جامعة منتوري	عضوا
د. اسعيد عليوان	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية	عضوا
د. عبد الحميد بوكعباش	أستاذ محاضر	جامعة باتنة	عضوا

السنة الجامعية 1425-1426 هـ / 2004- 2005 م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

الصفحة

المقدمة .... أ - ر

المدخل

مقدمة 01

المبحث الأول : سنية الحركة التاريخية في القرآن الكريم 01

المبحث الثاني : انتفاء العفوية والعبثية عن حركة التاريخ 14

المبحث الثالث: مسألة الوعي التاريخي في القرآن الكريم 22

المبحث الرابع : بين فلسفة التاريخ و فلسفة الحياة 33

المبحث الخامس : مقومات الفعل التاريخي 41

الفصل الأول : الإنسان جوهر حركة التاريخ

مقدمة 46

المبحث الأول : الصفات المرتبطة بالإنسان من خلال القرآن 47

المبحث الثاني : مستويات الإنسان من خلال الخطاب القرآني 51

المبحث الثالث: المحتوى الفحوي للإنسان 64

المبحث الرابع: المثل الأعلى 66

المبحث الخامس : علاقة الفرد والمجتمع بالمثل الأعلى 69

المبحث السادس : الإنسان خليفة الله 71

المبحث السابع : اختلاف الناس وانقسام المجتمع 78

الفصل الثاني : طبقة المستكبرين

مقدمة 91

المبحث الأول : الاستكبار لغة و مفهوما 94

المبحث الثاني : مجالات الاستكبار 102

المبحث الثالث: أركان الاستكبار 113

المبحث الرابع : المصطلحات التي تعبر عن المستكبرين 128

الفصل الثاني : طبقة المستضعفين

مقدمة 131

المبحث الأول : الاستضعاف لغة و مفهوما 132

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني : مجالات الاستضعاف 138
المبحث الثالث : مقومات الاستضعاف 148
المبحث الرابع : المصطلحات التي تعبر عن المستضعفين 159

الفصل الرابع : التبعية و نشأة الجاهلية

مقدمة 163
ث الأول : مفهوم التبعية 163
المبحث الثاني : أركان التبعية 168
المبحث الثالث: نشأة الجاهلية 181
المبحث الرابع: بين الجاهلية و المدنية 186
المبحث الخامس :مستويات الجاهلية 188

الفصل الخامس : ظهور النبي

مقدمة 194
المبحث الأول : اختلاف الناس 195
المبحث الثاني : ظهور النبي 198
المبحث الثالث: طبيعة النبي 201
المبحث الرابع : خلُق النبي 203
المبحث الخامس : لغة النبي 205
المبحث السادس: محتوى رسالة النبي 206
ث السابع : أسلوب النبي في الدعوة 208
المبحث الثامن : وظيفة النبي 210

الفصل السادس : النبي في مواجهة المستكبرين

مقدمة 226
المبحث الأول : النبوة ليست موقعا طبقيا 227
المبحث الثاني : منهجية الحوار 232
المبحث الثالث: أسلوب الحوار 235
المبحث الرابع : مواضيع الحوار 238
المبحث الخامس : كيف ينتهي الحوار 255

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل السابع : الحركة النبوية من الإخراج حتى الدورات الثلاثة

مقدمة 259

لمبحث الأول : الإخراج 259

لمبحث الثاني : الهجرة 267

المبحث الثالث: الجهاد 273

المبحث الرابع : النصر 279

المبحث الخامس : النصر بين الرشاد و التيه 282

المبحث السادس : الخلافة الراشدة 291

المبحث السابع : الدورات الثلاثة 295

المبحث الثامن : الهلاك وبداية دورة حضارية (تاريخية) جديدة 298

الخاتمة 304

فهرس المصادر و المراجع 307

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لا يمكن الحديث عن الوعي التاريخي،الذي يعني بذل جهد عقلي من أجل استشراف معالم المستقبل استعانة بمعالم الماضي عبرا وأحداثا، دون الحديث عن الزمان، ليس كمعطى ميتافيزيقي مجرّد، فذلك ليس من شأن هذه الأطروحة، بل الزمان في تاريخيته، حيث يصير مجالا ضابطا لحركة تغييرية بشرية واعية، أو الزمان وهو يتحدد بما يمتلئ به من حركة هادفة واعية، مؤثرة في حياة الإنسان.

ذلك أن كل المخلوقات تعيش الزمان، وتعيش فيه، وتتغير خلاله، ويحاصرها بولادة وموت لكن دون أن تعيه، ودون أن تجد نفسها مضطرة تحت إلحاح عامل نفسي عميق غريب، إلى مسابقته، أو مسايرته، أو التأخر عنه، والنكـ إلى ماضيه، كما يتم ذلك للإنسان، طبعا على المستوى الشعوري، من خلال حالات وسلوكات يعتقد إذا انخرط فيها انه قد عاد إلى ماضيه -مثلا- أو استعاده ، أو قفز إلى مستقبله، أو تمكن من حاضره، فما يمضي إلا كما يشاء له أن يمضي!

وهذا هو الشعور الذي انتاب "أبانواس" قديما حين قال، وهو في حالة من حالاته! :

دارت على فتية دان الزمان لهم   فما يصيبهم إلا بما شاؤا !

وقد كانت الإنسانية قديما -وما تزال- تجد إحساسا غامضا مرتابا اتجاه الزمان، يشبه تماما "القلق الوجودي"، فهو ذو حضور حاسم، يحاصر الإنسان، ويحيط به كالشرنقة حول اليرقة، وفي كل لحظة يضيق عليه، حتى يزهق روحه في الأخير، وهو يستدرجه إلى ما يكره، ويغتاله دون أن يستطيع له دفعا، ودن أن يستطيع منه تملصا وتخلصا ..

وقد سجل القرآن الكريم أن العرب كانوا على شيء من هذا الشعور القلق، والمستسلم في نفس الوقت. قال الله تعالى: ﴿وَ قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ﴿الجاثية: 24﴾.

أما في الآثار الشعرية العربية القديمة، فنجد شواهد كثيرة على هذا التضجر من الزمان، ومنها على سبيل المثال. قول "امرئ القيس":

ألم يحزنك أن الدهر غول   ختور العهد يلتهم الرجالا

أو قول "الحارث بن ظالم" :

أصاهم الدّهر الختور بختره   ومن لا يق الله الحوادث يعثر

أو قول "حاتم الطائي" :

هل الدهر إلا اليوم أو أمس أو غد   كذلك الزمان بيننا يتـــــردد

يـــــرد علينا ليلة بعد ليلـــــة   فلا نحن ما نبقى و لا الدهر ينفد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقد كان تصور الأمم الأخرى مشابها لتصور العرب هذا، ويكفي مثالا على ذلك أن إله الزمان في الأسطورة الإغريقية اسمه "كرونوس"، وأهم صفة فيه أنه يلد أبناءه ثم يأكلهم، وهي نفس الصورة التي عند العرب حين تصوروا الزمان يخدع ويغدر ، ولا يعطي عهدا ولا يفي بوعد ، بل إنه يرمي على حين غرة ، ويلتهم الرجال التهاما!.

و لهذا، ولغيره ناصبت آداب الشعوب وثقافاتها الزمان العداء، وتضجرت منه وسبته، حتى صحح الرسول ﷺ هذا الموقف وهذا المفهوم في إطار "الثورة المفهومية" الكبرى التي خاضها الإسلام مكتسحا الركام الجاهلي، الذي ران على القلوب والعقول، والمشاعر والضمائر، فقد قال الرسول ﷺ: "لا تسبوا الدهر، فإن الدهر الله عز وجل، قال: أنا الدهر، الأيام والليالي لي، أجددها وأبليها، وآتي بملوك بعد ملوك".

وإذا كان الماضي هو "الوجود الذي كان موجودا" والمستقبل هو "الوجود الذي لم يوجد بعد"، فإن الحاضر هو المجال الزمني الوحيد الذي يملك الإنسان أن يقف على أرضيته، ويحدد مفهومه ونظرته للماضي، ومفهومه ونظرته للمستقبل وعلى قدر الوعي بالحاضر، وعلى قدر نوعية هذا الوعي وحيويته، وعلى قدر الاهتمامات والتساؤلات التي تشغله وتعمره، يكون وعينا بالماضي وأهميته، ويكون وعينا بالمستقبل ومحاولة استشرافه، واستجماع معالمه الهلامية .

ونلاحظ أن الجماعات البشرية ذات الحاضر المتأزم، تضطر إلى البحث عن البديل في قطاعات زمنية أخرى، كنوع من المقاومة أو الرفض أو الهروب، فتظهر "الحركات السلفية"، التي تدعو الناس إلى الانسحاب من الحاضر، و"الهجرة" إلى الماضي، باعتباره "فضاء الخلاص"، ولما تعجز عن النكوص إليه، تستدعيه إلى الحاضر بطريقة يائسة بائسة، فتمسخ الحاضر وتشوه الماضي.

ومن ثم تكون "الإيديولوجية السلفية" -كحالة من حالات الوعي التاريخي- فصاما، يفقد خلاله الأفراد والمجتمعات أي اتصال سوي بالواقع، وأي اندماج منتج إيجابي فيه، وتنحرف في أذهانهم الصور والمعايير والقيم، ويصير إدراكهم للواقع إدراكا مشوها ومزيفا، ويصير الحاضر مدانا ومحكوما عليه، ويبقى كذلك، لأنه لا يشبه الماضي ولا يسير في اتجاهه.

ونفس الشيء تفعله جماعات "طوباوية حالمة" اتجاه المستقبل، باعتباره فضاء زمنيا بكرا، خاليا من الأخطاء- كالماضي الذي أُخلي ونُقّي من الأخطاء بفضل القراءة الانتقائية المغرضة- ومن ثم تدعو الناس إلى الانسحاب من الحاضر، و"الهجرة" إلى المستقبل، كشكل من أشكال المقاومة أو الرفض أو الهروب، دون أن تعد لذلك عدته أو تتخذ له وسائله وأسبابه، لتقع هي كذلك في حالة "فصام"، ينميها عدم الاتصال السوي بالواقع.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و أحيانا تعيش بعض "الجماعات المتدينة" هروبا من الزمان الدنيوي كله، ماضيا وحاضرا ومستقبلا، فتتعلق بالآخرة تعلقا مرضيا، وتعيش تطلعا غير سوي إليها، فتصير الأخرة "المنتظرة" بديلا عن الدنيا المعاشة" و حركيتها، باعتبار أن الوجود الإنساني عقاب وخطيئة، أو هو تكفير عن عقاب وخطيئة! ومن ثم وجب الفرار من الزمان إلى حيث "لا زمان".

والملاحظ أنه عندما يكون الحاضر حيويا وخصبا، ومواتيا فإن اهتمام الناس بالمستقبل والماضي يكون ضعيفا وضئيلا لأن في الحاضر خير عوض عن ماضي السلفيين ومستقبل الحالمين اليوتوبيين، وكأن لسان حال هؤلاء هو قول الشاعر "عمر الخيام" :

لا تشغل البال بماضي الزمان ولا بآتي العيش قبل الأوان
واغنـــم من الحاضر لذّاتـــه فليس في طبع الليالي الأمان

ولا بأس من ملاحظة هنا، وهي أن أكثر الجماعات تطلعا نحو المستقبل وحيوية اتجاهه، هي أكثرها قراءة للماضي وتفكيكا له ونبشا فيه، وذلك لما استيقنت أن الأحداث في جوهرها تتكرر، و الأقوال فيها تعاد، مما يجعل الحكمة المستنبطة منها واحدة، على ما بينها من اختلاف في الأعصار والأمصار.

وقد اتخذ الإنسان إلى قراءة المستقبل أسبابا شتى، فاستعان بأقوال الحكماء والشعراء، وتمويهات المنجمين وأهل السحر، وسجع الكهان، بل اعتمد حتى على زاجري الطير وقارئي أصوات الحيوانات، وغير ذلك من التصرفات التي تصب في خانة السحر والتوهم !، حتى قال قائلهم ساخرا منهم :

لعمرك ما تدري القوارع بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ورغم هذه المحاولات التي تسعى إلى "القبض" على الزمان واستيعابه وتحديده، وتوجيهه وتفسير بعضه ببعض، فقد ظلت نظرة الجماعة إليه نظرة تضجُّر وارتياب، وكأنها تتمنى أن يأتي اليوم الذي تتوصل فيه إلى فك طلاسمه وأسراره، ومن ثم ارتبط –حتى على المستوى اللغوي– بالتأزم والمرض والعاهة، فقد ورد في "لسان حال العرب":

« والزّمِن ذو الزمانة، والزمانة آفة في الحيوانات. ورجل زمن أي مبتلى بيّنُ الزمانة. والزمانة العاهة. زمِن يَزمَنُ زمنا وزُمْنة [illegible] فهو زَمِن والجمع زمنون وزمنى، والجمع زمنى لأنه جنس للبلايا التي يصابون بها ويدخلون فيها وهم لها كارهون.» ①

① ابن منظور– أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب ، مادة : زمن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و الملفت للنظر أن البيئة العربية، على فراغها الشاسع وخلوها من الحركة والإضطراب، قد أوحت للعرب بتقسيم دقيق للزمن، حتى أن كثيرا من الباحثين يعتبرون اللغة العربية أغنى اللغات في تحديد مصطلحاته، و تقسيمه إلى وحدات قِصَرا و طولاً، بينما كان المنتظر من لغة تنشأ في فضاء فارغ خال أن تكون "فضفاضة" في تعابيرها وغير دقيقة.

و عندما نقرأ القرآن الكريم نجده يتحدث عن الوقت بصيغ شتى، لكن لا يتحدث عنه كمفهوم مجرد و لم يتخذه مجالا للجدل والخوض الفلسفي العقيم، إنما تحدث عنه كإطار ضابط، ومعلم موجه للحركة الإنسانية وهي تكدح إلى ربها.

و لم يتعرض القرآن الكريم للزمان كمجموعة من "آنات" أو احتمالات وجود يمارس فيها الفلاسفة وأرباب الكلام "الترف الفكري"، إنما تعرض له كأوقات مقسمة ما بين عبادة وعمل وراحة وسكون، وإذا كان الزمن أطول، فهو مجال يصلح لهلاك أمة ، ونشوء أمة أخرى، وتحقيق وعد الله.

ولقد أكسب القرآن الكريم الزمان قيمته الحضارية وفعاليته التاريخية بعد أن ربطه بالسّرمدية والخلود، والعودة الحتم الله، والمحاسبة والجزاء على ما كان فيه خيرا بخير، وشرّا بشرٍّ. فوضوح الغايات وسموّ الأهداف، التي يضعها القرآن الكريم كقضايا محرّكة ومحرِّضة للجهاد الإنساني، هو الذي انتشل الإنسان من مخالب "القلق الوجودي" إلى حيث الكدّ على يقين والاجتهاد على بصيرة.
فما ينبغي للإنسان المؤمن أن يبكي بكاء اليائس القانط على ما فته، حتى يذهل على ما بين يديه، وما ينبغي له أن يفرح فرح المغرور بما أوتي، حتى يذهل عن العواقب والمآلات.
وهكذا يمضي الإنسان المؤمن في مسيرته الاستخلافية، وقد أمن -بفضل مرجعية إيمانية محكمة- شر الزمان ونوازله، وقوارع الدهر و صروفه، إذ لم يبق الزمان كما صوّرته الجاهلية غولا ماكرا يفتك بالآمنين، ويغتال الطيبين. وإنما صار شيئا حيا شاهدا لك أو شاهدا عليك. يقول الله تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(22)لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ﴿الحديد 23/22﴾.

من هذا المنطلق الإيماني المفهومي دعا القرآن الكريم إلى ضرورة "اغتنام الوقت" والاستزادة من خيره، وما ينبغي للذكيّ والواعي أن لا يأخذ من الوقت غير ما تدفعه إليه حاجاته الغريزية، عليه أن يأخذ من الوقت الحاجات التاريخية، التي تضفي على حركته صفة الإنسانية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أما الفصل الرابع، فقد دار في خمسة مباحث حول التبعية ونشأة الجاهلية، تحدد فيه مفهوم التبعية وأركانها ثم نشأة الجاهلية كإفراز طبيعي لشبكة العلاقات الاجتماعية الجائرة، بعدها كانت المقارنة بين التبعية والجاهلية، ثم تحديد مستويات الجاهلية حسب القرآن الكريم.

و إذا كان لابد من ظهور فكرة الإرشاد والتوجيه في مجتمع منحرف، فقد خصص الفصل الخامس لظهور النبي، عرض فيه من خلال ثمانية مباحث، ظهور النبي وطبيعته، وأخلاقه ولغته، ومحتوى رسالته، ووظيفته، وأسلوبه في الدعوة إلى الله.

الفصل السادس كان تحت عنوان "النبي في مواجهة المستكبرين" تضمن خمسة مباحث، تناولت أن النبوة ليست موقعا طبقيا، كما تناولت منهجية حوار النبي مع المستكبرين وأسلوبه ومواضيعه، وفي الأخير تناولت كيف ينتهي الحوار، الذي كان النبي يريده أن يكون هادئا وموضوعيا، على قاعدة من التسامح وقبول الآخر.

أما الفصل السابع والأخير، فقد جاء تحت عنوان "الحركة النبوية من الإخراج حتى الدورات الثلاثة"، وكان في سبعة مباحث.

أولها يتناول الإخراج، وثانيها الهجرة، وثالثها الجهاد، ورابعها النصر وخامسها النصر بين الرشاد والتيه. أما السادس والسابع، فقد كانا مخصصين لمسألة الدورات الثلاثة، وحصول الهلاك، وتفكك المجتمع، وعودته إلى صورته البشرية الخام، لتبدأ دورة حضارية جديدة، ضمن نفس النسق السنني السابق. سوى أن النبي قد يحل محله شخصية أخرى، تأخذ اسما أو لقبا معينا، كالداعية أو المصلح، أو الإمام، أو القائد، أو باقي الصفات الكاريزماتية التي تخلع على أشخاص في فترات تاريخية معينة.

و رغم أن الدراسات التاريخية – بهذا المنهج و الأسلوب- قليلة في ساحتنا الثقافية و العلمية إلا أنها قديمة في تاريخ الفكر الإسلامي، و لعل رائدها الاول هو العلامة "ابن خلدون" الذي يعد بحق مؤسسا لعلم الاجتماع و ما يمكن أن نطلق عليه فلسفة التاريخ.

و بعده يبرز اسم المفكر الإسلامي "مالك بن نبي" الذي كان يسعى في كل كتاباته و طروحاته إلى التأسيس لنظرية اجتماعية تدفع الشعوب الإسلامية نحو (إقلاع حضاري) جديد من أجل ممارسة الشهود على الناس.

لكن هذا المفكر الكبير، و بحكم " الإغتراب اللغوي" الذي كان يعاني منه فإنه كان بعيدا عن مصادر هذه النظرية و أمثلتها الموضحة، رغم تسلحه بفكر إنساني مستنير أضاء له فضاءا واسعا مما يمكن أن نسميه نظرية أو منهجا إسلاميا في التغيير الإجتماعي.

و نجد كاتبا آخر قد تطرق إلى هذا الموضوع هو "د.عماد الدين خليل" في كتابه التفسير الإسلامي للتاريخ، و الذي تمحور في معظمه حول نقد المدارس التاريخية الغربية. مع التأكيد في آخر الكتاب على بعض السنن القرآنية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفاعلة في التاريخ كالظلم و الترف و علاقتهما بهلاك الامم و الحضارات، و الإيمان و التقوى و علاقتهما بالرخاء الإقتصادي و شيوع الامن العام.

و إن أكثر الدراسات جدة و جدية في هذا المجال هي تلك التي كان يطمح إليها الشهيد السيد " محمد باقر الصدر" و مهد لها بمقدمة ممتازة فيها تحليل موضوعي مستنير، حدد فيها ما يشبه المعالم الكبرى لنظرية إسلامية في التاريخ.لكن القدر لم يمهله حتى يحقق طموحه هذا، فرحل عن عالمنا و لم يترك إلا مقدمة او تمهيدا لهذا المشروع الذي نشر فيما بعد تحت عنوان "المدرسة القرآنية"

و في نفس السياق و التصور، و بنفس المنهج جاء كتاب " مرتضى مطهري" : "المجتمع و التاريخ" بقسميه الأول و الثاني. إلا انه كتاب لم يرض عنه صاحبه كل الرضى، حيث ظهر له ناقصا في بعض جوانبه و غير مستوف لجوانب أخرى. فطلب من ناشره أن يعيده إليه ليضيف إليه بعض الموضوعات و يتوسع في بعض الأفكار، لكن الله قبضه إليه قبل أن يفعل شيئا مما أراد.

أما هذه الدراسة فقد استفادت من جميع هذه الأبحاث و غيرها. و ما تدعي لها عصمة أو كمالا. فقد يأتي آخرون ليغنوها اكثر و يثروها بأفكار و تحاليل جديدة، لتحصل الأجيال الإسلامية في النهاية على نظرية متكاملة في الإجتماع و التاريخ، تغنيهم عن استجداء الأفكار و النظريات من هنا و هناك.

و إن طبيعة هذا البحث قد اقتضت منهجا استقرائيا تحليليا، سعى الباحث من خلاله إلى جمع البيانات و الحقائق، و تفسيرها و تحليلها، ثم إعادة تركيبها ضمن نسق موضوعي جدلي.كما أن الاعتماد على المنهج التاريخي كان ضروريا خلال بعض مراحل الدراسة، و ذلك أثناء تعرضها للسنن و ارتباطها بأشكال مختلفة من جوانب التجربة التاريخية الإنسانية.

و في الأخير لنا كبير الأمل في أن تكون هذه الدراسة قد وفقت إلى فض بعض الإشكالات المتعلقة بالدراسات القرآنية، وأن تكون قد كشفت مساحة كافية لكي يقف على أرضها باحثون آخرون، تتوفر لهم الإرادة، وتواتيهم الظروف كي يكتبوا في هذا المجال بتوسع وعمق وموضوعية اكثر كشفا و توضيحا لمكنونات القرآن الكريم، الذي حكمت عليه المذهبيات و الأهواء السياسية- على طول التاريخ الإسلامي- ألاّ يفهم إلاّ في أُطُر أخلاقية محكومة بتجربة السلف. على ما في تلك التجربة -كحركة بشرية- من تجاوزات. أوجدت لها المذهبيات والأهواء السياسية. التأويلات والتبريرات، ولا بأس بعدها أن ينحرف المبدأ لتستقيم التجربة!.. فكادت تجربة السلف التاريخية أن تكون بديلا عن النص، وقد كانت أداة -من مجموع أدوات- تساعد على فهمه و توضيحه.

و لقد عملت المذهبيات والأهواء السياسية على إخراج تجربة السلف من دائرة "التاريخي المترمّن" إلى دائرة اللامفكر فيه، فيه فصارت جزءا أساسيا مما صار يعرف لدى عامة المسلمين "العقيدة"، على بدعية هذا المصطلح !!.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولن يستطيع الإنسان اغتنام الوقت إلا إذا كان على دراية بالعلاقة الجدلية التي تنشأ بين الوقت والإنسان والفضاء الاجتماعي والمحيط الطبيعي والحركة التاريخية، و كان على دراية كذلك بجدلية الأبعاد الزمانية الثلاثة، وكيف تفضي إلى بعضها بعضا، بمعنى أن يتوفر على "الوعي التاريخي". وهذا الذي يؤكده القرآن الكريم من خلال استعراضه لقطاع عريض من ماضي الإنسانية، على ما بينها من اختلاف في المكان والزمان والتصورات، لكن نراه يتحرك بمنطق واحد و ينشئ آليات للحركة متشابهة، ويفضي إلى نتائج مشتركة، وفي هذا دليل قاطع على أن الساحة التاريخية محكومة بسنن واحدة مطّردة، لا تتبدل ولا تزول.

وقد أدرك القدامى شيئا بسيطا ظاهريا من هذا المنطق الجدلي الذي توسّع فيه القرن العشرون تحليلا وتفكيكا. فلقد قال احد الشعراء :

الدهر آخره شبه بأوّله ناسٌ كناسٍ وأيامٌ كأيامِ

وقال آخر بعد أن لاحظ كيف تكون الأمور نتائج عن أخرى ، ومقدمات لأخرى :

مسألة الدور جرت بين وبين من أحب

لولا مشيب ما جفا لولا جفاه لم أشب

وقال ثالث وقد رأى كيف تتوالد الأضداد عن الأضداد :

ولكل شيء آفة من جنسه حتى الحديد جنى عليها المبردُ

وهذا المنطق الجدليّ التاريخيّ هو الذي أكّد عليه القرآن الكريم بعد أن جعل الماضي الإنساني أداة تعبير للمستقبل، أو أداة عبور إليه انطلاقا من حركية الحاضر وإرهاصاته.

وكما يستطيع الكيميائي الخبير بخواص المواد والعناصر أن يحدد سلفا نتيجة تفاعل بعضها مع بعض بأقدار محددة، كذلك يستطيع صاحب "الاعتبار التاريخي" أم يتوقع نتيجة أوضاع اجتماعية واقتصادية وثقافية وخلفيات تاريخية وهي تتفاعل فيما بينها بأقدار معينة محددة.

وإن شأن الذي يحاول استشراف معالم المستقبل مستعينا بعبر الماضي وأحداثه، كشأن الذي يقف على ربوة عالية ويستعين بمنظار مكبر من أجل رؤية نقطة ما في الأفق البعيد، مع الرغبة الكبيرة في تبين ملامحها ومعالمها.

ومن ثم يكون "الوعي التاريخي" أو "الاعتبار" كما يطرحه القرآن، ليس ذلك التحليل لأحداث الماضي، من خلال رؤية وتصور ومنهج فقط، بل إنه ذلك "الوعي التقدمي" الذي يكون همه الأساسي استشراف المستقبل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و استكشافه ضمن نسق سننيّ فاعل متفاعل، قوامه الإنسان بكل محتواه الفحوي وما يحيط به من ظروف، وما يطمح إليه من غايات، تتفاعل فيما بينها بأقدار معينة، لتفضي إلى نتائجها الحتمية تماما كما تتفاعل العناصر والمركبات الكيماوية في المخبر، لتعطي نتائج توقّعها أهل الخبرة والاختصاص قبل إنتاجها مخبريا.

إننا مثلا عندما نقرأ تاريخ الشعوب على اختلافها أعصارها وأمصارها، نجده يتفق في كثير من نقاطه، ويتقاطع في كثير من تَمَفْصُلاته، هذا يجعل أهل الاعتبار يؤكدون أن المستقبل حتما سوف يكون متشابها في كثير من مآلاته، وقد أعانهم على ذلك الماضي، باعتباره أداة عبور من الحاضر إلى المستقبل، أو خطاب تعبير وتأويل للمآلات المستقبلية للحاضر، كما سلف القول.

وكل هذا الذي سبق جعلني أتساءل، ومنذ أمد ليس بالقصير: هل يوجد في القرآن الكريم نسق سنني يشتغل بطريقة جدلية مضبوطة من أجل توجيه الحركة الإنسانية صوب أهداف ومآلات حُقنت بها البدايات والمقدمات ؟
لم يكن الجواب عن هذا التساؤل سهلا ومباشرا، بل إنه تطلب جهدا ووقتا، وتطلب كذلك شجاعة أدبية، ليكون: نعم، هناك جدلية تاريخية في القرآن تتحرك ضمن نسق سنني ضابط يجعلها متفاعلة، ينتج لاحقها عن سابقها. وهذا الذي حاولت بكل تواضع أن أقدمه في هذه الأطروحة، التي لا أدعي لها أي كمال، ولا أنسب إليها أي تفوق وشرف، ولكني أستطيع أن أدّعي لها جرأة الطرح، وأنسب إليها روح المغامرة واقتحام هذا المجال على قلة -بل على ندرة- مرتاديه، وإحداث قدر معين من المصالحة مع بعض الطروحات التاريخية، التي كان الفكر الإسلامي يعيش معها حالة خصام غير مبرّر، اللهم إلا وقوعه في شرَك التوظيف السياسي والإيديولوجي لهذا المعسكر أو ذاك، وكل يبحث عن حجيته في القرآن، حتى صاروا يضربون بعضه ببعض، وما أنزل إلا ليصدق بعضه بعض.

ولقد لاحظت أن الفكر الإسلامي المعاصر لم يعط هذا الحقل من الدراسات حقه من الاهتمام والبحث، ربما يكون هذا خاضع لطبيعة المرحلة التي نشأ فيها هذا الفكر، ولطبيعة الجهات التي عارضته وعارضها، وطبيعة الجهات التي دعمته صدقا أو كذبا.

فقلد نشأ هذا الفكر الإسلامي المعاصر في ظل أنظمة سياسية تحكم -في مجملها- باسم "الشرعية الثورية" وتتبنى طروحات اجتماعية "اشتراكية"، تصدر عن مرجعية إيديولوجية "شيوعية"، على تفاوت بين هذه الأنظمة في درجة ..س والاقتباس والاستلهام.

و لما دخل الفكر الإسلامي المعاصر في صراع ضد هذه الأنظمة لتجاوزها الأنساق الأصلية الأصيلة، وجد نفسه مضطرا إلى رفض، بل إلى تسفيه وتوهين كل ما تطرحه هذه الأنظمة من شعارات ومشاريع، و راح يقدم قراءات للقرآن و تأويلات للتاريخ الإسلامي تمضي في سياقات معاكسة لشعارات هذه الأنظمة و مشاريعها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة :

لم تعرف الإنسانية كتابا قبل القرآن الكريم، يحدثها عن أن الكون كله -وبكل ما فيه ومن فيه- محكوم بنواميس دقيقة، ومضبوط بموازين مقدرة تقديرا، في صنعها و وظيفتها وتفاعلها، وانطلاقها نحو هدفها المحدد. وأن هذه النواميس لا تتحرك إلا ضمن إحاطة شاملة و علم دقيق من الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: 59]

و لا تختلف الساحة التاريخية باعتبارها ساحة نامية ومتحركة باستمرار، عن باقي الساحات الكونية الأخرى وأرجائه الفسيحة التي لا يعلمها إلا الله، فهي مضبوطة بسنن ونواميس لا تتبدل ولا تتحول ولا تحابي أحدا ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43]

و في هذا تأكيد قطعي على أن الساحة التاريخية مقدرة تقديرا دقيقا، وإن كان الناس في كثير من الأحيان يعجزون عن الإحاطة بهذا التقدير الدقيق للطف حركته، أو لاتساعها عن طاقة الإحاطة لديهم والاستيعاب، فيظنون أن الحركة فوضى والمسيرة صدفة، و الأحداث خبط عشواء، و الهدف -في الأخير- عبث!. يقـــول الله تعالى مسفها هذا المنطق العبثي: ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2]. فلقد قدر الله حجم الأشياء وعمرها و وظيفتها، ومقدار تفاعلها مع باقي الأشياء، في تناسق دقيق بما يضمن نماء الحياة واستمرار تدفقها نحو الكمالات المثلى، ضمن نسق كوني دقيق وموزون.

المبحث الأول : سنية الحركة التاريخية في القرآن الكريم

ليس من شأن القرآن الكريم، ولا من وظيفته أن يحلل كل السنن التي تحرك كل مجالات الحياة، وأن يلم بتفصيلات جميع العلوم التي تنفع الناس، ويقدم فيها نظريات وقواعد ضابطة. إن هذا قد يخرج القرآن الكريم عن وظيفته الأساسية التي هي الهداية وإخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى أنوار الإيمان، وذلك بمخاطبة عقولهم وتنبيه فطرهم المكبوتة، و استجاشة ضمائرهم التي عطلها -أو كاد أن يعطلها- ما ران عليها من أوشاب التصورات الأرضية المحدودة، و ذلك بإعطائهم المبادئ العامة والخطوط العريضة في القراءة المنهجية السليمة، التي بها يكتشفون السنن الضابطة لكل الساحات المتصلة بحياتهم ومصالحهم. « ولكن مع هذا يوجد فرق جوهري بين الساحة التاريخية وبقية ساحات الكون. هذا الفرق الجوهري يجعل من هذه الساحة. ومن سنن هذه الساحة أمرا مرتبطا أشد الارتباط بوظيفة القرآن ككتاب هداية، خلافا لبقية الساحات الكونية والميادين الأخرى للمعرفة البشرية وذلك أن القران الكريم كتاب هداية وعملية تغيير، هذه العملية التي عبر عنها في القرآن بأنها إخراج للناس من الظلمات إلى النور.» ①

---

① السيد باقر الصدر: السنن التاريخية في القرآن الكريم، دار المعارف، بيروت، ص47.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و إخراج الناس من الظلمات -بكل ما ترمز إليه من ضلال و فوضى و اضطراب، و غياب الرؤية و السبيل، وتشوهات روحية و لوثات تصورية، واختلال صورة الكون وقيمته وفعالية عناصره، واختلال موازين الحيـــاة الاجتماعية- إلى النور بكل ما يرمز إليه من هداية و استقامة واستقرار و وضوح الرؤية السبيل، و عدالة موازين، وسلام نفسي، وتوازن جميع القوى النفسية، هذه العملية التي تهدف إلى إعادة بناء الذات الإنسانية، وصياغة محتواها الفحوى بما يتلاءم والدور الوجودي الكبير المنوط بالإنسان والجماعة الإنسانية، لن تكون عملية سهلة ميسورة، ينبري لها من هب ودب، لتؤتي أكلها بين عشية وضحاها، بل لا بد لها أن تستند إلى مرجعية تصورية وإيمانية ومعرفية محكمة الحجة، واضحة المعالم، جلية المنطلقات، بحيث تكشف عن المساحة التي تتم فيها عملية التغيير، إبتداء من النفس الإنسانية، وما يضطرب في مجاهلها من غرائز وأهواء وأشواق روحية، وما يتصارع فيها من قوى، فيها التي تشد إلى الأرض، وفيها التي تدفع إلى السماء، مرورا بالمجتمع ونواميسه، وطبيعته ووظيفته، وشبكة علاقاته، والمؤثرات الخارجية التي يتفاعل معها من ظرفية آنية وأخرى موغلة في القدم، صارت تشبه الدين في تأثيرها وهيمنتها، ثم يقدم صورة مؤنسنة عن الكون، تجرّده من الظلال الأسطورية، والخرافية التي أضفاها عليه الإنسان، وموضحا بعد ذلك طبيعة الحركة الإنسانية التي تضطرب في هذا الكون الكبير، ومنطلقاتها وضوابطها وتأثيراتها ونتائجها النهائية. « من هنا يظهر بأن البحث في سنن التاريخ مرتبط إرتباطا عضويا شديدا بكتاب الله بوصفه كتاب هدى، وبوصفه إخراجا للناس من الظلمات إلى النور. لأن الجانب العملي من هذه العملية، الجانب البشري والتطبيقي من هذه العملية، جانب خاضع لسنن التاريخ، فلا بد إذن أن نستلهم ولا بد إذن أن يكون للقرآن الكريم تصورات وعطاءات في هذا المجال لتكوين إطار عام للنظرة القرآنية والإسلامية عن سنن التاريخ.» ①

و لهذا نجد القرآن الكريم يحيل قارئيه على قصص الغابرين، وسنن السابقين وما حملت من صراع وتدافع بين دعاة الخير والحق، ودعاة الشر والباطل، يردهم إلى تلك المساحات -الغابرة كأحداث، والمتجددة كسنن- ليستلهموا العبرة، ويعززوا الموقف، ويرشدوا المسيرة، ويطمئنوا على العاقبة، ويفهموا -قبل هذا وذاك- طبيعة الصراع وفصوله ومراحله ومآلاته. يقول الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿آل عمران:137﴾.

يقول الشهيد "سيد قطب": في شأن القرآن الكريم، إنه « يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور. فهم ليسوا بدعا في الحياة. فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافا، إنما تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام واستشرفوا خط المسير على ضوء ما كان في ماضي الطريق .» ②

---

① السيد باقر الصدر: السنن التاريخية في القرآن الكريم، دار المعارف، بيروت، ص47.

② سيد قطب: في ظـــلال القرآن، دار الشـــروق، القاهـــرة، ط (9)، 198، المجلد1، الجزء 4، ص478.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وبنفس المنطق التذكيري بالسنن، يتوجه القرآن الكريم بالخطاب إلى الرسول ﷺ: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿فصلت:43﴾.

فإذا كانت رسالة الأنبياء واحدة في خطابها ومضمونها وأهدافها، وواحدة في منهجها كذلك فإنهم سوف يجابهون من طرف أقوامهم باعتراضات متشابهة، تنبثق من خطاب واحد في لغته، وواحد في مفرداته، وواحد في تغطرسه المغرور واستعلائه الأجوف، لينجر عن هذا نفس الصراع وتتجدد نفس المعركة، ليثمر نفس الابتلاءات والآلام والآمال، ويفضي في نهايته إلى نتيجة واحدة، وعاقبة موحدة، تلك النتيجة التي تنسجم مع النسيج الكوني القائم على الحق، والذي يتلاءم مع كل ما هو حق، فلا بد أن ينتصر الحق ويستقر بين الناس ثقافة وقيما وأخلاقا، و شريعة وتصورا ونظام حياة: يقول تعالى:﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿الصافات: 171-172-173﴾.

و للشهيد "سيد قطب" تعليق صائب وهو يتحدث عن هذه السنة الربانية، إذ يقول : «هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء .. ولكنها مرهونة بتقدير الله، يحققها حين يشاء، ولقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة. ولكنها لا تخلف أبدا ولا تتخلف، وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر، لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة، ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين.» ①

تعريف السنة التاريخية :

قبل أن نقدم تعريفا إصطلاحيا للسنة التاريخية، لا بد من تقديم بين يدي ذلك تعريفا لغويا لكلمة "السنة" فقد ورد في "لسان العرب" في معنى "السنة" ما يلي: «سنة الله: أحكامه وأمره ونهيه (...). وسنها الله للناس: بينها. وسن الله سنة: أي بين طريقا قويما (...). السنة : الطريقة المحمودة المستقيمة، وهي مأخوذة من السنن: أي الطريق. السنة في الأصل سنة الطريق. وهو طريق سنه أوائل الناس، فصار مسلكا لمن بعدهم» ②
أما في "مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني" فقد ورد : «وسننت البعير: صقلته وضمرته تشبيها بسن الحد. وتنح عن سنن الطريق وسُنَنِه وسِنَنِه، فالسنن جمع سنة، وسنة الوجه: طريقته. وسنة النبي: طريقته التي كان يتحراها. وسنة الله تعالى: قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته.» ③
وانطلاقا من هذا التعريف اللغوي، قد نستنتج تعريفا للسنة التاريخية، وهو: إنها الطريقة المستقيمة التي لا تتبدل، التي تسلكها أحداث التاريخ التي يقوم بها الإنسان، وهي تفضي إلى مآلات واحدة وعواقب مشتركة على اختلاف المكان و الزمان والناس.

---

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 23، ص3002.

② ابن منظور : لسان العرب : مادة سنن.

③ العلامة الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادة: سنن.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أو: هي الروح المشتركة التي تسري في الظواهر التاريخية على ما بينها من اختلاف في الزمان والمكان، مستوعبة كل شيء ضمن نسقها السنني العام، بمعنى إحاطتها بالحياة الإنسانية. وبما أن الله سبحانه شاء أن يجري حركة الحياة وفقها وعبرها، فهي متقنة ومقدرة تقديرا دقيقا، لا مجال فيه للتفاوت أو الاختلال، أو الانفلات والفوضى.

كما أن وظيفتها، حين يتفاعل معها الإنسان بوعي وإيجابية -أي يحسن في التسخير- هي أن تقود الحياة إلى كمالاتها المثلى على شتى الأصعدة.

و السنة التاريخية عند السيد "باقر الصدر" هي: « تلك الضوابط والقوانين والنواميس التي تتحكم في عملية التاريخ.» ①

أما عند الشهيد "سيد قطب" فهي كل ناموس تجري عليه الأمور، وتتم وفقه الأحداث ويتحرك به تاريخ "الإنسان" في هذه الأرض، وهذا استنتاج من تفسيره للآية الثالثة والتسعين من سورة " الأعراف"، إذ يقول:

« إن السياق القرآني هنا لا يروي حادثة، إنما يكشف عن سنة، ولا يعرض سيرة قوم إنما يعلن عن خطوات قدر.. ومن ثم يتكشف أن هناك ناموسا تجري عليه الأمور، وتتم وفقه الأحداث، ويتحرك به تاريخ "الإنسان" في هذه الأرض. وأن الرسالة ذاتها -على عظم قدرها- هي وسيلة من وسائل تحقيق الناموس -وهو أكبر من الرسالة وأشمل- وأنّ الأمور لا تمضي جزافا وأن الإنسان لا يقوم وحده في هذه الأرض -كما يزعم الملحدون بالله في هذا الزمان- وأن كل ما يقع في هذا الكون إنما يقع عن تدبير ويصدر عن حكمة، ويتجه إلى غاية، وأن هناك في النهاية سنة ماضية وفق المشيئة الطليقة التي وضعت السنة، وارتضت الناموس.» ②

و هذه الشمولية للسنة التاريخية، والامتداد على الزمان بأبعاده الثلاث، جعلت الدكتور "حسين مؤنس" يرفض أن يكون ميدان التاريخ هو الماضي فقط « أو حكاية ما انقضى وفات وطواه الزمان في سير الأبد من الأحداث. و ليس هذا بصحيح لأننا إذا قلنا إن التاريخ هو نهر الحياة، فإن هذا النهر متصل السير قبلنا وفي زماننا وبعد زماننا. وإذا قلنا إننا عندما نكتب التاريخ فمعنى ذلك أننا نسجل التجربة الإنسانية، فإن هذه التجربة مازالت سائرة متصلة الحلقات. والتاريخ على هذا يشمل الماضي والحاضر والمستقبل معا. ونحن عندما ندرس الماضي، فإننا في الوقت نفسه ندرس الحاضر والمستقبل لأننا إذا دققنا النظر تبينا ألا شيء في الوجود يتلاشى ويضيع مع الزمن. وفي علم الطبيعة أن المادة لا تفنى ، أما في علم التاريخ فنحن نقول ألا شيء يزول زوالا تاما، وإنما هي الأشياء تأخذ مع الأيام صورا شتى. فلو أنك نظرت إلى صورة نفسك ، وأنت طفل رضيع ، وقارنتها بصورتك في يومك، لهالك الفرق، ولحسبت أنكما إنسانان مختلفان، والحقيقة أن هذا الطفل هو أنت في صورة أخرى، والفرق الذي تراه هو فعل الزمان.» ③

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

① السيد باقر الصدر: السنن التاريخية في القرآن الكريم، دار المعارف، بيروت، ص44.

② سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 9، ص1336.

③ د. حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، مصر 1984، ص 24.

ربما يكون قصد الدكتور حسين مؤنس -وهو يسحب التاريخ على الأبعاد الثلاث للزمان-، هو أن التاريخ يغطي الماضي أحداثا ووقائع، ويشمل الحاضر حكمة ومنهج عمل، وينسحب على المستقبل رؤية وموعظة وهداية، وبصيرة تقتحم غيبه وتجلو مبهمه، وتوضح معالمه، فيسير فيه الإنسان والجماعة الإنسانية مطمئنين ما داموا مستقيمين على هداه.

مقومات الفعل التاريخي :

يقوم الفعل التاريخي على أربعة ركائز أساسية، أو هي تنتج عن تفاعل أربعة قوى أساسية هي :

أ- النواميس و"الحتميات":

و هي التي تحرك الإنسان و تحكمه، بكل ما ركب فيه من نوازع نفسيـــة غرائز بيولوجية و تطلعات روحية، كلها تبحث عن الإشباع. و لتحقيق هذا الإشباع يتحرك الإنسان ر يخطط، و يبدع و ينتج، و يغير وجه محيطه الطبيعي و البشري. و قد تكون حركته نقلة نوعية على مسار الوعي والإبداع الحركي، وقد تكون هذه الحركة انتكاسة تصيب البنى المختلفة لمحيطه الاجتماعي. و في هذا يقول السيد "آية الله الخز علي": « إن الحديث هنا عن الإنسان المتعمق في ذاته، الباحث في أرجائها، الإنسان الواعي، الواعي لذاته، العالم بحاله، العالم بعمله أين هذا من الموجودات الأخرى حتى ولو كانت آثارها تتحقق بدقة متناهية محيرة، وثمرات وجودها تعرض في ميدان الوجود بشكل أروع وأكثر دقة. ولكن أين الوعي بالذات والوقوف على أحوال القلب؟. وأين معرفة أفعاله؟. إنه الإنسان الذي خلق بهذه الخصوصيات، خلق بخاصية التعالي نحو الهدف السامي والإبداع والابتكار. إن هذا هو الذي يفصله عن الماضي ويشده إلى المستقبل وينقذه من الحالة الطفيلية التبعية، ويوصله على الاستقلال، ويخلصه من أن يكون كلا وعبئا على كاهل الماضي، ورغبه في التخطيط والبناء لذاته.»①

ب- السنن التي تحكم المحيط الطبيعي :

وهذا هو المجال الحيوي للإنسان، الذي تظهر فيه آثار حركته وسعيه سلبا وإيجابا، وتتجلى فيه مكونات نفسه -ذات الاتجاهات المختلفة- متجسدة ومائلة أمامه. إن هذا المحيط له نواميسه وسننه، التي نرى بعضها، ونلمس آثار بعضها الآخر، وليس مستبعدا أن قسما ثالثا منها مازال لم تطله أدوات الاكتشاف والقراءة لدينا. وقد اكتشف الإنسان الكثير من أسرار السنن في العصور الأخيرة، وسخرها لخدمة غاياته وتطلعاته، فعاد عليه ذلك بالخير العميم، كما أنه حاول أن يبدل من وظيفة بعض السنن، ويحولها عن مسارها، فاستعصى عليه ذلك، وعاد عليه بالشر والوبال. وما تلوث البحار وانحسار الغطاء النباتي، ومشكلة النفايات النووية، وأخيرا جنون البقر، إلا دلائل

① آية الله الخزعلي : السنن الإلهية الحاكمة في الإنسان والعالم، مقالات المؤتمر الثاني للفكر الإسلامي في طهران، نشر: معاونية العلاقات الدولية في الإعلام الإسلامي: سبهر طهران، ط (1) 1406 هـ، ص126.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مادية محسوسة لحالة الخرق في ناموس الخلق، وفي هذا دليل كذلك على أن المحيط الطبيعي ذو حساسية مفرطة اتجاه ما لا يجانسه بنية و وظيفة. وإنه كجسم الإنسان الذي تظهر عليه أعراض الحساسية -وقد تبلغ التسمم- إذا أكل شيئا لا يناسب جهازه الهضمي، أو منظومته البيولوجية.

إن المحيط الطبيعي -حسب القرآن الكريم- ليس كتلة صماء، ولا مجالا أخرس أصم. بل إنه ذو وعي دقيق، ويتفاعل مع ما حوله بطريقة متناهية في الدقة والتقدير أدهشت العلماء، بحيث صاروا يعتبرونه- كالإنسان- مخلوقا فكريا بالدرجة الأولى، ومخلوقا ماديا بالدرجة الثانية. وإن القرآن الكريم، ليعبر عن حالات المحيط و مظاهره بمفردات الإنسان والكائن الحي، وذلك ليؤنسنه، ويضفي على العلاقات القائمة بينه وبين الإنسان نوعا من المحبة والألفة والحميمية. وهذا ما توصل إليه علماء الفلك أخيرا، أمثال "السيرآرتر" البريطاني، الذي يكرر أن مادة الكون عقلية، ومثله "جيمس جيتر" الذي يرى بأن الكون كون فكري، و لم يعد يقبل التفسير المادي في ضوء علم الطبيعة الجديد.
وقد عبر القرآن الكريم عن دقة خلق الكون بمفردات توحي كلها بالتنسيق واللطف والعلمية المتناهية، منها: القدر المقدار، التقدير، الميزان، الإتقان، الإحسان، الموزون، إلى غير ذلك. يقول الله سبحانه و تعالى:﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49]، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:8] ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس:38]، ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: 19]، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: 7]،﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل 88]

و يختم هذا كله بإعلان التحدي الصريح الفصيح، المتمثل في دعوة الإنسان إلى أن يتمعن في خلق الله، ويتدبره، ويقلب نظره فيه، ويرجعه مرة ومرتين ومرات هل يعثر على خلل، أو يقع على عطل، أو يصادف اضطرابا ونقصا. ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: 3-4].

ج- السنن التي تحكم المجتمع :

وهي التي تعطيه شكلا وبناء وهوية إنسانية، تميزه عن باقي أشكال التجمعات الأخرى، كتجمعات العمل، أو التجمعات المؤقتة للنازحين و المهاجرين، و غير ذلك. ثم إن هذه السنن تحدد له وظيفة، وتسوقه نحو أهدافه المستقبلية، التي لولاها لما كان للحركة و الإنتاج معنى، كما تضمن له سيرورته، و ترعى مؤسساته، التي هي بمثابة الأعضاء من الجسد البشري فإذا كان هذا الجسد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يصاب بالعطالة بقدر ما يتعطل فيه من أعضاء فكذلك المجتمع يفقد صفته وهويته وفعاليته بقدر ما يفقد من مؤسساته الثابتة، وشبكة أخلاقه الضابطة، التي تستمد قدسيتها وإلزاميتها وديمومتها من طبيعة مصدرها.

و وجود فكرة "المجتمع"، أو العمل داخل المجتمع، شرط أساسي لأي فعل أو حركة تريد أن تدخل نطاق السننية التاريخية في نظر "محمد باقر الصدر"، حيث يرى أنه لابد أن يكون لهذا الفعل أو الحركة « أرضية تتجاوز ذات العامل، أن تكون أرضية العمل هي عبارة عن المجتمع -العمل الذي يخلق موجا، هذا الموج يتعدى الفاعل نفسه، ويكون أرضيته الجماعة التي يكون هذا الفرد جزءا منها. طبعا الأمواج على اختلاف درجاتها، هناك موج محدود، هناك موج كبير، لكن العمل لا يكون عملا تاريخيا إلا إذا كان له موج يتعدى حدود العامل الفردي.» ①

د- المستقبل أو "المصير":

إذا كان المفكر الجزائري "مالك بن نبي" يرى أنه لابد من عنصر رابع يحرك معادلته الحضرية (الحضارة = إنسان + تراب + الزمن) ويحدث التفاعل فيما بينها، وهذا العنصر هو "الفكرة الدينية" فإنه لابد كذلك للسنة التاريخية من عنصر رابع، يكون بمثابة الطاقة المحركة والمساعدة على التفاعل. وهذا العنصر الرابع هو فكرة "المستقبل" أو "المصير". فالمستقبل -باعتباره وجودا ذهنيا يتحرك نحوه الإنسان- يرسم للفاعل غاية وهدفا، كما أنه مجال زمني، يريد الإنسان أن يعمره بما يحب من سعي وحركة، خاصة إذا كان قد فاته شيء من ذلك في ماضيه. وعلى شاشة المستقبل تتجلى تطلعات الإنسان وطموحاته، سواء كانت هذه التطلعات والطموحات محدودة وقصيرة الأمد، أو كانت رسالية حضارية تملأ المستقبل كله، وتمتد إلى ما بعده، كتلك التي ينبغي أن يمتلئ بها فكر المسلم وروحه وضميره. يقول الله تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ﴿الإسراء: 18-20﴾

من خلال هذا النص القرآني الكريم ، يتجلى لنا وجود مطمحين مستقبليين، أو وجود غايتين، إحداهما عاجلة (محدودة) متعلقة بالمدى المنظور من الحياة الدنيا، والأخرى تمتد إلى ما وراء العاجلة (المحدودة) لتشمل الآخرة في غايتها الكبيرة. وكل غاية تولد طاقة وحركة في اتجاهها، وعلى قدر تلك الطاقة والحركة يكون التغيير و الإعمار. وفي هذا يقول الشهيد "سيد قطب": « وبعد فإن من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التي يعيش فيها، فإن الله يعجل له حظه في الدنيا حين يشاء، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق، فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض، يتلطخون بوحلها

① السيد باقر الصدر: السنن التاريخية في القرآن الكريم ص 93.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و دنسها و رجسها، ويستمتعون فيها كالأنعام، و ستسلمون فيها للشهوات و النزعات ويرتكبون في سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدي بهم إلى جهنم (...) و الذي يريد الآخرة لابد أن يسعى لها سعيها فيؤدي تكاليفها، و ينهض بتبعاتها ويقيم سعيه لها على الإيمان، و ليس الإيمان بالتمني، و لكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. والسعي للآخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى، فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية.» ①

وعن هذه المسألة، مسألة فكرة المستقبل، ودورها في الفعل التاريخي، يقول الدكتور "محمد عزيز الحبابي": «كل نشاط (في مستوى الإنسان)، يتجه نحو قصد يرمي إليه الوعي، وهذا يمتاز عن الأفعال الآلية والحيوية، وكل نية ترمي إلى تحقيق قيمة (إيجابية أو سلبية) لكن هناك دوافع وأسباب هي التي تحدد اختيار القيمة والغاية المقصودة» ②.

و انطلاقا من أهمية المستقبل، أو فكره المستقبل، في تصعيد المسيرة الإنسانية وترقيتها، فإن الله سبحانه لم يترك المستقبل غيبا مبهما ومجالا مظلما، بل أنه قد أوضح معالمه الكبرى، وبين خطوطه العريضة ونسيجه العام، ودل الإنسان على بعض مساراته العامة التي سوف يسلكها -بحكم قانون السنن- من أجل البلوغ بالإنسانية الكمال المبتغى المتسم بالصلاح والنفع للناس جميعا، وانتصار دين الفطرة على كل الديانات المزورة، وسيادة المستضعفين المتقين الصالحين، ليس باعتبارهم مركزا طبقيا، بل باعتبارهم دعاة حق وعدل وحملة مشروع رباني يتماشى كلية مع سنن الله في الخلق. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ﴿الأنبياء: 105﴾، ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿الأعراف: 128﴾، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ﴿التوبة: 33﴾.

ولم يكتف القرآن الكريم في كشفه للمستقبل بهذه الخطوط العامة والمعالم الكبرى، بل أنه من حين لآخر يحدد بعض المحطات العاجلة المفصلة في شكل نبوءات، منها التي قد وقعت وصارت جزءا من الماضي، ولم يبق منها إلا الدليل القاطع على صدق القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿الم(1)غُلِبَتِ الرُّومُ(2)فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ ﴿الروم: 1-2-3﴾، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ ﴿الفتح:27﴾

و هناك محطات مستقبلية آجلة، تنتظر دورها لتدخل حيز التحقيق التاريخي منها: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿الإسراء:4﴾، ومنها قوله سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿الأنبياء: 96-97﴾

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 4، الجزء 15، ص 2218

② د. محمد عزيز الحبابي: من الكائن إلى الشخص، الجزء الأول، دار المعارف، مصر 1962، ص684.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و رغم هذه المخطات المستقبلية التي وضعها الله سبحانه كمعالم في مستقبل البشرية كي لا يبقى هذا المستقبل فضاء متميعا متلاشيا، رغم هذا « فإن القرآن الكريم، الصادر عن الله الخالق البارئ المصور، لم يسرف في التنبوات التاريخية، واكتفى بوضع الخطوط العريضة التي تحكم حركة الإنسان والمجتمعات والتاريخ والمستقبل كما تحكم الحياة الدنيا والآخرة.» ①

بعد هذا كله يتضح أن المستقبل -باعتباره المحرك لحركة الإنسان والمستثير لسعيه ووعيه، وذلك من خلال حضوره الذهني- لم يتركه القرآن الكريم غيبا كله، ولم يهتك عنه ستار الغيب كله، بل إنه قد سلط عليه من نور الهدى ما كشف بعض مسالكه ولامس ملامسة خفيفة بعض معالمه، وترك عليه بعض الإبهام ليستثير الجهد الإنساني في التقدم نحوه، ويغري العقل الإنساني بالبحث فيه.

صفات السنة التاريخية :

تتصف السنة التاريخية بثلاث صفات وهي :

- **الربانية:**

أي أنها مرتبطة بالله سبحانه، وموصولة بمشيئته باعتبارها إرادته في خلقه، وحكمته في هذا الكون الفسيح الذي لا يحيط به عقل البشر. وهذه الحقيقة لا يراد بها إرباك الإنسان، أو شل حركته، وترغيبه في الاستسلام الكلي للقدر -بمفهومه المنحرف في أذهان العامة- إنما يراد بها أن يظل الإنسان موصول الصلة بالله، وأن يكون منسجما -في كل شأنه- مع أمر الله. وليطمئن كذلك إلى ديمومة السنة واستمرار مفعولها بقدر ثابت، لأنه صادر عن إله واحد، يقول الله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 22].

« فالكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعا، وينسق بين أجزائه جميعا، وبين حركة هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظم. هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد، فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات ولتعددت النواميس تبعا لها -فالإرادة مظهر الذات المريدة، والناموس مظهر الإرادة النافذة- و لانعدمت الوحدة التي تنسق الجهاز الكوني كله، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه ولوقع الاضطراب والفساد تبعا لفقدان التناسق. هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع محسوس.» ②

كما أنّ هذه الصفة من صفات السنة التاريخية، تعلم الإنسان كيف يتعامل مع السنة التاريخية ضمن المجموع المنظم للسنن التاريخية لأنه من المستحيل -مثلا- أن نطمع في رخاء اقتصادي مستمر وعدالة اجتماعية دائمة من خلال حسن التخطيط ووفرة الإنتاج فقط. لأن الشيء الذي يضمن ديمومة الرخاء واستمرارية العدالة مفقود،

① نبيل محمد توفيق السمالوطي: المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع، دار الشروق جدة، ط(2)، 1406 هـ، ص 49.

② سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 4، الجزء 17، ص2373.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهو الارتباط بالله واستشعار تقواه، واستحضار مراقبته الدائمة. يقول سبحانه وتعالى:﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿الأعراف: 96﴾.

هذا معناه أن الاستفادة من السنن في مدارها الموضوعي، لا يغني عن الاستفادة منها مرتبطة بالله حانه، بل أن هذا شرط أساسي لكي تؤتي السنن أكلها كاملا غير منقوص. فالسنن وهي تتجلى للإنسان، وتبوح له بأسرار الكون تزيده ارتباطا بالله من خلال ما تكشف له عن بديع الصنع ودقة الخلق، الذي يدل ويكشف عن عظمة الخالق.

و قد توهم بعض الماديين أن اكتشاف السنن تحرر من الله، وقد حاولوا أن يجعلوا ذلك فلسفة حياة ورؤية وجودية، فعاد عليهم بالوبال والدمار، الذي أصاب النفوس والأفكار والأرواح قبل أن يصيب البُنَى المادية المختلفة.

و لا تعني ربانية السنة أن التاريخ يجنح نحو التفسير الغيبي واللاهوتي في حدوثه وسريانه كما أكدت على ذلك بعض مدارس اللاهوت المسيحي.

إن ربانية السنة التاريخية هي أن نحللها ونفككها ضمن شروطها الموضوعية دون أن ننسى أنها تعبير عن مشيئته ومطلق إرادته وبديع صنعه.

بينما التفسير اللاهوتي للسنن يتناولها كمعجزات ربانية، مفصولة عن أي سياق موضوعي دنيوي، فهي إن أعقبت شرا سموها بلاء، وإن أعقبت خيرا سموها نعمة، أما كيف حاق البلاء وتنزلت النعمة، فذلك هو زال الغائب أو اللامفكر فيه في التفسير اللاهوتي، على عكس التفسير القرآني، فهو « حينما يسبغ الطابع الرباني على السنة التاريخية لا يريد أن يتجه اتجاه التفسير الإلهي في التاريخ ولكنه يريد أن يؤكد أن هذه السنن ليست هي خارجة من وراء قدرة الله سبحانه وتعالى وإنما هي تعبير وتجسيد وتحقيق لقدرة الله، فهي كلماته، وهي سننه وإرادته وحكمته في الكون، لكي يبقى الإنسان دائما مشدودا إلى الله، لكي تبقى الصلة الوثيقة بين العلم والإيمان، فهو في نفس الوقت الذي ينظر فيه إلى السنن نظرة علمية، ينظر إليها نظرة إيمانية.» ①

ثم إن الأمر ليس متعلقا بسنة واحدة يمكن استغلالها أو مسايرتها، أو الاستجابة لتحديها بطريقة ما. إنه متعلق بنسق كوني من السنن، يتداعى لبعضه بعضا في كل الحالات كما يتداعى لبعضه بعضا الجسد الواحد. هذه السنن مبثوثة في النفس والمجتمع، والطبيعة والآفاق، ولا تعطي سنة ما عطاءها كاملا إلا وهي في حالة تفاعل مع النسق الكوني العام. وقد تعطي هذه السنة أو تلك عطاء محدودا في الكم والكيف والأجل، ولكنه يدور في مآله ، وتكون العاقبة خسرانا مبينا.

فالإقرار بربانية السنة ، يعني الأخذ بالمنهج الرباني، الذي وضعه خالقها في التفاعل معها وتسخيرها

مد باقر الصدر: السنن التاريخية في القرآن الكريم ، ص80.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لخدمة الأغراض الإنسانية. ذلك أن « السنن في النفس والأفاق قدر من قدر الله سبحانه وتعالى، فهو الذي شرعها و سنها و أناط تكليف الإنسان بها، وربط جزاءه وقيمة إنجازه بمقدار ما يكتشف منها ويلتزم بها ... والتعرف عليها والانضباط بمقتضياتها ، هو حقيقة التكليف ، وحقيقة الإيمان والتوكل، وهي مظهر من مظاهر العدل الإلهي المطلق. وهذه الأقدار بعضها يدفع ببعض، فإذا أردنا توظيف سنة معينة علينا أن نوظفها ونتحكم فيها بسنة أخرى أكبر منها وهذا هو التسخير.» ①

■ **الاطراد :**

أي أنها تتحقق وتقع متى توفرت لها شروطها الموضوعية كاملة غير منقوصة، و تتحقق بكامل ثقلها و وزنها وتأثيرها سلبا أو إيجابا. وفي هذا تأكيد على أن حركة التاريخ تجد وقودها في حركة الإنسان وسعيه، وأن حركة المجتمع تمضي وفق تقدير دقيق حتى عندما تنخرط في الفوضى الشاملة. فإن ذلك كان نتيجة حتمية لمقدمات انسلت من بين يدي الإنسان، وترعرعت بين أحضان المجتمع.

و هي في اطرادها لا تستثني أحدا ، ولا تحابي أحدا، في الخير أو الشر، فما على الإنسان أو المجتمع إلا أن يتسق معها ليحصل على ما يريد.

يقول الله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214]. إن طريق التمكين في الأرض، وتحقيق الأهداف الدنيوية والأخروية خاضع لسنن فيها الجهد والمشقة، وفيها البأساء والضراء، وفيها الضربات المزلزلة، التي لا تستثني حتى الرسول والصفوة المؤمنة معه.إنه طريق سلكه السابقون من أصحاب الدعوات الربانية، ولن يجد عنه لاحقوهم بديلا إلا ما كان من سبل مزيفة موهومة.

وهذه الحقيقة تجعل الإنسان يعلم ما يأتي وما يدع، وما يقدم وما يؤخر، لعلمه أن جل السنن التاريخية، إنما تحركها وتحرضها جملة متفاعلة من السلوكات والأخلاقيات التي يقدمها الإنسان أو المجتمع إلى ميدان الحياة العملية.

يقول الدكتور "عبد العليم عبد الرحمن خضر" في هذا الشأن: « أما القرآن فإنه في أكثر من موضع يبين لنا أن سنن الله في التاريخ ثابتة، ماضية إزاء الجماعات البشرية التي تتنكب عن الطريق، بغض النظر عن حجم هذه الجماعة، وعن مدى دورها الحضاري، ومقدار منجزاتها المادية والأدبية في مقاييس الكم ومعايير المساحات و الأحجام.» ②

وكما أن السنة التاريخية لا يدفعها صالحوا المجتمع إذا توفرت شروطها، فكذلك لا يدفعها الثراء المادي أو الأدبي أو كثرة الأنصار و الأشياع فكثير من الأقوام داستهم السنن وهم يصرخون بكل عنجهية وغـــــرور

① بدران بن مسعود بن الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري، أنموذج مالك بن نبي، سلسلة كتاب "الأمة" العدد 73، رمضان 1406، قطر ط (1)، ص174.

② عبد الحليم عبد الرحمان خضر: المسلمون وكتابة التاريخ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا: ط (1)، 1414، ص275.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ(15)فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ ﴿فصلت: 15-16﴾ .

وآخرون ظنوا أن يد الهلاك لن تطالهم باعتبارهم ذوي مال وأولاد: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ ﴿سبأ: 35﴾.

وآخرون لم يغن عنهم شيئا الترف ومظاهر البذخ والنعيم الخادع، لما حل أجل السنن ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الأنعام: 44-45﴾.

« والتعبير القرآني: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يصور الخيرات، والأرزاق، والمتاع، والسلطان، متدفقة كالسيول. بلا حواجز ولا قيود، وهي مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ولا حتى محاولة !.. إنه مشهد عجيب، يرسم حالة في حركة، على طريقة التصوير القرآني العجيب"حتى إذا فرحوا بما أوتوا "، وغمرهم الخيرات والأرزاق المتدفقة، واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها — بلا شكر ولا ذكر- وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع، واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هي عادات المستغرقين في اللهو والمتاع. وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق، وجر هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها... عندئذ جاء موعد السنة التي لا تتبدل: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ » ①

■ فعالية الإرادة الإنسانية :

إن التأكيد على ربانية السنة وديمومتها واطرادها، لا يعني أن دور الإنسان قد صار ثانويا، أو صار لا يمثل شيئا ذا غنى في العملية التاريخية. وأنه صار خاضعا وتابعا لحتمية السنن. إن الله سبحانه جعل التاريخ الإنساني ينسرب من تحت يد الإنسان، وينبع من صميم إرادته يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ ﴿الرعد: 11﴾.

فالنفس الإنسانية هي المسؤولة عن تغيير مختلف بنى المحيط الاجتماعي. وهذه النفس لا ينبثق عنها إلا الرغبة في التغيير و الإرادة والتروع « وكون الإنسان هو وسيلة التغيير الحضاري، فإن ذلك لا يعني التضاد والتصادم بين السنن "أقدار الله" والحرية الإنسانية. فوحي الله هو الذي مكنه من مفاتيح الكون وأرشده إلى سننه وسبله، لأن الله الذي خلق الإنسان حرا مختارا دون سائر الخلق وعلمه الأسماء ومكنه من الأرض واستعمره فيها ودعاه إلى التفكير في اكتشاف السنن وامتلاك القدرة على تسخيرها -ومن التسخير مدافعة قدر

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 2، الجزء 7، ص1090.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بقدر وسنة وبسنة- هو الذي أراد له أن تكون إرادته في التغيير الحضاري هي أساس التغيير، فالله أراد للإنسان أن يريد، وتصبح إرادته هي الفاعلة في التغيير الحضاري.» ①

و إن العلاقة بين إرادة الإنسان وفعاليته وبين سنن الله وبين نواميسه، تشبه تماما العلاقة بين لعبة رياضية وقواعدها ومقاسات أرضية الملعب الذي تجرى فيه فللاعبين حرية المراوغة واللعب وتسجيل الأهداف ضمن قواعد اللعبة، وفي إطار تخطيط الملعب حتى إذا أرادوا أن يخرجوا في منافستهم الرياضية عن قواعدها وعن تخطيط ميدانها، انتفت اللعبة وفقدت قيمتها ومعناها وتعطلت الغاية المتوخاة من وراء ذلك، وصار الأمر فوضى وأصبح كل جهد يبدل، وكل عرق يسيل فإنما يبدل سدى.

كذلك الإنسان، فإنه حر وفعال في إطار التصميم العام للكون ضمن سننه الضابطة، التي من خلالها يأخذ الجهد الإنساني قيمته ومعناه و رساليته، حتى إذا حاول أن ينفلت منها ويخرج عنها صار الأمر فوضى، وانعدمت قيمة الحياة وضاع الجهد سدى، ولن يثمر سعيه ويستقيم أمره إلا إذا ألتزم بالسنن وما هُيّء له الكون عموما. وقد يكون هذا المثل مصيبا في توضيح علاقة حرية الإنسان وإرادته وفعاليته بالسنن الثابتة التي لا تتحول ولا تتبدل.

إذن، فالإتساق داخل النسق الكوني الكبير لا يعني الانتقاص من حرية الإنسان وفعاليته، بقدر ما يعني ذلك تنمية الحرية، وتزكية الفعالية بما يدعمها من قوة دفع السنن والنواميس. ذلك أنْ الإنسان لما يفهم النواميس ويسخرها فإنه يضيف قوتها إلى قوته، وسرعتها إلى سرعته، وبالتالي يحقق ما يصبو إليه في وقت قياسي وبمجهود أقل. و في هذا يقول "سيد قطب": عن الإنسان الذي بدل أن ينسجم مع النواميس و يتصالح معها، " انما يحاول أن ينفلت، وينحرف عن المجرى الهين اللين، فيصطدم بالنواميس التي لا بد أن تغلبه -وقد تحطمه وتسحقه- فيستسلم خاضعا غير طائع- إلا عباد الله الذين تصطلح قلوبهم وكيانهم وحركاتهم وتصوراتهم وإرادتهم ورغباتهم واتجاهاتهم .. تصطلح كلها مع النواميس الكلية، فتأتي طائعة، وتسير هينة لينة، مع عجلة الكون الهائلة متجهة إلى ربها مع الموكب، متصلة بكل ما فيه من قوى، وحينئذ تصنع الأعاجيب، وتأتي بالخوارق، لأنها مصطلحة مع الناموس، مستمدة من قوته الهائلة، و هي منه و هو مشتمل عليها في الطريق إلى الله طائعين.» ②

نستنتج من هذا كله أن حرية الإنسان وفعاليته متحققتان ضمن الشروط السننية التي تحكم الكون كله، ويخضع لها بكل ما فيه. فكما أن محاولة الإنسان التحرر من الحتميات البيولوجية والنفسية التي فطر عليها يعد عبثا وجنونا، فكذلك محاولته للتحرر من حتميات السنن يعد جنونا، بل وانتحار كذلك « و هذا البعد الوجودي هو الذي يمنح الإنسان شخصية إنسانية تؤهله لأن يمتطي التاريخ ويتحكم فيه ويعين مسيرته (...).

---

① بدران بن مسعود بن الحسن : الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري، أنموذج مالك بن نبي، ص26.

② سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 24، ص3114.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حرية الإنسان بالمفهوم الذي أشرنا إليه، لا يتنافى مع قانون العلية، ولا مع قانونية التاريخ، وشمولية المسائل التاريخية. مسألة انتهاج الإنسان الحر المريد طريقا معينا مشخصا في حياته الاجتماعية، انطلاقا من تفكره وإرادته، هي غير مسألة خضوع الإنسان لحتمية عمياء تتحكم فيه وفي إرادته. » ①

المبحث الثاني : انتفاء العفوية والعبثية عن حركة التاريخ

يؤكد القرآن الكريم أن كل شيء مخلوق بقدر موزون ، وقد قدر له حجمه وأجله ومكانه ودوره تقديرا دقيقا، يتناسب تماما مع كل ما حوله من قوى حياتية متبادلة التأثير والتأثر، وذلك هو البناء المحكم هو مجال من المجالات التي يتجلى فيها الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض، والذي لا يتسرب إليه الباطل ولا العبث. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 16-17-18].

فالله سبحانه ما خلق الكون بغير حكمة، وما يتركه يمضي إلى غير هدف وغاية ولا يترك ما خلق ومن خلق يعيشون الفوضى والاضطراب، وعلى رأسها الإنسان باعتباره خليفته في الأرض ليس من شأن الله سبحانه أن يترك مخلوقاته هملا، بلا نواميس ولا قوانين ولا شرائع، بل إنه سبحانه خلق الخلق لحكمة دقيقة وغاية نبيلة، ورسالة مقدسة، يؤدي فروضها في الدنيا ليحصل على ثمار النجاح أو الإخفاق في الآخرة.

يقول "سيد قطب" في شرحه للآيات السابقة: « لقد خلق الله سبحانه الكون لحكمة، لا لعبا ولا لهوا، ودبره بحكمة لا جزافا ولا هوى، وبالجد الذي خلق به السماء والأرض وما بينهما أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وفرض الفرائض، وشرع التكاليف... فالجد أصيل في طبيعة هذا الكون، أصيل في تدبيره، أصيل في العقيدة التي أرادها للناس، أصيل في الحساب الذي يأخذهم به بعد الممات (...) ولقد يخيل للناس أحيانا أن واقع الحياة يخالف هذه الحقيقة التي يقررها العليم الخبير وذلك في الفترة التي يبدو فيها الباطل منتفشا كأنه غالب، ويبدو فيها الحق منزويا كأنه مغلوب، وإن هي إلا فترة من الزمان يمد الله فيها ما يشاء، للفتنة والابتلاء، ثم تجري السنة الأزلية الباقية التي قام عليها بناء السماء والأرض، وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء. » ②

وإذا كان الله سبحانه قد خلق الكون كله بالحق، فكذلك الإنسان، فقد خلقه لأمانة عظيمة ورسالة مقدسة، لا تترك له مجالا للهو أو العبث، ذلك أن أمر الله جد كله. يقول الله سبحانه مخاطبا بني الإنسان :
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: 115-116].

① مرتضى مطهري : المجتمع والتاريخ، القسم الأول، ترجمة: محمد علي آذرشب، مؤسسة البعثة طهران، ط(1)، 1406 هـ، ص65.
② سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 4، الجزء 17، ص 2372.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و في القرآن الكريم تأكيدات كثيرة ، بصيغ شتى، ومن زوايا مختلفة، تؤكد على أن الإنسان كائن رسالي، وأنه يتحرك في مجال كوني مضبوط، لا عفوية فيه ولا صدفة و لا عبث، و إن كل حركاته و سكناته محسوبة بدقة متناهية، وهي كلها تحدث بعلم الله و أمره و مشيئته.

يقول الله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿الأنعام: 59﴾.

فأين العبث الذي يجنح إليه المطموسون المحجوبون عن الرؤية العلمية العميقة؟ وأين العفوية التي يدعيها أدعياء "العلمية"؟ ولماذا توقفت هذه العفوية عن الخلق والإبداع؟ وأية صدفة هذه التي تجعل سقوط ورقة من شجرة في غابة، يقع بعلم الله سبحانه وبأمره ومشيئته؟.

و الحقيقة أن منطقا كهذا منطق متهافت، لا توجد بينه وبين العلم الأصيل رابطة أو وشيجة. وهذا المنطق المتهافت هو البذرة الأولى للنظرة المادية للحياة، التي تبادر إلى الإنسان فتفرغه من محتواه الروحي والرسالي، وتملأه بالأهواء والشهوات المنحطة والرغبات الوطيئة، فتجعل منه كتلة بيولوجية حية، تبحث عن الإشباع لما تبقى فيها من نوازع وغرائز، وما تبقى فيها إلا شهوة البطن والفرج. التي ترمي الإنسان بين براثن القلق والخواء الروحي والاضطرابات النفسية، وما ينجر عنها من أمراض وعاهات روحية مرعبة. وبعدها ينحصر سعي الإنسان في هذا الأفق الغريب، وفي هذا المدى الضيق الذي يشبه تماما لعب الأطفال، لأنه خلو من الرسالية والغايات السامية.

و الذي يعيش ضآلة الأهداف والغايات، ويتحرك في المدى المادي الضيق، لا يستطيع أن يستشرف الآفاق السامية، ولا المدى الرحب الفسيح. ولقد كانت الشعوب الغابرة، تنطلق في محاجة الأنبياء من هذا الأفق الضيق، و يحسبون أنهم على شيء.

ولهؤلاء وأولئك يقول "إدوارد كار"، « إن باستطاعتكم إذا شئتم أن تحيلوا التاريخ لاهوتا إذا اعتبرتم أن معنى الماضي يتوقف على قوة ما فوق تاريخية وفوق عقلانية، وباستطاعتكم إذا شئتم أن تحولوه إلى أدب، أي إلى مجموعة من القصص والأساطير الماضية التي تخلو من المعنى، ولكن التاريخ بالمعنى السليم للكلمة لن يكتب إلا بواسطة أولئك الذين يجدون أن في التاريخ وجهة ما ويقبلون بذلك -إن الإيمان بأننا جئنا من مكان ما يرتبط بصورة وثيقة بالإيمان بأننا ذاهبون إلى مكان ما- إن المجتمع الذي فقد إيمانه بقدرته على التقدم في المستقبل سوف يتوقف بسرعة عن إشغال نفسه بتقدمه في الماضي» ①

و على النقيض من هذا، نجد الإسلام يرسم للإنسانية آفاقا سامية، تمتد إلى ما وراء هذا الوجود، ويقدم لها تصورا دقيقا ومفصلا عن الكون الذي هو مجالها الحيوي، وإنه ليقدمه في صورة هي غاية في الدقة والوضوح، و التأثير كذلك، وغاية في التناسق والتنظيم والإيجابية والفعالية، وهو بهذا -كما يقول "سيد قطب":-

---

① إدوارد كار: ما هو التاريخ ؟ ص151.

« يرفع من اهتمامات البشر بقدر ما يرفع عن تصورهم للوجود كله، وبقدر ما يكشف لهم عن وجودهم وحقيقته ومصيره، وبقدر ما يجيب إجابة صادقة عن الأسئلة التي تساور كل نفس: من أين جئت؟ لماذا جئت؟ إلى أين أذهب؟. وإجابة الإسلام عن هذه الأسئلة تحدد التصور الحق للوجود الإنساني، وللوجود كله. فإن الإنسان ليس بدعا من الخلائق كلها. فهو واحد منها، جاء من حيث جاءت وشاركها علة وجودها. ويذهب إلى حيث تقتضي حكمة خالق الوجود كله أن يذهب. فالإجابة على تلك الأسئلة تشمل تفسيرا كاملا للوجود كله، وارتباطاته، وارتباطات الإنسان به. وارتباط الجميع بخالق الجميع .

و هذا التفسير ينعكس على الاهتمامات الإنسانية في الحياة، ويرفعها إلى مستواه، ومن ثم تبدو اهتمامات الآخرين صغيرة هزيلة في حس المسلم المشغول بتحقيق وظيفة وجوده الكبرى في هذا الكون، عن تلك الصغائر والتفاهات التي يخوض فيها اللاعبون.

إن حياة المسلم حياة كبيرة، لأنها منوطة بوظيفة ضخمة، ذات ارتباط بهذا الوجود الكبير، وذات أثر في حياة هذا الوجود الكبير، وهي أعز وأنفس من أن يقضيها في لهو وخوض ولعب. وكثير من اهتمامات الناس في الأرض يبدو عبثا ولهوا وخوضا ولعبا حين يقاس إلى اهتمامات المسلم الناشئة عن تصوره لتلك الوظيفة الضخمة المرتبطة بحقيقة الوجود.» ①

و من أجل ترسيخ التصور السليم والنظرة الرسالية في فكر المسلم وروحه، يلفت الله سبحانه نظر المسلم -والإنسانية عموما- إلى التأمل في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله بإتقان وإحكام وتدبير دقيق موزون. وكيف أن أجزاء الوجود متفاعلة متناسقة، منتظمة الحركة، بما أودع فيها من الوعي الكبير الدقيق ، الذي يظنه بعض المنقطعين عن الرؤية الكلية سيرورة عمياء. إن هذا كله يهز الفطرة المكبوتة المثقلة بركام الانحراف والتقليد والألفة، ويجعلها تتدبر، وتستجيب لداعي الفطرة، ويستثير العقل ليفكر في علة الخلق وغاياته ومصائره، وليشك – على الأقل- في ما ورثه في تصور وطيء و رؤية محدودة. يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الأعراف: 185﴾، ويقول سبحانه: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يونس: 101﴾، ويقول عز من قائل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿العنكبوت: 19﴾.

إن هذه الدعوة المتكررة إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض، لكفيلة أن تؤتي أكلها، وأن تهدي السبيل، وأن تفتح البصائر والأبصار ما وجدت استجابة. وهي لا تثير عقول أولي الألباب فقط، بل إن كل واحد تعطيه حسب درجة استجابته لها، وتفاعله بها وصدقه معها، فهذا تهدي فكره، وذاك تقوم تصوره، وذلك ترشد نظره، ورابع تحرك فطرته الخامدة، لتستجيب وتمضي متناسقة منسجمة مع حركة الكون الكبرى، يقول

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 6، الجزء 27، ص 3395.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و في هذا السياق يقول "إدوارد كار":« التاريخ هو النضال المديد للإنسان -عبر استخدامه عقله- كي يفهم بيئته ويفعل فيها. ولكن الفترة الحديثة وسعت النضال بطريقة ثورية. فالإنسان يسعى الآن لكي يفهم ولكي يفعل، ليس في بيئته فحسب وإنما في نفسه كذلك. وقد أضاف ذلك، إذ صح التعبير بعدا جديدا إلى التاريخ. إن العصر الحالي هو أكثر العصور نزوعا إلى التفكير بصورة تاريخية، وهو يمعن النظر بحماس في الفجر الذي جاءه، أملا في أن تضيء إشاعته الخافتة الظلمة التي يتجه إليها. وبالعكس فإن مطامحه وقلقه بالنسبة للطريق المنبسطة أمامه يشحذ همته ويقوي من عزمه.» ①

ويبدو أن السيد "إدوارد كار"، كان واقعا تحت، تأثير روح "المركزية الأوروبية" التي لا ترى الإنسان إلا في صياغته الأوروبية و لا ترى التاريخ إلا ما كان من التاريخ الأوروبي.

ولو كان منصفا لما قال: "إن العصر الحالي هو اكثر العصور نزوعا إلى التفكير بالطريقة التاريخية"، ذلك لأن التاريخ يشهد أن أكثر العصور نزوعا إلى التفكير بطريقة تاريخية هو العصر الذي انبثق فيه نور الإسلام، بحيث صار مفهوم التاريخ فيه أنه مرآة ينعكس عليها المستقبل واضحا جليا، أو بصورة أقرب إلى الجلاء والوضوح.

فهذا الرسول ﷺ يرد على صاحبه-وقد سأله متعجبا:"أراك شبت يا رسول الله":« شيبتني"هود" وأخواتها.» ② وليس في سورة "هود" سوى الحديث عن مصارع ستة حضارات، وهلاك ستة مجتمعات إنسانية، كل واحد منها حصده انحراف ما عن سنن التاريخ. فكان ﷺ يخاف أن تقع أمته فيما وقعت فيه هذه الأمم، فتهلك وتصير عبرة في التاريخ.

و هل يوجد كذلك نزوع إلى التفكير بطريقة تاريخية أفضل من نزوع الإمام "علي" ﷺ وهو يوصي ابنه "حسن":« أي بني .. إني وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى غدوت كأحدهم، بل كأني بما انتهى إلي أمورهم، قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره.» ③

وقوله كذلك يعظ ابنه: « أحي قلبك بالموعظة، وأعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين، و سر في ديارهم وآثارهم فانظر فيما فعلوا، وعما انتقلوا، وأين حلوا ونزلوا، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة وحلوا ديار الغربة وكأنك عما قليل قد صرت كأحدهم.» ④

وأما قوله: "والإنسان الحديث يعد ذاته على درجة لم يسبق لها مثيل"، فهو ليس علميا بالكامل، ذلك أنه قد سبقت عصور عرف الإنسان فيها نفسه أكثر من هذا العصر.

ولكن ما يمتاز به هذا العصر، هو أنه أكثر العصور محاولات لفهم الإنسان، نتيجة للتأزمات النفسية

---

① إدوارد كار، المرجع السابق، ص 154.

② أخرجه الترمذي

③ الإمام علي بن أبي طالب: نهج البلاغة – ص 556

④ الإمام علي بن أبي طالب: نهج البلاغة– ص 555

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و الإحباطات الروحية، والأزمات الاجتماعية التي أدت إلى حروب طاحنة، وهذا كله أدى بالعلماء إلى محاولة فهم الإنسان وطبيعته، و محتواه الداخلي، و القوى الخفية التي تحركه، وأي وعي بالذات يتفرد به هذا العصر قياسا بالوعي الشامل الذي قدمه القرآن منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرن؟! إنه وعي أقتحم على الإنسان حتى مجاهل ضميره ومكنونات نفسه، و أضاء فيه كثير من الساحات التي كان يجهلها كل فرد عن ذاته. أين هذا من عصر يطلق فيه أحد كبار المفكرين المشتغلين بمعرفة الإنسان، يطلق فيه مقولته التي صارت أشهر من نار على علم : "الإنسان ذلك المجهول". في الوقت الذي كان فيه سلف هذه الأمة يرددون مقولتهم: "اعرف نفسك تعرف ربك".

و ما تكاد معرفة العصور المتأخرة تختلف في معرفة الإنسان عن العصور المتقدمة إلا في الجانب الت... ي والبيولوجي، أما المعرفة بالإنسان ككيان روحي متسام، ذي وظيفة مقدسة، أسمى من أن تحصر في التكاثر وتحصيل لقمة الخبز، فإنهم لا يختلفون في شيء تقريبا عن تصورات الجاهلية الأولى، التي جاء الإسلام ليعريها ويكشف تهافتها.

فجاء القرآن الكريم ليسفه هذا المنطق و يكشف عنها هشاشة هذا الخطاب، يحلل هذا التصور بأسلوب يهز ويلفت بما فيه من الاستنكار الواضح والاستهجان الجلي، ولما فيه من التهديد الخفي: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ «القيامة: 36». أي هكذا متبطلا، متجردا من أية غاية يسعى إليها، وبلا وظيفة يؤديها ويجاز عليها، وبلا مصير ينتهي إليه!.. وبلا حكمة مدبرة دقيقة تصرف شؤونه وشؤون الخلق من حوله، وبلا نواميس تبارك في سعي من يفهموها ويسخروها، وتردع من يعاكسوها ويحاولون القفز عليها والتملص منها؟!. وما ذاك إلى كل الذي يميز الإنسان عن الحيوان.

يقول "سيد قطب": « و الذي يميز الإنسان عن الحيوان هو شعوره باتصال الزمان و الأحداث والغايات، وبوجود الهدف والغاية من وجوده الإنساني، ومن الوجود كله من حوله، و ارتقاؤه في سلم الإنسانية يتبع نمو شعوره هذا وسعته، ودقة تصوره لوجود الناموس، وارتباط الأحداث والأشياء بهذا الناموس. فلا يعيش عمره لحظة لحظة، ولا حادثة حادثة، بل يرتبط في تصوره الزمان والمكان، والماضي والحاضر والمستقبل، ثم يرتبط هذا كله بالوجود الكبير ونواميسه، ثم يرتبط هذا كله بإرادة عليا خالقة مدبرة، لا تخلق الناس عبثا ولا تتركهم سدى.

وهذا هو التصور الكبير الذي نقل القرآن الناس إليه منذ ذلك العهد البعيد. نقلة هائلة بالقياس إلى التصورات السائدة إذ ذاك وما تزال هائلة بالقياس إلى سائر التصورات الكونية التي عرفتها الفلسفة قديما وحديثا.» ①

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 6، الجزء 29، ص 3774.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- **الفعالية :**

إن فعالية الإنسان، تكون ردة فعل، إذا كانت محكومة أو ناتجة عن معوق معترض، أو مشكلة حياتية قائمة يسعى إلى تجاوزها. وهي تكون في أقصى تقدير لها مساوية لقوة المعوق المعترض، أو المشكلة الحياتية. وهي تزول بزوال السبب الداعي إلى تحريضها. هذه هي الفعالية الطبيعية، أو الغريزية. أما الفعالية الحضارية فهي تلك التي ترتبط بأهداف وغايات مستقبلية، يدفع نحوها تحريض روحي متسام، وعلى مستوى الأهداف والغايات يكون التحريض وتكون الفعالية، وتكون الحضارة.

فالذي يكون تصوره للحياة سقيما، ورؤيته لوجوده هزيلة، فإنه ينتج طاقة بحجم ذلك. أما الذي يكون تصوره متساميا وشعوره لذاته سويا وشعوره بوظيفته كبيرا ومهما فإن ذلك التصور ينبغي له أن يتوزع توترا في كل كيانه، في الضمير وفي الشعور، وفي التفكير والتروع، وفي الأخلاق، وفي كل شيء. وكل ذلك ينعكس على المحيط الإنساني والطبيعي من جراء الفعالية الميدانية.

و لا يكفي التصور والشعور وحدهما إذ لا بد أن يتحول إلى خطاب حضاري تغييري، له قيمه ومفاهيمه، ومفرداته تتفاعل فيما بينها، لتشكل نسيجا معرفيا ، ينجم عنه ما يشبه "برنامج عمل"، من أجل التغيير الشامل في النفس والمجتمع والوجود. ذلك أن « الفعالية في جوهرها منهج فكري، وليس مسألة وسائل كما اعتقد العالم الإسلامي، حين اتجه إلى البحث عن الوسائل المادية، بينما الأمر يتعلق بنمط الثقافة، وما تحدده من مناهج وتوفره من أفكار وجو فكري يفعل الأداء الاجتماعي للفرد والمجموع.» ①

وأول مظاهر الفعالية في القرآن الكريم هو لما يشعر الإنسان أنه مكلف من طرف الله سبحانه بإقامة العمران في الأرض والشهادة على الناس، وأنه سوف يجاز على ذلك. وثاني مظهر من مظاهرها هو حين يستقر في روحه وفكره أن كل ما يحدث في الكون يكون ثمرة سعيه وكسب يمينه، فلا توجد قوى أخرى تملي عليه ما يعمل، أو تفسد عليه عمله، اللهم إلا السنن التي يجب أن يفهمها ليسخرها لخدمة رسالته الوجودية الكبرى. حتى فكرة "القضاء والقدر" التي صارت حجة في يد المنهزمين والمستسلمين، كانت بالأساس أقوى محرض على التحدي والمجاهة، والحيوية والانطلاق والفعالية: يقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:51]، فكل ما يعترض سبيل الإنسان في طريقه إلى ربه هو خير له لأنه من عند الله. وقد جعل القرآن الكريم من الآلام والمحن معالم للطريق التي تفضي إلى الله سبحانه، وإلى النعيم الأخروي قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:155-156].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① بدران بن مسعود بن الحسن: الظاهرة القرآنية في الوعي الحضاري، أنموذج مالك بن نبي، ص152.

و هو بهذا لا يقدس الألم، كما هو في بعض الديانات، إنما يشـــل فيه طاقته الكابحة والمدمرة أحيانا، ويجعل منه ظواهر أليفة بالنسبة للإنسان، بل ضرورية له في مسيره نحو الله، فيصير الألم طاقة محـــرضة، تزيد في فعالية الإنسان، لأنه يستثير فيه قوى المقاومة من أجــل التجاوز. يقـــول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿آل عمران: 172﴾. هؤلاء هم أولئك الذين دعاهم الرسول ﷺ إلى تعقب "قريش" بعد معركة "أحد" فاستجابوا له، وهم متخنون بجراح المعركة، ومثقلون بمرارة الهزيمة .. استجابوا ومضوا مع الرسول ﷺ، وكأنهم ما تعبوا ولا كرّو ولا فروا !..

« وينظر الإنسان في هذه الصورة، وفي هذا الموقف، فيحس كأن كيان الجماعة قد تبدل ما بين يوم وليلة. نضجت. وتناسقت. واطمأنت إلى الأرض التي تقف عليها. و انجلى الغبش عن تصورها. وأخذت الأمر جدا كله. وخلصت من تلك الأرجحة والقلقة التي حدثت بالأمس فقط في التصورات والصفوف. فما كانت سوى ليلة واحدة هي التي تفرق بين موقف الجماعة اليوم وموقفها بالأمس. والفارق هائل والمسافة بعيدة. لقد فعلت التجربة المريرة فعلها في النفوس. وقد هزتها الحادثة هزا عنيفا، أطار الغبش، وأيقظ القلوب، وثبت الأقدام، وملأ النفوس بالعزم والتصميم.» ①

هذا مثل قرآني واحد سقناه للتدليل على قدرة التصور والمبدأ -بما يرسمه من غايات سامية- على التحريض وتجديد الطاقة والفعالية. وتوجيه الجهد إلى التحدي من أجل الاستمرارية، وتحمل المشاق والآلام، لأنها تثبت الكفاءة، وتحرر كوامن الطاقة الخامدة.

و إن أخطر ما يتربص بالفعالية هو أن تتحول قيمها المحرضة وأفكارها إلى ما يشبه "التراث الثقافي"، فقد صلته بالواقع، يقبل عليه الناس لدغدغة المشاعر، وإثارة الحماس إلى حد معين، والتغني بالماضي المجيد. كما هو واقع للأمة الإسلامية التي ما أغنى عنها ماضيها المجيد، وهي تتعثر في حاضرها النكد. هذا الحاضر الذي تحدد ملامحه وتوجهاته فعالية الإنسان أو الجماعة الإنسانية، وعلى قدر الفعالية تكون وجهة المجتمع، ذلك « أن الوعي التاريخي بالحاضر هو الذي يحدد توجهنا إما إلى الماضي أو إلى المستقبل... فإذا كان الحاضر مثمرا ومبدعا دخل في علاقة جدلية مع المستقبل، وفتح الطريق إليه، ودخل كذلك مع الماضي في علاقة جدلية وأخذ منه ما يدفعه لإغناء الحاضر والتوجه للمستقبل. ولكن إذا كان الحاضر عقيما وبائسا وخاليا من الأفعال المبدعة، فإنه يتخذ من الماضي بديلا عن الحياة في الحاضر. وبعبارة أخرى لن يكون هناك أي معنى يمكن إضفاؤه على الحاضر إلا بالرجوع -أو إذا شئنا بالهروب- إلى الماضي (...) وبفراغ الحاضر من القيمة يفقد ديناميكيته ويستمد مقوماته من الماضي، وتفقد تجربة الزمن الحاضر معناها. فإذا توقف أحد وجوه الزمان عن الوجود، سيتوقف جريان الزمان، ولن تكون هناك إذن حياة طبيعية، أي يفسد الزمان و يفسد معه الزمان.» ②

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 1، الجزء 04، ص 521.

② د. عطيات أبو السعود : الوعي التاريخي بين الماضي والمستقبل... (النهضة الأوروبية نموذجا)، مجلة عالم الفكر، المجلد 29، العدد 04، أبريل- يونيو 2001، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص91.

ورغم هذا، فإن النزعة التفاؤلية في التصور الإسلامي قادرة على أن تمد الإنسان الذي تعثر بكل مقومات النهوض والانطلاق، ليقف صامدا في وجه التحديات بفعالية، يستمدها من اعتماده على الله، وسعيه من أجل رضاه شاكر باليسر وصابرا على العسر، فلا تبطره النعمة والرخاء، ولا تهده الشدائد والابتلاء. وبهذا تتساوى في سبيل الله ما يبدو للناس أنها متناقضات.

المبحث الثالث: مسألة الوعي التاريخي في القرآن الكريم

إذا كان التاريخ هو أن يتذكر الإنسان ماضيه، فإن الرؤية التاريخية هي أن يتذكر الإنسان عملا مضى، وهو يباشر عملا حاضرا، لما بينهما من تشابه واتفاق. فيصير الماضي بأحداثه دليلا إلى إتقان حركة الحاضر. أو موضعا للتفكر في كيفية تشابه الأحداث.

وإذا كان التاريخ عند "إدوارد كار" يبدأ « حين يبدأ الناس بالتفكير بانقضاء الزمن، ليس بمعايير السياقات الطبيعية -دورة الفصول ، أمد الحياة البشرية- وإنما بوصفه سلسلة من الأحداث المحددة التي ينخرط الناس فيها، ويؤثرون فيها بصورة واعية. إن التاريخ بكلمات "بوركهاردت"(BURKHARDT) هو "انقطاع مع الطبيعة يحدثه استيقاظ الوعي"» ①

و لن يكون هذا إلا عندما يشعر الإنسان أنه غير الطبيعة التي حوله، وأنه مركز الكثير من الوقائع والأحداث، وينشأ الوعي التاريخي عندما يدرك الإنسان وجود علاقة جدلية بين الزمان بأبعاده الثلاث، وبين حركته فيه. فهو لا يتحرك في حاضره من أجل مستقبله إلا على هدى من ماضيه، الذي ذكره به تشابه الحركة أو الملابسات المحيطة بالحركة. يقول الدكتور "عطيات أبو السعود": « لا شك أن هناك علاقة جدلية بين الماضي والحاضر. فإذا كان الوعي التاريخي بالحاضر هو الذي يحدد -كما سبق القول- موقفنا من الماضي والمستقبل. فإن النظرة إلى الماضي تحدد هي أيضا الموقف من الحاضر وترسم ملامح المستقبل. وإذا كان الماضي هو أنطولوجيا "الوجود الذي لم يعد موجودا" والمستقبل هو "الوجود الذي لم يأت بعد" ، وكلاهما "غير موجود هنا الآن" أو هما "اللاوجود في الحاضر"، فالغرض المعرفي لوجودها يكمن فقط في أن العقل يتذكر الماضي ويتوقع المستقبل. أما الحاضر فهو أنطولوجيا الوجود الحقيقي، أو وجود الموجود الفعلي، والقادر على استدعاء الماضي وتوقع المستقبل.» ②

و نظرا لتداخل الزمن التاريخي فيما بينه، فإن القرآن الكريم يبرز ذلك في صيغه التعبيرية، حين يعبر مثلا عن المستقبل بصيغة الماضي أو يعبر عن الحاضر بصيغة الماضي كذلك :

① إدوارد كار: ما هو التاريخ، ص 154.

② د. عطيات أبو السعود : الوعي التاريخي بين الماضي والمستقبل، ص 90.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يقول الله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:1]، ويقول سبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: 137].

يقول "سيد قطب": « و تنسيقا للجو الحاسم يعجل السياق بعرض الصفحة الأخرى -صفحة استخلاف المستضعفين- ذلك أن استخلاف بني إسرائيل -في الفترة التي كانوا أقرب ما يكونون فيها إلى الصلاح ، وقبل أن يزيغوا فيكتب عليهم الذل والتشرد- لم يكن في مصر، و لم يكن في مكان فرعون وآله. إنما كان في أرض الشام، وبعد عشرات السنوات من حادث إغراق فرعون -بعد وفاة عليه موسى عليه السلام وبعد التيه أربعين سنة، كما جاء في السورة الأخرى- ولكن السياق يطوي الزمان و الأحداث .» ①

هذا من جانب جدلية الأزمان الثلاث وتداخلها، مشكلة قاعدة الوعد التاريخي لدى الإنسان، الذي سوف يأخذها كمجالات للعمل والحركة، وليس مجالات زمنية مجردة.

وقد ظل التاريخ (أو الماضي) في القرآن الكريم، هو المدرسة الأولى للإنسانية المتطلعة نحو مستقبل أفضل، ففيه إحالات على كل المواقف والحالات، وفيه توضيح لمصائر و مآلات كل المجهودات الإنسانية بخيرها وشرها، تلك المجهودات التي لا تختلف عن المجهودات الحاضرة إلا من حيث المظهر والأداة المتخذة لذلك، ومن هذا المنطلق والتصور « غدا القرآن والسنة يغذيان على مهل وعي المسلم بعمقه التاريخي، من خلال القصص التي تؤرخ للأمم الماضية وأنبيائها، ومواقفها منهم باعتبارهم أنبياء، وحالات ازدهارها وانحطاطها وفنائها. ومن

هذا الوعي أدرك المسلم أنه بإسلامه وجهاده اليومي -بالسيف والكلمة- في داخل الجماعة الإسلامية التي تبني نفسها بعين الله وعلى يد رسول الله، وفي مواجهة المشركين... أدرك بوضوح كامل أنه بعمله اليومي هذا يصنع تاريخا موصولا بما وعاه من تاريخ الأمم الماضية كما تعلمه من الكتاب والسنة. وهكذا وجد الوعي التاريخي لدى الإنسان المسلم.» ②. وبهذا يصير الإنسان واعيا و رساليا ، وخليفة بحق.

و قد ورد في الحديث النبوي الشريف « إن العبد بين مخافتين : بين أجل قد مضى، لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي، لا يدري ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشيب قبل الهرم، والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستغيث، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار»

و إن الإنسان الذي يتمثل هذه القيم والمفاهيم، وتسري في ضميره وفكره وروحه، يصير يقظا و واعيا، وحساسا اتجاه مسألة الحياة في أبعادها المختلفة، وهي تنفتح على ماض انتهى، وعلى مستقبل غامض إلى حد ما، وعلى الآخرة التي يجني فيها الإنسان ما زرع، ويبوء فيها بما كسبت يداه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 09، ص 1360.

② محمد مهدي شمس الدين: حركة التاريخ عند الإمام علي، ص 19.

بين التعصب للماضي، والرؤية التاريخية :

و لئلا يلتبس الأمر وتختلط المفاهيم والقيم، لابد من التفريق بين "الوعي التاريخي" وبين "النظرة الماضوية"، أو "التعصب للماضي" كونه من صنع الأباء والأجداد، بحيث يغدو لكثير من الأمم والشعوب ثوابت ومسلمات، لا ينبغي حتى التفكير فيه وإثارة الأسئلة حوله. إن هذه النظرة الماضوية، لكل ما هو قديم، بكل مكوناته العقدية والأدبية والسياسية وغيرها، كان عقبة كأداء اعترضت سبيل الأنبياء على مر التاريخ وهم يؤدون رسالتهم التنويرية بين الناس. بل إن الأمر صار سنة، فطبيعي جدا أن تواجه حركة الأنبياء التحديدية التنويرية. بهذه الرؤية الظلامية الرجعية: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: 22- 24].

« وهي قولة تدعو إلى السخرية، فوق أنها متهافتة لا تستند إلى قوة، إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد، بلا تدبر ولا تفكر ولا حجة ودليل. وهي صورة مزرية تشبه صورة القطيع يمضي حيث هو منساق، ولا يسأل: إلى أين نمضي؟ ولا يعرف معالم الطريق!. والإسلام رسالة التحرر الفكري والانطلاق الشعوري لا تقر هذا التقليد المزري، ولا تقر محاكاة الأباء والأجداد اعتزازا بالإثم والهوى. فلا بد من سند، ولا بد من حجة، ولا بد من تدبر وتفكير، ثم اختيار مبني على الإدراك و اليقين. و في نهاية الجولة يعض عليهم مصائر الذين قالوا قولتهم تلك، واتبعوا طريقهم في المحاكاة والتقليد، وفي الأعراض والتكذيب، بعد الإصرار على ما هم فيه، على الرغم من الإعذار و البيان.» ①

و قد كان الأنبياء عليهم السلام يحيلون الناس على قطاع عريض من تاريخ السابقين ليس بغرض التسلي أو التغني والتمجيد الأجوف للواقع والأحداث، وصانعي الوقائع والأحداث. إنما لما في التاريخ من عبر وعظات، وبينات وبصائر، تساهم بالنصيب الأوفر في تشكيل الوعي التاريخي، الذي تستعين به الجماعة البشرية على تجاوز التحديات المتعددة، التي تواجهها بها الظروف والقوى المختلفة، على طول مسيرتها الحضارية، وهي تنشد الأحسن والأرقى.

و ليس في مقدور العبر و العظات أن تفعل شيئا، إلا إذا وجدت من بني الإنسان قلبا زكيا، وعملا ذكيا، وقراءة واعية متبصرة، غير متأدلجة وغير انتقائية. وهذه القراءة الواعية المتبصرة غير المتأدلجة وغير الإنتقائية، هي التي تنتج الاعتبار الممنهج أي "الوعي التاريخي".

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 25، ص 3182.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و إن الباحث في القرآن الكريم ليجد أن المستكبرين -كونهم طبقة رجعية محافظة- يتعصبون للتاريخ والماضي تعصبا أعمى، ويذكرون الناس ببطولات الأباء وأمجاد الأجداد، وهم لا يدخرون أي جهد في تذكير الناس بذلك وربطهم به، بصفته مثلا أعلى لا يمكن تغييره وتجاوزه، ولا يمكن القبول ببديل عنه، ولو كان اهدى وأجدى وأنفع.

يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ «البقرة: 139»

ويقول سبحانه: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ «المائدة: 104».

فتاريخ الأباء في منطق المستكبرين نموذج وأسوة وقدوة، وليس بعد قراءته وتحليله واستنباط العبر منه والدروس. انه هو كذلك في صورته الخام!. حسبه أن يقمع أي تطلع أو أية رغبة في التغيير، حسبه أن يبقى أداة فكرية وروحية قاهرة لاستخفاف جماهير المستضعفين، فتبقى الأوضاع ساكنة مستقرة بما تحفظ لهم المصالح المادية و الامتيازات الاجتماعية و السلطوية.

و لا خلاف بين منطق هؤلاء ومنطق القوى المحافظة المنتفعة بالأوضاع المنحرفة، والسلطة المستبدة التي تسند استبدادها وتجبرها بما يسمى بـ"الشرعية التاريخية"، التي هي امتداد لما يسمى بـ"الشرعية الثورية". ويتجلى منطق هؤلاء -حسب رأي "محمد حسين فضل الله"- من خلال:« بعض الدراسات الفكرية أو الإتجاهات الدراسية التي تحاول تصوير التاريخ في تراثه وحضارته وشخصيته، و قوته الحركية بالصورة التي تضعه في أعلى مستوى من القمة بطريقة توحي باستحالة مجاراته، فضلا عن التقدم عليه .. لتتحول الأمة في حاضرها بهذه الطريقة الإيحائية إلى ذيل للتاريخ، و اجترار لمحتواها، من غير أن تضيف إليه شيئا جديدا. أو تتقدم عليه خطوة واحدة. وتتنوع -على ضوء ذلك- الأساليب التي تضخم أحداث هذا التاريخ وشخصياته إلى ما يشبه "التدرن العضوي". و قد تمتد بعيدا إلى اعتبار التاريخ مقدسا معصوما، يعلو على النقد والاتهام حتى يتطور الأمر إلى ما يشبه التأليه (...) وهذا ما نلاحظه في الدراسات الأخرى التي تربط المجتمع بالزهو التاريخي المجرد، الذي يحول التاريخ إلى طبل منفوخ، لا تسمع منه إلا الرنين. كما نلاحظه في الدراسات الأخرى التي تنسى أخطاء التاريخ، وتثير أخطاء الحاضر، حتى يظل الإنسان يعيش في غيبوبة تاريخية صوفية، خاشعة حالمة، بعيدة عن الواقع، أو كافرة بالواقع .. مما يؤدي إلى الضعف الساحق الذي يفقد الإنسان فيه الثقة بنفسه وقدرته على الإبداع و التركيز، عندما يتحول إلى عيون مفتوحة على الماضي، مغلقة على الحاضر.» ①

بهذه الأساليب يخرج التاريخ عن دائرة الشروط الموضوعية، ويصير أداة تعجيزية، وطاقة معرقلة، بدل أن يكون طاقة دافعة وأداة لتيسير الواقع. و يصير مبررا للوضع القائم بدل أن يكون محرضا على تغييره وترقيته، ويصير يشبه المخدر، وكان أولى به أن يكون منبها حيويا. وهكذا يفرغ من محتوى الوعي والتحريض فيه، ليصير نقيض الوعي و النباهة تماما.

① محمد حسين فضل الله: الإسلام ومنطق القوة، الدار الإسلامية، بيروت، ط(3)، 1986، ص76_77.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لكن دعوة الأنبياء إلى قراءة التاريخ، والسير في طلب وقائعه وأحداثه، هي من أجل تفكيكه وتحليله، واستنباط سننه التي تحركه، وتوجهه، وتصعد مسيرته نحو الكمال. ولهذا يجعل الأنبياء من التاريخ مادة للتعلم والتعقل والتفكر والتدبر، ومادة للهداية عندما تصير المادة التاريخية في شكل منهج وتصور، ورؤية عامة، ونسق جدلي من السنن المبثوثة في النفس والطبيعة والمجتمع. وهذا كله -بعد الإيمان ومتطلباته- ينبني عليه التصور العام لحركة التغيير ، أي الاستخلاف الإنساني.

و بناء على هذا يؤكد الدكتور "عماد الدين خليل" « أن المنهج الجديد الذي يطرحه القرآن الكريم يؤكد أكثر من مرة على أن التاريخ لا يكتسب أهميته الإيجابية إلا بأن يتخذ ميدانا للدراسة والاختبار، نستخلص منه القيم والقوانين، التي لا تستقيم أي برمجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها، وليس الأسلوب الفني في العرض سوى جسر تحمل عليه العروض والنتائج النهائية لأي ممارسة في حقول التاريخ. » ①. أما الأستاذ "الفضل شلق"، فيرى أن « الوعي التاريخي بمثابة مجمل لتراكم تاريخي من الأفكار و "المعارف" التي تترابط فيما بينها لتكوين صورة عن الذات والعالم، وموقف الإنسان من كل منها. يحتل الوعي التاريخي حيزا هاما في مجمل وعي الأمة الذي يشمل "معارف" أخرى، دينية وعلمية وفنية وغيرها. بل يمكن اعتباره مجمل سيرورة هذه المعارف حين تنصب في إطار يعيد صياغتها، ويحولها إلى ما يشبه "برنامج عمل" ينبعث العمل البشري منه انبعاثا تلقائيا » ②

و لن يصير "الوعي التاريخي" وعيا حقيقيا إلا إذا كان ميدانيا عمليا، ولن يستطيع أن يكون كذلك إلا إذا سبق وكان قراءة علمية ذكية متبصرة غير منحازة -لأن الانحياز قد يكون تزييفا للحقائق وتحريفا للواقع-. ولعل الله سبحانه وتعالى في أول ما أنزل من القرآن، لا يأمرنا بعملية القراءة فقط، إنما يأمرنا بكيفية القراءة و منهجها، و هو المنهج الذي لا يتمذهب إلا للحق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: 1]. و من هذا الأمر الرباني بالقراءة على منهج غير منحاز إلا للحق، نستنتج « أن تكوين وعي تاريخي أمر لا ينفصل عن الوعي النظري عموما. ليست المسألة بمجرد دراسة للتاريخ لتكوين معرفة من أجل اكتشاف العبر. فهذه مسألة تقنية تأتي كنتيجة لأمر أهم وأعم وأشمل. إن احتقارنا للنظرية والتفلسف يجعلنا غير قادرين على حل الإشكاليات الكبرى في تاريخنا وحاضرنا، كما يجعل المستقبل أمرا مشكوكا فيه.» ③.

و من هنا قد تختلف القراءات للتاريخ حسب وظيفة الأشخاص، وحسب غاياتهم وأهدافهم، فمما لا شك فيه أن قراءة المؤرخ تختلف عن قراءة الفقيه ، وتختلف عن قراءة رجل الشرع، وتختلف عن قراءة الأديب، وتختلف عن قراءة الباحث في علم الأجناس، وغير ذلك من القارئين الذين يفتحون صفحات التاريخ،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① د. عماد الدين خليل: حول تشكيل العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا 1981، ص67.

② الفضل شلق :حول الوعي التاريخي، مجلة الاجتهاد، العدد 22/ السنة 06/ 1414 هـ، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت،ص 6

③ م.ن ، ص 14.

و ينفتحون على أحداثه. « أما الرائد الحضاري رجل الرسالة والعقيدة، رجل الدولة، فهو يبحث ليجد في التاريخ جذور المشكل الإنساني، ويتقصى جهود الإنسانية الدائبة في سبيل حل هذا المشكل بنحو يعزز قدرة الإنسان على التكامل الروحي ــ المادي، كما يعزز قدرته على تأمين قدر من السعادة، مع الحفاظ على الطهارة الإنسانية.» ①

بين العبرة و الوعي التاريخي :

ربما يكون مصطلح العبرة كما هو في مدلوله اللغوي العربي، وبمحتواه الفحوي القرآني، ربما يكون أوسع وأشمل وأوفى للغرض من مصطلح "الوعي التاريخي". لأن هذا المصطلح الأخير لا يشي بفكرة التجاوز الزمني، او فكرة استشراف المستقبل والعبور إليه. بينما يحمل مصطلح العبرة كل هذه الدلالات ويوحي بها. فـ"العبرة" تحمل معنى العبور من زمان إلى زمان ومن حالة إلى حالة، ومن وضع إلى وضع، وتحمل معنى التفسير والإستكناه، والبحث عن الدلالة الخفية وراء اللغة والظواهر. وقد ورد في "لسان العرب":« عبر الرؤيا يعبرها عبرا وعبارة، فسرها وأخبر بما يؤول إليه أمرها (...). والعابرة الذي ينظر في الكتاب فيعبره، أي يعتبر بعضه ببعض حتى يقع فهمه عليه (...) وقيل: أخذ هذا كله من العبر، وهو جانب النهر (...) ويقال فلان في ذلك العبر، أي في ذلك الجانب، وعبرت النهر والطريق، أعبره عبرا وعبورا إذا قطعته من هذا العبر إلى ذلك العبر. فقيل لعابر الرؤيا عابرا لأنه يتأمل ناحيتي الرؤيا فيتفكر في أطرافها (...) العابر : الناظر في الشيء ، والمعتبر : المستدل بالشيء على الشيء.» ②

أما في « المفردات » للراغب الأصفهاني فقد ورد: « والاعتبار والعبرة: بالحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد.» ③

و قد ورد مصطلح العبرة في القرآن الكريم في مواطن كثيرة منها على سبيل المثال: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ﴿النور: 44﴾. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ ﴿النازعات: 26﴾.
﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يوسف: 111﴾.

إذن فوظيفة القصص في القرآن، هي للعبور من الحاضر إلى المستقبل، وللاستدلال بالماضي على الآتي الذي هو في حكم الغيب، وذلك عندما تقع نصوص التاريخ وقصصه بين يدي أولي الألباب والأبصار، الذي يقرأون متجردين للحق، فيستنبطون العبر والعظات، التي تفتح للناس الطريق إلى المستقبل الواضح المعالم في خطوطه العامة. وهكذا فقط يأخذ مصطلح العبرة مدلوله الحقيقي، ومحتواه الصحيح، الذي انحسر -مع الأيام- في مدلول أخلاقي ضيق، وذلك تحت ضغط ظروف ومعطيات وأسباب.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① محمد مهدي شمس الدين: حركة التاريخ عند الإمام علي، ص32/31.
② ابن منظور لسان العرب: مادة "عبر".
③ الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن: مادة "عبر".

ومن هذه الرؤية يؤكد "تقي المدرسي" : « وهذا بالضبط معنى ما يقال التاريخ عبرة: أي طريقة عبور من المجهول إلى المعلوم. إذ أن التجربة البشرية الماضية تعطي التجارب التالية كثيرا من الوضوح والبلورة. بالرغم من أنها لا تتكرر بالضبط. ولا تعني العبرة أن التاريخ يفسر لنا كامل العوامل والدوافع والأسباب التي تشترك في صنع أحداث الحياة ن بحيث لا تحتاج بعدها إلى أي من العلوم البشرية، كلا بل إنها تلقي ضوءا على تجارب الإنسان المعاصر، من خلال بيان المشابهة، وتعطي الإنسان –بالتالي– بصيرة في الحياة، حيث يفتح العقل على الخطوط العريضة التي تسير عليها حياة البشر.» ①

بين البصيرة والوعي التاريخي :

و يتقدم القرآن الكريم خطوة حاسمة في تقرير وظيفة التاريخ بين الناس، فيعتبره "بصيرة"، أي أداة للرؤية و الإبصار وتحديد مواقع الخطى. فالتاريخ لا يعبر بالناس من الحاضر إلى المستقبل فقط، ليتركهم هناك على ضفة الغيب حائرين، إنما يضيء لهم المجال الذي يتطلعون إليه، ويجعلهم يرون المستقبل باعتباره المحرك لكل نشاط إنساني، لأن النشاط التاريخي، نشاط غائي كما سلف القول. وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ «الأنعام: 104»، وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ «الأعراف: 203»، وقال جل من قائل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ «القصص: 43».

من خلال هذه النصوص القرآنية الكريمة نستنتج أن التاريخ –باعتباره بصيرة– يوضح ويكشف ويهدي إلى التي هي أقوم، ويحفظ من الانحراف ويقي من الزلل، لأن الرحمة وقاية.

وقد ورد في "لسان العرب" عن معنى "البصيرة"« باصرته إذا أشرفت تنظر إليه من بعيد (...) البصيرة = الفطنة. (...) تقول العرب: أعمى الله بصائره: أي فطنه (...). والبصيرة = العبرة. يقال أما لك بصيرة في هذا ؟ أي عبرة تعتبر بها. وأنشد:

"في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر". أي :عبر. والبصر : العلم (...) التبصر = التأمل والتعرف، والتبصير= التعريف و الإيضاح.(...) و تبصر في رأيه تبين ما يأتيه من خير و شر.(...) والبصيرة = الشاهد.» ②

إذن فالتاريخ رؤية مستقبلية، واستشراف لمعالم المستقبل وشاهد عليها. هذا فوق كونه فطنة وعلما ونباهة، وتوضيحا لكل إشكال قد يعترض سبيل الحياة الإنسانية. فكأن التاريخ –بهذه التحديدات الدقيقة– هو المرآة الصقيلة التي ينعكس فيها المستقبل والمصير.

① تقي المدرسي: المنطق الإسلامي، أصوله ومناهجه .. ص 70

② ابن منظور: لسان العرب، مادة "بصر".

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الدين والوعي التاريخي :

لم تعرف البشرية أحدا قبل الأنبياء، حدثها عن التاريخ وعن "أيام الله" وقصص الغابرين، وهي في حالة ارتباط بالحاضر والمستقبل. بل إن تقسيم الزمن وتفصيله لم يظهر إلا مع الأنبياء عليهم السلام الذين عملوا على أن يؤمن الإنسان أنه متميز عما حوله من الطبيعة، وأنه ذو بداية و نهاية، وأجل يقترب منه يوميا. بينما كان الناس يجردون الماضي من أية معنى ومن أية فعالية. وبالتالي يجردون المستقبل من أي معنى كذلك. ذلك أنه على قدر الاهتمام بالماضي يكون الاستعداد للمستقبل.

بل إن فكرة المستقبل تنبني على فكرة الماضي. وهذه الحقيقة يقر بها "إدوارد كار" في كتابه: "ما هو التاريخ؟" إذ يقول:«كان اليهود ومن ثم المسيحيون بعدهم، هم الذين استحدثوا عنصرا جديدا كليا، بافتراضهم وجود هدف يتحرك مسار التاريخ باتجاهه. أي ما يسمى: وجهة النظر الغائية في التاريخ. وهكذا أحرز التاريخ معنى وهدفا. (...) وقد احتفظ علمانيو عصر التنوير، الذين كانوا مؤسسي علم التاريخ الحديث بوجهة نظر الغائية اليهودية المسيحية، غير أنهم علمنوا الهدف، وهذا أمكن لهم أن يبعثوا الطابع العقلاني للمسار التاريخي نفسه، وأصبح التاريخ عبارة عن تقدم نحو هدف كمال وضعية الإنسان على الأرض.» ①

إذن، فقد كان الوعي التاريخي نتاج "الفكرة الدينية"، التي عملت على أن يعي الإنسان ذاته متميزة عما حولها، ويعي امتداده في الزمان، من خلال إدراك غايته والتفكير في مصيره. ليعرف بعد ذلك طبيعة الدور المنوط به في هذا الوجود فهو لم يخلق عبثا و لن يترك سدى. و لم تكن الحضارات المختلفة لتعرف هذه الفكرة عن التاريخ ، رغم اهتمامها بقصص الغابرين ، مختلطة بقوى غيبية وسحرية ووثنية، يجعل تقديم مادة تاريخية تصلح للتحليل والاعتبار أمرا عسيرا جدا. لقد شوهت الوثنيات المختلفة كل الفضاء الإنساني، بماضيه وحاضره ومستقبله، من خلال مزج الحدث التاريخي بالوهم والخرافة. وصراع الآلهة وأشباه الآلهة. وهذه الصورة الشائعة عن التاريخ قديما، هي التي جعلت العرب يعتبرون القرآن الكريم "أساطير الأولين" ولو شاءوا لقالوا مثله، بل أنهم قد استوردوا شيئا من قصص الفرس لمجابهة القرآن الكريم ومنازلته: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿الأنفال: 31﴾، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿النحل: 24﴾.

و رغم هذا الجحود والعناد، فقد قام القرآن الكريم بتطهير التاريخ البشري، وتحريره من قبضة الخرافة والأوهام، وأعطى لأحداثه وشخصياته حجمها الموضوعي بما يتناسب وموضوعية الفعل البشري والقدرة البشرية، وجعله مجالا للتفكر والتبصر و الاعتبار، بعد أن جعله واحدا في جوهره وروحه، وإن اختلفت مظاهره،

---

① إدوارد كار: ما هو التاريخ، ص 125.

لأن الشاهد في التاريخ هو الإنسان، والإنسان واحد في كل زمان ومكان. ومعنى هذا « أن الإسلام قام بتوسيع أفق الوعي التاريخي عالميا، ليشمل كل الأقوام وكل الأمكنة والأزمنة، وقام بتعميق هذا الوعي باتجاه التركيز على الدور الإنساني في الواقعة التاريخية. وهذا التوسع في المدى الجغرافي (سيروا في الأرض)، وهـذا التعمق في وظيفة النفس الإنسانية، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يتيحان تشكلا لوعي تاريخي شمولي وإنساني وتوحيدي وتكاملي.» ①

أهمية التاريخ في تشكيل الوعي التاريخي :

لقد استرشد علماء التاريخ المسلمون بالتوجيهات القرآنية القيمة والمنهجية، وأكبّوا على دراسة التاريخ وكتابة أحداثه ووقائعه، وكل مؤرخ يسعى إلى إثبات العبرة وكشف العظات، وإثارة الوعي لدى الإنسان حتى يتسلح بالمعرفة اللازمة والفطنة الضرورية لتجنب سوء العاقبة والمصير. وكثير من التواريخ كتبت للخلفاء والحكام، حتى يأخذوا منها الدروس لسياسة الرعية وتنظيم حياة الناس، وتقع أعينهم على سير العادلين فيقتدون بها ويهتدون، وعلى سير المتجبرين وما أورثت من مصير، فيتجنبونها وينتهون عنها.

و إن حادثة تاريخية عن فضائل العدل أشد تأثيرا من عشرات الأفكار والتحاليل عن هذه الفضائل والمزايا... ذلك أن النفس الإنسانية تجنح -عموما- إلى المحسوس و المشاهد. ولهذا قلما تجد قيمة من قيم القرآن الكريم إلا ولها مثل واقعي موضوعي يوضحها ويفسرها، ويقرها من أذهان الناس. يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿الإسراء: 89﴾، ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ﴿الروم: 58﴾.

يقول "ابن خلدون" وهو يقسم التاريخ إلى "ظاهر" و "باطن" و"حكمة" ، وكأنه يقصد بـ"الظاهر" الخبر التاريخي كما يقع في أسماع العامة، ويتداول في أسمارها ونواديها، أما "الباطن" فهو العلل والأسباب التي كانت وراء ذلك أما "الحكمة" فهي زبدة التاريخ، وهي المنهج العملي المستخلص من قراءة التاريخ والتفكر فيه، يقول:« أما بعد، فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال وتشد إليها الركائب والرحال، وتسموا إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال وتتساوى في فهمه العلماء والجهال. إذ هو في ظاهره لا يزيد على الأخبار عن الأمم والدول. والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال. و تطرف به الأندية إذا غصها الاحتفال. وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال. وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال. وحان منهم الزوال. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق. وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق. فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق. وجدير أن يعد في علومها وخليق.» ②

① وجيه كوثراني: الوعي التاريخي في النظرة القرآنية ودوره في عملية التغيير مجلة الحوار، ص 37

② عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إذن فالتاريخ عند ابن خلدون -كما سلف القول- واحد في ظاهره -لأنه الحدث التاريخي منقولا، إما كتابة أو مشافهة- أما في باطنه فهو متعدد، لتعدد أغراض تناوله وكيفيات قراءته، وهذا الذي يجعل الأقوال فيه تنمو. وما الأقوال إلا التحاليل والقراءات، والاستنتاجات المختلفة. وأما باطن باطنه فهو الحكمة، التي أوجدته وسيرته وألفت بين قواه المختلفة ومؤثراته الكثيرة. وأفضت به إلى نتيجة ومصير، من خلال القراءة والتفكيك والاستنباط وإعادة الصياغة وفق شبكة متفاعلة من السنن والنواميس التي تزود اللاحقين بالحكمة، باعتبار أن الحكمة هي فن العمل، وليس فن القول، كما استقر في أذهان الناس.

أما "ابن الأثير" في كتابه "الكامل في التاريخ"، فيؤكد كذلك على أهمية الدرس التاريخي ويزدري من يهاجم هذا العلم ويحتقره، لأنه مازال مسكونا بنظرة الجاهلية للتاريخ، التي تعتبره مجرد أساطير الأولين، ويتهمه بأنه ذو نظرة ضيقة سطحية، وفهم ساذج غير عميق. و هو يرى أن الملوك والسلاطين وأصحاب الأمر هم الأولى بالاستفادة من التاريخ و عبره. لأن هؤلاء يرتبط مصير الناس بمصيرهم إن عدلوا و إن جاروا، إن ساروا على سنة حميدة، أو نهجوا سنة مذمومة.

يقول "ابن الأثير" وهو يعدد فوائد التاريخ:« ومنها: أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهي إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان، ورأوها مدونة في الكتب يتناقلها الناس، فيرويها خلف عن سلف، ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر وقبيح الأحدوثة وخراب البلاد وهلاك العباد، وذهاب الأموال، وفساد الأحوال، استقبحوها، وأعرضوا عنها واطرحوها. وإذا رأوا سيره الولاة العادلين وحسنها. وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم. و أن بلادهم وممالكهم عمرت وأموالها درت، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه، وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه.» ①

وكما ترى، فهو يجعل الاستفادة من التاريخ، بالنسبة لهؤلاء الذين أعطاهم الأولية، يجعلها مسألة "تفضل"، أي أنهم يخافون على ذكرهم بعدما يموتون، فيعدلون وينصفون الناس اتقاء لسوء الذكر وقبيح الأحدوثة، أما أنهم يستفيدون من عبر، ومن طرائق واضحة في الحكم والتسيير، فهذا الذي لم يصرح به "ابن الأثير". ربما لأن مفهوم العبر والسنن لم يكن قد تبلور في عهده، ولم يكن التاريخ قد انفصل عن سير العظماء من الخلفاء والسلاطين. ولهذا لم يتوجه به كابن خلدون إلى العامة والسادة على السواء.

و في نفس المعنى يصب كلام "عبد الرحمن الجبرتي" وهو يقدم لكتابه "عيون الآثار في التراجم والأخبار". فبعد أن يعرف علم التاريخ ومجاله والغرض منه، يؤكد على أن « **فائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن، ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورة السالفين، ويستجلب خيار فعالهم، ويجتنب سوء أفعالهم.**» ②

---

① ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد الأول، دار صادر بيروت، 1965 ص 7

② عبد الرحمان الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم و الأخبار، الجزء الأول، ص3.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالتاريخ عنده عبرة يستعان بها على تجنب المهالك واتقاء سوء المصير، وهو نصيحة لمن أراد أن ينتصح بمواعظه وبصائره. كما أن التاريخ -في نظره- يدرب الإنسان على التفكير والاستنتاج، فيصير وكأنه قد جرب الحياة كلها من خلال قراءته لتجارب السابقين والاطلاع عليها.

و نفس الفكرة تقريبا يكررها "ظهير الدين الروذراوري" في كتابه "ذيل كتاب تجارب الأمم". فهـو يرى أن أصحاب السلطان و أولي الأمر أولى بقراءة التاريخ، و التبصر في تجـارب الأمم الماضية، و التفكر في أحـوالهم، والتدبر في عاقبة أمرهم، على أي وجه كانت. و هو لا ينسى أن يلين قلوب أصحاب السلطان بمسألة "الذكر الشخصي" الذي سوف يبقى من بعده في الناس.

يقول: « فكيف وأولى ما يعتمده أولوا الأمر وأصحاب الزمان، ومن بأيديهم مقاليد الملك والسلطان، وأوجب ما يتشاغل به من إليهم أزمة الأمور، وعليهم سياسة الجمهور إدمان النظر في كتب التاريخ. وإحسان تتبع للأخبار والآثار. والتفكر في حال من مضى من الأخيار و الأشرار، ليعلموا ما بقي للمحسن من الصيت الحميد، الذي صار له حياة مخلدة، وبالأجر الذي اكتسبه، وللمسيء من الذكر القبيح الذي جعل صحيفته مسودة بالوزر الذي احتقبه ويتصفحوا حال الحازم في حزمه وعقله، والمضيع في تفريطه وجهله. فيسلك من الطرائق أوضحها وأمثلها، ويتقبل من الخلائق أشرفها وأنبلها. (...). فإذا تأمل المرء سيرة الماضين من الأقوام، حتى مع تقارب الشهور والأيام ثمرة ما غرسوه على تطاول الدهر والأعوام. وعلم علل الأحوال وفوائدها، وحيل الرجال ومكايدها. وعرف مبادئ الأمور ومصائرها. وقاس عليها أشباهها ونظائرها (...) وذكر مصير العاقبة إذ أرخت يد الغفلة عنان أشره، ونظرا للبصيرة الثاقبة إذ غطى غرور الدنيا على بصره.» ①

فالتاريخ عنده مداره التربية السياسية التي هي زبدته، هذه التربية التي تدعمها العبر والأمثال السابقة والتجارب، فيسهل للسياسي ومن بيده مقاليد الحكم أن يعرف مبادئ الأمور ومصائرها، ويقيس الحاضر على الغائب منها إذا كانت متشابهة. ثم إن التاريخ يعظه الموعظة الحسنة إذا استغفلته الحياة، وغطى على بصره الغرور الذي يغطي على عيون الحاكمين وبصائرهم.

إذن، فإن تتابع الأحداث التاريخية وتسلسلها، وتشابه نتائجها ومآلاتها، على ما بينها من تباعد في الزمان والمكان وتباين في الأمم والشعوب، هذا كله أغرى العلماء، ورغب المفكرين في أن يبحثوا عن العلل والأسباب الكامنة وراء ذلك بغية تفهم حقائق الأشياء، وتكوين فكره ونظرة عن سيرورة الفعل الإنساني، الذي تسيره إرادة الإنسان، ثم مقارنة الأحداث بالأحداث وقياس النتائج على النتائج. وبفضل هذه المجهودات جميعها صار في متناول البشرية فكرة عن الوعي التاريخي، وإن كان خاضعا في تكوينه لبعض النظريات الإيديلوجية كالماركسية مثلا وبعض التمركزات الجغرافية، وناتجا عن قراءة لتاريخ أمة من الناس. ليست بالضرورة نموذجية.

① ظهير الدين الروذراوري : ذيل كتاب تجارب الأمم، الجزء 3، شركة التمدن الصناعية مصر 1917 ص5/4.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

« والخلاصة إن الفكر القومي والفكر الماركسي يقدمان عبر منهجيتهما الانتقائية للتاريخ و التجزيئية في اختيار العوامل الفاعلة وعبا تاريخيا مذهبيا ينحو نحو تقوقع على الذات في إقليمية جغرافية أو قومية عنصرية، أو ينحو نحو التمذهب الكلي المتعصب، الذي يصر على تقديم نفسه علما وحيدا وكليا. أما الوجهة الإسلامية للمنهج التاريخي، فإنه من شأنها أن تعطي لأفاق التعارف و التوحد ما بين الشعوب والقوميات، وعلى قاعدة مفهوم الأمة في القرآن أبعادا تاريخية تتجاوز الحدود الجغرافية والخصوصيات العصبوية و القومية.» ①

المبحث الرابع: بين فلسفة التاريخ وفلسفة الحياة

كان كثير من علماء الإسلام يجنحون إلى التقليل من شأن الفلسفة فيما يصدر عنهم من أقوال أو كتابة. وربما كان ذلك منهم لاعتقادهم أن الفلسفة وجه من وجوه الوثنية الإغريقية -كما كان المسرح مثلا- أو لأنها ارتبطت أول ما دخلت الثقافة الإسلامية بالجدل العقيم، وطرح أسئلة حول مواضيع هي من المسلمات في عقيدة الإسلام، والتعبير عن الحقائق البسيطة بأساليب وصيغ هي إلى الترف الفكري أقرب منها على أي شيء آخر. بل إنهم رأوها تمت إلى "لهو الحديث" بوشائج وصلات، إذا كان لهو الحديث: «كل ما يلهي القلب ويأكل الوقت، ولا يثمر خيرا، ولا يؤتي حصيلة تليق بوظيفة الإنسان المستخلف في هذه الأرض لعمارتها بالخير والعدل والصلاح. هذه الوظيفة التي يقرر الإسلام طبيعتها وحدودها ووسائلها، ويرسم لها الطريق.» ②

من هذا المنطلق ليس مستبعدا أن علماء الإسلام الذي عنوا بكتابة التاريخ رأوا أن الفلسفة بتلك المضامين التي كانت شائعة آنذاك، لا تساعد في تقرير طبيعة الحياة اليومية للناس، ماضيها وحاضرها ومستقبلها. وبالتالي فهي غير عملية وغير واقعية. وحتى الذين أنبروا للفلسفة حينها لم يسلموا من طعن في تدينهم ومن غمز في اعتقادهم : ونجد أن بعض من رموا بالزندقة هم من هذا الصنف. وتكفي للتدليل على هذا المقولة التي صارت "شعبية" بل صارت كأنها قاعدة أصولية !!..
"من تمنطق قد تزندق"! وما يظن أحد أن هذه المقولة صادقة في محتواها، لكنها صادقة إلى حد بعيد في تصوير الموقف العام من الفلسفة والفلاسفة آنذاك.

وليس مستبعدا أن العلامة "ابن خلدون" كان واقعا تحت تأثير هذا الجو العام حين كتب عن الفلسفة قائلا:« إن هذه العلوم عارضة في العمران، كثيرة في المدن، وضررها في الدين كثير، ويكشف عن المعتقد الحق فيها» ③، وهو بعد أن يفصل رأيه فيها بطريقة لا تخلوا من فلسفة وجدل، يصل إلى نتيجة نهائية وهي:« فليكن الناظر فيها متحرزا جهده من معاطبها. و ليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات، و الاطلاع

① زحيه كوثراني: الوعي التاريخي في النظرة القرآنية ودوره في عملية التغيير. مجلة الحوار، ص 43
② سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 21، ص2784
③ ابن خلدون: المقدمة، المجلد 3، ص1319

على التفسير والفقه. ولا يُكَنِّ أحدٌ عليها وهو خلو من علوم الملة. فقل أن يسلم لذلك معاطبها.» ①
أي أنه لابد أن يكون له "حصانة تصورية"، تقيه من مزالقها وتأثيرها.

قد يكون هذا –أو بعض هذا– الذي جعل علماء الإسلام يتجنبون استعمال هذا المصطلح، حتى وإن كان الموضوع من صميم المصطلح، كما هو الشأن مع "فلسفة التاريخ". فالعلم الذي اهتدى إليه "ابن خلدون" هو من صميم الفلسفة تحليلا وتعليلا. فإذا كانت الفلسفة هي "الحكمة" أو "محبة الحكمة" –والحكمة في مدلولها الصحيح– هي منهج العمل، والذي اهتدى إليه ابن خلدون. هو منهج العمل في الظاهرة التاريخية. فهو بعد أن يعرف التاريخ في مفهومه الظاهري، يعرفه في مفهومه الباطن، بل في باطن باطنه، أن يعرف فلسفته « وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق. وجدير بأن يعد في علومها وخليق.» ②

فهو هنا قد تجاوز التعريف الوصفي القديم، وسلك مسلكا آخر يستطيع من خلال تقويم التاريخ وتمحيصه، وتحديد المبالغات فيه، ورد الحقائق إلى حجمها الحقيقي الواقعي، مستندا في ذلك إلى منهجه المبتكر. وهو بهذا قد أخذ « من الفلسفة نظرتها التعميمية، ومن التاريخ واقعيته والإستردادية في منهجه، ليكون منهما علما واحدا، يجذب التاريخ فيه الفلسفة إلى عالم الوقائع، حتى لا تحلق في سماء اليوتوبيات، وتعمق فيه الفلسفة من التاريخ حتى لا يصير مجرد روايات وسرد أخبار.» ③

و لكل نشاط اجتماعي فلسفته، أي حكمته القائم عليها، فنجد المفكرين يتحدثون عن فلسفة الأخلاق، وفلسفة الجمال، وفلسفة الأفكار، وغير ذلك.
ولا تنشأ فلسفة أي حقل من حقول المعرفة أو النشاط الاجتماعي إلا عندما تتكون لدى الإنسان الرغبة في معرفة جوهر الشيء، ومجموعات الميكانيزمات التي أنتجته وأوجدته، وضبطت علاقته بالنشاطات الإنسانية أخرى.

إذن، ففلسفة التاريخ تعالج ما يشبه "القلق الوجودي" لدى الإنسان والجماعة الإنسانية، ذلك أن الإنسان لما تحاصره الظروف وتتحداه المعطيات الموضوعية، وتضغط عليه شروط الواقع، وتسود في عينه الرؤية، ويصير المستقبل ضبابيا مبهما، ويصير المضي مغامرة محفوفة بالمخاطر، حينها لا يجد الإنسان سوى التاريخ يستفتيه ويستهديه، ويبحث في ركام أحداثه عن رؤية وعن طريق لتجاوز مشكلات الحاضر وأزمته، والعبور نحو المستقبل. وبهذا الجهد الإنساني الحيوي يكون الإنسان قد شرع في "فلسفة" التاريخ، ذلك: « أن الحياة الإنسانية لدى جميع الناس في جميع الأزمان والأوطان واحدة في أصولها العميقة ومكوناتها الأساسية وحوافزها،

① م.ن ، الجزء 3، ص137.
② م.ن – ص 137
③ أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ، ص137

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهي نهر متدفق من التجارب والآمال والإنجازات و خيبات الأمل، وهذا ما يجعل الأسئلة التي تثيرها مشكلات الحاضر حافزا نحو استرجاع الماضي عملا مكملا وضروريا في البحث الصحيح الموضوعي عن أجوبة أكثر سدادا وحكمة تؤدي إلى حلول صائبة، أو مقاربة للصواب للمشكلات التي تواجه الإنسان في حاضره، أجوبة معجونة بالتجارب الإنسانية السابقة.» ①

بين الصيرورة في التاريخ والمصير في الحياة :

إن فلسفة التاريخ ليست تلك التي تعلل الكائنات، وتحقق في الوقائع و الكيفيات و سيرورتها فقط، إنما هي تلك التي تبحث في مآلات الوقائع والأحداث و صيرورتها. ففي بداية التسعينات من القرن الماضي كتب أحد الأمركيين اسمه "فرانسيس فوكوياما" مقالا مطولا تحدث فيه عن "نهاية التاريخ"، وقد أغراه بذلك انهيار الشيوعية، وهيمنة الليبرالية، فظن أن "الليبرالية الكونية" هي صيرورة التاريخ، باعتبار اريخ تحركه الفكرة المستقبلية.

أما فلسفة الحياة، فإن محركها الأساسي هو فكرة "المصير"، -سواء كان مصيرا د أو مصيرا أخرويا، إذا تعلق الأمر بالمؤمنين- بكل ما يحيط به وينتج عنه من تصورات وإيديولوجيات. وقد عـ لج القرآن الكريم هذه الفكرة وسلط عليها الضوء من كل جوانبها، حيث ألغى فكرة العدمية عن الموت، واعتبره مجرد استراحة لا تساوي شيئا في حساب الله، ولا تساوي شيئا في حساب الإنسان حين يبعث، ومجرد جسر للعبور إلى الحياة الأبدية.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 112-115]. وهذا المصير الأخروي ينبني على حركة الإنسان وسعيه في الحياة الدنيا : ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: 39-42].

« و هكذا لم تعد الأفعال التي قام بها الإنسان في الماضي منسية ضائعة بعد موت الإنسان. وإنما أصبح كل ما جناه في حياته الدنيا مسطرا ومكتوبا. ويكفي تقديم هذا السجل الكامل بأعمال الإنسان ووضعه بين يديه يوم القيامة. ليكون حكما على نفسه، حسيبا عليها. وبهذا فقد أصبح للماضي قيمة كبيرة في نظر المؤمنين، وهذه القيمة للماضي الزماني، ترتبط في القرآن بفكرة "العبرة" والاتعاظ بأحداثه وتجاربه وتجارب الأمم والشعوب التي مضت، والوقوف والتأمل في ما فعلته في حياتها، فكان سبب تقدمها وفوزها وسعادتها في الدنيا أو بما ارتكبته من طغيان وتظالم، وتقاعس عن فعل الخير، فكان فيه هلاكها ودمارها.» ②

① محمد مهدي شمس الدين: حركة التاريخ عند الإمام علي، ص

② سالم أحمد محل: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، سلسلة كتاب الأمة العدد: 60 رجب 1818، ط (1) 1818، قطر، ص51.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و بهذا يستقر في ضمير الفرد والجماعة أن المصير ليس لعبة حظ، وليس قدرا وجوديا مبهما، ينزل على الرأس كاللعنة غير المتوقعة. بل إنه ينسل من تحت أصابع الفرد والجماعة، وينسج بحرية وإرادة خيطا خيطا. وللفرد أو الجماعة عبرة في الذين سبقوا، فإنهم إن سلكوا سبيل الصلاح والإصلاح، فلن يختلفوا عن خيريهم وصالحيهم، وإن سلكوا طريق الفساد والإفساد، فلن يتخلفوا عن مفسديهم ومجرميهم، و هاهي آثارهم تدل عليهم، وتنطق بما كانوا يكسبون: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿النمل: 52﴾

إذن، فلسفة التاريـــخ تلتقي بفلسفة الحياة في الوعي الدقيق بسريان الزمن ونقصان عمر الأمة أو الجماعة أو الفرد، لأنه لكل أمة أجل، ولكل فرد أجل لا يؤخر ساعة ولا يقدم. ولا شيء يجعل الأمة تتجاوز هذا الأجل، وكذلك الأفراد إلا العمل الصالح، فيه تكون الديمومة والاستمرارية: يقول الرسول ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".

و هناك طائفة من الناس يطمحون إلى تفادي سوء المصير بالأماني والتواكل، ويقولون نحســن الظن بالله. هؤلاء الناس يجبههم القرآن، و يكشف لهم تهافت ظنهم: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْـلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِـيرًا (123) وَمَــنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِــنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ ﴿النساء: 123-124﴾. فاتقاء سوء المصير يكون بالعمل الصالح، وليس بالأماني والإتكاء على اعتقاد أجوف فارغ، لا رصيد له في ميدان العمل، كما ادعى أهل التوراة والإنجيل أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، أو كما يتستر بعض المسلمين وراء خيرية، شرطها الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

كما أن اتقاء سوء المصير لن يكون بالمعرفة المجردة للمصير، والتحليل الفلسفي الخالي من حرارة الحركة والتطبيق الميداني. فلا بد من عمل، ولابد من سلوك يجسد الفكر والوعي في حركة هادفة سديدة. يقول الأستاذ "عبد اللطيف شرارة": « والتفكير في المصير لا يقوم كما أوضحنا لمجرد التفكير، وإنما يهدف، كالحافز عليه، إلى القيام بخطوات عملية ضمن أوضاع وظروف معينة. ولا يتاح للفكر أبدا أن يطمئن -وإن كان اطمئنانه ذاك مؤقتا- إلا حين يقوم صاحبه بعمل ما. والعمل نفسه يغير مجرى التفكير أو يحدث تعليلا فيه، بعد أن يكون ذلك العمل قد أصبح "واقعا في الماضي" أي دخل التاريخ وتجمد بحكم وجوده التاريخي وهو غير الوجود الفعلي للحاضر.

والعمل كما بين بعض الباحثين المحدثين هو "حالة التاريخ الحقيقية. أما أن هذا العمل يجلو وجها من وجوه الماضي، ويفصل وفق رسم جديد، فهذا ليس وهما ذاتيا من أوهام تصورنا. ولا يتاح للمعرفة التاريخية أن تكون إلا عودة بالفكر إلى الماضي، لأن من شأن الإنسان أن يتصرف تاريخيا، أن يحيا هكذا ماضيه بشكل جديد، وأن يمنحه معنى جديدا.» ①

① عبد اللطيف شرارة: الفكر التاريخي في الإسلام، ص39

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و إذا كانت فلسفة التاريخ تهدف إلى إبراز الكليات المتفاعلة التي تكون مسؤولة عن سيرورة الفعل التاريخي، بهدف استغلال حركته وطاقته، فإن فلسفة الحياة تبحث عن المصير في المسير، وهي لا تنظر إلى أحداث الماضي إلا بغرض الإعداد للمصير المستقبلي.

وإن القراءات الفلسفية للتاريخ لتختلف من جيل لآخر، ومن فرد لآخر، بحكم الظروف المختلفة، والنفسيات المتباينة، والحاجات والمقاصد من دراسة التاريخ التي لن تكون بالضرورة متفقة من جيل لجيل ومن فرد لفرد، وهذا « يقول كثير من العلماء إن كل عصر ينبغي أن يكتب التاريخ من وجهة نظره. لأن تقدير كل عصر لما هو مهم وذو معنى بالنسبة له، يختلف عن تقدير العصر الآخر. وكل عصر كذلك يحاول أن يرى الماضي من خلال اهتماماته، والأفكار السائدة فيه. ومن هنا قال كثير من المؤرخين: إن التاريخ حوار بين الحاضر والماضي» ①. و يتجلى هذا الحوار من خلال عملية الإسقاط التاريخي التي تمارسها كل الأمم على الحاضر. ذلك أن حاضرها لا يكتسب حجيته إلا بقدر ما يتناغم مع الماضي وما بث فيه من سنن وعبر. فالتاريخ معطى ثابت والحاضر معطى متغير، والمستقبل معطى مفترض، ولن يكون الفعل التاريخي إلا في حصول تفاعل جدلي بين هذه المعطيات الثلاث، في ساحة "الحاضر" باعتباره اللحظة التي تستدعي "الماضي" بالتذكر، وتستدعي "المستقبل" بالتطلع والتصور.

ولن يصل الباحث إلى استنباط فلسفة الحياة من خلال إدراك فلسفة التاريخ؛ وهو يشرف على الأحداث والوقائع إشرافا برّانيا، لا روح له ولا حرارة فيه، بل عليه أن يندمج بوعي في الحدث التاريخي، ويدرسه دراسة جوانيه تحليلية، وعليه أن يسكن –ما استطاع– بروح أشخاصه وأحداثه، « ذلك أن لغز الحاضر، لا يحل إلا بوعي تاريخي بالماضي، فكلما كانت النظرة إلى الماضي أكثر شمولا، كان فهم الحاضر أشد عمقا» ②

يستنتج من هذا كله أنه لا يمكن الفصل بين فلسفة التاريخ وفلسفة الحياة، فكلاهما يتقاطع مع الآخر في نقاط جوهرية. ففلسفة التاريخ تهدف إلى تقديم رؤية فلسفية للحياة من خلال إغنائها بالحكمة والمعرفة المنهجية، والفكرة المستنيرة المستمدة من تجارب السابقين وتاريخهم، وذلك حسب سنن تكسب الحياة أصالة وفعالية وامتدادا.

وكما أن للأمة كتابا تدعى إليه يوم القيامة، فتجد فيه كل ما كسبت من صالح وسوء، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: 4-5]. فكذلك للأفراد كتاب يدعون إليه يوم القيامة، ويجدون فيه كل ما كسبوا من صالح وسوء، وهذا الكتاب هو

① د. حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص42.

② أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ص300.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الذي يحدد مصيره الأبدي، وما فيه إلا ما اجترحت يداه في الحياة الدنيا. يقول الله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿الكهف: 49﴾.

« فهذا هو سجل أعمالهم يوضع أمامهم، وهم يتملونه ويراجعونه ، فإذا هو شامل دقيق، وهو خائفون من العاقبة، ضيقوا الصدور بهذا الكتاب الذي لا يترك شاردة ولا واردة، ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة. » ①

وللواحد منا أن يتصور كم يصير الإنسان فعالا وحساسا وإيجابيا اتجاه عمره وعمله ونوعية حركته، عندما يمتلئ شعوره وفكره كله. بمثل هذه التصورات والقيم، التي تعرض نتائجها أمامه عرضا دقيقا وحيا ومفصلا، حتى لكأن كل حرف لون وظل، وكل نقطة حركة وهمس!... وهذه خاصية يتفرد بها كتاب الله في تجسيد أمثاله وقيمه ومبادئه، وطرح تصوره، وتقديم بدائله. إنه يطرحها بطريقة تجعل القارئ والسامع طرفا فيها، وواحدا من أبطالها، بحيث يعيش الحادثة بحرارة وحميمية، ويتلقى المبدأ أو التصور بصدق وانفعال. حتى إذا استنبط من الحادثة عبرة أو موعظة، سرعان ما يتوزع ذلك كله في كيانه، وسرعان ما يرعش كل خلية فيه.

إن طريقة العرض القرآني للتاريخ، تجعل قارئه يتجاوز حدود الزمان والمكان، ويتجاوز حدود البيئات الثقافية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، يتعدى ذلك كله، ليصير واحدا من أشخاص الحادثة، وكثيرا ما يغفل القرآن الكريم ذكر أسماء الأشخاص والأماكن، ويغفل ذكر الزمان، ربما حتى يسهل على القارئ عملية الاندماج في الجو العام للحادثة والواقعة.

بين فلسفة التاريخ والشهود الحضاري :

على حسب تبصر الأمة أو الفرد بالتاريخ أو الوعي به وبسننه، يكون تبصرها بحاضرها، من خلال ما تصنع من رؤى وتصورات وأفكار، تتفاعل في شكل مشاريع مستقبلية، تمكنها من الاندماج في مستقبل الإنسانية بأصالة وفعالية. وإن الأمم أو الأفراد الذين لا نصيب لهم من الوعي التاريخي، دائما يشكلون الهامش الحضاري، بعيدا عن مضمار التنافس والتدافع الذي يتبارى فيه القادرون، أيهم يفوز بوظيفة الشهود الحضاري، أو ما يشبه تلك الوظيفة الكبيرة، التي تعني "إسلاميا" « القيام بالدور المطلوب على مستوى الحضارة الإنسانية، وامتلاك القدرة على تنزيل القيم في الكتاب والسنة على واقع الناس ، وتقويم سلوكهم ومجتمعاتهم بها، وإبداع البرامج والأوعية لحركة الحياة، من خلال منطلقات إسلامية، واستيعاب التجربة الحضارية التاريخية، والإحاطة بعلم مرحلة السيرة وخير القرون، محل القدوة والتأسي، وتحديد الموقع المناسب لواقع الحياة اليوم من مسيرة

① سيد قطب في ظلال القرآن المجلد 4، الجزء 15، ص2274.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

السيرة، ليتم الإقتداء المناسب، ويؤتي ثماره بعيدا عن الحماس والإدعاء، يتطلب أول ما يتطلب الشهود على الذات، أو الوعي بالذات، وإعادة المعايرة لها، والشهادة عليها، وتقويمها بقيم الكتاب والسنة، وتحديد مواطن الإصابة والخلل الذي لحق بها، والتعرف على أسبابه والسنن التي تحكمه » ①

و قد كان العرب –مثلا– قبل الإسلام يعيشون على هامش الحضارة والتاريخ، فلا حظ لهم في معرفة علمية، وما لهم في الوعي التاريخي من نصيب... لا ينفتحون على العالم الخارجي إلا من خلال رحلتي الشتاء والصيف، اللتين لم يذكر المؤرخون أنها قد أفادتهم في شيء ذي غنى من ناحية الثقافة والوعي والحضارة. ولما نزل القرآن الكريم أفرغهم من أرجاس الجاهلية، وطهر تصورهم من لوثاتها الكابحة، ثم نمى فيهم القابليات الخيرة، وزكى فيهم القدرات المطموسة المكبوتة تحت رواسب الأوهام الجاهلية، وانتشلهم من ظلام الهامش الحضاري إلى نور الشهود والحضور، وجعلهم في زمن وجيز ملء السمع والبصر. ومكنهم من أن ينعطفوا بالمسيرة الإنسانية إنعطافا حاسما وقياسيا.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿الأنبياء: 10﴾.

« و لقد كان به ذكر العرب ومجدهم حين حملوا رسالته فشرقوا بها وغربوا. فلم يكن لهم قبله ذكر، ولم يكن معهم ما يعطونه للبشرية، فتعرفه لهم وتذكره . ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم طالما استمسكوا بهذا الكتاب، وقادوا به البشرية قرونا طويلة، فسعدوا وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب، حتى إذا تخلو عنه تخلت عنهم البشرية ، و انحط فيها ذكرهم، و صاروا ذيلا للقافلة، يتخطفهم الناس من حولهم وهم آمنون.» ②

و ممارسة الشهود الحضاري كتطبيق عملي لفلسفة التاريخ، يقتضي معـــرفة "الآخر" معرفة دقيقة وشاملــة، حتى تحسن الأمة الشاهدة التعامل معه. وإن القرآن الكريم ليبسط حيزا كبيرا للتعريف "بالآخر"، هذا الذي يضطـــرب معنا في الحياة، و يدافعنا ويسابقنا إلى غاياتها. إن القرآن الكريم ليعرض علينا مسارب نفسه وخلجات ضميره، وما يضطرب في أعماق نفسه، حتى يمكن الأمة الشاهدة من معرفة الآخر في العمق والجوهر، وليس في الشكل والمظهر فقط، وتلك لا تعد معرفة لتغير الأشكال وتبدل المظاهر. وأن هذا "الآخر" سيظل موجودا، لأنه ضرورة حيوية من ضروريات الحياة ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ ﴿هود: 118-119﴾.

و من كثرة اهتمام القرآن الكريم بـــ"الآخر" فقد أضاءه من كل نواحيه وزواياه، قال أحد الباحثين « إن القرآن يمكن أن يعتبر من بعض الوجوه كتابا في التاريخ الحضاري أو في الشهود الحضاري الإنساني، والسنن والقوانين الاجتماعية التي حكمت سقوطها، وتحديد أسباب السقوط، واستخدم ذلك وسيلة إيضاح

---

① د. نعمان عبد الرزاق السامرائي: نحن والحضارة والشهود، الجزء 1 سلسلة كتاب الأمة، العدد 10، السنة العشرون، قطر، ط (1) 1421 هـــ ص15.

② سيد قطب في ظلال القرآن المجلد 4، الجزء 17، ص237.

لبيان أسباب السقوط والنهوض، لتكون الأمة المسلمة أم الرسالة الخاتمة الشاهدة على الناس، على بينة من الأمر، فلا تنتقل إليها علل التدين وأسباب السقوط » ①

يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿البقرة 143﴾، ويقول جل من قائل: ﴿وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ﴿الحج 78﴾.

و الجماعة المسلمة عندما تعيش القرآن بصدق، وتتمثله بعمق، وتطبقه في حياتها، وتحكمه في كل أمورها، وتستفتيه في معضلات الأمور، وتستهديه كلما أظلمت الرؤية أو غام الطريق. إنها عندما تفعل ذلك تجد نفسها أمة وسطا في كل أمورها، الدنيوية منها والتعبدية، وهذه الوسطية تؤهلها لممارسة مهمة الشهود الحضاري على الناس جميعا، أي تقيم بينهم التوازن في كل شؤون حياتهم « فتقيم بينهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم، وتبدي فيهم رأيها، فيكون هو الرأي المعتمد، وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها، وتقول: هذا حق منها وهذا باطل (...) وبينما هي تشهد على الناس هكذا، فإن الرسول هو الذي يشهد عليها، فيقرر لها موازينها و قيمها.» ②

و لكن الجماعة المسلمة بحكم تقهقرها وتخلفها، صارت أمة مشهود عليها، بعدما انسحبت وتركت مكانها للآخرين يقومون بوظيفة "الشهادة"، انطلاقا من نظرة تاريخية وتصورية ومصلحية ضيقة، مستندة إلى ...مي تاريخي عنصري، مستمد من تاريخ غير نموذجي.

وراحت الأمة الأوروبية تمارس عنصرية مقيتة وإجحافا مشينا في شهودها الحضاري على الناس، بحيث حاولت أن تفرض نموذجية التاريخ الأوروبي، وما انبثق عنه من أفكار و تصورات وقيم وموازين، لاغية بذلك تواريخ عريقة وحضارات عظيمة، بعد أن حولتها إلى "هامش حضاري" باسم "العولمة" كمصطلح تمويهي أخير، يخفي وراءه وجه "المركزية الأوروبية" التي اتسمت بانحراف فظيع في الشهادة وخسران كبير للموازين. وعلى النقيض من ذلك تماما نلاحظ « أن وعيا تاريخيا للتجربة الإسلامية في تعبيراتها القرآنية، التي تجلت في السلوك الإنساني، الذي يلزم بالقسط والعدل ويجهد أن يكون شاهدا لله، هو وعي ممتنع من الانزلاق في ذاتية الفكر العنصري أو الإقليمي أو الطبقي، و ممتنع بسبب استقلالية وانجذابه نحو الله وحده عن الانجذاب لمعسكر من معسكرات الاستكبار العالمي. لأن في ذلك شركا وقتالا من أجل الطاغوت. إن شاهد الله هو شاهد التاريخ، وشاهد الحق والحقيقة.

و هذه الشهادة التي هي أعلى درجة من درجات الوعي التاريخي تتسم بالالتزام الأممي الصحيح، الالتزام بمشاكل الناس جميعا دون تفرقة في اللون أو العنصر أو الدين. (...) وتلك الشهادة التي تتوج الوعي

① د. نعمان عبد الرزاق السامرائي: نحن والحضارة والشهود، الجزء 1، ص34.

② سيد قطب في ظلال القرآن المجلد الأول، الجزء 02 - ص : 130

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التاريخي المنتظم في عملية الإصلاح تتسم بالالتزام بوحدة التاريخ البشري على قاعدة استمراريته وعدم انقطاعه في تقسيم مفتعل المراحل. فإذا كان هناك من سوغان صادرة عن العقل الغربي التقسيمي والتصنيفي في تقسيم التاريخ الأوروبي إلى قديم ووسيط، فإن الوعي التاريخي الإسلامي لا يعترف بتلك المسوغات كمرتكزات في المنهج العلمي، ولا يعترف بإمكانية تعميم التقسيم الأوروبي على تواريخ العالم كله.» ①

من خلال ما سبق ذكره يتجلى أن فلسفة التاريخ متداخلة ومتفاعلة بطريقة جدلية مع فلسفة الحياة. ليس على مستوى الأفراد فقط ، أو على مستوى الأمم فحسب، إنما على المستوى الكوني كذلك. وأنه جوهر ممارسة الدور الإستخلافي الذي أنيط بالإنسان.
ذلك أن الشهود الحضاري هو "التمظهر السياسي" لوظيفة الخلافة، السياسة بمحتواها الشرعي، الذي يعني التربية والإرشاد وتزكية الأفراد والمجتمعات والأمم من خلال التوجيه الحسن للقابليات والتوظيف الجيد للطاقات الكامنة في النفوس. ولا شيء يساعد على ذلك كالمادة التاريخية بما تحفظه من مواقف قابلة للتجدد، وعظات قابلة للتطبيق، وعبر في وسع الإنسان أن يأخذ بها ويتفاعل معها، وكل ذلك هو الحجر الأساس في التربية السياسية والتوجيه الثقافي والإيديولوجي للمجتمعات والأمم.
و لم يبتعد فهم علماء الإسلام للتاريخ عن هذا، فقد توصلوا جميعا « إلى أن المعرفة التاريخية عملية تربوية في أول منزلة. وأن التاريخ هو الأداة الأولى والمثلى لتربية الإنسان، ومن ناحية سياسية بوجه خاص، مع لحاظ هذه النقطة الجوهرية وهي أن السياسة لا تنفصل ولا يمكن أن تنفصل عن الأخلاق العملية في حياة الفرد والمجتمع (...) والغاية من التربية السياسية –إسلاميا– تفادي سوء المصير، والعمل على تحسينه في إطار الحياتين الفردية والاجتماعية. وبهذا ينسجم التاريخ علما وفلسفة، حيث يصب كمعلم وكفلسفة في غاية واحدة، ثم لا يبقى مجال لوقوع خلاف بين العلم والفلسفة، عند النظر في الوقائع ومحاولة فهمها –لا تفسيرها– بما يضمن للإنسان مصيرا أغنى و أرقى وأفضل دنيويا و دينيا.» ②

المبحث الخامس: مقومات الفعل التاريخي

يقوم الفعل التاريخي على أربع ركائز أساسية، أو هو ينتج عن تفاعل أربع قوى أساسية هي :

أ– النواميس و"الحتميات":

وهي التي تحرك الإنسان وتحكمه، بكل ما ركب فيه من نوازع نفسية وغرائز بيولوجية، وتطلعات روحية كلها تبحث عن الإشباع. وفي سبيل تحقيق الإشباع لكل ما يعتمل داخل

① وجيه كوثراني: الوعي التاريخي في النظرة القرآنية، ص44
② عبد اللطيف شرارة: الفكر التاريخي في الإسلام، ص42.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نفسه ويلح عليه، في سبيل هذا يتحرك الإنسان ، فيبدع وينتج. ويغير في وجه المحيط الطبيعي والاجتماعي. وقد تكون حركته نقلة نوعية على مسار الوعي والإبداع الحركي، وقد تكون حركته انتكاسة مجتمعية، و دمارا يصيب البنى المختلفة للمجتمع بالخلخلة و الاهتزاز.
فالمحتوى الداخلي للنفس الإنسانية هو المسؤول عن حركة المجتمع، ذلك أن الإنسان لا يجسد في محيطه إلا ما يعتمل في نفسه من رغبات وأفكار وتصورات، وقيم ومبادئ.

و انطلاقا من هذا كله يمكن القول: « إن المحتوى الداخلي للإنسان هو الأساس لحركة التاريخ. والبناء الاجتماعي العلوي بكل ما يضم من علاقات وأنظمة وأفكار وتفاصيل مرتبط بهذه القاعدة في المحتوى الداخلي للإنسان. وتغييره وتطوره تابع لتغيير هذه القاعدة وتطورها. فإذا تغير الأساس تغير البناء العلوي، وإذا بقي الأساس ثابتا بقي البناء العلوي ثابتا.
العلاقة بين المحتوى الداخلي للإنسان والبناء الفوقي والتاريخ للمجتمع هي علاقة تبعية، أي علاقة سبب بمسبب (...) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].
هذه الآية واضحة جدا في المفهوم الذي أعطيناه، وهو أن المحتوى الداخلي للإنسان هو القاعدة والأساس للبناء العلوي أي للحركة التاريخية.» ①

و المقصود بالإنسان هنا، هو ذاك الذي أدرك ذاته، وعلم طبيعة محيطه فهو يعمل على إعادة الاندماج فيه بالوعي والفكر. وليس ذاك الذي مازال في طور البشرية، من إدراك الذات، أي أنه لا يعرف عن نفسه، سوى أنها كتلة بيولوجية حية، تبحث عن إشباع ما. إن هذا الصنف -في مفهوم القرآن- لم ينفصل بعد عن الحيوانية، ولن يستطيع أن يصنع التاريخ، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179]. ويقول سبحانه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 44].
فهذا الصنف من الناس، ورغم أن الله سبحانه قد أعطاه المفاتيح الأولى ليرتقي بذاته وبحياته، من قلب يفقه وبصر يرى، وأذن تسمع، إلا أنه عطل كل ذلك، وآثر الحياة على المستوى البدائي الأول، المستوى الذي تشاركه فيه كل المخلوقات الأخرى، مع الأخذ بعين الاعتبار أن ذاك المستوى البدائي هو مستوى المخلوقات التي لم تعط إمكانات التطلع والارتقاء. إذن فالإنسان هو الذي شارك المخلوقات حياتها، وانحط إلى مستواها، رغم أنه قد زود بإمكانات التطلع والتطور والارتقاء من أجل الوصول إلى الحياة الإنسانية المثلى.

① محمد باقر الصدر: التفسير الموضوعي والتفسير التجزيئي في القرآن الكريم، ص141.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يقول "سيد قطب": « فأما الكثرة التي تتخذ من الهوى إلها مطاعا، والتي تتجاهل الدلائل وهي تطرق الأسماع والعقول، فهي كالأنعام. وما يفرق الإنسان عن البهيمة إلا الاستعداد للتدبر و الإدراك و التكيف وفق ما يتدبر ويدرك من الحقائق عن بصيرة وقصد وإرادة واقتناع، ووقوف عند الحجة والاقتناع. بل إن الإنسان حين يتجرد من خصائصه هذه ليكون، أحط من البهيمة لأن البهيمة تهتدي بما أودعها الله من استعداد، فتؤدي وظائفها أداء كاملا صحيحا. بينما يهمل الإنسان ما أودعه الله من خصائص، ولا ينتفع بها كما تنتفع البهيم » ①

ب ـــ السنن التي تحكم المحيط الطبيعي :

إن المحيط الطبيعي هو المجال الحيوي للإنسان، الذي تظهر فيه آثار حركته سلبا أو إيجابا. فهذا المجال له سننه ونواميسه التي تكشف بعضها وتقع على آثار بعضها الآخر. وقد اكتشف الإنسان الكثير من هذه السنن في العصور الأخيرة، فعاد عليه ذلك كله بالنعيم والوفرة وتيسير الحياة. وقد حاول أن يبدل ويغير في مسيرة بعض السنن فاستعصى عليه ذلك، وعاد عليه بالشر والوبال. وما مشكلة تلوث البحار والنفايات النووية، وجنون البقر أخيرا !، إلا دلائل مادية محسوسة لحالة الخرق. وفي هذا دليل آخر على أن المحيط الطبيعي يرفض ما لا يجانسه ولا يشاكل بنيته، تماما كالإنسان الذي تبدو عليه أعراض الحساسية، إذا أكل أو شرب شيئا لا يناسب معدته ومنظومته البيولوجية.

إن المحيط الطبيعي ليس كتلة صماء، وليس مجالا أصم أعمى، بل إنه يتحرك بوعي دقيق. ويتفاعل فيما بينه بتقدير مطلق ادهش العلماء، بحيث صاروا يعتبرونه –كالإنسان– مخلوقا فكريا بالدرجة الأولى ومخلوقا ماديا بالدرجة الثانية، أي أن الوعي فيه أهم وأدق من الكتلة، وما الكتلة فيه إلا حركة الوعي: « وهذا ما توصل إليه علماء الفلك أخيرا، أمثال "السيرآرثر" البريطاني، الذي يكرر أن مادة الكون عقلية. ومثله "جيمس جينز" الذي يرى بأن الكون كون فكري، ولم يعد يقبل التفسير المادي في ضوء علم الطبيعة الجديد » ①

وقد تناول القرآن الكريم بديع الخلق ودقة الصنع بعدة مصطلحات منها: القدر، التقدير، المقدار، الميزان الإتقان والإحسان. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49] ، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: 8]، ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: 38]، ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: 19]، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: 7]،

① سيد قطب في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 19، ص2566.

② نعمان عبد الرزاق السامرائي: نحن والحضارة والشهود، الجزء 2 سلسلة كتاب الأمة، قطر، ط(1) 2001 م، ص37.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿النمل: 88﴾.

و يختم هذا كله بإعلان التحدي، المتمثل في دعوة الإنسان إلى أن يتمعن في خلق الله، ويقلب طرفه في البناء الكوني، وفي شبكة العلاقات القائمة بين أجزائه، هل يعثر على خلل أو عطل، وهل يقع على اضطراب أو نقص: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ ﴿الملك: 3﴾

ج ـ السنن التي تحكم المجتمع :

وهي تلك التي تضفي عليه الصفة الاجتماعية، وتعطيه الهوية الإنسانية، وتميزه عن أشكال التجمعات الأخرى. ثم إنها تلك التي تضغط عليه لينجه صوب وظيفته الوجودية، و تساعد في رسم الغايات والأهداف المستقبلية من خلال تجددها الدائم، والتي لولاها لما كان للحركة والإنتاج بشقيه المادي والأدبي معنى، كما تضمن له سيرورته، وترعى له مؤسساته الثابتة التي هي بمثابة الأعضاء من الجسد البشري، فإذا كان هذا الجسد يصاب بالعطالة بقدر ما يتعطل فيه من أعضاء، وحسب أهميتها طبعا، فكذلك المجتمع يفقد صفته وهويته وفعاليته بقدر ما يفقد من مؤسساته الثابتة، وشبكة أخلاقه الضابطة، تستمد قدسيتها ودعومتها وإلزاميتها من طبيعة مصدرها ومنبعها.

و وجود فكرة "المجتمع" أو العمل داخل المجتمع شرط أساسي لأي فعل أو حركة تريد أن تدخل نطاق السننية التاريخية. في نظر "محمد باقر الصدر" حيث يرى أنه لابد أن يكون لهذا الفعل أو الحركة « أرضية تتجاوز ذات العامل، أن تكون أرضية العمل هي عبارة عن المجتمع، العمل الذي يخلق موجا، هذا الموج يتعدى العامل نفسه، ويكون أرضيته الجماعة التي يكون الفرد جزءا منها، طبعا الأمواج على اختلاف درجاتها، هناك موج محدود، هناك موج كبير. لكن العمل لا يكون عملا تاريخيا إلا إذا كان له موج يتعدى حدود العمل الفردي » ①

و لهذا نجد المستكبرين -على مر التاريخ- يعمدون إلى إخراج الأنبياء وأتباعهم من مجتمعاتهم، بغرض نزع صفة التاريخية عن حركة الأنبياء، وجعلهم يدورون في ما يشبه الحلقة المفرغة، لأن أي فكر أو تصور، لا يتوجه به إلى مجتمع سوف يموت بموت دعاته والقيمين عليه. ولهذا يلجأ المستكبرون إلى الإخراج بشتى صوره، من الإقامة الجبرية، أو الإقامة الانفرادية، إلى السجن إلى النفي، إلى غير ذلك من ألوان الإخراج، بغية محاصرة الدعوة وجعل أجلها مرهونا بأجل صاحبها، والذين آمنوا به. يقول الله تعالى:﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ ﴿الأعراف:88﴾،وقال سبحانه:﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿إبراهيم: 13﴾.

① محمد باقر الصدر: التفسير الموضوعي والتفسير التجزيئي في القرآن الكريم، ص141

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

د – فكرة المستقبل أو الغاية، أو "المصير":

إن كل جهد بشري، لا يمكن أن يكون حضاريا وتاريخيا، إلا إذا كان مشدودا نحو غاية مستقبلية، تكون ذات حضور ذهني واضح، ومغر كذلك، يجد فيها أفراد المجتمع تجاوزا للواقع، أو تغييرا له أو إصلاحا فيه، ولا يمكن لأي كان أن ينتج عملا تاريخيا وحضاريا إن لم يتملكه هاجس الغاية المستقبلية في أي صورة من الصور.

فالعصبية – مثلا– التي هي الطاقة المحركة لأي حركة حضارية عند ابن خلدون، لا يمكنها أن تكون فعالة ومحرضة، إلا من خلال ارتسام غاية مستقبلية في أذهان أنصارها، وتلك الغاية هي "الملك"، وهذا الذي يوضحه بقوله: « إن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك.» ①، فلو انتفت الغاية، لما كان هناك مبرر لبقاء العصبية.

و يقول ابن خلدون محددا أن "العصبية"، لا تتحرك، ولا تحرك إلا إذا استحضرت بدائل ذهنية، يكون مجالها المستقبل، متجاوزا طبيعة هذه البدائل، وما مدى أخلاقيتها، لأن الإنسان لا يحركه في حاضره إلا تصوره لمستقبله « وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها ، فإذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر ، ولا يتركه لأنه مطلوب للنفس. » ②

و ضرورة الإنشداد نحو المستقبل في أي فعل حضاري، هو الذي يفسر لنا عجز السلفيات المختلفة عن التغيير، رغم أنها اكثر الحركات إدعاء له، كونها مسكونة بالوجود الذهني للماضي، فتجد نفسها تسير عكس حركة التاريخ، فتدخل في صراع مع السنن التاريخية والنواميس الأزلية، فتقهرها السنن، وتغلبها النواميس.

و نفس هذه الفكرة –فكرة الغاية المستقبلية– يؤكد عليها "محمد باقر الصدر"، بل يعتبرها أهم خاصية تميز الفعل التاريخي عن غيره من الأفعال التي تؤثر في الوجه الخام للمحيط الطبيعي للإنسان.

فليس أفعال الإنسان دائما مدفوعة بسبب ماضويّ فقط، بل إنها دائما مشدودة إلى غاية مستقبلية كذلك.

و يضرب على ذلك مثلا فيقول: « غليان الماء بالحرارة يحمل علاقة مع سببه، مع ماضيه، ولكن لا يحمل علاقة مع غاية، ومع هدف ما لم يتحول إلى فعل إنساني وإلى جهد بشري، بينما العمل الإنساني الهادف يحتوي على علاقة، لا فقط مع السبب، لا فقط مع الماضي، بل مع الغاية التي غير موجودة حين إنجاز هذا العمل، وإنما يترقب وجودها، أي العلاقة هنا علاقة مع المستقبل لا مع الماضي، الغاية دائما تمثل المستقبل بالنسبة للعمل بينما السبب يمثل الماضي بالنسبة إلى هذا العمل» ③

① ابن خلدون: المقدمة، ص139.

② م.ن ص : 139

③ محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص90.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة

إن الحديث عن التاريخ وعن حركة التاريخ، يعني أساسا الحديث عن حركة واعية تقصد إلى تغيير هادف ضمن فضاء طبيعي إنساني. وليس شرطا أن يكون الوعي صائبا، والأهداف خيرة نبيلة، إنما حسبه أن يكون وعيا متساميا -أو يحاول أن يتسامى- على ضغط الحتميات المختلفة، وأن يكون نتاج رؤية ما ، ذات منطلقات و غايات. وإذا كان هذا كله -أو بعضه- هو شروط الفعل التاريخي ، فإنه لا يمكن اعتبار حركة الطبيعة وما فيها من مخلوقات حركة تاريخية، رغم أنها تغير وجه المحيط الطبيعي بأقدار متفاوتة، لأنها لا ترتبط بوعي دافع، ولا بغايات سامية. بقدر ما ترتبط بدفع غريزي لا يزيد و لا ينقص و لا يتكيف إلا في حدود المدى الغريزي. و قد تدخل حركة الطبيعة حيز الفعل التاريخي إذا أثرت تأثيرا بالغا في حياة الإنسان، كانفجار بركان ... وهلاك قرى ومدن، أو زلزال يقضي على حياة آلاف الناس، ويرغم الناجين على التكيف، أو جفاف حاد مهلك يجر للأمصار أو إعصار مغرق.

من هذا كله قد يستنتج أن الفعل التاريخي « عمل هادف يرتبط بعلة غائية، سواء كانت هذه الغاية صالحة أو طالحة، نظيفة أو غير نظيفة، على أي حال هذا يعتبر عملا هادفا، يعتبر نشاطا تاريخيا.» ①

و عندما ترتبط حركة التاريخ بالوعي الذي يعني إدراك حركة الإنسان الممتدة نحو الماضي إدراكا عبريا، وبالغائية التي تعني الحضور الذهني والتصوري للمستقبل، بهذا الامتداد الواعي في الماضي والمستقبل تكون حركة التاريخ هي حركة الإنسان. لأن باقي المخلوقات لا تتذكر الماضي، ناهيك عن الاعتبار به، ولا تتصور المستقبل ناهيك عن التخطيط له ومحاولة التصرف فيه وتوجيهه .. إنها بنت لحظتها، إلا الإنسان فإنه يتذكر ويعتبر، ويطمح ويتطلع.

وقد اختلف المفكرون والعلماء في تعريف "الإنسان" « فقال قوم هو الحيوان الناطق (أي العاقل) وقال آخرون هو ذو الطلبات المطلقة، أو الذي لا يتناهى، أو الباحث عن الآمال، أو المفتش عن القيم، أو الحيوان فوق الطبيعي، أو الذي لا يمتنى ولا يشبع، أو هو الموجود غير المعين، أو هو المسؤول الملتزم، أو هو المهتم بالمستقبل، أو هو الحر والمختار، أو العاصي أو الاجتماعي، أو الطالب للنظام، أو الباحث عن الجمال، أو الحريص على العدالة، أو ذو الوجهين، أو العاشق أو المكلف، أو صاحب الوجدان، أو ذو الضميرين، أو المبدع والخلاق، أو الوحيد أو المضطرب، أو المتعلق بالعقيدة أو المنتج، أو ذو الخيال، أو المعنوي، أو مدخل المعنويات، أو الباحث عن المزيد.» ②

و هذه التعريفات -كما يبدو- كلها تعريفات انبثقت عما يتميز به الإنسان من صفات بيولوجية أو نفسية أو إيديولوجية، أو وظيفية. و بطبيعة الحال، فليست كل هذه التعريفات صحيحة إذ أنه لو دققنا النظر

---

① السيد باقر الصدر: التفسير الموضوعي والتفسير التجزيئي للقرآن الكريم، ص91

② مرتضى المطهري : الإنسان والإيمان، ترجمة عبد المنعم الخاقاني - طهران ، ط(02)، 1409 هـ ، ص19

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لوجدنا أن الإنسان يشترك مع الحيوانات في بعض تلك الصفات.

المبحث الأول: الصفات المرتبطة بالإنسان من خلال القرآن

إن القرآن الكريم، الذي هو أوفى وأصدق من يحيط بالإنسان، ويقدمه لنا في مختلف مستوياته، ومن مختلف زواياه. إنه يقدمه لنا في صورته "الخام" قبل أن تهذبه الأديان وتصقله الأفكار، وترشده القيم الاجتماعية المختلفة من أجل تحقيق سموه وكماله، ومن الصفات الأساسية التي ترتبط بالإنسان في القرآن الكريم، ما يلي:

- **الإنسان ضعيف:**

يقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28].
فالإنسان ضعيف بدنيا أما الكثير من مخلوقات الله، وضعيف كذلك أمام نزواته التي تضطرب بين جنبيه، وضعيف أما أنانيته، التي لا تشبع، ولهذا فهو في حاجة إلى تشريع رادع يعينه على ضعفه، ويحميه من الآخرين حين ينهزمون أمام ضعفهم.

- **الإنسان مصلحي و أناني:**

وربما هذه هي نقطة الضعف المحورية في الإنسان والتي تشيع ضعفا في باقي كيانه، فحبه لمصلحته وأناه طاغ مسيطر. يقول: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: 12].
فهذا النص القرآني الكريم يصور أنانية الإنسان ومصلحيته حين تخفف وتضعف فتصير دعاء ضئيلا دليلا، وحين تتعجرف وتنتفخ فتصير تكبرا واستغناء ونكرانا للجميل، حتى ولو كان الجميل من عند الله سبحانه.

- **الإنسان ظلوم كفّار:**

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [ابراهيم: 34].
فالإنسان يمارس الظلم، ويؤذي الآخرين تحت إلحاح أنانيته، ويكفر بكل ما يقهر فيه هذه الأنانية أو يعيدها إلى حجمها الطبيعي ووظيفتها الأولى.

- **الإنسان خصيم:**

قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 4].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن الإنسان هو المخلوق الوحيد المؤهل بحكم تركيبه النفسي والعقلي أن يخاصم وأن يجادل وأن يعترض، وأن ينكر ويقترح و يأتلي حتى على الله سبحانه، بينما لا يصدر عن المخلوقات الأخرى غير التسليم والانقياد والطاعة الكاملة.

- **الإنسان عجول:**

قال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِي﴾ [الأنبياء: 37]،
وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: 11].

والعجلة تنتج على القدرة تصور الخير والشر قبل حدوثه، ولأن الإنسان يحب الخير لنفسه، فهو يريده ويستعجله ويستبطئ أجله الطبيعي. « فالعجلة في طبعه وتكوينه، وهو يمد ببصره دائما إلى ما وراء اللحظة الحاضرة، يريد ليتناوله بيده، ويريد ليحقق كل ما يخطر له، بمجرد أن يخطر بباله، ويريد أن يستحضر كل ما يوعد به، ولو كان في ذلك ضرره و إيذاؤه، ذلك إلا أن يتصل بالله فيثبت و يطمئن.» ①

- **الإنسان كفور:**

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 67].

فالإنسان تملي عليه أنانيته ومصلحته أن يذكر الله وقت الحاجة والشدة، و يدعوه أن يكشف عنه ما به من ضر، حتى إذا تحقق له ذلك جحد النعمة وكفر بالمنعم، ومر كأن لم يدع إلى ضر مسه من قبل، هذا في الذي يكون بينه وبين خالقه، أما الذي يكون بينه وبين بني جنسه فأشد و أنكى، فكثيرا ما يعمل الإنسان على الإساءة إلى من أحسن إليه. وأن يبغي الشر بمن أسدى إليه معروفا وخيرا.

- **الإنسان متنكّر :**

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء: 83]

أنه الوحيد من بين مخلوقات الله يستطيع أن ينكر ما التزم به، أو يتنكر للعهد الذي قطعه، والميثاق الذي أبرمه، و أن يقلب ظهر المجنّ للمتفضلين عليه.« و النعمة تطغى وتبطر ما لم يذكر الإنسان واهبها فيحمد ويشكر، و الشدة تيئس وتقنط ما لم يتصل الإنسان بالله، فيرجو و يأمل ويطمئن إلى رحمة الله وفضله، فيتفاءل و يستبشر.» ②

8- الإنسان قتور:

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: 100].

---

① سيد قطب: في ظلال القران، المجلد 4، الجزء 17، ص2379.
② سيد قطب: في ظلال القران، المجلد 4، الجزء 10، ص2241.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهو، بحكم حبه لذاته، يرى أن الإنفاق تضييع لطاقات، كان لنفسه أن تستمتع بها وتستزيد بها لذة، فكأن الإنسان مجبول على أن يكون شحيحا، لولا التوجيهات الربانية، التي تعلم الإنسان كيف يعطي القليل ليأخذ الكثير، وكيف يبدل الفاني لقاء الخالد الباقي.

- **الإنسان ظلوم جهول:**

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿الأحزاب: 72﴾.

إنه الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يلحق الظلم بنفسه وبغيره عن وعي وعن سابق نية. وهو الوحيد الذي يتحمل فوق طاقته من التبعات والمسؤوليات، وذلك إشباعا لنزعات الذات. وهو جهول لأنه لا يعرف حدود الاستطاعة والمقدرة لديه. وهذا ليس في ما يتعلق بأمانة الخلافة لديه فقط، إنما في كل أمر من أموره التي يكون فيها مدفوعا برغباته التي لا تحد ولا تكاد تقهر.

- **الإنسان يؤوس قنوط:**

قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ ﴿فصلت: 49﴾.

فالإنسان إذا ابتلاه الله بما يظنه شرا، يئس من كل خير بعده. وراح يتضجر ويتحرق إلى زمان مضى كان له فيه هناء ومتاع، وهذه الآية القرآنية: « رسم دقيق صادق للنفس البشرية التي لا تهتدي بهدى الله، فتستقيم على طريق. رسم يصور تقلبها وضعفها، وجرأتها وحبها للخير، وجحودها للنعمة، واغترارها بالسراء، وجزعها من الضراء، رسم دقيق عجيب ... هذا الإنسان لا يسأم من دعاء الخير، فهو ملح فيه، مكرر له يطلب الخير لنفسه، ولا يمل طلبه، و أن مسه الشر مجرد مس، فقد الأمل والرجاء، وظن أن لا مخرج له ولا فرج، وتقطعت به الأسباب، وضاق صدره، وكبر همه، ويئس من رحمة الله وقنط من رعايته. ذلك أن ثقته بربه قليلة ورباطه به ضعيف.» ①

- **الإنسان هلوع منوع جزوع :**

قال الله تعالى:﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ ﴿المعارج: 19-21﴾.

إن الإنسان في هلع دائم، ناتج عن تمزقه بين الحرص والمنع إذا أصابه خير وبين الخوف والجزع إذا مسه شر. فهو تائه متذبذب بين التضجر و القلق والإحباط، و التصرف بأنانية طفلية و انزعاج طفلي كذلك. فإذا مسه

---

① **سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 6، الجزء 9، ص3.**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخير حرص عليه كما يحرص الأطفال على دماهم ولعبهم، فيمنع الآخرين منه، ويمنعه على الآخرين، ولاعتقاده أنه من عرق الجبين ومن كد اليمين. فما ينبغي له أن يتحول عنه إلى وجهة أخرى، أما إذا أصابه الشر، فكثير التبرم بالحياة كثير التضجر بأهل الحياة، دائم التشكي والإلحاح، فهو هلوع حريص في الحالتين، إلا إذا ارتبط بربه، وأوى إلى ركن شديد من الثقة فيه، واستمسك بحبله، فحينها تراه الإنسان الرباني في الحالتين.

- **الإنسان يطغى:**

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى (6) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: 6-7].

غريزة حب التملك لديه وحب الخلد، تدفعه إلى تجاوز الحدود المعقولة في كل شيء، سواء كان الأمر متعلقا بالمال أو العلم أو القوة المادية أو المعنوية، فالإنسان دائما يطمع في المزيد بحكم تركيبه النفسي، دون أن يقيم وزنا لأي رادع أخلاقي، خاصة لدى الإنسان المفرغ من أي محتوى إيماني أو قيمي.

- **الإنسان كنود:**

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: 6].

أي أنه ناكر نعمه وجاحد فضله، ويبدو ذلك منه في حالات متباينة، وفي أوضاع مختلفة. خاصة عندما يكون قلبه خاويا من حرارة الإيمان و ضميره من بشاشة التقوى.

هذه بعض المرتكزات الأخلاقية للإنسان في صورته الخام، قبل أن تعمل فيه الشرائع، وينصب عليه التوجيه الأخلاقي، وهذه الأخلاق كلها تتفرع عن أصل واحد هو حب الذات التي تطمح إلى الخلد والبقاء، بكل ما يحقق الخلد والبقاء من أوضاع مادية و سلوكات أخلاقية. ومن هذا المنطلق قال العلماء والمفكرون بالحتميات، من حتمية نفسية إلى حتمية اجتماعية إلى أخرى اقتصادية إلى رابعة تاريخية.

وليس على هذا أي اعتراض، لأن ذلك مشاهد و معيش في حياة الناس جميعا. لكن الاعتراض يكمن في الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع معاكسة الحتميات، ويعمل عكس ما تشتهيه ذاته و تبتغيه نفسه، ذلك «أن النفس تملك -بإذن الله- فوق قوة الحب، وهي قوة الرأي وقوة الإرادة، فتختار حينا ما تحب النفس، فتتبع بذلك هوى النفس، وتختار حينا آخر ما تكره النفس وخلافا لما تحب. وبعبارة شاملة إن هناك فرقا واضحا بين أن تكون حركة الإنسان وراء مصالحه حركة لا إرادية وجبرية (كحركة الشمس حول الأرض) وأن تكون إرادية. بمعنى أن باستطاعة البشر أن يتوقف عن السير ولا يستمر في جلب المنافع، لا يأكل ولا يكتسب، لا ينكح تماما كما فعل بعض الزّهاد وبعض الثائرين. والوجدان شاهد على أن للبشر مقدرة كافية في مخالفة النفس بالسير في اتجاه آخر، وهذا هو الشرف الإنساني الذي يتميز به عن كل حي آخر.» ①

① محمد تقي المدرسي : الفكر الإسلامي، مواجهة حضارية، ص328

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و حسبما يبدو، فكل الصفات التي مرت صفات سلبية، لا يصلح أن تكون محتوى فحويا ومرجعا سلوكيا لإنسان يعيش ضمن مجتمع. لكنها صفات تعطي للإنسان قوة تحريضية ابتدائية، لا يمكن لها أن تفتر، و بها يبحث الإنسان عن تكامله وكماله في عالمه الإنساني والاجتماعي، و إن هذه الصفات والأخلاق بقوة جذبها وتحريضها تكون عامل توازن في حياة الإنسان، وهي نفس الصفات التي تعمل الشرائع على تنميتها وتزكيتها، وربطها بمصدر أعلى للخير والقيم. يرى الإنسان فيه خيرا أعلى و سعادة أبقى ولذة أبدية. و من ثم « فإن القرآن بتوغله العمودي العليم بأعناق الإنسان وتكونه الذاتي، يحدثنا في أكثر من موضع، وبمواجهة إعلانه الأول عن تفضيل بني آدم .. عن نقاط الضعف والسلبية في سلوكية الإنسان.

أولا : لكي يوقفه على الحقيقة فلا يشذ و لا يطغى معتقدا أنه قادر على صياغة أي شئ والتحكم في أي واقعة، وصنع تاريخه ناجزا كما يريد.

ثانيا: لكي يستفز فيه قوى التحدي والمقاومة والاجتياز للتفوق على ضعفه وعجزه، والتوغل – أكثر– في قلب العالم وهو أشد قوة وأمضى عزيمة وأعمق توحدا في نسيجه الروحي المادي على السواء.

ثالثا: لأن الإنسان –وبموضوعية تامة– هكذا خلق، يحمل في اللحظة الواحدة والموقف الواحد عناصر قوته وضعفه، ومادام قد ركب وفق هذا الأسلوب.» ①

المبحث الثاني: مستويات الإنسان من خلال الخطاب القرآني

يتحدد هذا الكائن الواعي، الذي هو الإنسان من خلال أربع مستويات متكاملة في القرآن الكريم، تحيط في مجموعها بكل خصائص هذا الكائن ومميزاته، وإن استقراءً دقيقا لمواضع ورود المصطلحات التي تعبر عن هذا الكائن، يجعلنا نكتشف الفرق الدقيق بين هذه الألفاظ و المصطلحات التي قد يظن البعض أنها مترادفة وذات معنى واحد، ويجعلنا نكتشف مدى التناسق والتكامل الذي بينهما.

وهذه المستويات هي:

- ابن آدم:

و قد تكرر خطاب القرآن الكريم للإنسان بـ"يا بني آدم" عدة مرات كلها تشي بتميز هذا الكائن وتفرده، وأنه أصيل في منشأه، أصيل في رسالته ودوره، لم يتطور من سلالة أخرى، ولن يتطور إلى سلالة أخرى. قال الله سبحانه:﴿ يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(26)يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا

① د. عماد الدين خليل : في التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت ط(3)، 1981، ص158.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 26-27]، ويقول جل من قائل: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 29].

إن الحديث عن اللباس و الريش وستر العورة، وأخذ الزينة، كل ذلك من متعلقات الإنسان وخصوصياته فقط، إذ لا يوجد مخلوق آخر غيره يستقبح عريه ويستبشع ظهور سوأته، ويتخذ إلى ستر ذلك الوسائل والأسباب. ذلك: « أن يستر الجسد ليس مجرد اصطلاح عرفي وبيئي -كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم، وفق الخطة اليهودية البشعة التي تتضمنها مقررات حكماء صهيون- إنما هي فطرة خلقها الله في الإنسان ثم هي شريعة أنزلها الله للبشر.» ①

إذن، فاللباس ميزة "بني آدم" وهي مهمة وأساسية، وأية استهانة بها، فإنما هي استدراج الإنسان إلى عالم البهائم من أجل تدمير مرتكز أساسي في فطرته، والتشكيك في أصالته، ليتسرب بعد ذلك الخلل إلى شبكة القيم والمفاهيم والمعايير، ويتسلل المسخ إلى التصورات و الأذواق، ويتراح الفارق القيمي القائم بين عالم الإنسان وعالم البهائم.

كما أن النداء القرآني بـ" بني آدم" يأتي ليقطع دابر كل تمييز عرقي أو عنصري أو طائفي، فالناس -على ما بينهم من اختلافات- كلهم من آدم، وآدم من تراب.
الإنسانية كالشجرة ذات الأصل الواحد والفروع الكثيرة. وقد يأتي هذا النداء كذلك في مقام الامتنان الإلهي على الناس جميعا بأن ميز جنسهم ونوعهم على كل ما خلق بحسن الصورة واعتدال القامة وكمال العقل ووفرة القدرة على الفهم والفعل، والإحساس بالحاجة إلى المعايير ضابطة للحياة، وإلى أخلاق مسيرة للمجتمع الإنساني، لمختلف عن مجتمعات الحيوان.

كما أن هذه النداءات المتكررة « ترجع بالناس جميعا إلى رحم واحد وأبوة واحدة. ومن شأن اتحاد الأصل تقارب الفروع وتعاطفها. فهي تغرس في نفوس الناس أنهم مهما تنوعت أجناسهم، واختلفت لغاتهم، وتباينت أقاليمهم، أبناء رجل واحد، ركضوا جميعا في صلبه، ثم تناسلوا منه أبناءا و أحفادا وأحفاد أحفاد إلى يوم الدين. وهذه رحِمٌ ينبغي أن تعرف فتشكر وتقدر بالتراحم والتعاطف لا بالتخاصم والتحارب. وهذا أول ما يضعه القرآن من سبل الوحدة الإنسانية البشرية التي ترجع بالناس جميعا إلى منبع واحد، وتضعهم جميعا في مستوى واحد دون تفاضل بينهم إلا بما قد يكون من تفاوت في القصد و العمل.» ②

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① د. عماد الدين خليل: في التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط(3)، 1981، ص107

② الشيخ محمد شلتوت : تفسير القرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأولى، تفسير سورة الأعراف،دار الشروق القاهرة، ط(1)، 1403، ص469

■ البشر:

و هو المستوى الذي يكون فيه هذا "الكائن الواعي" كتلة بيولوجية حية متفاعلة مع ما حولها انطلاقا من "الحتميات" الحياتية المركوزة داخلها، وقد ورد استعمال مصطلح "البشر" في مواضيع كثيرة من القرآن الكريم، منها، قوله سبحانه وتعالى:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: 47].

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: 34].

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: 31].

فحيثما وردت كلمة بشر في القرآن الكريم، فإنها تعني تلك الكتلة البيولوجية، التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، وتنجب الأبناء، وتشعر بتأثيرات البيئة عليها، ولا يمكنها أن تخرق النواميس التي تجري على الكون كله.

في هذا المعنى يقول الدكتور "محمد عزيز الحبابي": « إن الكائن الإنساني معطى خام، يظهر ويصير كلما ازداد اتجاهه نحو الشخصيين، ونحو الاندماج في المجتمع من الأشخاص فهو باق "كائنا" خاما ما لم يظهر للآخرين، وبذلك نتوصل إلى معنى الارتباط بين الكائنات، لأن الظهور لا يكون إلا بالنسبة للآخرين. وهذا الارتباط هو الذي يجعلنا في طريق التشخيص و"الظهور" لا يحمل في ذاته معاني خاصة، إنه يقتصر على كشف "الكائن" باعتباره مادة أولية فقط.» ①

ولا نستطيع القول أن البشر–كمصطلح– يقابل "الحيوان" على الطرف الآخر، ولا يقابله "الإنس" أو "الإنسان" مثلا.

■ الإنس:

وهو مصطلح يعني أولئك البشر، وقد دخلوا طورا ثانيا من أطوار تشكلهم، وهو الطور الذي يشعرون فيه بالميل إلى بعضهم البعض لأنهم يتشابهون.

ويأتي هذا المصطلح في القرآن الكريم مرفوقا أو مقرونا بـ"الجن" التي تعني الاختفاء والضمور والتلاشي، فكأن الإنس نقيض هذا تماما، فهو يعني البروز والظهور. والتشكل في مؤسسات اجتماعية، أي "التشخيص" حسب مصطلح د. "محمد الحبابي"، الذي يرى أن « الكائن ليس شخصا، ولكنه يصير شخصا، فهو القاعدة التي يتأسس عليها الشخص، وهو سند المعاني المجتمعية، وعنه يصدر نشاط المشاركة في الحياة المعشرية وصيرورة التاريخ، فالكائن لا يكون أبدا كائن بشريا، لا إذا حبل بالشخص نعني أن الكائن الذي ينحصر في "الظهور" دون انفعال لتأثيرات المجتمع، كائن خام، لا إنساني.» ②

---

① محمد عزيز الحبابي: من الكائن إلى الشخص، الجزء الأول: دار المعارف، مصر، 1967، ص11

② م.ن ، ص 26

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و قد ورد في القرآن الكريم هذا المصطلح مقرونا بالجن في ثمانية عشر موضعا، منها قوله تعالى:
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].
﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: 39].
﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: 6].

و إذا استطاع الكائن البشري أن يبلغ مرحلة "الإنسية" أو "التشخيص"، فمعنى ذلك أنه قد استطاع أن يعي ذاته، وأن يعي محيطه من حوله، وأن يعي كذلك أنه منفصل ومتميز عن هذا المحيط « فالشخص يفتح أمام الكائن صيرورة لا نهائية ووسائل لتجاوز الذات بالذات تجاوزا نحياه في تجاربنا اليومية، ومن هنا أيضا، وبالتالي يحررنا التشخيص من كل الأنظمة المغلقة الآلية، كما يحررنا من المعتقدات التي تجعل من الإنسان لا حول له ولا قوة لتجاوز وضعه.» ①

- **الإنسان:**

ورد مصطلح الإنسان في القرآن الكريم أكثر من مرة، فهو محور الخطاب القرآني في كل حالاته وأوضاعه، فهـــو مستوى قيمي وإيديولوجي أسمى من "البشرية" فيه ومن "الإنسية" ويرى الدكتور "محمد عزيز الحبابي" أن « الإنسان هو الكائن الذي يبلغ تشخصه درجة من النموّ تجعله، حينما يقوم بنشاط ما، يحقق نوايا ترمي إلى أبعد من الأشياء الفردية.» ②. بمعنى أن الإنسانية فيه درجة من "الوعي" يصل إليها، يصير من خلالها مسؤولا ومكلفا ورساليا. فـــ« الإنسانية فيه ارتقاء إلى الدرجة التي تؤهله للخلافة في الأرض و احتمال تبعات التكليف وأمانة الإنسان، لأنه المختص بالعلم والبيان والتمييز، ومع ما يلابس ذلك كله من تعرض للابتلاء بالخير والشر وفتنة الغرور، بما يحس من قوته وطاقته، و ما يزدهيه من الشعور بقدره ومكانته في الدرجة العليا من درجات التطور ومراتب الكائنات.» ③
فهو إذن مجموعة من المؤهلات والمقومات التصورية المتحررة من ضغط الغريزة لديه، وتسمو إلى الآفاق المثلى حيث القيم والتصورات والمبادئ التي يكسبها الإنسان قداسة ما، حسبما يملي عليه نقاء فطرته وصواب رؤيته، واستقامة تصوره، ويقظة ضميره.

و الله سبحانه وتعالى لم يتجه إلى الإنسان مخاطبا ومكلفا، بصفته خلقة بيولوجية حية، ولا بصفته معطى خام في الاجتماع والاستئناس ببني جنسه، إنما توجه إليه بعدما بلغ مستوى من الوعي، تفصل في شكل تصورات وقيم ومبادئ وأخلاق و سلوكات متحررة من الحتمية الغريزية، أي أنه صار كائنا أيديولوجيا، يمتلك

① م.ن، ص 89
② م.ن ، ص 67
③ عائشة عبد الرحمن: مقال في الإنسان، ص19

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القدرة على تصريف المعرفة والوعي في شكل حرية و إرادة ومسؤوليات وتصورات غائبة، وهذه جميعها تكسب أي عمل يصدر عن هذا الكائن صفة الإنسانية.

من خلال هذا كله نستنتج أن "الإنسان" كائن ذو ثلاث مستويات متكاملة، متنامية عن بعضها بعضا: أ- المستوى البيولوجي (البشرية)، ب- المستوى السوسيولوجي (الإنسية)، ج- المستوى الإيديولوجي (الإنسانية).

فالكائن يصير شخصا عندما يميز ذاته وينتبه إليها، و الشخص يصير إنسانا، بمجرد ما يدرك أهدافه و غاياته، ويصير ذا قدرة على التطور والتخيل.

و إذا كان الإنسان قد بلغ معناه الحقيقي بـــ"الوعي" أي عندما صار يعي ذاته، ويعي واقعه، ويعي إمتداداته في الزمن، ويعي رغبته غي التجاوز، فإن ذلك يعني أن الإنسان "محتواه الفحويّ" أو محتواه الداخلي، الذي يقوم على ثلاثة أعمدة رئيسية هي: - العقل - الحرية – الإرادة . وكلها مكملة لبعضها البعض، ومنبثقة عن بعضها بعضا، إذ لا حرية بلا عقل، ولا إرادة بلا حرية، وإن الوعي -في جوهره- هو تفاعل هذه القوى الثلاثة، العقل والحرية والإرادة.

- العقل:

من تفاعل هذه العناصر الثلاثة تنبثق القيم والتصورات، والأفكار والمشاعر، والتطلعات والطموحات، ورائدها جميعا هو العقل، الذي يعد بذرة الإنسانية في الإنسان، فعليه تنبني المسؤولية، و توضع التكاليف، وما ينجر عن ذلك من عقاب وثواب. ولا فرق بين الإنسان وباقي المخلوقات إلا بالعقل والإدراك، فمن عطله صار في إعداد الأنعام بل هو أضل: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿الفرقان: 44﴾. فإن تعطيل العقل ينجر عنه انحطاط في سلم الإنسانية، ذلك أن « العقل والإنسان صنوان لا يفترقان. بالعقل كان الإنسان سيد المخلوقات. به يذلل الصعب ويذلل الوحشي. ويحيي القفر، ويبدد الظلام وينشر النور. به أخضع الأشياء لسلطانه. وعنت الموجودات لقضائه.. به اقتحم معقل الذرة واخترق أطباق الأرض، وعلا أجواز السماء، وهو في طريقه إلى الشمس والنجوم، إن قوى العقل قوى فذة لا تحد، قوى لا يعدلها شئ في الأرض ولا في السماء، ولا يقارن بها شئ.. فالعقل هو أعلى مراحل الوجود الإنساني، وهو التفسير الكبير للإنسان.» ①.

و إذ أننا لا نستطيع الحديث عن إنسانية الكائن البشري و لا عن وظيفته الوجودية، ومؤهلاته الحياتية، وقدراته في التأثير على محيطه الطبيعي و البشري، لا نستطيع الحديث عن شئ من ذلك دون

① محمد عبد الرحمن مرحبا : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1973، ص22

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أن يكون للعقل النصيب الأوفر في ذلك، بل أننا عندما نقول "العقل" فإننا عنينا الإنسان، وإذا قلنا الإنسان، فإنه يتداعى إلى أذهاننا معناه الأوفى و الأكمل. و هو العقل، و ذلك أن « العقل الإنساني للإنسان هو أداة الإدراك والفهم والنظر والتلقي في عالم الشهادة والحياة والعقل بما أودع من فطرة إلى جانب أنه الوسيلة الأساسية في الحياة والوجود والكائنات، ويبني عليها منطقه ومفاهيمه الأساسية في هذا الوجود. ودون العقل لا يوجد إنسان ولا يوجد إدراك، ولا يوجد فهم و لا وعي، ولا توجد مسؤولية.» ①

و العقل هو الأداة الأولى التي مكنت الإنسان من فهم ذاته وتمييزها، وتمييز باقي الأشياء وفهمها. إذ لم يبق الوجود لدى الإنسان كتلة مبهمة غير متميزة، بل إنه بفضل عقله استطاع أن يحدد كل الأشياء، وأن يضع لها الأسماء، وأن يجد العلاقات القائمة بين هذه الأشياء، وأن يسمى ما ينتج عن تفاعلها من حالات، ولا يكفي العقل هذا فقط، بل إنه يبني أحكاما قيمة وأخلاقية بناء على معرفته للكون والوجود، فما يضره لا يقربه، وما ينفعه استزاد منه. وفي هذا يقول "عباس محمود العقاد":
« ومن خصائص العقل أنه يتأمل في ما يدركه، ويقلبه على وجوهه، ويستخرج منه بواطنه وأسراره، ويبني عليها نتائجها وأحكامها، وهذه الخصائص في جملتها تجمعها ملكة "الحكم" وتتصل بها ملكة الحكمة، وتتصل كذلك بالفعل الوازع إذا انتهت حكمة الحكيم به إلى العلم بما يحسن وما يقبح، وما ينبغي له أن يطلبه وما ينبغي له أن يأبه...» ②

و نجد القرآن الكريم يحتكم إلى العقل في كل شأن إنساني، ويدعو الناس -على اختلاف مشاربهم العقدية- أن يحتكموا إليه دون ضغط من هوى أو إكراه أو تمذهب وتعصب... كم ينعي القرآن الكريم على الذين يعطلون العقل بحجة وبغير حجة، ويستسلمون بعدها لمختلف النوازع والأهواء، التي تجعلهم لا يهتدون إلا قليلا. بل إن القرآن الكريم لينزل بالذين يعطلون ملكة العقل فيهم إلى دركات الحيوانية والبدائية، ويعتبرهم شر مخلوقات الله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿الأنفال:22﴾. بل إنه يعتبرهم أحط رتبة من الحيوانات، لأن هذه الأخيرة لم تسم لتنحط، ولم تكرم بالعقل لتختار عليه الشهوة والهوى. يقول الله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿الفرقان: 44﴾.
وإذا كان القرآن الكريم، يقيم مسؤولية الأفراد على دعائم أساسية، أهمها العقل، فأنه كذلك يبني ما يلقاه المرء غدا يوم القيامة من ثواب أو عقاب على مدى يقظة العقل ونباهته في الحياة الدنيا، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿الملك: 10﴾.

① عبد الحميد أحمد أبو سليمان: أزمة العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط(1)، 1416، ص119.
②عباس محمد العقاد: التفكير فريضة إسلامية، مكتبة رحاب، الجزائر، ص6

و إن العقل و متعلقاته من التدبير والتفكير والتبصر، وغيرها، لتتكرر في القرآن الكريم مئات المرات، بل إنها تعتبر شيئا أساسيا في نسيج القرآن اللغوي و المعنوي و التصوري، ولا يأتي ذكره عرضا و عن غير قصد، كما نجد ذلك في كثير من كتب أصحاب الديانات والملل، إن القرآن الكريم : « لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به و الرجوع إليه، و لا تأتي الإشارة إليه عارضة و لا مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كـل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ و الدلالـة، و تتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المذكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه. » ①. لأن للعقل دوراً قيادياً وتوجيهياً لكل النوازع والغرائز التي تكتظ بها النفس الإنسانية، فهو الذي يضبطها ويوجهها توجيها يحقق من ورائه تزكية الإنسان وفلاح الجماعة الإنسانية. وكم تصير الدنيا فوضى حين تنفلت الرغبات والنوازع الإنسانية تبحث عن الإشباع في غياب العقل كوازع، و مرشد و موجه. حينها تنعدم الحياة الإنسانية بالأساس، لترتكس و تنتكس الجماعة البشرية إلى شريعة الغاب والجاهلية، حيث تنعدم كـل المقومات و القيـم و الأخلاق.

– الحرية:

المقصود بالحرية هنا هي "الحرية الطبيعية" -إذا جاز التعبير-، وهي ذلك الشعور الفطري بالرغبة في تمكين الإرادة وإشباع المشيئة، مهما كانت وجهة الرغبات، وطبيعتها. وليست تلك "الحرية الاجتماعية" التي توفرها المجتمعات المختلفة لأفراد كي يخرجوا مكنون قدراتهم، ويحققوا ذواتهم ويعبروا عن إرادتهم بعيدا عن كل إكراه أو إرغام.

وإذا كانت حرية الحيوان مضبوطة ومحكومة بالغريزة فلا تتعداها، فإن مجال حرية الإنسان أوسع من ذلك بكثير، بحيث يمكنه -انطلاقا من حريته- أن ينساق مع غرائزه وشهواته، ويمكنه أن يعاكسها وأن يقهرها فيسمو عليها ويتحرر منها، بكل إمكانات السمو والتحرر التي يوفرها له العقل والوعي وما يستبطنه من إيمان.

و هذه "الحرية الطبيعية" هي التي تعتبر بحق إحدى المقومات الجوهرية للإنسانية، لأنها تعبير عن الطاقة الحيوية التي تساهم في إعطاء الإنسان ملامحه الإنسانية، وبدون الحرية يكون الإنسان لفظا بلا معنى، وصوتا بغير صدى.......

و قد جعل علماء الاجتماع من الحرية الحد الفاصل بين الحياة في مستواها الإنساني، والحياة في مستواها الحيواني، المسيّرة قهراً من طرف الغرائز التي لا تتحول، فكأنّ الإنسانية والحرية وجهان لعملة واحدة، فحيثما تكون الإنسانية فلوجود الحرية، وحينما تكون الحرية تزدهر الإنسانية.

① م.ن : ص5

جمعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و انطلاقا من هذا فإن الحرية ركن أساس من أركان الإنسانية، فالإنسان دائما تواق إلى تجاوز الحدود و الاحتيال عليها إن لم يستطع. لأنه يظن أن كل حد هو انتقاص من إنسانيته، إنه يعتبر كل المعوقات التي تعترض طريقه تحديا له و لمقومات إنسانيته، و في سبيل هذه الرغبة الكبيرة في الحرية واجه الإنسان الطبيعة، و واجه الإنسان الظالم الطاغي، و واجه حتى الله بالتمرد على أوامره و نواهيه.« منذ وجد الإنسان على هذه الأرض، وجد معه ذلك التوق الأزلي السرمدي إلى التحرر، فإذا هو يسعى إلى التحرر من الخوف ومن الجهل، ومن العوز، ومن المرض، وإلى التحرر حتى من الزمان والمكان، كل هذه ليست في الواقع إلا قيودا إذا أمعنّا فيها النظر أمكننا القول بإيجاز أن حاصلها ليس إلا واحدا هو الاستبداد وتعطيل الحرية، وأن صراع الإنسان عبر التاريخ لم يكن إلا لانتزاع هذه الحرية والخلاص من نير الاستبداد إلى كرامة الاختيار الحر.» ①

إن الحرية الفاعلة هي ليست التي تهبها النظم السياسية لرعاياها، وليست تلك التي تربي عليها المذاهب والأيديولوجيات أتباعها ومعتنقيها، إنما هي تلك التي يولد عليها الإنسان، هي تلك التي تظل تلح عليه وتخفق بين جوانحه حتى وهو يرزح تحت ثقل القيود وراء قضبان السجون.

وبهذا لا يمكن أن نفهم "الحرية" على حقيقتها إلا ضمن نظرية "الفطرة" التي يرتكز عليها التصور الإسلامي، الذي يؤكد على الوعي العميق الكائن في أعماق الوجود، ويتجلى من خلال التناسق الدقيق بين حركة كل أجزائه وقواه، وقد يظهر الفساد في هذا التناسق بما كسبت أيدي الناس، فكذلك الإنسان يولد حرا أي على "الفطرة" لتعمل فيه المؤسسات الاجتماعية عملها، فقد تزكيه وقد تنتكس به، وقد تنحرف به يمينا وقد تميل به شمالا، المهم هو أن المجتمع هو الذي قد يسرب الخلل إلى فطرة الإنسان، كما قال الرسول ﷺ: "يولد المولود على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه".

أما باقي المدارس الإيديولوجية والفكرية فراحت تبحث عن الحرية خارج الإنسان: فـ«نظرية المادية التاريخية تذهب إلى أن الظروف المادية الاقتصادية تحدد الإنسان وتوجهه، وتصنع محتوى شخصيته وإرادته، و الفرد أمام الظروف الاجتماعية ليس سوى إناء خال أو مادة خام محضة، هذه النظرية ترى أن الظروف تصنع الإنسان، لا الإنسان يصنع الظروف، وترى أن الظروف السابقة تحدد مسيرة الإنسان القادمة، لا الإنسان يحدد مسيرة الظروف القادمة... و بناءا على هذه النظرة لا يبقى للحرية أي معنى و مفهوم.

الحرية الإنسانية في الحقيقة لا يمكن تصورها إلا في إطار نظرية "الفطرة" حيث تذهب إلى أن الإنسان

① محمد البعلبكي : الحرية في القرآن الكريم، مجلة دراسات إسلامية، المعهد العالمي للدراسات الإسلامية، بيروت، العدد 3، الموسم الثقافي 1989-1990، ص21

يولد ضمن الحركة الجوهرية العامة للكون مع بعد خاص، وهذا البعد يشكل أساس شخصيته الأولى، ثم ينمو ويتكامل تحت تأثير عوامل البيئة، وهذا البعد الوجودي هو الذي يمنح الإنسان شخصية إنسانية تؤهله لأن يمتطي التاريخ و يتحكم فيه ويعين مسيرته.» ①

و لن يكون هذا البعد الوجودي إلا الحرية والقدرة على الانفصال عن الشروط الموضوعية التي تعمل على إخضاع الإنسان بينما يعمل هو على التحرر منها وتجاوزها.
وكما لا يمكن لأي قوة من قوى الإنسان أن تعمل بمعزل عن الوعي، الذي يزكيها وينميها، ويخط لها وجهة ومسارا، فكذلك الحرية، لا يمكنها -كمعطى خام- أن تصعد المسيرة الإنسانية نحو كمالاتها المثلى، إلا إذا ظهرت في الوعي و اندغمت فيه. وكما جاء الإسلام ليكشف للناس عن الكنز المخبوء في أعماق نفوسهم، وهو الإيمان والحرية، فقد جاء كذلك ليضبطها ويزكّيها وينميها، ويضعها في مسارها الصحيح، لئلاّ تبقى مجرّد إحساس فطريّ، يترع بصاحبه دومًا إلى التمرد على كـل الضوابط، و التملص من أي التزام، لأن ذلك يجر إلى الفوضى وانعدام الصبغة الاجتماعية، للحيـــاة الإنسانية، و انتهاء الدور الاستخلافي للإنسان.

وحين نربط بين "الإنسانية" و"الحرية"، فإننا نربط بين مستويين متكاملين في الوعي، فالإنسانية تعني أن الإنسان قد سَمَا فوق الحتمية البيولوجية، والْتزم بمجموعة من الضوابط اتجاه نفسه واتجاه الآخرين، فكذلك "الحرية الإنسانية" تعني أن الإنسان قد انعتق من الفوضى والانفلات و اللاانتماء.. والْتزم طواعية بأخلاق ومُثل، « لأن الحرية ليست انطلاقا من القيود، بل هي معنى لا يتحقق في الوجود إلا مقيّداً. فالحرّ حقّاً هو الشخص الذي تتجلى فيه المعاني الإنسانية العالية، الذي يضبط نفسه، ويتجه بها إلى معالي الأمور، ولا تنطلق أهواؤه، ولا يكون عبْداً لشهواته، بل يكون سيّداً لنفسه -وإن هذه السيادة النفسية التي يتسم بها الحرّ هي العنصر الأوّل في تكوين معنى الحرية نفسه.» ②
فأحياناً ينحط الإنسان إلى أدنى درجات العبودية وهو يظن أنه يعيش الحرية!... لأن التحرر الحقيقي لا يكون من الإكراه الخارجي في مختلف مظاهره، إنما يكون -بالأساس- تحررا من الإكراه الداخلي في مختلف تجلياته. والذي لا يستطيع أن يحرر داخله مما فيه، لن يستطيع أن يحرّر خارجه وما حوله. فما ينبغي على الذي يكره أن يرى يديه في الأغلال، ما ينبغي له -إن كان حرّاً- أن يجعلها في أيدي الآخرين، وينبغي عليه أن يكره الظلم حتى وإن كان صادراً منه.

و إذا استطاع الإنسان أن يحقق هذه المعاني -أو بعضها- في نفسه وسلوكه، فإنّ ذلك يُعَدّ اللبنة الأساس في قيام المجتمع الإنساني الفاضل.

---

① مرتضى مطهري : المجتمع والتاريخ، القسم الأول، ص64

② محمد أبو زهرة: محاضرات في المجتمع الإسلامي، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، ص17

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و إننا لا نستطيع تصور مفهوم إنساني للحرية في فضاء مائع غائم بلا ضوابط و لا حدود، إنما نتصوره ضمن نسق من القيم والأخلاق الجماعية الملزمة لكل فرد، لأن الحرية بلا ضوابط ولا التزام تصير أنانية مقيتة، تنبع منها كل الشرور، وهذا يكون "الالتزام" -في أي صورة من الصور- هو الحدّ الفاصل بين "الأنانية" كشعور مرضي، وبين الحرية كمقوّم أساسيّ في مشاعر الإنسان.

و إن الحياة الاجتماعي في صورتها الإنسانية، تحتم على أفراد المجتمع أن يتنازلوا قليلا عن شعورهم بالأنا من أجل ضمان حد أوفر وأوفى من الحرية، ومن أجل حمايتها من أن تدوسها أنانية الأقوياء، فكما أن للفرد حريته، فكذلك للمجتمع حريته، ولن يحدث أي تقدم إلا في مجتمع يحفظ حرية المجتمع من أن يتعدى عليها أفراد، يملكون من مظاهر القوة ما يمكنهم من الاعتداء على كل قيم المجتمع، فما ينبغي أن تطغى حرية الفرد على حرية الجماعة، ولا حرية الجماعة على حرية الفرد .وإننا عندما نقرأ القرآن الكريم وتعاليم الإسلام الحنيف، نلمس شيئا مهما جدا، وهو أن الإسلام جاء لكي يهدي قلوب الناس إلى الإيمان الصحيح، وينظم حريتهم أفرادا وجماعات، ويضع لها من الضوابط الملزمة بقوة الإيمان، ما يجعل كل طرف يشعر أنه حر اتجاه الطرف الأخر.« فقد هذبت العبادات النفوس المؤمنة، ليتقدموا بقلوبهم طيبة مخلصة لكل نفع لأنفسهم ولجماعتهم، و إن المجتمع لا يدمج الفرد ويمحوا إرادته، ولكنه يجعل إرادته للخير الجماعي بقوة التدين والضمير، فإن لم يكن ذلك كان بقوة السلطان وحماية الجماعة من أضرار الفردية.» ①.ذلك أن الحرية في المفهوم الإسلامي تتحدد ضمن إطار أخلاقي وإيماني، يرتقي بإنسانية الفرد والمجتمع، ويجعلها تأخذ كمالاتها المثلى في الشعور بالرسالة والالتزام، وما يراه التصور الغربي قيودا تقيد حرية الإنسان، يراه التصور الإسلامي سياجا يحمي "الحرية الإنسانية" من الفوضى و الانفلات.

و بهذا تصير الحرية هي القدرة على تحقيق الذات و الكمالات النفسية ضمن شروط أخلاقية مساعدة على ذلك، تماما كما تساعد التربة الصالحة والماء النقي البذرة على أن تصير شجرة ذات ثمار وظلال.. « هذا هو وضع الإنسان في نظر الإسلام، وهو وضع يدلّ دلالةً واضحة على أن الإسلام يرى أن الإنسان ذو حرية واختيار في حياته، فهو يفعل الخير مختاراً فيُثاب، ويفعل الشر مختاراً فيعاقب. و بتلك الحرية وهذا الاختيار كلفه الله وأرسل إليه الرسل لتهديه وترشده، ثم تركه وما يختار لنفسه من مسلك الخير أو الشر، لا يدفعه بقوة خارجة عن نفسه إلى خير أو شر، و لو شاء ذلك لخلقه بطبيعة الخير فلا يعرف شرا، أو بطبيعة الشر فلا يعرف خيرا، وعندئذ لا يكون هو الإنسان الذي جعله خليفة في الأرض، وكلفه بدينه و شرائعه، و أعد له الثواب و العقاب، ولكن خلقه مختاراً في أفعاله، وبذلك يكون جزاءه في يوم الدين تبعا لما يختاره لنفسه في الحياة. » ②

① م.ن : ص 17

② د. محمد شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، القاهرة، ص49

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و كما أن هناك قيما ومثلا لا تتحقق في غياب العقل المتدبر المتفكر، فإن هناك جملة أخرى من القيم والمثل لا تتحقق كاملة إذا كان الإنسان عبدا مملوكا لآية سلطة كانت، فمع الحرية يمكن فهم الإرادة والمسؤولية، و بناء على الحرية يكون للثواب أو العقاب معنى، « ومع الحرية يمكن فهم الخير والشرّ، فإذا لم يكن الإنسان حرا فيما يفعل أو يترك، فكيف يمكن أن نصف فعله بأنه خير أو شرّ؟، وعلى ماذا يُحاسَبُ وهو مجبَّر لا خيار له. إن يوم القيامة يفقد مغزاه ومعقوليته مع فقد الحرية، فإذا فقدت الحرية فلا مبرّر للمسؤولية. » ①

و رغم مآخذ الفوضويين والمنفلتين على الإسلام، وعلى صرامته الأخلاقية اتجاه مسألة الحرية، إذ يرون في الأسيجة التي تحمي الحرية تقييداً لها وكبحاً، رغم هذا، فإن ذوي النظرة الإنسانية الراقية يؤكدون أن الإسلام قد ساوى بين الحرية والحياة، فجعل الحياة كياناً، والحرية روح ذلك الكيان.
ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ ﴿النساء: 92﴾. نرى أن القرآن الكريم قد جعل دية القتل الخطأ تحرير رقبة مؤمنة، فإذا كان في القتل موت وإفناء فإن في التحرير بعث وأحياءا.. إنها « معادلة الحرية بالحياة، لأن القاتل قد أخرج إنسانا من عداد الأحياء إلى عداد الأموات. ولما كان الرق وكانت العبودية موتا ومواتا، تجعل أهلها في حكم الأموات وكانت الحرية حياة وأحياء، فلقد جعل الإسلام كفارة هذا الذي أخرج إنسانا من عداد الأحياء إلى عداد الأموات أن يخرج إنسانا رقيقا من عداد الأموات – بالرق والعبودية– إلى عداد الأحياء –بالحرية والتحرر– فجاء هذا التشريع رافعا "الحرية" إلى مقام الحياة ومشيرا إلى أن الأحرار أنهم وحدهم الأحياء. » ②، وفي القرآن الكريم نصوص كثيرة أخرى، تتحدث على الحرية كركن أساسي في إنسانية الإنسان، عليها تقوم الحياة الإنسانية المثلى، إذ أضفناها إليها الوعي والإيمان وحمينها من الآفات التي تنخرها كالغرور والكبر وسوء النوايا وفساد الطوايا، وإلحاح الرغبة والشهوة التي تبحث عن الإشباع ولو على حساب حياه الآخرين وحرياتهم.

– الإرادة :

إن الإرادة التي هي فضيلة إنسانية، ميزة أساسية في الإنسان ليست هي الطاقة القادرة على تنفيذ شئ ما، سواء كانت الطاقة عضلية أو ذهنية، إن الإرادة –في هذا الحد وفي هذا التعريف– يمتلكها حتى الحيوان الأعجم.
إذن، فالطاقة المسلطة على تحقيق هدف بتوجيه الوعي أو الغريزة، لا تمتلك صفة الإنسانية، إلا إذا ارتبطت بوجود ذهني للهدف الذي يراد تحقيقه.

① نعمان عبد الرزاق السامرائي : في التفسير الإسلامي للتاريخ، مكتبة المنار، الأردن، ط(1)، 1406هـ، ص 77
② د. محمد عمارة: هذا إسلامنا، خلاصات وأفكار، دار الوفاء، القاهرة، ط(1)، 1421هـ، ص8

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن الحيوان لا يملك رؤية و تفكيرا ولا يملك أن يتصور مقصدا وأن ينشئ له وجودا ذهنيا، ولا أن يعقد النية والعزيمة من أجل تحقيقه في دنيا الواقع، إن الحيوان لا يملك مقدمات الإرادة، ولا يملك الإرادة، وبالتالي فهو مصروف إلى حياته صرفا غريزيا، لا يملك أن يزيد فيه أن ينقص.

و لم يستعمل القرآن الكريم مصطلح "الإرادة"، بل استعمل فعل الإرادة على وجوه مختلفة، منها:

- المقاربة: في مثل قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ﴿الكهف:79﴾.

- الرغبة: في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿القصص:27﴾

- الطلب: في قوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِي﴾ ﴿الذاريات: 57﴾.

- الاختيار: في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ﴿البقرة: 233﴾.

و الإرادة هي مرتكز الذات الإنسانية بعد العقل والحرية، وهي ركائز مكملة لبعضها بعضا، فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يريد إذا لم يكن عاقلا، فإنه لا يستطيع أن يكون حرا بدون إرادة فاعلة، وبهذا تكون « الإرادة هي نشاط الذات المتحركة العاملة، و عنوان حياتها، و هي تجمع بهذا الوظائف النفسية كلها، بحيث تعمل متآخية متآزرة للرد على البواعث و الأفكار المختلفة، و بذلك تصطبغ الشخصية الإنسانية بصبغة الإرادة التي تمثل حاضر الشخص بكل قواه الذهنية و الجسمية والعملية.» ①

و قد ننطلق من الإرادة، ونعطي تعريفا للإنسان فنقول: أنه الإرادة الواعية البناءة، وعلى هذه الإرادة الواعية يصير الإنسان مسؤولا اتجاه ما يحدث عنه من أفعال وأقوال وقد تخضع إرادة الإنسان لتوجيه الغرائز، فينتج فعلا لا يتعدى مدار الغريزة ومتطلباتها، وقد تخضع الإرادة لتوجيهات الفطرة، فيسمو الفعل الإنساني ويرتقي بالإنسان نحو كمالاته المثلى. وقد كان "أرسطو" يسمي الإرادة "الشهوة العقلية"، باعتبار أن الشهوة نزوع وميل نفسي اتجاه ما نشتهيه بحكم الغريزة. أما الإرادة فهي ميل النفس و نزوعها اتجاه ما تريد بحكم العقل، والنزوع الإرادي العقلي هو الذي يميز الإنسان عن الحيوان، « أي أنه الموجود الوحيد الذي يتمكن من العقل بخلاف طبيعته وضد غريزته. في حين أن كلا من الحيوان أو النبات لا يتمكن من التصرف خلافا لطبيعته أو خلافا لغريزته، فلا يمكن أن تشاهد حيوانا يصوم في النهار، ولم نسمع أو نشاهد عشبا من النباتات انتحر من شدة الألم. أو أنجز خدمة كبيرة، أو ارتكب خيانة، أي أنه لا يمكن أن يعمل شيئا خلاف الصورة التي خلق عليها.

① معروف زريق: علم النفس الإسلامي، دار المعرفة، بيروت، ط(2)، 1414هـ، ص52

الإنسان هو الوحيد الذي يتمكن من أن يتمرد على الصورة التي خلق عليها، وحتى على احتياجاته المعنوية والمادية وغرائزه الجسمية، يتمكن من عمل الخير وعمل الشر، يتمكن أن يعمل بعقله أو بخلافه، وهو حرّ أن يكون خيّراً أو شرّيرا، أن يصير ترابيّاً أو ربّانيًا، وهكذا. فالإرادة من أعظم خصائص الإنسان . وعليه، فمن هنا تتضح العلاقة ما بين الإنسان و بين الله الذي نفخ الله فيه من روحه وحمّله أمانته.

إذن فالإنسان هو خليفة الله على الأرض، وهو يستمّد إرادته من إرادة الله. أي أن الله الذي هو وحده في هذا الكون له الإرادة المطلقة، وبإمكانه أن يفعل ما يريد حتى لو كان خلافا للمنظومة والقوانين الكونية، قد نفخ في الإنسان من روحه، والإنسان يتمكن من العمل مثل الله إلاّ أنه ليس بمستوى قدرته، فقط من حيث التشابه يتمكن أن يعمل مثله سبحانه، كل ما يريد وخلافا للقوانين والطبيعة الفيزيولوجية .

بناء على هذا، فإن الاشتراك أو العلاقة ما بين الله والإنسان، هي هذه القدرة على الاختيار، هذه الحرية، حرية الصلاح أو الفساد، حرية الطاعة أو الطغيان.» ①

و ترى الدكتورة "عائشة عبد الرحمن" أن الإرادة ليست رغبة أو ميلا بسيطا فقط، و لا تحدث بمجرد وجود النية أو التفكير في اتجاهها، إنما الإرادة نية و رغبة وعزم يحول النية و الرغبة إلى سلوك عملي، « و مبدأ "الأعمال بالنيات" لا يعني الإلزام بالمسؤولية على مجرد النية، بل يقدر سبق العمد ويفرق بين أعمال تمت بإرادة وتصميم، وأخرى بدرت عن غير نية، فالعبرة عن عمل بسبق نية، حتى مع وجود موانع خارجية تحول دون نفاذ العمل بعد القصد إليه والشروع فيه. وإذا كانت الرغبة تمهيدا الإرادة، وكان العزم من لوازمها، فمن الضروري أن تتدبر استعمال القرآن الكريم لكل من الرغبة والعزم، لعله يضيئ لنا سبيلنا إلى تدبر موقفه من الإرادة.» ②

و إذا كانت الإرادة تتركب من: النية، والرغبة، والعزم والحركة، فقد جاءت هذه المصطلحات في القرآن الكريم متعلقة بالإنسان وليس بالله سبحانه، فقد جاء مضافا للإنسان وليس لله سبحانه. يقول الله سبحانه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ(7)وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: 7-8].

و قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130].

و قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186].

و قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: 115].

---

① د. علي شريعتي : الإنسان والإسلام، تعريب : د. عباس الترجمان، دار الصحف للنشر، طهران، ط(1)، 1411هـ، ص12

② د. عائشة عبد الرحمن : القرآن وقضايا الإنسان، دار العلم للملايين، بيروت، ط(4)، 1981، ص132

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و تقدم الدكتورة "عائشة عبد الرحمن" ملاحظة هامة، وهي أن القرآن الكريم لم يستعمل مصطلح "الإرادة"، بصيغة الاسم أو المصدر، وإنما دائما يستعملها بصيغة الفعل الماضي والفعل المضارع. وتخلص إلى: « أن هذا البيان المعجز لا يعرف الإرادة إلا عملا وفعلا، فليست عنده من المجردات الذهنية التي تختص بها الأسماء والمصادر، ولا هي من الصفات التي تطلق على الأشخاص أو تضاف إليهم. فكأن العبرة في الإرادة بالفعل لا بالتصور أو الوصف أو الادعاء. أما قصر استعمال فعل الإرادة في القرآن كله على الماضي والمضارع دون الأمر، فالذي اهتديت إليه من سره البياني هو أن مناط الإرادة في القرآن الكريم وقوع الفعل، لا الأمر به أو الحمل عليه.» ①

المبحث الثالث : المحتوى الفحوي للإنسان

إن العقل والإرادة والحرية لا تشكل المحتوى الفحوى للإنسان، إنما هي القوى الأساسية المحرضة والمركبة للمحتوى الفحوى للإنسان، بكل ما فيه من عواطف وميول مشاعر، وتصورات وطموحات، وهذه كلها تعمل ضمن نسق نفسي دقيق ومعقد، يتداعى لبعضه بعضا لأقل خاطر يخطر أو وارد يرد، وليس المحتوى الفحوى للإنسان هو مجموع هذه العواطف والحالات التي استطعنا اكتشافها وتسميتها فقط إنما هو حالات و عواطف أخرى لم نجد بعد إليها سبيلا. فالإنسان -في منظور الإسلام- ليس جرْماً صغيرا، بل إنّه كون الأكوان، وممّا يُنسب للإمام "علي" كرم الله وجهه في هذا الشأن قوله :

و تحسب نفسك جُرْماً صغيراً وفيكَ انْطوى العالَمُ الأعظم

و هذا المحتوى الفحوي للإنسان يسميه القرآن الكريم "النفس"، ويجعله هو الأساس لأي حركة تغييرية، مهما كان اتجاهها-تطال الفرد أو المجتمع. قال الله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ﴿الرعد: 11﴾

وكعادة الأسلوب القرآني الكريم، الذي يضرب صفحا عن الجدل العقيم، وعن أي شكل من أشكال الترف الفكري، فإنه هنا، لم يحدثنا عن ماهية النفس، إنما تحدث عن محتواها، الذي يتحكم في واقع الأفراد والمجتمعات ويصوغه في قوالب شتى ومظاهر مختلفة..

يقول "جودت سعيد": « إن القرآن الكريم لم يهتم بكشف الحقيقة عن كنه النفس، لأنه على ما يظهر ليس محل جدوى، إنما اهتم بموضوع التعامل مع الأنفس لتغيير ما بها.» ②. لأن ذلك هو المهم عندما نتناول الأمر في إطار التصور الإسلامي للإنسان و لوظيفته الاستخلافية في الكون.

---

①م.ن : ص134

② جودت سعيد : حتى يغيروا ما بأنفسهم، دار الهجرة، بيروت، ط(8)، 1978، ص58

فالله سبحانه قد خلق النفس الإنسانية بطريقة غاية في الدقة والإتقان، ثم أودع فيها قابلية التزكية وقابلية التدسية، وأعطى للإنسان المفاتيح التي يتسرب من خلالها إلى داخل نفسه ليفتحها ويزكيها وينميها، أو ليتركها كما هي بوراً، تنتكس -بمرور الوقت- في مدارك الحيوانية والبهيمية.

يقول الله سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(8)قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7-10]. فالله خلق وألْهَمَ، والإنسان يزكّي ويدسّ.. فهو حرّ في أن يسمو بنفسه وينميها ويزكيها، ويجعلها تتفق عن قابليات وقدرات ما كانت تخطر على باله، وحر كذلك في أن ينتكس بنفسه أو يتركها هملا، لتضمر بمرور الوقت وتضعف، وتتراجع نحو التخلف.

« و هناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان، هي التي تناط بها التبعية. فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه و تطهيرها و تنمية استعداد الخير فيها، و تغلبه على استعداد الشر فقد أفلح، و من اظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ .

و هناك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه، وتوجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو في حقل الخير وحقل الشر سواء. هي حرية تقابلها تبعة، وقدرة يقابلها تكليف، ومنة يقابلها واجب.» ①

و في القرآن الكريم، نجد أن النصوص الكريمة تربط الحياة المتحركة الحية بالنفس أكثر مما تربطها بالروح أو العقل أو قوة إنسانية أخرى، كما أن تزكية الإنسان تتم من خلال نفسه وكذلك خسارته وبوادره، فكل شئ يحرك خطى الإنسان ويدفعها في اتجاه معين فهو نفس، فإذا تحرك الإنسان انطلاقا من غرائزه، أو في سبيل غرائزه، فإنه بذلك يكون قد خضع وانقاد للنفس الأمارة بالسوء ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [سورة يوسف: 53].

و إذا ما أحس الإنسان بالذنب وتأنيب الضمير، لفعل اقترفه، وراح يشعر أن ذلك الفعل لم ينسجم مع ما يحمل من قيم ومبادئ وتصورات، فتلك "النفس اللوامة" التي تظل تؤنب صاحبها و توبخه حتى ينتهي ويرتدع.

و قد يكون الإنسان ثابتا على مواقفه الميدانية، التي تمليها عليه نفس ثابتة مستقرة، لا تُستغوى ولا تستفز و لا تستدرج إلى مدارك الغريزة والحيوانية.

و هذه المبدأية الثابتة الصارمة، التي هي أهم صفة الإنسان، فإنها تُستمدّ من "النفس المطمئنة"، المطمئنة إلى إيمانها، و مواقفها، ومواهبها و مداركها..

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 6، الجزء 3، ص3919

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و بهذا تكون النفس رمزا أو مجموع كل القوى الفاعلة المنفعلة بما حولها سلبا أو إيجابا، سواء كانت قوى عقلية أو قوى روحية أو قوى غريزية.

يقول في هذا الأستاذ "عباس محمود العقاد": « أما العقل والنفس في بيان القرآن الكريم، فالراجح أن النفس أقربهما إلى الطبع أو القوة الحيوية التي تشمل الإرادة كما تشمل الغريزة، وتعمل واعية كما تعمل غير واعية، وتأتي في مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة للقوة التي يدركها النوم، والقوة التي يرهقها القتل، والقوة التي تحس القوة و العذاب، و تلهم الفجور والتقوى، وتحاسب على ما تعمل من حسنة وسيئة .. فهي القوة التي تعمل وتريد، مهتدية بهدي العقل أو منقادة لنوازع الطبع والهوى، وتوضع لها الموازين بالقسط يوم القيامة.» ①

و تصبح النفس مرادفا للإنسان، أو للذات الإنسانية في القرآن الكريم، فمن زكى نفسه فقد زكى ذاته كلها، ومن دساها، فقد دسّى ذاته كلها وخسرت تجارته في كل أبعادها، و لم يعد يجد معنى لوجوده.

و بهذا تصبح النفس هي مجموع القوى المحركة للإنسان و الجماعة صوب غاياتها، هي الأفكار و المشاعر، و القيم و المبادئ، و الأخلاق والأهواء، و النوازع و الرغبات، و الحالات الروحية المتسامية هي ذلك الكل المختلط المتصارع في ذات الإنسان. و هي عند "ابن سيناء" « حقيقة الآدمي وذاته، فإن نفس كل شئ حقيقته، و هو الجوهر الذي هو محل المعقولات.» ②. ولا يرى الأستاذ "جودت سعيد" هذه الحقيقة وهذا الجوهر إلا « الأفكار، و المفاهيم والظنون، في مجالي الشعور و اللاشعور.» ③

المبحث الرابع : المثل الأعلى

إن هذا المحتوى الفحوى للنفس، بكل ما يضطرب فيه من تعارض و تناقض، لابد له من قوة أخرى تنظمه وتوجهه، وتضبطه وتنسق فيما بينه.

وهذه القوة المحرضة هي التي تكشف عن مخبوءات النفس الإنسانية حين تحركها، نحو هدف أو نحو غاية، أو نحو بديل متصوّر. وبمعنى آخر، فإن قدرة الآنيان على الانفلات من زمنه الحاضر وحالته المعيشة، نحو المستقبل وحالة متصورة أو متخيّلة، هذا الذي يجعل الإنسان يتحرك أو ينجر نحو المستقبل، بعدما رسم في فضائه كل مطامحه و آماله، فالسبب الماضوي غير كافي للإنسان كي يتحرك ويغير في ما حوله. ما لم يتصور بديلا مستقبليا أحسن. ذلك « أن حركة التاريخ تتميز عن كل الحركات الآخرى بأنها حركة غائية، لا سببية فقط، ليست مشدودة إلى سببها، إلى ماضيها، بل هي مشدودة إلى الغاية، لأنها حركة هادفة لها علة غائية متطلعة إلى

① عباس محمد العقاد : الإنسان في القرآن الكريم، المكتبة العصرية، بيروت، ص32

② أبوحامد الغزالي : معارج القدس في مدارج معرفة النفس، شركة الشهاب، باتنة-الجزائر، ص15

③جودت سعيد : حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص51

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المستقبل. فالمستقبل هو المحرك لأي نشاط من النشاطات التاريخية. والمستقبل معدوم فعلا، و إنما يحرك من خلال الوجود الذهني الذي يمثل هذا المستقبل.» ①

و هذه القوة المحرّضة أو الدافعة هي" المثل الأعلى" الذي يقوم بتفسير حاضر الإنسان، أو الجماعة الإنسانية، ورسم أهداف لها و غايات تسعى نحوها و تريد تحقيقها، كاشفة خلال ذلك عن قدر من الحيوية و الانضباط و التكاثف، ولا يمكن أن نتصور جماعة إنسانية بدون شكل من أشكال "المثل الأعلى" الذي يستمد منه التصور والرؤى والحيوية الحياتية، « و بقدر ما يكون المثل الأعلى للجماعة البشرية صالحا وعاليا وممتدا تكون الغايات صالحة وممتدة، وبقدر ما يكون هذا المثل الأعلى محدودا أو منخفضا تكون الغايات المنبثقة محدودة ومنخفضة أيضا. إذن المثل الأعلى هو نقطة البدء في بناء المحتوى الداخلي للجماعة البشرية، وهذا المثل يرتبط في الحقيقة بوجهة نظر عامة إلى الحياة والكون، يتحدد من قبل كل جماعة بشرية على أساس وجهة نظر عامة إلى الحياة و الكون. » ②

و هذا "المثل الأعلى" لكي يكون ذا قدرة على التحريض و التحرك، لا بد أن يكون على مستوى لا بأس به من القداسة في النفس، حتى يتسنى له التحريك و التحريض. من خلال قوة الإلزام التي يوجدها في النفوس، التي يوجهها صوب غاية و هدف انطلاقا من تصور أملاه، و رؤية شكلها، وقراءة اقتنع بها المؤمنون به.

انطلاقا من هذا نستنتج أن الأساس في المحتوى الفحوي للنفس للإنسانية هو "المثل الأعلى" الذي بدونه تنعدم الأهداف والغايات، و ينعدم المستقبل كفضاء للطموح و التجاوز، و إذا انعدم المستقبل فقد انعدمت الحركة، و إذا انعدمت الحركة يكون الفرد أو المجتمع قد شرعا في الموت.

إذن، فكل جماعة بشرية لا تعدم مثلا أعلى، قد يختلف شكلا ومضمونا عن المثل العليا للجماعات الأخرى، لكنه "مثل أعلى" على كل حال، يقدم رؤية وتصوّرا، ويحدد هدفاً وغاية، ويحرّض كوامن النفس، وينتج طاقة تجعل الفرد أو الجماعة تنطلق نحو الهدف أو الغاية... وعلى قدر حيوية المثل الأعلى تكون حيوية النفوس التي تؤمن به. بل على قدر قدسية العلاقة التي تربط بين النفس الإنسانية والمثل الأعلى تكون هذه الحيوية: « و القرآن الكريم والتعبير الديني يطلق على المثل الأعلى في جملة من الحالات اسم الإله، باعتبار أن المثل الأعلى هو القائد الآمر المُطاع الموجّه، وهذه صفات يراها القرآن للإله، ولهذا يعبّر عن كل من يكون مثلاً أعلى، كل ما يحتل هذا المركز، مركز المثل الأعلى، يعبّر عنه بالإله، لأنه هو الذي يصنع مسار التاريخ. حتى ورد في قوله سبحانه تعالى: "أرأيت من اتخذ إلهه هواه" عبّر حتى عن الهوى بأنه إله حينما يتصاعد هذا الهوى تصاعُداً مصطنعاً فيصبح هو المثل الأعلى و هو الغاية القصوى لهذا الفرد أو ذاك. فالمثل العليا بحسب التعبير

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① باقر الصدر: التفسير الموضوعي و التفسير التجزيئي في القرآن الكريم، ص139

② باقر الصدر: المصدر نفسه، ص145

القرآني والديني هي آلهة في الحقيقة، لأنها هي المعبودة حقّاً، وهي الآمرة والناهية حقّاً، وهي المحركة حقّاً ، فهي آلهة في المفهوم الديني و الاجتماعي.» ①

وانطلاقا من كون "المثل الأعلى" هو أسّ الأساس في النفس الإنسانية، نستطيع أن نفهم مقولة "ميشال فوكو" « الإعلان عن "موت الله" حمل معه في الوقت نفسه فعلا "موت الإنسان"» ②

وهذه المقولة من كاتب يوصف بالحيادية، أو على الأقل لا ينطلق من رؤى إيمانية ما، تؤكد اهمية الإيمان، وأهمية "الإله" في أي شكل من الأشكال، في الوجود الإنساني، وكأن المسألة هل "الإنسان يعبد أو لا يعبد" تخطئ في التعبير عن الإشكال، الذي هو في الأصل كالتالي "ماذا ينبغي على الإنسان أن يعبد".

فاتّباع الهوى مثلا أحطّ دركة يمكن أن يصل إليها الإنسان في ارتكاسه وانتكاسه، ورغم أن الهوى هو مجموع الرغبات المتقلبة والشهوات المتغيرة، وعدم وضوح الرؤية، مع تذبذب في المواقف والتصورات، بمعنى أنه فوضى ذهنية ونفسية ومزاجية، رغم أنه هكذا، فإنه يتصاعد ليصير "إلها" يأمر وينهي، ويقدم ويؤخر، ويُعبَد ويُطاع.

قال الله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ ﴿الفرقان: 43﴾.

يقول سيد قطب: « و هو تعبير عجيب يرسم نموذجا عميقا لحالة نفسية بارزة، حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة والمقاييس المعلومة، والموازين المضبوطة، وتخضع لهواها وتحكم شهواتها وتتعبد ذاتها، فلا تخضع لميزان، ولا تعترف بحد، ولا تقتنع بمنطق، متى اعترض هواها الطاغي الذي جعلت منه إلهاً يُعبد ويُطاع.» ③

إذن، فكل نفس تستبطن معبودا ما، ترتبط به ارتباط عابد بمعبود، يُملي عليها كل ما يصدر عنها من حركات و سكنات، وخواطر ومشاعر، ومواقف ومبادئ، ومتى حصل تغيير في طبيعة هذا المثل الأعلى، لابد أن يحصل التغيير في كل ما يصدر عنها كذلك، ولا بد أن يحصل التغيير في المحيط الاجتماعي و البيئي الذي تعيش فيه، من خلال حصول التغيير في تصورّها وتقييمها لهذا المحيط، ومن خلال حصول التغيير كذلك في طبيعة الطاقة التي تحرّكها اتجاهه، و تجعلها تنزع نحو التغيير.

فمهما تكن طبيعة "المثل الأعلى" فإنه لا ينفك عن الصبغة الدينية بأي حال من الأحوال، وذلك لأنه يملك سلطة التوجيه والتسيير و التشريع، و يملك سلطة تقييم الحياة عموماً، وهذه السلطة إذا انبرى لها أحد ما، فإنه يكون قد ادّعى الألوهية. ذلك أن الإله -في القرآن الكريم- هو كل من يملك هذه السلطة على فرد أو على مجموعة أفراد، سواءً أكان حالة أو حجرا أو بشراً أو حيوانا أو حزبا، أو أي شئ آخر.. حتى الهوى عندما يتضخم، ويملك سلطة على صاحبه يصير إلها.

① باقر الصدر : المصدر نفسه، ص147

② ميشال فوكو : الكلمات و الأشياء، نقلا عن : علي حرب : نحو فهم تكاملي للإنسان، مجلة دراسات عربية، العددان 11-12، السنة 19 سبتمبر / اكتوبر 1913، ص432.

③ سيد قطب : في ظلال القرآن . المجلد 5، الجزء 19، ص 2566

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بهذا يكون "المثل الأعلى" هو جوهر "الرؤية الكونية" والمسلكية الوجودية، لأنه « يرتبط في الحقيقة بوجهة نظر عامة إلى الحياة والكون، ويتحدد من قبل كل جماعة بشرية على أساس وجهة نظرها مع ذلك المثل الأعلى، و مع وجهة نظرها إلى الحياة والكون تحقق إرادها للسير نحو هذا المثل وفي طريق هذا المثل. هذا المثل الأعلى هو في الحقيقة يتجسد من خلال رؤية فكرية، ومن خلال طاقة روحية تدفع الإنسان على طريقه، وكل جماعة اختارت مثلها الأعلى، فقد اختارت في الحقيقة سبيلها ومنعطفات هذا السبيل.(...) وهذا المثل الأعلى هو الذي يحدد الغايات والأهداف. و الغايات والأهداف هي التي تحرك النشاطات والتحركات ضمن مسار ذلك المثل الأعلى.» ①

المبحث الخامس : علاقة الفرد و المجتمع بالمثل الأعلى

كما سبق القول، فإن علاقة الفرد أو المجتمع بالمثل الأعلى ، تتسم بقدسية متميّزة، أي أنها علاقة تقديس وعبادة، مهما كانت نوعية المثل الأعلى، ومهما كانت نوعية العبادة من حيث طقوسها و ما شابه ذلك، وليست العبادة تتمثل في الطقوس والمناسك فقط، إنما تمتدّ لتشمل الامتثال للأوامر و النواهي، وتبني الأفكار، والالتزام بالمبادئ، و التضحية في سبيل التصور، والترويج للرؤية وسط الناس، و إخضاع حياة الفرد والجماعة لنمط معين من الأخلاق، هذه الأمور كلها عبادة، مادامت صادرة عن مثل أعلى.

من هنا يكون المثل الأعلى إلهاً، والشيء الصادر عنه ديناً، وعلاقة أتباعه به عباده.

وبما أن المثل الأعلى هو جوهر المحتوى الفحوي للنفس الفردية والنفس الجماعية، فلهذا يكتسب صفة النفيس والمقدّس، لأنه لا يختلف عن الروح في إعطاء الحياة وضمان ديمومتها. من هنا يُفهم سعي الفرد أو المجتمع إلى إضفاء هالة من القدسية على مثله الأعلى، لكي يستمر من خلاله، لأن النفس التي تفرغ من "المثل الأعلى" سرعان ما يتداعى بنياها جميعا إلى الانهيار، وفي شأن هؤلاء يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ﴿العنكبوت: 25﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ ﴿النجم: 23﴾.

فهذه الأوثان هي مثل عليا لجماعات كثيرة من الناس، وإن كانت لا حقيقة لها، ولا فاعلية في النفس والفكر والحياة، فهي إذا تسربت إلى النفوس ملأتها بالوسواس و الظنون، وإذا تسربت إلى الأفكار قلبت فيها الحقائق، وإذا تسربت إلى دنيا الناس أفسدتها و أربكتها، و لكنها رمز لأهواء مشتركة، و ظنون جمعت قلوبـــا مريضة،

① مرتضى مطهري : المجتمع والتاريخ، القسم الثاني ، ص 110

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و ألفت بين أهواء مشتتة وأفكار عليلة سقيمة، فتوافقوا فيها واتفقوا عليها، مجاملة لبعضهم بعضاً، وإبقاء لنسيج هش من العلاقات والمصالح، كانت ستزول وتنهار لو أنهم أخذوا العقيدة مأخذ الجدّ. و « إذا تقدمنا خطوة إلى الأمام، نجد المجتمعات و الأمم التي تعيش هذا المثل الأعلى المنخفض المستمدّ من واقع الحياة، سوف تفقد ولاءها بالتدريج لهذه المُثل، بعد أن يفقد هذا المثل فاعليته و قدرته على العطاء، وبعد أن يصبح نسخة من الواقع. وفقدان الولاء لهذه المثل يعني أن القاعدة الجماهيرية الواسعة في هذه الآمة سوف تتمزق وحدتها، لأن وحدة هذه القاعدة إنما هي بالمثل الواحد، فإذا ضاع المثل ضاعت هذه القاعدة. » ①

و القرآن الكريم كما يجعل لنفس الفرد محتوى فحويّاً متمحورا حول المثل الأعلى، كذلك يجعل للأمة نفسا مشتركة، ذات محتوى فحويّ، متمحور حول مثل أعلى مشترك، يجعل من الأمة أو الجماعة البشرية كيانا واحدا، من خلال ما ينسجه بين أفرادها من علاقات و وشائج. و عن التغيير الذي يحدث الإنعطاف التاريخي ليس هو التغيير الذي يمس كيان فرد أو فردين أو جماعة أفراد، إنما هو التغيير الذي يمس كيان الأمة، ويعيد ترتيب نفسها وفق متطلبات البديل المنشود. يقـول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ﴿الرعد:11﴾، « و لا يُفهم من الآية قصد فرد معين، بدليل أن الله لم يقل : إن الله لا يغير ما بإنسان حتى يغير ما بنفسه. و لا ما يدلّ على شخص فرد، سواءً كان رجلا أو امرأة، مؤمنا أم كافرا. وإنما الحديث عن قوم، عن مجتمع، له خصائصه بما يشمل الرجال والنساء، الصغار و الكبار، بكل محتويات القوم أو المجتمع المعين أو الأمة. وينتج عن هذه الملاحظة، أنه لا يشترط أن يغير الله ما بشخص إذا غير ما بنفسه، كما أنه لا يشترط أيضا أنه لا يغير الله ما بالشخص إن غـير ما بنفسه، لأن البحث ليس عن شخص معـين، و إنما البحث عن مجتمـع بمعناه الخاص، أي باعتباره كيانا واحدا وجسما واحدا، إذ أن الفـرد يمكن أن يتغير ما به في بعض الجوانب، إن غير ما بنفسه، ولكـن ذلك ليس دائما في كل الأمور، فهناك أمور خاصة بالمجتمع، لابد من تغـييرها، حتى ينال الفرد نصيبه من هذا التغيير. وعلى هذا يكون مضمون الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾-ما بمجتمع أو كيان اجتماعي- حتى يغير هذا المجتمع، أو الكيان الاجتماعي، ما بأنفسهم.» ①

و هذه الفكرة هي التي نعني بها الإنسان جوهر حركة التاريخ. فإننا لا نعني الإنسان المنعزل، الذي يقوم برياضات روحية ونفسية ما، أو ذاك الذي يتخذ مواقف معينة من المجتمع، إنما نعني الإنسان المندمج في البيئة الاجتماعية، المنفعل بها والفاعل فيها، الذي ينفتح على الحياة من خلال بنية اجتماعية، ذات متطلبات و غايات، وتصورات و أفكار .

① باقر الصدر : التفسير الموضوعي والتفسير التجزيئي في القرآن الكريم ، ص 159

② جودت سعيد : حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص 31

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و لتوضيح هذه المسالة أكثر، نقدم هذا المخطط التوضيحي:

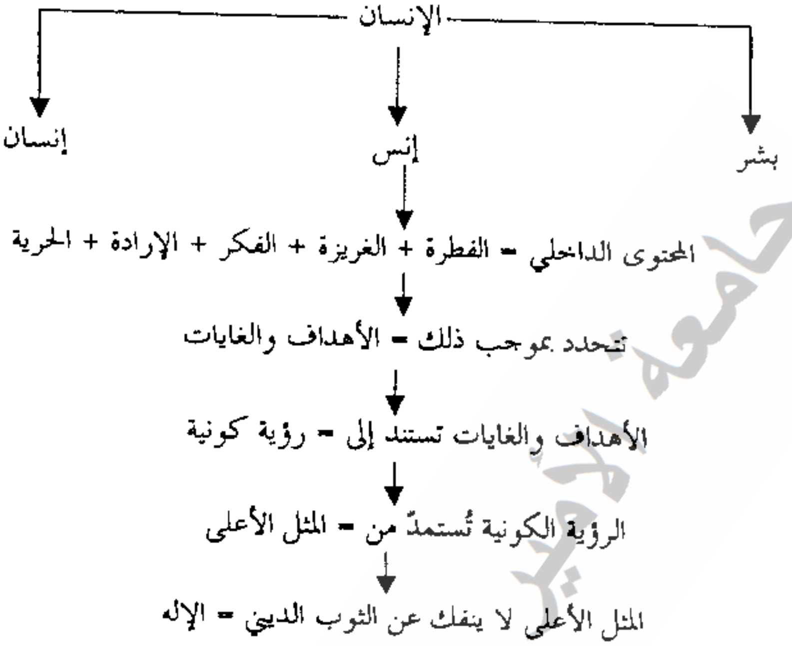

و عندما يكون لكل أمة مثلها الأعلى، أي ما تصطلح عليه بـــ"الإله" فإن الاختلاف بين الناس حاصل لا محالة، ومن هنا يبدأ التاريخ وتنطلق الحضارة.

بمعنى آخر، فإن التاريخ يبدأ لّما يحدث الاختلاف مع "الآخر" في أي صورة كان، والاختلاف يكون في المثل الأعلى، الذي يبدأ لما يضبط بتوجيهاته سيرورة الفعل التاريخي، وهذا يؤدي بالضرورة إلى الاختلاف في الرؤية الكونية، التي تفضي إلى الاختلاف في الأهداف والغايات، التي ينجر عنها الاختلاف في الفكر والإرادة والمحتوى الفحوى للنفس عموما. وهكذا يكون « الإنسان هو مركز الثقل في المسيرة التاريخية، هو مركز الثقل ، لا بجسمه الفيزيائي، وإنما بمحتواه الداخلي، وهذا المحتوى الداخلي هو المثل الأعلى الذي يتبناه الإنسان، لأن المثل الأعلى هو الذي تنبثق عند كل الغايات التفصيلية، والغايات التفصيلية هي المحركات التاريخية للنشاطات على الساحة التاريخية.» ①

المبحث السادس: الإنسان خليفة الله

إذا كان الإنسان هو مركز الثقل في المسيرة التاريخية، فإنه لم يخلق عبثا و لن يترك سدى، بل أنه خلق من أجل وظيفة وجودية كبرى و مقدسة، ممثلة في النيابة عن الله سبحانه في هذه الأرض، بحيث يؤدي وظيفـــة

① مرتضى مطهري : المجتمع و التاريخ، القسم الثاني، ص 133

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التنمية فيها، بما ركب فيه من مواهب وقدرات وكفاءات كثيرة، وكأن هذه الوظيفة الوجـــودية الكبرى هي الإجابة الصـــريحة الفصيحة عن السؤال الذي تبقى أجيال من الإنسانية تردده: لماذا جئت؟ وإلى أين أذهب؟ فتأتي الإجابة صريحة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ «الذاريات: 56»، و إن أكبر درجة تعبدية يحققها الإنسان هي أن يكون في مستوى الاستخلاف الرباني، وفي مستوى الأمانة التي يحملها، وفق الشريعة التي شرعها الله، والمنهج الذي انتهجه لعباده، فبهذا تكتسب الحياة عمقها، والوجود معناه، والإنسان أصالته. والذي لا يعبد أبطل وظيفته الوجودية، وصار يعيش على هامش الحقيقة الوجودية الكبرى، لو انه كان يشعر، انه كالبطال الذي لا يملأ حياته إلا باللغو الفارغ و التسكع المضني، ولنا أن نتصور كم يتعب ويشقى، وكيف تصير كل السبل سبيله، لأنه بلا سبيل ولا هدف، ولا برنامج يملأ حياته، ويضبط حركته وفق حركة المجتمع كله.. « و من ثم يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة، ويتبن أن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر. فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر، والله لا يكلفهم هذا. وهو يكلفهم ألوانا أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم. وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن، ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان، نعرفها من القرآن الكريم من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني، وهي تقتضي ألوانا من النشاط الحيوي في عمارة الأرض، والتعرف إلى قواها وطاقاتها، وذخائرها وكنوناتها، وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها، كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسب مع الناموس الكوني العام.

و من ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني، أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى، أوسع و أشمل من مجرد الشعائر، و أن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعا.» ①

و بهذا تتحرر "الخلافة" كمفهوم من التعرف الفقهي القديم، الذي يحصرها في حماية الشرع والدين فقط، وردّ الشبهات التي يدسها فيه أو يثيرها حوله المبطلون والمغرضون من أهل الملل والنحل الأخرى وأصحاب الأهواء.

إن حماية الشرع والدين خطوة في طريق "الخلافة"، ولابد لها خطوة مكمّلة أخرى، وهي تسيير شؤون الناس وفق مقتضيات هذا الشرع المبيّن في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

و يعرفها "ابن خلدون" على أنها « حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم، وكان الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء، ومن قام فيه مقامهـــم وهم الخلفاء. وقد تبيّن من ذلك معنى الخلافة. وأن الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 3 ، الجزء 27، ص 3387

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

العقلي في جلب المصالح الدنيوية و دفع المضار. و الخلافة هي حمل الكافــة على مقتضى النظــر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها. إذ أحــوال الدنيا ترجع كلها عــند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشيء في حراسة الدين و سياسة الدنيا به.» ①

و في هذا النص الخلدوني ملاحظة هامة، وهي الإلحاح على "حراسة الدين"، لأنّ الدين منهج الحياة وبرنامجها و مرجعية مشروعها الحضاري، فإذا فسد المنهج وانحرف، فإنّ وظيفة الاستخلاف الإنساني على الأرض تتداعى بالفساد والانحراف، وبالتالي تختل الموازين، وتتعطّل وظيفة الخلافة. إذ ليس كل فعل بشري أو حركة إنسانية تُعَدّ استخلافاً، فكلّ عمَلٍ لا يرتضيه المُستَخْلِفُ هو تمرّدٌ وعصيان وانحراف عن خط الخلافة. ومن ثم تكون الخلافة هي الفعل الإنساني الإيجابي المتناسق والمتكامل مع حركة الكون الكلية، المنطلق من منهج الله وشرعه.

يقول الشهيد "سيد قطب" في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ ﴿البقرة: 30﴾. « و إذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلّم لهذا الكائن الجديد في الوجود، زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، و تكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع و التكوين، و التحليل والتركيب، و التحوير و التبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوى و طاقات، و كنوز و خامات، وتسخير هذا كله –بإذن الله– في المهمة الضخمة التي وكّلها الله إليه.

و إذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة، والاستعدادات المذخورة كفاء ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، ووُهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية (...).

وإذن فهي منزلة عظيمة، ومنزلة هذا الإنسان في نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة. وهو التكريم الذي شاءه له خالقه الكريم. » ②

و خلافة الإنسان عن الله، لا تعني التغيير المجرد من القيم، البعيد عن أي هدف، الذي يهدف إلى إحداث أي أثر في الكون، سواء كان ذلك الأثر طيبا أو خبيثا، صالحا أو طالحا، لو كان الأمر كذلك، لكان في وسع الكافر المفسد أن يقوم بشأن الخلافة أحسن قيام.

إن الخلافة –كما يريدها الله– لا تعني هذا مطلقا، إنما هي في حقيقتها سمو بالكون، وبكل ما في الكون، وارتقاء بروحه الكلية نحو القيم الإنسانية الأصيلة والمثل العلى، بعيداً عن النعرات الجاهلية في مختلف تجلياتها، وإن الاستخلاف أساسا يعني أن يقوم الانتماء إلى المستخلف عما دونه من الانتماءات التي سوف تتناثر في سبيل الإنسانية، و تعيق تقدمها نحو هدفها الأسمى، فالخلافة –من هذا المنطلق– ليست وظيفة سياسية، تقوم بها

① عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص191.

② سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الأول، الجزء1، ص56

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الجماعة البشرية، إنما هي انتماء عقدي وتصوري ديني، ورؤية إيديولوجية عميقة للكون والحياة، وبالتالي فلن يستطيع أن يؤديها وأن يقوم بها المنفلتون وعباد الهوى والشهوات المختلفة، وإن ادعوا ذلك وتظاهروا به. وكم هو ضئيل إدعاء هؤلاء إلى جانب عظمة الأمانة وقدسيتها: قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿الأحزاب: 72﴾.

« إنها أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم، القليل القوة، الضعيف الحول، المحدود العمر، الذي تناوشه الشهوات والنزاعات و الميول والأطماع..

وإنها لمخاطرة أن يأخذ على عاتقه هذه التبعة الثقيلة. ومن ثم كان "ظلوما" لنفسه،"جهولا" لطاقته. هذا بالقياس إلى مازج بنفسه لحمله، فأما حين ينهض بالتبعة، حين يصل إلى المعرفة ببارئه، و الاهتداء المباشر لناموسه، والطاعة الكاملة لإرادة ربه، المعرفة والإهتداء والطاعة التي تصل في طبيعتها وفي آثارها إلى مثل ما وصلت إليه وتهتدي مباشرة، و تطيع مباشرة، و لا تحول بينها و بين بارئها و ناموسه و إرادته الحوائل، و لا تقعد بها المثبطات عن الانقياد والطاعة والأداء.. حين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة، وهو واع مدرك مريد، فإنه يصل حقا إلى مقام كريم، ومكان بين خلق الله فريد.» ①

من هنا نفهم وندرك قيمة الكفاءات والمؤهلات التي زود بها الإنسان، و التي نراها متعارضة و متناقضة حين نتناولها مفصولة عن نسقها العام، وعن وظيفتها الرسالية ودورها الوجودي.

و لكن عندما نتناولها ضمن نسقها و ضمن وظيفتها، فإننا نجدها متكاملة متناسقة مع بعضها بعضا، تتحرك بأقدار دقيقة بغية إنتاج وظيفة الخلافة عن الله في الكون.

« و لما كان نهوض الإنسان بهذه المهمة، متوقفا على تسامي نفسه فوق ذاتها، و على تخلصها من عكر الآفات الأخلاقية، و سموم الكبر و الأنانية، رسم الله لهذا المخلوق سبيل رياضة نفسية، ودورات تربوية تتكفل -إن هو أخذ نفسه بها- بتصفية نفسه من تلك الشوائب كلها، وتهيؤه للنهوض بواجبه المقدس على أحسن وجه، وإنما تمثلت تلك السبل التربوية والرياضية بما قد ألزمه.الله به من مبادئ إعتقادية، وسلكه فيه من أنـــواع النسك و العبادات التهذيبية والفضائل الأخلاقية. وهكذا يتبين لك أن مدار الإسلام على النهوض بعمارة الأرض على خير وجه. وإنما شرع الله فيه ما شرع من جزئيات الأحكام السلوكية أو الالتزامات الاعتقادية، تيسيرا للنهوض بهذا الواجب المقدس على النحو الذي أمر به الله عز وجل.» ②

لأن الخلافة عن الله هي الدرجة العليا في سلم العبادات، التي يتقرب بها الإنسان إلى الله، بل هي غاية كل العبادات التي ما هي إلا وسائل لتحقيق هذه الغاية السامية، وهذه الدرجة العليا من العبودية لله. و الإنسان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① يسد قطب : في ظلال القرآن، المجلد ، الجزء 22، ص 2885

② محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الانسانية في القرآن، ص 27

سيد على ما استخلف فيه، وفي نفس الوقت هو عبد لمن استخلفه، فالعبودية الحقيقة لله تنتج السيادة الحقيقية على ما دونه، وإن سيادة الإنسان على الكون تزيد طرديا مع عبوديته لله، فكلما ازداد عبودية لله ازداد حرية وسيادة، حتى إذا صار عبدا كله لله، صار حرا كله، وصار سيدا فعليا على ما هو مستخلف فيه .

لأن مهمة الخلافة عن الله تتطلب عملا دؤوبا وعميقا في ذات الفرد وذات المجتمع، و تتطلب كذلك تعلقا مستمرا بالله، وسعيا دائبا نحوه، ذلك أن:« الخلافة تقتضي أن يكون الهم الأكبر للخليفة ترقيه نحو مستخلفه واقترابه منه، ليحقق معنى الاستخلاف على الوجه الأفضل، و لذلك فإن الإنسان الخليفة جوهر خلافته أن يحصر جهده وهمه في الاقتراب من الله مستخلفه، و ذلك بالعمل الدائب و الكدح المستديم لترقية ذاته وتنميتها.» ①

و الإنسان الخليفة هو الذي يدرك ذاته أساس قبل أن يدرك الآخرين والعالم الموضوعي. بل إنه لا يستطيع أن يسمو إلى مستوى دوره الوجودي المقدس، وهو مجرد رأس في قطيع، أو ترس في آله، أو رقم في أعداد أفراد قبيلة أو دولة. هو الذي يشعر بذاته، و يشعر بتميزها وأهميتها، ثم يشرع في البحث عن تكامل مصلحي مع الآخرين في إطار واضح من القيم والأفكار. لأنه مجبول و مفطور على "حب الذات". وهذا الجانب الفطري فيه، هو نقطة ضعف، ونقطة قوته كذلك.

وقد كان الشيطان يدرك هذا، حين وسوس لآدم قائلا:﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ ﴿طه: 120﴾.« لقد لمس في نفسه الموضع الحساس، فالعمر البشري محدود، والقوة البشرية محدودة، من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة و إلى الملك الطويل، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان.» ② فيغريه بالمحظور، ويزين له الحرام، و يهون عليه القتل وسفك الدماء، فيقبل على ذلك، مادام يحقق مصلحة ذاتية عاجلة أو أجله، حتى نكران الذات بالتضحية والإيثار، فإنه من حب الذات واستجلاب المنافع الخالدة لها، من ثناء مثلا و الذكر الحسن بين الناس.

يقول الله تعالى: "إن الإنسان لربه لكنود، وإنه على ذلك لشهيد، وإنه لحب الخير لشديد"(العاديات:).
يقول الشهيد "سيد قطب" في تفسيره: « فهو شديد الحب لنفسه، ومن ثم يحب الخير، ولكن كما يتمثله مالا وسلطة، ومتاعا بأعراض الحياة الدنيا. هذه فطرته، وهذا طبعه، ما لم يخالط الإيمان قلبه، فيغير من تصوراته وقيمه و موازينه و اهتماماته، و يحيل كنوده وجحوده اعترافا بفضل الله وشكرانا. كما يبدل أثرته وشحه إيثـــارا و رحمة، و يريه القيم الحقيقية التي تستحق الحرص و التنافس و الكد و الكدح، وهي قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيواني بأعراض الحياة الدنيا.
إن الإنسان -بغير إيمان- حقير صغير، حقـــير المطامع، صغـــير الاهتمامات. ومهما كبرت أطماعه، واشتد

① عبد المجيد النجار : خلافة الإنسان بين الوحي والعقل. دار الغرب الاسلامي . بيروت ط (1) 1308 هـ ، ص 47

② سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 4 ، الجزء 16، ص 2354

طموحه، و تعالت أهدافه، فإنه يظل مرتكسا في حمأة الأرض مقيدا بحدود العمر، سجينا في سجن الذات، لا يطلقه و لا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض، وأبعد من الحياة الدنيا، و أعظم من الذات.» ①

وفي هذا الإطار يقول "باقر الصدر" كذلك: « و حبّ الذات هو الغريزة التي لا نعرف غريزة أعمّ منها وأقدم، فكل الغرائز فروع هذه الغريزة وتشعبها بما فيها غريزة المعيشة، فإن حب الإنسان ذاته -الذي يعني حبه للذة والسعادة لنفسه، وبغض للألم والشقاء لذاته. هو الذي يدفع الإنسان إلى كسب معيشته، وتوفير حاجياته الغذائية والمادية، ولذا قد يضع حدا لحياته بالانتحار، إذا وجد أن تحمل ألم الموت أسهل عليه من تحمل الآلام التي تزخر بها حياته. فالواقع الطبيعي الحقيقي إذن، الذي يكيف وراء الحياة الإنسانية كلها ويوجهها بأصابعه هو: حبّ الذات.» ②

و هذا هو المرتكز الأساسي، الذي ترتكز إليه كل الرسالات والعقائد والأيديولوجيات، حين تريد أن تحرك الإنسان وأن تغيره، و أن تسمو به أو ترتكس به كذلك... إنها تتوجه إلى هذه الغريزة، ففيها تكمن طاقته وقوته وضعفه، وحولها تتمحور كل كفاءاته و قابلياته، ومنها يمكن تحريكه من أجل فكرة ما أو أيديولوجية ما أو هدف و غاية، مادام قد اقتنع أن في ذلك خيرا لذاته ومصلحته.

و في هذا يقول: "معروف زريق": « المثل الأعلى قوة دافعة للسلوك. ولا شك أن العمل بموجب المثل العليا يحرر الإنسان من قيود الفردية، ويسمو به إلى المستوى الإنساني الكريم.» ③

ومن هذا المنطلق قد نفهم لماذا كانت "النفس" -أي باللغة المعاصرة، "ذات الانسان"- مفردة أساسية في الخطاب القرآني الكريم، بحيث أنها تتكرر في المصحف الكريم في أكثر من 280 موضعا بصيغ شتى ومختلفة، يدعو في كثير منها إلى تزكية النفس وتنميتها، لتكون في مستوى الطموحات الكبيرة، التي تتمناها في الدنيا والآخرة.

و لأن الإنسان يحب ذاته، فإنه يتحرك ليلتقي بالآخرين من أجل حمايتها والحفاظ عليها، ومن أجل ذلك يتفق مع الآخرين على جملة من المبادئ والقيم. و بهذا تبدأ "الفردية" بالتطور والنمو في الإنسان لتصير "شخصية" ويبدأ في الانفكاك عن "النوع" ليرتبط بالمجتمع ويندمج فيه.

يقول "مالك بن نبي": « إن العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغير الفرد من كونه "فردا" "INDIVIDU" إلى أن يصبح شخصا "PERSONAGE" وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع، إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع.» ④

---

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 6، الجزء 30، ص 3957

② باقر الصدر : المدرسة الاسلامية، دار الكتاب الايراني، بيروت 1401 هـ ، ص 87

③ معروف زريق : علم النفس الاسلامي، ص 185

④ مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ت. عبد الصبور شاهين ، دار الفكر – دمشق ، ص 28

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و هذا الذي يرشح الفرد لأداء دوره الاستخلافي، مزودا بنزعة فردية أصيلة، و حب للذات ثابت لا يتغير، وميل فطري إلى الاجتماع بالنوع بغية تشكيل المجتمع الإنساني. لأننا عندما نقول: إن الإنسان هو مركز الثقل في المسيرة التاريخية، لا نعني به الإنسان "الفرد" المنعزل عن أي مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية، إنما نعني ذلك الإنسان الاجتماعي الذي ترشحه مواهبه وكفاءاته إلى التفاعل مع الآخرين، أخذا وعطاء ضمن شبكة من العلاقات الاجتماعية نامية، ومتطورة نحو الأكمل والأحسن، يخضع الإنسان ضمنها لعملية تزكية أو تدسية، حسبه أنه يكتسب و يفقد يوميا.

يقول مالك بن نبي: « و يذهب يونج إلى التمييز بين جانبين في الفرد: القناع LE PERSONA. و ما وراء القناع، وأطلق عليه كلمة الظل (L'OMBRE) ويقصد بالقناع الجانب المتجه ناحية المجتمع، و يقصد بالظل الجانب المتجه نحو الطبيعة و الغريزة، أي نحو ما هو حيوي.

و الظل هو مجال الطاقة الحيوية في حالة البدائية غير المتكيفة، بالنسبة للحالة الاجتماعية، هو مجال الغرائز الناشطة فرديا، كل غريزة من أجل إشباع ذاتها، دون أي قانون آخر سوى هذا الإشباع.

والقناع هو المجال الذي تتم في عملية تكييف هذه الطاقة الحيوية الخام، من أجل تحولها إلى طاقة قابلة للاستخدام اجتماعيا، و هو المجال الذي يصبح فيه الأفراد المهذبون المثقفون وسائل في خدمة ضمير، كما يتم اتصالهم بالحياة عن طريق الضمير، لا عن طريق الغريزة مباشرة.

إنها عملية إدماج رئيسية تمنح نشاط الغرائز كل فعاليته الاجتماعية، حين تضع طاقاتها الحيوية في خدمة الأفكار والمبادئ.

فالإنسان يجب أن يشرب، ويأكل وينسل ويملك ويكافح من أجل استمرار النوع، ولكنه يجب أن يراقب هذه الأعمال الأولية جميعها، وأن يوجهها لغايات تتفق وتقدم النوع. وهو بهذه الطريقة يشترك واقعيا في عمل الله عز وجل، ومع ذلك فهو محكوم -إذا ما نظرنا إلى الأمر من الناحية الدينية- تبعا لهذا النشاط المنوط بتكليفه الديني، أعني تبعا لخضوعه لقانون التقدم الأخلاقي، فإذا ما حملته طبيعته على العمل، فإن ضميره هو الذي يعطي لعمله معنى تاريخيا وأخلاقيا.

وهكذا يعمل الإنسان بداع من طبيعته من أجل الحفاظ على النوع، و بوحي من ضميره من أجل تقدمه، فهو إذن مزود بسلطة مزدوجة، و لكن التكليف هو الذي ينظم العلاقة الداخلية لهذه السلطة المزدوجة، بحيث يكون عمل الغرائز واندماجها مطابقا لرسالته الاجتماعية.» ①

و ليس مستبعدا أن تكون هذه الطبيعة المزدوجة للذات الإنسانية هي التي جعلت الملائكة يتوقعون ما سوف ينجر عنها من فجائع و ويلات، و ما سوف يعتري مسار الخلافة عن الله من انحراف و نكوص، فإن كانتا

① م.ن : ص 64

تتساوى فيه قوة الخير وقوة الشر، وتتساوى فيه القدرة على الفجور والقدرة على التقوى، والرغبة في السمو نحو هتافات السماء، و الرغبة في الانشداد إلى الطين، بكل ما يرمز إليه الطين.

إن كائنا مركبا بهذه الطريقة، لا يمكن استئمانه بالشكل الكافي في أن يتولى مهمة ما نيابة عن الله سبحانه وتعالى.. فما أظلم هذا الكائن وما أجهله!!.

لقد كانت الملائكة تريد لهذا الكائن أن يقهر بقانون حتمي يصرفه عن الشر صرفا كليا، ويخضعه لسيرورة الحق إخضاعا، ويجبره على ذلك إجبارا، كباقي الكائنات الأخرى.

« لكن فاتهم أن الكائن الحر الذي جعله الله تعالى خليفة في الأرض، لا تعني حريته إهمال الله تعالى له، بل تغيير شكل الرعاية، فبدلا من الرعاية من خلال قانون طبيعي لا يتخلف -كما ترعى حركات الكواكب ومسيرة كل ذرة في الكون- يتولى الله سبحانه وتعالى تربية هذا الخليفة وتعليمه لكي يصنع الإنسان قدره ومصيره، وينمي وجوده على ضوء هدى وكتاب منير.

ومن هنا علم الله تعالى آدم الأسماء كلها، وأثبت للملائكة من خلال المقارنة بينه وبينهم أن هذا الكائن الحر الذي احتباه للخلافة قابل للتعليم والتنمية الربانية، و أن الله تعالى قد وضع له قانون تكامله من خلال خط آخر.» ①

و إذا كان ليس في مستطاع الفرد الإنساني أن يمارس وظيفته الخلافة وهو في حالة عزلة عن الحياة الاجتماعية، فإنه لن يتمكن من ممارسة تلك الوظيفة إلا بالوعي. لأن التغيير المجرد من الوعي بكل مقوماته، لا يدخل في نطاق التغيير الاستخلافي، لأن الطبيعة -وما في الطبيعة- تقوم بذلك، وبدقة متناهية كذلك، دون أن تدعي أن ذلك منها استخلافا أو تحملا لأمانة أبت أن تحملها وأشفقت منها أول مرة.

إن التشغيل الواعي للطاقات، والتوظيف المتبصر للقدرات التي وهبها الله للإنسان، بغرض أحداث التغيير في وجه الكون الخام، إبرازا لقدرة الله سبحانه وتعالى، وتنفيذا لأوامره ومشيئته، على هدى من شرع الله و منهاجه، وهذا كله هو الاستخلاف الذي « يعني الفعل الحضاري في الكون ضمن ما هيأه الله للإنسان من قدرات ووعي، يتكافأ وأوضاعه الكونية، وبمعنى آخر معاودة الاندماج في الرحم الكوني بالوعي، بعد أن تم الانفصال عنه بالخلق.» ①

المبحث السابع : اختلاف الناس و انقسام المجتمع

يشير القرآن الكريم إلى أن الناس كانوا أمة واحدة في بداية عهدهم بالحياة على هذه الأرض، بعدما تصدوا لأمانة الاستخلاف، وكانت هذه الأمة الواحدة محكومة بروح الفطرة التي تعني الميل الطبيعي إلى الحق

① باقر الصدر : الاسلام يقود الحياة – وزارة الإرشاد الإسلامي، طهران ط (2) 1403، ص 138

② أبو القاسم حاج حمد : العالمية الاسلامية الثانية ، ص 172

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و الخير، ما لم تكن هناك ضغوط داخلية أو خارجية على هذه الفطرة، و محكومة كذلك بغريزة الاجتماع لدى الإنسان، وهي غريزة قاهرة على أية حال.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ ﴿يونس: 19﴾.

وقال سبحانه تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ ﴿البقرة: 213﴾.

وإذا عرفنا أن "الأمة" « مجتمع من أبناء الإنسان متحدين فكراً وعقيدةً ومذهباً وطريقاً، لا على مستوى الفكر فحسب، بل على مستوى العمل أيضا.» ①

إذا عرفنا هذا أدركنا في أي شئ يمكن أن يختلف الناس، –رغم أنهم بحكم خلقتهم تركيبهم النفسي والشعوري– قد خلقوا ليختلفوا، « لأن هذا الاختلاف أصل في خلقتهم، يحقق حكمة عليا من استخلاف هذا الكائن في الأرض.. إن هذه الخلافة تحتاج إلى وظائف متنوعة، واستعدادات شتى من ألوان متعددة، كي تتكامل جميعها وتتناسق، وتؤدي دورها الكلي في الخلافة والعمارة، وفق التصميم الكلي المقدر في علم الله، فلا بد من تنوع في المواهب يقابل تنوع تلك الوظائف، ولا بد من اختلاف في الاستعدادات يقابل ذلك الاختلاف في الحاجات.» ②

وفي شأن الاختلاف يقول "مرتضى مطهري" في مقام تعليقه على قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿الزخرف: 32﴾.

يقول "مرتضى مطهري": « إن الآية الكريمة تتحدث عن اختلاف القابليات والمؤهلات، وتفاوتها بين أبناء البشر. و لو كانت الكفاءات و القابليات متشابهة متساوية تماما لما حدث احتياج متبادل بين الأفراد، و لما تم الارتباط و الأخذ و العطاء بينهم.خلق الله بني الإنسان متفاوتين ومختلفين في الكفاءات والإمكانيات الجسمية والروحية و العقلية و العاطفية، و رفع بعضهم فوق بعض درجات في مجالات معينة، وربما رفع هذا البعض على ذاك درجات في مجالات أخرى، وبهذه الطريقة جعل جميع الناس محتاجين لبعضهم، ومنتفعين إلى الارتباط ببعضهم، وبذلك تتكون الحياة الاجتماعية.» ①

من هذا المنطلق، يتبين لنا أن الناس قد خلقوا متساوين من حيث القدرة على تحصيل منافعهم الطبيعية وتحقيق حاجاتهم الأصيلة، بحيث لم يخلق الله إنسانا مكتفيا بنفسه، غير محتاج إلى الناس، ولم يخلق إنسانا لا حاجة للناس فيه.

لكن عندما فقدت الحياة الاجتماعية براءتها الفطرية، وتخلصت النفس الإنسانية من سذاجتها الأولى، و برز

① علي شريعتي : الأمة و الامامة – ت .أبو علي،مؤسسة الكتاب الثقافية، ص 62

② سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 01 ، الجزء ، 02 ، ص215

المجتمع التاريخي، وما انبثق عنه من قيم و معايير وأنماط سلوك واستهلاك، حينها بدأت معايير البشر في ترتيب الناس و تصفيتهم حسب حظوظهم من مقدرات الحياة، « و بدأ الاستقلال و التناقض في المصالح، و التنافس على السيطرة و التملك، وظهر الفساد و سفك الدماء، و ذلك لأن التجربة الاجتماعية نفسها و ممارسة العمل على الأرض نمت خبرات الأفراد ووسعت إمكانياقم، فبرزت ألون التفاوت بين مواهبهم وقابلياقم، ونجم عن هذا التفاوت اختلاف مواقفهم على الساحة الاجتماعية، وأتاح ذلك فرص الاستغلال لمن حظي بالموقع الأقوى ، وأنقسم المجتمع بسبب ذلك إلى أقوياء وضعفاء ومتوسطين، وبالتالي إلى مستغلين ومستضعفين، وفقدت الجماعة البشرية بذلك وحدقا الفطرية.» ①. وهذه الوحدة الفطرية تفككت وانقسمت لآن الفرد قد أكتشف ذاته أكثر، من خلال انعكاس مقدراقا المخبوءة ورغباقا الكامنة على صفحة الطبيعة والمحيط الاجتماعي، وصار يشعر كل فرد بمعنى الفقد والاكتساب، وما يحدثه الفقد من ألم، وما يحدثه الاكتساب من لذة، وهذا بدأت أشياء المحيط الطبيعي تأخذ قيمتها ضمن المحيط الاجتماعي، انطلاقا من رؤية اجتماعية وكونية ما.

لأن الإنسان عندما يعيش وحيدا في مجال طبيعي، فإنه لا يجد الرغبة، بل لا يجد الدافع إلى أن يقول :هذا لي ، و ذاك لك ، و ذلك للأخر ، و الباقي نحن جميعا فيه شركاء.

فالمحيط الإجتماعي هو الذي يكشف و ينمي الكثير من القوى الفطرية و الغريزية المركوزة في نفس الإنسان التي توجد المصلحة الخاصة و تدفع إليها. بينما الوجود الإجتماعي يوجد المصلحة الإجتماعية العامة و يسعى على تحقيقها من خلال حمل الكافة عليها و دفعهم إليها ، بإيجاد حوافز ذلك.

وكثيرا ما تتعارض المصلحة الاجتماعية مع المصلحة الفردية لتعارض الدوافع و الحوافز إلى كلا المصلحتين.

ثم إن الدوافع نحو المصلحة الطبيعية الفردية لا تحتاج إلى جهد أو تحريض ما، لأن الإنسان يندفع إلى تحقيقها غريزيا أو يكاد أن يكون كذلك. بينما الدوافع نحو المصلحة الاجتماعية تحتاج إلى وعي جمعي، و توجيه اجتماعي و تموقع ضمن رؤية ما ، يقتنع الإنسان الفرد من خلالها انه سيحقق مصلحة أكبر لذاته

« و في هذا الضوء نعرف الفارق الأساسيّ بين المصالح الطبيعية والمصالح الاجتماعية، فإن الدوافع الذاتية للأفراد لا تصطدم بالمصالح الطبيعية للإنسانية، بل تدفع الأفراد إلى إيجادها واستثمار الوعي التأملي في هذا السبيل، وبذلك كان النوع الإنساني يملك الإمكانات التي تكفل له مصالحه الطبيعية، بصورة تدريجية وفقاً لدرجة تلك الإمكانات التي تنمو عبر التجربة. وعلى العكس من ذلك المصالح الاجتماعية، فإن الدوافع الذاتية التي تنبع من حب الإنسان لنفسه، و تدفعه إلى تقديم صالحه على صالح الآخرين، عن تلك الدوافع تحول دون استثمار الوعي العملي عند الإنسان استثماراً مخلصاً في سبيل توفير المصالح الاجتماعية، وإيجاد التنظيم الاجتماعي الذي يكفل المصالح وتنفيذ هذا التنظيم.

① مرتضى مطهر : المجتمع والتاريخ، القسم الأول، ص 15

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و هكذا يتضح أن المشكلة الاجتماعية التي تحول بين الإنسانية وتكاملها الاجتماعي هي التناقض القائم بين المصالح الاجتماعية و الدوافع الذاتية، وما لم تكن الإنسانية مجهزة بإمكانات للتوفيق بين المصالح الاجتماعية والدوافع الأساسية التي تتحكم في الأفراد، لا يمكن للمجتمع الإنساني أن يظفر بكماله الاجتماعي.» ①

في هذا النص، يؤكد المفكر الإسلامي "باقر الصدر" عن مصدر العراقيل القديمة المتجددة -والتي يؤكد أنها طبيعية وأساسية- التي تمنع الإنسانية من تحقيق كمالاتها المثلى بدون كدّ أو معاناة. ويرجع ذلك إلى وجود كيانين قائمين واقعيا، وتبدو مصالحهما متعارضة، الكيان الأول هو "الوجود الاجتماعي"، أما الثاني، فهو "الوجود الفردي"، و المصلحة الاجتماعية تتعارض مع الدوافع الذاتية لدى الأفراد، وبالتالي يُفترض عدم تحققها، لأن هذه الدوافع تتحرّك عكس المصلحة الاجتماعية، التي لا تتحقق إلاّ على حساب مصلحة الأفراد. بينما تتحرك هذه الدوافع الذاتية لتحقيق المصلحة الطبيعية للمجتمع، لأنها تتّسق تماما في إطار مصلحة الأفراد، وهذه الدوافع الذاتية تتحرّك لعرقلة المصالح الاجتماعية، لتعارضها مع المصلحة الفرديّة.

إذن، فلابدّ من تنظيم ما يجعل المصالح الاجتماعية جزءاً من المصالح الفرديّة، وذلك من خلال السموّ بالدوافع الذاتية، وتصعيد الرؤية الكونية لإحداث التوفيق المتكامل بين المصالح الاجتماعية والدوافع الأساسية التي تحرّض الطاقة الكامنة في الذات الإنسانية.

حصول التفاوت في تحصيل طاقات الحياة :

يتدخل المثل الأعلى والرؤية الكونية، في تحديد نصيب الأفراد والمجتمعات من الطاقات المادية للحياة، من خلال إمدادهم بالطاقة المحرّضة في سبيل ذلك. ومّما لا شك فيه أن حماس الإنسان لملذّات الحياة ونعيمها، يتحدّد من خلال رؤية وتصور؛ فهناك فرق بين إنسان ينظر إلى الحياة من خلال شوطها الدنيويّ القصير المحدود، وآخر ينظر إليها على أنها جسر ومعبر إلى حياة أخرى، هي الحياة الحقيقية، لأنها هي الخالدة.

فكل واحد يصوّب ويوّجه قوته صوب هدفه، ويحرّكها في إطار مضمارها. ولا بد أن يحصل الفرق بين من ينظر إلى الساحة الكوني كهدف وغاية، ومن ينظر إليها كزادٍ ومعبر إلى هدف آخر غاية أخرى... وما أحرص النفوس -التي تنظر إلى الحياة من خلال شوطها القصير المحدود- على جمع المال وكل أسباب الغنى، لأنها، « لا تدرك ذاتها ومتعها إلاّ من خلال إشباع ما لدى الإنسان من غرائز وشهوات، وهي على هذا الأساس تجد في المال -بوصفه مالا- وفي تجميعه وادّخاره، والتنافس فيه الهدف الطبيعي الذي يضمن للإنسان القدرة على امتصاص أكبر قدر ممكن من الحياة، وتحديدها نوعيّاً وكمّياً، أي على الخلود النسبي بقدر ما تسمح به إمكانات الحياة المادية على الأرض.

① محمد باقر الصدر : اقتصادنا، ص 302

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و كان هذا التصور للحياة ولدور المال في تحديدها هو الأساس لكل ما زخرت به المجتمعات الجاهلية من محاولات الاستزادة والتكاثر وألوان التناقض والاستغلال، لأن المسرح محدود، واللاعبون كثيرون، وصاحب الحظّ السعيد من يحصل على أكبر عددٍ من تلك الأوراق، ولو على حساب الآخرين.» ①

و هناك نفوس أخرى لا تنغمس في هذه النظرة أو الرؤية انغماساً كلّيا، بل إنها تنظر إلى الحياة باعتبارها معْبراً وزاداً إلى حياة أخرى، فتنطلق في جمع مقدرات الحياة ومتعها من خلال رؤيتها، ومن خلال تقييمها للأشياء. وتبتكر من المصالح وتنمّي من الحاجات قدْر ما تحتاج إليها في سبيلها.

ولنا في قصة "ابني آدم" نموذج رائع، فهي ترمز إلى أنّ ما وقع بين أخوين، هو الذي يقع بين عائلتين، أو بين شعبين، أو غير ذلك.

كما أن طبع الاعتداء والقتل، وطبع الوداعة والمسـالمة، شيئان كان يستبطنهما الفرد الذي هو "آدم". يقول الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(27)لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ(28)إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ(29)فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ «المائدة: 27-30».

و مهما تضاربت الروايات في تفسيرها هذا النص الكريم، فإن الذي لا خلاف فيه، هو أن كل واحدٍ من ابني آدم قد اختار قرباناً لله، قربانا من حرّ ماله ورزقه، وكل واحدٍ منهما قد حدّد قيمة هذا القربان، حسبما قدّر مصلحته وحاجته، ودون أن يحدد النص الكريم الجهة الغيبية التي تقبّلت قربان هذا و لم تتقبّل قربان ذاك، فإنه ينص على طبع الحسد و الغيرة في صدر أحدهما، فاندفع تحت إلحاح هذا الطبع فقتل أخاه، فأصبح من النادمين.

يقول "د. علي شريعتي": « تريد هذه القصة أن تقول: كيف أن الوحدة الإنسانية، التي كانت كلها من نوع واحد، وكان ذلك النوع هو آدم، كانت متساوية. كل أفراد البشر كانوا إخوة، وهذه الأخوّة انجرت إلى التضاد. لقد انقلب الأخوان إلى عدوّين، أي أنّ الوحدة الإنسانية انقلبت إلى تفرقة وخصومة إنسانية.» ②

ثم يتساءل الدكتور "علي شريعتي" عن السبب الذي أدّى إلى سفك أوّل دم في التاريخ، و أدّى بالتالي إلى تمزيق الوحدة الإنسانية التي كانت قائمة على التصور الفطري للحياة، وكيف صار المجتمع الإنساني الأول مجتمعين و الـــ "نحن" الأولى، صارت اثنين "أنا" متناقضين متقاتلين؟، رغم أن الظروف الاقتصادية و الشروط التربوية واحدة، ثم يجيب عن ذلك بقوله: « إذا فالأمر واضح تماماً، إنّ أوّل قتل أخٍ بدأ في المرحلة التي فكــّر فيها الإنسان بالملكية الانفرادية و الانحصار الفردي. فانقلبت الوحدة الإنسانية تفرقة إنسانية، وصلة الأخوة البشرية

---

① محمد باقر الصدر : الإسلام يقود الحياة ، ص34

② علي شريعتي : الإنسان و الإسلام ، ص 36

انقلبت إلى صلة قاتل ومقتول. أي أن التاريخ –بمقتولية هابيل وقاتلية قابيل– ينتقل من مرحلة الوحدة الإنسانية إلى مرحلة التمييز الإنساني، ومن مرحلة أصالة النوع البشري إلى مرحلة أصالة الفرد البشري، وحبّ الانفرادية للنوع البشري (...). و خلاصة الموضوع، أن قابيل الذي يبقى، نرى أنه يضع الإيمان بالله جانبا، ويضحّي به لمصلحته الخاصة، ويضع أباه –آدم– جانبا، ويضحي به أيضا لمصلحته الخاصة. يضع أخاه جانبا ويقتله ويضحي به لمصلحته الخاصة.» ①

فهذا النموذج البشري المتكرّر، قد استسلم بالكلية لشهواته، ومضى يلبّي رغباته، دون أن يقيم اعتبارا لدين أو قيم أو أخلاق، لا يرى إلا نفسه، ولا يحسب إلاّ لمصلحته، تضخّم في نظره المال والتكاثر حتى صار هو هدفه النهائي وغايته الأسمى.

و ليس غريبا أن يكون حظّ صاحب هذا التصور من متاع الحياة أوفر من نصيب الآخر الذي له تصوّر مغاير، الذي يأخذ كل طاقات الحياة ضمن رؤية كونية واسعة، فيعطيها وزنها الحقيقي وحجمها الطبيعي، ووظيفتها التي خُلقت لأجلها، ضمن فضاء اجتماعي إنساني متناغم متكامل، معتبراً أن امتلاك طاقات الحيـاة « من الأهداف المهمة، ولكنه هدف طريق، لا هدف غاية، فليست الثروة هي الهدف الأصيل الذي تضعه السماء للإنسان الإسلامي على وجه الأرض، وإنما هي وسيلة يؤدّي بها الإنسان الإسلامي دور الخلافة، ويستخدمها في سبيل تنمية جميع الطاقات البشرية والتسامي بإنسانية الإنسان في مجالاتها المعنوية والمادية.»②

وهناك نماذج أخرى من الناس تجمع المال وتكدّسه، لتقهر به قناعات الآخرين، وتشتري به الذمم، وتنتهك به الأعراض، و تنتكس بالإنسانية في مجالاتها المعنوية و المادية.

و خير نموذج يقصه علينا القرآن الكريم، هو نموذج "قارون" الذي كان من قوم "موسى" فبغى عليهم بجمعه للمال وتكديسه وعدم إنفاقه في وجوه الإنفاق، حتى صارت مفاتيح خزائنه تنوء بالعصبة أولي القوة، وحين خرج على قومه في زينته مزهواً ومفاخراً صار الناس فيه فريقين: فريق يتمنىّ أن يكون مثله، وفريق آخر يرى أنه كان أولى بهذا الرجل أن يحسن التصرف في المال جمعاً وإنفاقاً، وأن يعرف حقّ الآخرين فيه، وأن يتناوله بروح إيمانية. يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿القصص: 76-78﴾.

① م.ن : ص 36

② باقر الصدر : الإسلام يقود الحياة ، ص 35

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهذا الغنيّ النموذج قد وجد من قومه من يذكره بوظيفة المال، وبأحسن طريقة للتصرّف فيه، فقد نصحوه ألا يفرح كثيرا بما سوف يزول، وألا يترك هذا المال يستخفه، ويدفعه إلى الرياء والتطاول عل الناس، كما نصحوه، أن يبتغي بماله الآخرة بالأساس، دون أن ينسى نصيبه من الدنيا، وعليه أن يحسن إلى الذين تحته، كما أحسن الذي فوقه، وألا يتخذ ماله وسيلة للإفساد في الأرض، الإفساد في شتى صورة، « و في هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم، الذي يعلّق قلب واجد المال بالآخرة. ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذا الحياة. بل يحضّه على هذا ويكلفه إياه تكليفا، كي لا يتزهّد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها. لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس، وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها، فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض. ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة، فلا ينحرفون عن طريقها، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها (...) وهكذا يُحقق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة، التي لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة.» ①

فالتفاوت في تحصيل طاقات الحياة، ينبع من الاختلاف في طبيعة الحاجات وتفاوتها كمّاً وحجما، هذه الحاجات التي تجعل الإنسان يحرّر من الطاقة قدراً يستطيع به أن يلبيها ويشبعها به. هذه الحاجات تخدم بالأساس الغريزة الأصيلة في أعماق الإنسان، وهي حبّ الخلد وحبّ التملك، أي حبّ الذات.« فليست الحياة الاجتماعية بأشكالها نابعة من الأشكال المتنوعة للإنتاج، وإنما هي نابعة من حاجات الإنسان نفسه. لأن الإنسان هو القوة المحركة للتاريخ لا وسائل الإنتاج، وفيه نجد ينابيع الحياة. فقد خُلِقَ الإنسان مفطوراً على حبّ ذاته، والسعي وراء حاجته، وبالتالي استخدام كل ما حوله في سبيل ذلك، وكان من الطبيعي أن يجد الإنسان نفسه مضطراً إلى استخدام الإنسان الآخر في هذا السبيل أيضا. لأنه لا يتمكن من إشباع حاجاته إلاّ عن طريق التعاون مع الأفراد الآخرين. فنشأت العلاقات الاجتماعية على أساس الحاجات.و اتّسعت تلك العلاقات، ونمت باتّساع تلك الحاجات ونموّها خلال التجربة الحياتية الطويلة للإنسان.» ②

و مثل هذا المعنى أكّد عليه العلامة "عبد الرحمن ابن خلدون" من قبل؛ حيث رأى أن الاجتماع الإنساني من ضرورات الأفراد، و ذلك لعجز كل فرد عن تلبية حاجاته منفرداً، وإذا حصل الاجتماع تنافس الأفراد في الاكتساب وتحصيل الأسباب، وهذا التنافس قد يدفع بعضهم إلى أن يبغوا على بعضهم طمَعاً في الاستزادة من أسباب الغنى، ولأنّ كل واحدٍ يحب أن يمتلك ما عند صاحبه، فيحدث الظلم والاعتداء والبغي، المفضي إلى القتل و سفك الدماء، الذي يستدعي وازعاً و رادعاً و شريعة.

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 05، الجزء 20، ص 2711

② باقر الصدر : اقتصادنا ، ص 318

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يقول العلامة "ابن خلدون": « إن البشر لا تمكن حياتهم ووجودهم إلا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم و ضرورياتهم. وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة اقتضاء الحاجات، ومدّ كل واحد منهم يده إلى حاجته يأخذه من صاحبه، لِماَ في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض، ويمانعه الآخر عنها بمقتضى الغضب والأنفة ومقتضى القوة البشرية في ذلك، فيقع التنازع المفضي إلى المقاتلة، وهي تودّي إلى الهرج وسفك الدماء وإذهاب النفوس.» ①

الاختلاف في الغنى:

الغنى هو تمركز مجموعة من أسباب القوة والحياة –مادية كانت أم معنوية– في يد فرد أو جماعة من الناس، تجعلها غير محتاجة للآخرين، وتجعلهم ينطلقون في سلوكهم من كونهم أحسن وأقوى، وأفضل من الآخرين، وليسوا في حاجة إليهم، بل الآخرون هم المحتاجون إليهم، وهذا بعد أن احتكروا الكثير من أسباب الغنى، في إطار المنافسة الطبيعية. وقد ورد في "لسان العرب": « الغني = هو الذي لا يحتاج إلى أحدٍ في شيء، وكل واحد محتاج إليه، وهذا هو الغني المطلق.» ②
﴿وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿الأعراف: 96﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿المائدة: 66﴾، ويقول عزّ من قائل: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ ﴿الجن: 16﴾.

فهذه النصوص الكريمة تؤكد « أن علاقات الإنسان مع الطبيعة تتناسب عكسيا مع ازدهار العدالة في علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان، فكلما ازدهرت العدالة في علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان أكثر فأكثر ازدهرت علاقات الإنسان مع الطبيعة، وكلما انحسرت العدالة عن الخط الأول انحسر الازدهار عن الخط الثاني، أي أن مجتمع العدل هو الذي يصنع الازدهار في علاقات الإنسان مع الطبيعة، ومجتمع الظلم هو الذي يؤدي إلى انحسار علاقات الإنسان مع الطبيعة.» ③

- **الغنى يؤدي إلى الطغيان:**

إن أسباب الحياة ووسائلها، التي كانت بسيطة، قد صارت مركبة ومعقدة، بمجرد ما تراكمت بشكل غير سويّ لدى فئة من الناس، الذين تفتحت في أذهانهم حاجات ورغبات أخرى، لا يحققونها إلا بمزيد من المال

① عبد الرحمن ابن خلدون : المقدمة ، ص 40

② ابن منظور : لسان العرب، مادة : غني

③ مرتضى مطهري : المجتمع و التاريخ ، القسم الثاني ، ص 145

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و الثروة وأسباب الحياة، وهذا الذي يجعلهم يتّبعون سلسلة من الأسباب، قد لا تكون أخلاقية دائما، يبرّرها لهم موقعهم الاجتماعي، فيستولون –بطرق شتى– على ما في أيدي الآخرين، لأنّ ما لديهم صار لا يفي بحاجاتهم المتنامية باستمرار...

و سلوكهم هذا، لا يطال الجانب المادي فقط من الحياة الاجتماعية، إنما يمتدّ ليحدث ثغرات أخلاقيــة و قيمية و مفهومية في نسق الحياة الاجتماعية، يحدث ذلك من خلال نظرة الآخرين إليهم، وما يتركه في نفوسهم من انسحاق وشعور بالضعف، أو من نظرتهم هم للآخرين، وما تتركه في نفوسهم من شعور بالزهو والكبْر، أو الاحتقار والاشمئزاز اتجاه الآخرين. « و قد لا يقتصر الأمر على شعور الضعفاء بالانسحاق والتضاؤل أمام الإرادة القوية القاهرة، بل هناك القناعة الطاغية التي تعيش في وعي الأغنياء بأن الضعفاء لا يملكون أمر تقرير مصيرهم، أو اختيار قناعاتهم، أو التحرّك في حياتهم إلا من خلال ما يقررونه أو يختارونه لهم في شؤون الإيمان والحياة والمصير...
و لذلك فهم يؤكدون لهم قداسة المركز الذي يضعون أنفسهم فيه، ويزرعون في داخلهم الأوهام الكبيرة حول الأسرار العميقة الغامضة التي يملكونها. (...)
و بذلك يتحوّل انسحاق الضعفاء إلى عبادة ذاتية يشعرون فيها أنهم يمارسون قناعاتهم الروحية، والتي تمنحهم السعادة في الدنيا... وهذا هو أخطر أنواع الاستغلال، لأنه يوحي للضعفاء بأنهم لا يخضعون للقويّ من خلال قوته ليعيشوا الشعور بالاستغلال من خلال ذلك... بل يعتقدون بأنهم يخضعون للسرّ الإلهي المودع فيه، مما يعطل كل انتفاضة أو تمرّد في داخلهم، وكل حركة ترمي إلى إنقاذهم من هذا الواقع، لأنهم يعتبرون ذلك كفرا أو هرطقة أو تحطيما للقداسات الروحية و العاطفية المرتبطة بالتراث المغموس بالأسرار.» ①
وهذا كله طغيان، وتجاوز للحدود المعقولة والمقبولة منطقيا وأخلاقيا، سواءً على مستوى الممارسة المادية للحياة، أ. على مستوى المعايشة الوجدانية والأخلاقية والفكرية، وأي تجاوز للحدّ المعقول والمقبول يسمى طغيانا.
يقول الله تعالى: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ(10)الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿الفجر: 10-11﴾، ويقول سبحانه: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿المؤمنون: 75﴾.
إلى غير ذلك من النصوص الكريمة، التي تتكرّر فيها صيغُ الطغيان بصور مختلفة، لتضيء الجوانب الخفية من النفس الإنسانية، حين تُصاب بداء الغرور وما يشبه داء الغرور. وقد ورد في "لسان العرب": « الطغيان = طغى يطغى ويطغو طغيانا = جاوز القدر وارتفع وغلاً في الكفر (...) وكل مجاوز حدّه في العصيان طاغ (...) وكل شيء جاوز القدر فقد طغى.» ②

فالإنسان الذي يطغى هو الذي يدفعه شعوره المرضي بذاته، أو بما لديه من أسباب القوة و الغنى، يدفعه هذا الشعور إلى تجاوز الحدود و الأقدار المعقولة، في سلوكه مع نفسه أو سلوكه اتجاه الآخرين، و هو في كـــل

① محمد حسين فضل الله : مع الحكمة في خط الإسلام، ص 28
② ابن منظور : لسان العرب ، مادة " طغى

الحالات والمواقف، يلحق الضرر بنفسه، ويلحق الضرر بالآخرين. قال الله تعالى:﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى(6)أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ ﴿العلق: 6-7﴾.

أي أن الإنسان بمجرّد ما يصير غنياً بالأسباب التي تسهّل عليه الحياة وتمكنه منها، بمجرد ما يحدث له ذلك حتى يطغى، ويتجاوز الحدود المعقولة والأقدار المقبولة، في أي سلوك يكون من أي إنسان يعيش وسط المجتمع. فهو يطغى في طبيعة علاقاته الاجتماعية التي يقيمها مع الناس، والتي لا يرى فيها إلاّ ذاته، ومصالحه وحاجاته، وليس الآخرون وذواتهم ومصالحهم وحاجاتهم سوى أشياء كالأشباح، لا يصلحون إلاّ ليتمموا مصالحه وحاجاته، ويطغى في طبيعة العلاقات الاقتصادية، بحيث يقيمها على النهب و الاستنزاف و الاستغلال، اتجاه الآخرين أو الطبيعة.

و إن الخلل سرعان ما يتسرب إلى الحياة الاجتماعية في كلتيها، عندما تتضخم ذوات ومصالح وحاجات، لتأخذ فوق حجمها الطبيعي، وتتقزم أو تتراجع ذوات ومصالح وحاجات أخرى.

يقول المفكر الإسلامي "باقر الصدر": « إنه كلما نمت قدرة الإنسان على الطبيعة، واتسعت سيطرته عليها، وازداد اغتناءً بكنوزها ووسائل إنتاجها، تحققت بذلك إمكانية أكبر فأكبر للاستغلال على خط علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى(6)أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ هذه الآية الكريمة تشير إلى هذه العلاقة، إلى أن الإنسانية بقدر ما تتمكنّ وتستقطب الطبيعة وتتوصّل إلى وسائل إنتاج أقوى وأدوات توليد أوسع، تكون انعكاسات ذلك على حق علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان، انعكاساته على شكل إمكانيات وإغراءات وفتح الشهية للأقوياء كي يستثمروا أداة الإنتاج في سبيل استغلال الضعفاء.» ①

و يقول "سيد قطب": « إن الذي أعطاه فأغناه هو الله. كما أنه هو الذي خلقه وأكرمه وعلّمهُ، ولكنّ الإنسان في عمومه -لا يستثنى إلاّ من يعصمه إيمانه- لا يشكر حين يُعطى فيستغني، ولا يعرف مصدر النعمة التي أغنته، وهو المصدر الذي أعطاه خلقه وأعطاه علمه... ثم رزقه، ... ثم هو يطغى ويفجر، ويبغي ويتكبّر، من حيث كان ينبغي أن يعرف ثم يشكر.» ② .

و لقد عدّد لنا القرآن الكريم الكثير من أسباب الاستغناء التي تقع بين أيدي هؤلاء المطموسين المحجوبين عن الآفاق العالية فيتنافسون في الاستزادة منها، ومن هذه الأسباب: المال، الولد، الجمع، الكسب، المتاع، الآلهة، الكثرة، الفئة، العصبة، الكيد، العلاقات الاجتماعية، إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة.

①محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية ، ص 224

② سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 06 ، الجزء 30، ص ، 3942

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الطغيان يؤدي إلى الترف:

إذا كان الطغيان هو تجاوز الحدود المقبولة والمعقولة في أي شيء، وما يتبع ذلك –على مستوى الممارسة الاجتماعية للحياة– من تَمَرْكُز النعم وأسباب الحياة لدى طائفة من الناس، إذا كان هذا هو الطغيان، فإن الترف هو التوسّع والتبسّط في النعم، وإيجاد سُبُلٍ للإنفاق غير ضرورية، أي أنها من الكماليات وقد ورد في "لسان العرب": « الترف = التنعّم (...) والمترَفُ = الذي قد أبطرته النّعمة وسعة العيش. وأترفته النعمة، أي أطغته .. (...) المترَف = المتنعّم المتوسّع في ملاذ الدنيا و شهواتها. » ①

وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 116]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْـرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: 34]، وقال عز من قائل: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16].

و إن التبسّط في النعم والإنفاق على الكماليات لدى طائفة من المجتمع، يؤدي بالضرورة إلى تصرّم النعم وضيق في الإنفاق لدى طائفة أخرى، لا تجد ما تنفقه على تحصيل الضرورات إلاّ بكّد وجهد جهيد، وهذا معناه تبديد طاقات الجماعة وتعطيلها عن أداء وظيفتها الحياتية، وبالتالي يحدثون في آليات النسق الاجتماعي فراغا بحجم الطاقات المصروفة على الترف، وهذا جدير بأن يلحق الخلل بالبنية الاجتماعية في كل جوانبها.

يقول "سيد قطب" في معرض حديثه عن المترفين: « و المترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم، ويجدون الراحة، فيتنعمون بالدعة والراحة والسيادة حتى تترهّل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجانة، وتستهتر بالقيم والمقدسات و الكرامات، وتلغ في الأعراض و الحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تحلّل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر بقائها وأسباب بقائها.» ②

و غير بعيد عن هذا المعنى، قال العلامة "ابن خلدون" من قبل وهو يعقد فصلا "في أن من عوائق الملك حصول الترف، وانغماس القبيل في النعيم".

« و سبب ذلك أنّ القبيل إذا غلبت بعصبيتها بعض الغلْب استولت على النعمة بمقداره، وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم و خصبهم، وضربت معهم في ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها، فإن كانت الدولة من القوّة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها و لا مشاركتها فيه، أذعن ذلك القبيـل لولايتهـا القنوع بما يسوّغون، من نعمتها، ويشركون فيه من جبايتها، و لم تسمُ آمالهم إلى شيء من منازع الملك و لا

①ابن منظور : لسان العرب، مادة : ترف

②سيد قطب: في ظلال القرآن – المجلد 03 ، الجزء 15 ، ص 2217

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أسبابه، إنما همتهم النعيم و الكسب و خصب العيش والسكون في ظّل الدولة إلى الدعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار في ذلك، والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو إليه من توابع ذلك، فتذهب خشونة البداوة، وتضعف العصبية والبسالة، و يتنعمّون فيما أتاهم الله من البسطة، وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم، ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية حتى يصير ذلك خلُقا لهم وسجية.» ①

عند المقارنة بين هذين النصّين، لا نجد كبير فرْق بينهما، إذ لا اختلاف بينهما إلاّ في مفردات التعبير وأسلوبه عن معنى مشترك، فكلاهما يؤكّد على أن:

1- المترفين قوم حصلت لهم الزيادة في المال وأسباب المعاش، بطرق شرعية أو غير شرعية.

2- بعدها يجدون الوقت الكافي والظروف المناسبة للانغماس في النعيم والشهوات والملذات، فيستكثرون من مظاهر النعمة والترف، ويبتكرون كماليات أخرى، ينفقون فيها مال الجماعة وأرزاقها، ولو على حساب الأغلبية المستضعفة المحرومة.

3- إنّ الوضع الماديّ المتميز، والمركز الاجتماعي للمترفين يمليان عليهم أخلاقاً وسلوكات جديدة، وذلك لاختلال معيار القيم في رؤيتهم وتصوّرهم، لفساد في فطرهم، وتبلّد في مشاعرهم وأحاسيسهم، وقلّة نباهة في فكرهم وضمائرهم، وهذا كله يجعلهم يدفعون عامة الناس -بتأثير من أوضاعهم ومراكزهم- إلى أخلاق جديدة ومفاهيم مغايرة عن تلك المفاهيم التي قام عليها المجتمع أول مرة.

4- إن الترف -كسلوك منحرف، تقوم بها طائفة على حساب أخرى- يفقد الأمة تجانسها الأخلاقي و القيمي، وبالتالي يختلّ انسجام أفرادها وتناغمهم، فتضعف عصبيتهم وحماسهم من أجل حياة مشتركة، وهذا في جميعه يؤدي إلى تفكيك البنية التقليدية الأساسية للمجتمع من أجل استبدالها ببُنْيَة أخرى، تكون في خدمة المترفين، الذين تعطلت فيهم نزعة التطلّع، إنما صار جلّ همّهم أن يحافظوا على مكتسباتهم، وأن يدفعوا عنها أيّ خطر. وما أشبه هذه المرحلة، بتلك التي يصفها الحديث النبوي الشريف: "يأتي على الناس زمان همّهم بطونهم، وشرفهم متاعهم، وقبلتهم نساؤهم، و دينهم دراهمهم ودنانيرهم، أولئك شرّ الخلق لا خلاق لهم عند الله..."

■ الترف يؤدّي إلى الفسوق :

إن الترف ليس سلوكاً معيشيا منعزلا، قديما يمارسه البعض دون أن يضرّ البعض الآخر. إنهّ قبل أن يكون كذلك، ذهنية وتصوّر، انبثق عنه السلوك والأخلاق والمفاهيم والقيم، التي يهدف أصحابها المترفون إلى طرحها -بالترغيب والترهيب- كبديل عن السلوك والأخلاق والمفاهيم والقيم القديمة، التي شكلت في مجموعها المتفاعل النسق الاجتماعي، و انتجت شبكة العلاقات الاجتماعية، التي ضبطت حركة جميع الأفراد.

① ابن خلدون : المقدمة ، ص 140

إن المترفين سوف يسعون إلى إخراج المجتمع من دائرة التصوّر القديم، إلى دائرة ما يشعرون وما يرون وما يريدون، فيعملون على كسر مقومات المجتمع، لأنها ما عادت تستجيب لنوعية طموحهم ورغباتهم وحاجاتهم.

يقول الله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿الزخرف:54﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿العنكبوت:34﴾، وقال عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يونس:33﴾.

وقد ورد في "لسان العرب": «الفسق = العصيان والترك لأمر الله عز وجل، والخروج عن طريق الحق (...). وقيل الفسوق = الخروج عن الدين، وكذلك الميل إلى المعصية (...) والفسق = الخروج عن الأمر، وفسق عن أمر ربه أي خرج.فسق فلانٌ في الدنيا = إذا اتّسع فيها، وهوّن على نفسه، واتّسع بركوبه لها و لم يضيّقها عليه.» ①

بهذا يتجلّى لنا أن "الفسوق" -بعيداً عن النظرة الأخلاقية الضيّقة، التي جردت الكثير من المفاهيم القرآنية من أبعادها السياسية والتاريخية- ليس دليلاً على انحراف أخلاقي ضيّق يصيب سلوك فرد أو أفراد، إنما هو مظهر لانحراف الرؤية التصورية لطائفة مؤثرة في الحياة الاجتماعية، بحيث تسعى من أجل التمكين لأفكارها وتصوّراتها وأنماط سلوكها، أن تجعل منها بديلاً اجتماعياً في شتى المجالات. وكل أمة تخرج عن قواعد توالدها الذاتي إلى قواعد توالد أخرى، فإنها سرعان ما تشرع في الانهيار والهلاك، لأنها قامت باستنزاف طاقاتها الحياتية في ملا نفع من ورائه. لأن فعاليات النسق الاجتماعي قد صارت كلها في خدمة طائفة من الناس بكل ما تملك طائفة من سلوكات و تقاليد ونمط حياة غير منتج.

و للفسوق -في أي صورة كان- آثاره المدمّرة في نفس الفرد والجماعة، قد يستدعي عقاباً ربّانيا، أو هلاكاً، أو فوضى تعم المجتمع، أو غير ذلك من أشكال العقاب الربّاني، والانتقام السنني.

أما المجتمع، فإنه محكوم عليه - تبعا لذلك- أن ينقسم إلى طبقتين:

1- طبقة المستكبرين　　　2- طبقة المستضعفين

① ابن منظور : لسان العرب، مادة : فسق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة

إن الوحدة الإنسانية قد انقسمت بدءا في نفسية الفرد (آدم)، الذي زود بقدرتين متناقضتين؛ إمكانية تشد نحو السماء بكل ما ترمز إليه السماء، وأخرى تشد نحو الأرض بكل ما ترمز إليه الأرض والطين.

و لحكمة، كان الإنشداد نحو الطين أقوى في نفس آدم / الإنسان، فأدى ذلك إلى الكشف الميداني عن ثنائية النفس الإنسانية، التي تجسدت أكثر في قصة "إبني آدم" بكل دلالاتها و رمزيتها. بحيث أن الثنائية التي كانت في نفس واحدة قد تجسدت في نفسين متصارعين متناقضين، أحدهما انشد نحو السماء، والآخر انشد نحو الأرض، والصراع الذي عاشه "آدم" في نفسه، عاشه إبناه في ميدان الابتلاء، بمعنى أن نفس آدم قد تجلت في شخصين.

يقول د."علي شريعتي" :«تريد هذه القصة أن تقول كيف أن الوحدة الإنسانية، التي كانت كلها من نوع واحد، وكان ذلك النوع هو "آدم"، كانت متساوية. ل أفراد البشر كانوا إخوة، وهذه الأخوة انجرت إلى التضاد، لقد انقلب الأخواي إلى عدوين، أي أن الوحدة الإنسانية انقلبت إلى تفرقة وخصومة إنسانية.» ①

ثم إن هذين الشخصين يصيران جماعتين صغيرتين متمايزتين، مختلفتين منطلقا ورؤية، وكلتاهما تسعى إلى الهيمنة والغلبة والاستحواذ، على قدر ما تولد فيها من رغبات وتصور للحاجات، التي تراها نافعة لتحقيق الذات وحمايتها، لأن الرغبة التي دفعت "آدم"/ الإنسان إلى المغامرة والتجربة، هذه الرغبة التي تقوم على ركيزتين هما : "1. حب الخلد، 2. حب التملك" هي نفس الرغبة التي تحركت في ولديه، ونفس الرغبة التي حركت الجماعتين البشريتين الصغيرتين. بحيث شكلت كل جماعة "زمرة مغلقة" نسبيا، تتعاطى الحياة مع الجماعة الأخرى، انطلاقا من رؤى متباينة، ومصالح غير متجانسة، ونمط معيشة مغاير، تمليه ما ولدت رغباتها النفسية وإمكانياتها المادية من حاجات، تتطلب الإشباع. وكل ذلك يخلق لدى الجماعة البشرية الواحدة استجابات نفسية وشعورية واحدة، ويوجد بينهم طريقة مشابهة في التفكير والتحليل و الفهم و تقدير الأشياء. كما يربطهم بنمط استهلاكي واحد. بمعنى الجماعة قد التقوا في معيار واحد، وحد وجدانهم و سلوكهم، و أنشأ بينهم مودة تميزهم عن باقي الجماعات، وليس مستبعدا أن تكون وظيفة "الوثن" قديما، تتمثل في الحفاظ على وحدة الجماعة البشرية التي تلتف حوله كرمز لوحدتها وثوابتها التي تحفظ كيانها الاجتماعي: يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ﴿العنكبوت: 25﴾.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① د. علي شريعتي : الإنسان و الإسلام، ص36

يقول الشهيد "سيد قطب":« إنه يقول لهم: إنكم اتخذتم الأوثان من دون الله، لا اعتقادا واقتناعا بأحقية هذه العبادة، إنما يجامل بعضكم بعضا، ويوافق بعضكم بعضا، على هذه العبادة، ولا يريد الصاحب أن يترك عبادة صاحبه –حين يظهر الحق له– استبقاء لما بينكم من مودة على حساب الحق و العقيدة! » ①

فلكأن القرآن الكريم يحدد مرتكزات الجماعة البشرية الواحدة، أو الطبقة الاجتماعية الواحدة، فهي قائمة على التوادد والتوافق في جملة من القيم والمصالح المشتركة، يرمز لها استبقاء لديمومتها بـ "الوثن" الذي يعني "الثابت"، ثم يضفون عليه من القداسة، ما يجعل الخروج عليه عملا مستقبحا وغير سوي، وبذلك يكونون قد حافظوا على وحدة الطبقة الاجتماعية وديمومتها.

و في هذا الصدد يقول "بيار لاروك" في كتابه "الطبقات الاجتماعية" : "تتضمن كافة المجتمعات الإنسانية تنضيدات ومراتب، غالبا ما تكون مركبة ومتداخلة، يندمج فيها الأفراد والأسر، ومن خلال تلك التنضيدات والمراتب يمكن التمييز بدقة تزيد أو تنقص بين طبقات اجتماعية، وفئات كبرى من الناس والأسر، تبدو حسب تعريف "عمانوئيل مونييه" "E-MOUNIER" كأنها « زمر مغلقة نسبيا ذات منزلة متفاوتة. يرتبط عنصرا هذا التعريف ارتباطا وثيقا. فالطبقات الاجتماعية تشكل زمرا ذات منزلة متفاوتة. و يعتبر أعضاء كل طبقة أنفسهم، كما يعتبرون من قبل الزمر الأخرى، وكأنهم يتمتعون بقيمة متساوية نسبيا، وبدونية مشتركة، أو بتفوق مشترك في علاقاتهم مع الزمر الأخرى.» ②

يفهم من هذا أن الذي يحدد "الطبقة الاجتماعية" ويميزها عن غيرها ويعطيها هويتها، هو شعورها بأنها جماعة بشرية منسجمة في ما بينها، وأنها بحكم تركيبتها وطبيعة مصالحها، مغلقة دون الجماعات الأخرى، التي تقاسمها نفس المشاعر والتصور والسلوك، والمستوى المادي للحياة.

و قد يذهب علماء الاجتماع و التاريخ مذاهب شتى في تحديد "الطبقات" الاجتماعية، وتحديد عددها ونمط تفكيرها، لكن القرآن يحصرها في جماعتين بشريتين، أو طبقتين اجتماعيتين، انسجاما مع منطقه القائم على الثنائية المتفاعلة: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ «الذاريات: 49». حتى إذا تصادم عنصرا الثنائية كان الخلل وكانت الفوضى.

و كما كان الانقسام في نفس آدم/الإنسان يعبر عن خطأ حدث في لحظة ضعف، وكان الانقسام بين إبنيه، يعبر عن ضعف نفسي أمام موقف ضاغط، فكذلك الانقسام في المجتمع، لا يعبر سوى عن حدوث خلل في البنية الاجتماعية الواحدة. يقول الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 20، ص2732

② بيار لاروك : الطبقات الاجتماعية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر : ط(1)، 1973، ص5

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ ﴿البقرة: 213﴾.

إذن، فقد حاول الرسل بما عندهم من كتاب، أن يحكموا بين الناس في موضوع اختلافهم، وأن يقوموا المسيرة الإنسانية بما معهم من حق، ولم يحاولوا قط أن يقضوا على هذا الاختلاف أو يدعوا ذلك، لأن ذلك مسألة سنية، ومقوم وجودي أصيل للرسالة الإنسانية ...« إن من طبيعة الناس أن يختلفوا، لأن الاختلاف أصل من أصول خلقهم، يحقق حكمة عليا. من استخلاف هذا الكائن في الأرض.. إن هذه الخلافة تحتاج إلى وظائف متنوعة، و استعدادات شتى من ألوان متعددة، كي تتكامل جميعها و تتناسق، و تؤدي دورها الكلي في الخلافة و العمارة، وفق التصميم الكلي المقدر في علم الله، فلا بد إذن من تنوع في المواهب يقابل تنوع تلك الوظائف، و لا بد من اختلاف في الاستعدادات يقابل ذلك الاختلاف في الحاجات.. "ولا يزالون مختلفين — إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم.» ①

إذن، فرغم محاولات الأنبياء المستمرة، فقد تمركز الناس في موقعين اجتماعيين متناقضين، الموقع الأول يشغله "المستكبرون" والموقع الثاني، يتمركز فيه "المستضعفون" كنتيجة حتمية لاختلال شبكة العلاقات الاجتماعية، الناتج عن اختلال في الرؤية والتصور والمفاهيم من كلا الطرفين، فليس المستكبرون وحدهم هم الذين يصنعون العلاقات الجائرة والقيم المنحرفة، والمعايير الفاسقة، إنما للمستضعفين نصيب ومساهمة معلومة و مقدرة في ذلك، وذلك بانبهارهم بالوضعية الاجتماعية أو المادية للمستكبرين، واتخاذهم نموذجا ورمزا للحياة التي يطمحون إليها، بمعنى آخر، أنهم يحملون بذرة الاستكبار بانهزامهم النفسي والشعوري أمام وضعية المستكبرين، وبهذا تكاد أن تكون مسؤولية الطبقتين الاجتماعيتين متساوية في حدوث هذا الانحراف وتسرب هذا الخلل. يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ﴿النساء: 97﴾.

إن المستضعف -كالمستكبر تماما- ظالم لنفسه، لأنه أنزلها غير منزلتها، و ادعى ما ليس فيها من خور وهوان، وانحراف عن خط الاستقامة الإنسانية، وألزمها بأخلاق وسلوكات ليست من طبيعتها، وإنما هي نتاج وضعية منحرفة، أملاها القوي وأذعن لها الضعيف. وكما كان في مستطاع المستكبر أن يتحرر من نفخ الغرور الذي يحركه، ويوجهه في غير سبيله، كذلك كان في متناول المستضعف أن يتحرر من قهر الظروف وضغط الملابسات، وأن يبحث عن مخرج يحفظ له كرامته وإنسانيته، ويجابه به المستكبر، الذي صار لا يرى إلا ذاته ومصالحه.

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد01 ، الجزء 02، ص 310

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : الاستكبار لغةً ومفهوماً

- **الاستكبار في اللغة :**

يقول "إبن فارس" في "معجم مقاييس اللغة" أن « الكاف والباء والراء أصل صحيح، يدل على خلاف الصغر. يقال : هو كبير، وكبار، وكبّار. قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: 22]
والكبر = العظمة وكذلك الكبرياء... وأكبرت الشيء = استعظمت.» ①

يتضح من هذا التعريف أن "الكبر" يعني الزيادة في الشيء، و هو يعبر عن الزيادة في الأمور المادية، كتراكم الأشياء فوق بعضها بعضا لتشكل شيئا كبيرا، أو تراكم سنين عمر ما ليصير صاحبه كبيرا، و تعبر عن الزيادة في الأمور المعنوية كالجاه و المجد و السودد، الذي يجعل صورة من يمتلكها كبيرة عن عيون الناس، و يصير هو كبيرا، ليس بسنين عمره، إنما بمجده وسؤدده وقدره.

و ورد في "لسان العرب" ما يلي: « و يقال كبر بالضم يكبر أي عظم، فهو كبير.
إبن سيده: الكبر نقيض الصغر (...) واستكبر الشيء = رآه كبيرا وعظم عنده (عن ابن جني) (...) وكبر الأمر = جعله كبيرا، واستكبره = رآه كبيرا .» ②

يؤكد "ابن منظور" بحس لغوي دقيق أن "الاستكبار" "رؤية" وتصور، فليس شرطا أن يكون الشيء كبيرا في ذاته لتطلق عليه صفة الكبير، وإنما المسألة متعلقة بالعين التي تراه، والقلب الذي يتصوره والمشاعر والأحاسيس التي تتملاه، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:31]. فليس شرطا أن يكون يوسف (عليه السلام) كبيرا في الواقع ليكون كبيرا في عيون النسوة، وهو لم يدع شيئا من ذلك، وإنما المسألة معلقة كليا بالعين التي انعكست فيها صورة يوسف بكل جمالها وجلالها.

إذن، فمن التعريف الأول استنتجنا أن الكبر زيادة، ومن التعريف الثاني استنتجنا أن الكبر رؤية وتصور، وما يشاكلها من التخيل والتوهم والظن والاعتقاد.

أما "الراغب الأصفهاني"، فيقول في "معجم ألفاظ القرآن": « الكبير والصغير من الأسماء المتضايفة، التي تقال عند اعتبار بعضها ببعض...وأصل ذلك أن يستعمل في الأعيان ثم استعير للمعاني، فمن ذلك ما اعتبر فيه الزمان، فيقال فلان كبير أي مسن، نحو قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا﴾ [الإسراء: 23]
و منه ما اعتبر فيه المنزلة والرفعة، نحو: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 19]

① أحمد بن فارس : معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط(1) 1411هـ، ص153
② ابن منظور: لسان العرب، مادة : كبر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ ﴿الأنبياء: 58﴾. فسماه كبيرا بحسب اعتقادهم فيه لا لقدر ورفعة له على الحقيقة.» ①

نستنتج من هذا أن لفظ "الكبير" أو "الكبر"، قد كان يقصد به المحسوسات المادية، ثم تطورت دلالته، فصار يشمل حتى الأمور المعنوية، للتعبير عن الأحاسيس والمشاعر وغير ذلك، فالزمان لا نراه حتى تقدر أنه كبير أو صغير، لكننا نحسه ونعده، ونستعير له من المصطلحات ما يجعله داخلا في دائرة التصور والتعقل الإنساني، ونفس الكلام يقال عن الرفعة والمنزلة والجاه.

و يواصل "الراغب الأصفهاني" تعريفه للكبر و متعلقاته، فيقول: « و الكبر والتكبر والاستكبار تتقارب، فالكبر الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره. وأعظم التكبر، التكبر على الله بالامتناع عن قبول الحق والإذعان له بالعبادة. والاستكبار يقال على وجهين: أحدهما أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصير كبيرا، وذلك متى كان على ما يجب وفي المكان الذي يجب وفي الوقت الذي يجب فمحمود، والثاني أي يتشبع، فيظهر من نفسه ما ليس له، وهذا هو المذموم، وعلى هذا ما ورد في القرآن الكريم، و هو ما قال تعالى: ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ ﴿البقرة: 34﴾ » ②

في هذا النص يجعل الراغب الأصفهاني "الكبر" من خصوصيات الإنسان، نتيجة إدراكه لذاته، واعتزازه بفردانيته، وإعجابه بقدراته، بينما كل مخلوقات الله، ليس لها أن تتكبر أو تشعر بالكبر، لأنها –بحكم النواميس التي تسيرها– منساقة انسياقا مع نظام الكون الكبير، لا يمكنها أن تشذ أو تخرج عنه.

و يؤكد كذلك على أن الاستكبار "تشبع" بحالات وأحاسيس معينة، تساهم في تغيير المعايير، بمعنى آخر يكون الاستكبار امتلاء، يدفع إلى الشعور بالتميز والفوقية لنفسه، والدونية للآخرين، يقول الله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ ﴿الزخرف: 52﴾. ويقول سبحانه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(12)قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ﴿الأعراف: 12-32﴾.

و ليس عيبا أن يسعى المرء لكي يكون كبيرا في عين ذاته، وفي أعين الناس، وذلك أمر مركوز في صميم فطرته، لكن العيب أن يسعى إلى ذلك بغير أسبابه و وسائله المشروعة، فينقلب سعيه هذا ليكون ظاهرة مرضية.

و لعل أهم كلمة وردت في هذا النص هي "التشبع" فهي تشي بإيحاءات الكبر و ظلاله، فتربطه بالنفس و ما يضطرب فيها من مشاعر وحالات كثيرة و معقدة.

① الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة : كبر، ص437

② م.ن : ص431

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالتشبع امتلاء نفسي بقيم متوهمة، ينجر عنه تضخم مرضي يتملك النفس الإنسانية، فيزورها في عين ذاتها، ويزور لها الحقائق والوقائع، ويقدمها لها على غير حقيقتها، ويجعلها ترى كل شيء -غير ذاتها- صغيرا ومهينا، وليس ذا قيمة.

و في مثل هذا الجو من الانحراف عن المعايير السليمة، يكون بعض الناس "ملأ" وهم «جماعة يجتمعون على رأي، فيملأون العيون رواء و منظرا، و النفوس بهاء و جلالا.» ①

- **دخول "السين" والتاء" على الفعل :**

إذا كان "الكبر" يشي بحالات نفسية معينة، فإن دخول "السين" و"التاء" عليه، يعطي المصطلح أبعادا أخرى، ويضيء منه جوانبه الخفية، ويضعه في سياق النص القرآني المحكم، ذلك أن "زيادة المبنى تفيد زيادة المعنى" كما لا يخفى.

يقول "ابن سيده": « اعلم أن أصل استفعلت الشيء في معنى طلبته واستدعيته، و هو الأكثر.» ②
و الطلب يعني السعي والعمل على الوصول إلى شيء ما أو حالة ما. والاستدعاء قد يكون بمعنى الاستلزام، أي وصولك -مثلا- إلى مرتبة ما، فيستلزم طموحك إلى التي فوقها والاستزادة منها.

و يقول "ابن سيده" موضحا: « فالباب في استفعلت الشيء أن يكون للطلب أو للإضافة... ومنه في التحول من حال إلى حال... فإذا أراد الرجل أن يدخل نفسه في أمر حتى يضاف إليه ويكون من أهله، فإنك تقول: تفعل، وذلك تشجع و تبصر... وقد دخل استفعل هنا، قالوا تعظم واستعظم، وتكبر واستكبر.» ③
فطلب هنا بمعنى الوصول إلى مطلب أو هدف ما، والتحول هو الانتقال من وضع إلى وضع آخر، قد يكون ذلك على وجه الحقيقة أو على وجه الادعاء، وكلاهما يلتقيان في نقطة التحول والتغير.

كما أن "السين" و"التاء" إذا دخلتا على الفعل جعلتاه يفيد المبالغة والاعتقاد. يقول "ابن الحاجب":
« و استفعل للسؤال غالبا و للتحول، و قد يجيء بمعنى فعل نحو قر واستقر.» ④، ويعلق على هذا القول شارحا "رضا محمد بن الحسن الاستراباذي" بقوله: « بمعنى فعل نحو قر واستقر، ولا بد في استقر من مبالغة؛ ويجيء أيضا كثيرا للاعتقاد في الشيء أنه على صفة أصله نحو: استكرمته، أي اعتقدت فيه الكرم... واستعظمته، أي عددته ذا عظمة.»

---

① الراغب الأصفهاني: نفس المصدر، ص: 520.
② ابن سيده: المخصص، دار الكتب العلمية، بيروت، ص180.
③ م.ن ، ص181
④ م.ن ، ص181

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من خلال كل ما سبق نستنتج أن صيغة "استفعل" و"الاستفعال" تدور حول جملة من المعاني هي: الطلب و الاعتقاد و الظن، والمبالغة و التصور، و الدخول، والتحول و الإضافة و الإدعاء، و غير ذلك من الصيغ و الدلالات، التي تصب في مجملها في حصول تغير.

- **الاستكبار مفهوما:**

نستطيع القول إن الاستكبار حالة نفسية تنتج عن اغترار الإنسان بكل المظاهر التي تجعله كبيرا في عين نفسه و في عيون الآخرين، و هو يعبر عن اختلال في معايير الحق، نتيجة خضوع النفس للأهواء و الرغبات و النزوات الظرفية، التي تجعل صاحبها ذا شعور غير سوي، وسواء اتجاه نفسه أو اتجاه الآخرين، بحيث يرى نفسه فوق الناس، و يرى الناس دونه، نتيجة استغراقه في ملابسات الأرض و أوضاعها الباطلة وقيمها الرخيصة، والاستكبار تصاغر أمام ضغط الشهوات و النزوات الأهواء، التي تجعل الفرد يتنازل عن كثير من القيم التي تصنع كرامته و تحفظ إنسانيته، لينغمس في تصرفات و يستغرق في سلوكات لا تليق بالذي يعرف طبيعة رسالته الوجودية.

و لم يختلف المفسرون والمفكرون اختلافا كبير في تحديد مفهوم الاستكبار وتعريفه، فهم جميعا لا يخرجون عن دائرة الاستكبار شعور زائف بقيمة النفس، نتيجة هوان أو ضعف ما يأتيها داخلها، فيقوم هذا الفرد أو بتلك الجماعة بعملية التعويض من خلال سلوكات غير سوية، للتعويض عن النقص الذي تشعر به أو .يشه، خاصة إذا عرفنا أن الشعور بالنقص: « عقدة نفسية أي عملية لا شعورية ناجمة عن نقص عضوي أو نفسي أو اقتصادي أو مكانة اجتماعية، وتدفع الفرد لا شعوريا إلى أن يعوض بالمبالغة في طلب القوة والسيطرة على الآخرين.» ①

و لعل هذا الشعور، هو أول شعور تحرك في نفسية آدم/الإنسان، فقد أتاه إبليس من مكمن الضعف فيه، و هو شعوره بأنه لا يملك، أو أنه لا يملك بما فيه الكفاية، و أنه ناقص لأنه لا يقوى على الخلد، فأراد أن يعوض ذلك و يعالجه في أول فرصة سنحت، فأكل من الشجرة التي تجبر فيه شعوره بالنقص، فوقع في الخطيئة والخطأ. وفي هذا الشأن يقول "عصمت سيف الدولة" في كتابه "الاستبداد الديمقراطي" أنه:« في عام 1950 شكلت في الولايات المتحدة الأمريكية لجنة علمية برئاسة "تيودور أدورنو" لدراسة "الشخصية المستبدة"، وقد انتهت إلى أن "الاستبداد" ظاهرة تعويضية. قالت أن "الشخصية المستبدة" تتوفر بشكل عام في الأشخاص فاقدي الثقة بأنفسهم، الذين لم ينجحوا أبدا في تكوين شخصياتهم تكوينا كاملا مستقرا، يدفعهم هذا النقص الذي يعرفونه من أنفسهم، إلى محاولة تعويضه في العالم الخارجي.» ②

---

① حلمي المليجي : علم النفس المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، ط(2)، 1972، ص119

② عصمت سيف الدولة : الاستبداد الديمقراطي، دار المستقبل العربي، القاهرة، ط(2)، 1983، ص29

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يقول أمير المؤمنين "علي بن أبي طالب"، و هو يتحدث عن إبليس الذي أبى أن يسجد و استكبر:
« اعترضته الحمية، فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه بأصله. فعدو الله إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبارين، و ادرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل... ألا ترون كيف صغره الله بتكبره، ووضعه بترفعه.» ①

إن سبب الاستكبار –من خلال هذا النص– هو:

1- الحمية التي قوامها الغضب والكبر والبطر والتعنت.

2- الافتخار: وهو المباهاة بما يملك على من لا يملك.

3- العنصرية: وهي الاعتزاز بالعنصر والأصل، والشعور بالتميز الفوقي عن الآخرين.

و هذه المشاعر كلها تجعل صاحبها يعمل على أن يظهر في غير مظهره الطبيعي و على غير حجمه الحقيقي، فيحاول أن يظهر في "رداء الجبرية" و"لباس التعزز".

نستنتج من هذا أنه قبل أن يكون الاستكبار مظاهر و سلوكات وتصرفات، كان شعورا نفسيا وإحساسا داخليا، واستعدادا كامنا، وقوى نزوعية خامدة تتحين الفرصة للتحرر والانطلاق.

و يكفي المستكبر بتعويض النقص الذي يجده في شعوره وروحه، بل يمد خطوة أخرى، ليطرح نفسه كبديل عن كل ما يتحرك على وجه الحياة من قيم وأفكار و معايير، فكأن الاستكبار –عند "الإمام علي ﷺ"– بناء متكامل لا يقنع إلا أن يكون بديلا لكل شيء، يتجلى ذلك في قوله: « ألا فالحذر الحذر من طاعة سادتكم وكبرائكم، الذين تكبروا على حسبهم و ترفعوا فوق نسبهم، وألقوا الهجينة على ربهم، و جاحدوا الله ما صنع بهم، مكابرة لقضائه، و مغالبة لآلائه، فإنهم قواعد أساس العصبية، و دعائم أركان الفتنة، و سيوف اعتزاء الجاهلية.» ②

فالمستكبرون ألقوا الجهينة و النقص على الله سبحانه في ما خلق و قدر و حكم، و جاحدوه في ما صنع بهم، وكابروا قضاءه و غالبوا الأساس، و بهذا الغرور الحاد و الانتفاش الصارخ، صاروا "قواعد" و"دعائم" لبناء تصوري كامل سوف يتولون إقامته و التبشير به، لتكون الجاهلية مرجعيته الإيديولوجية و خلفية العقدية، و يكونوا هم سيوفها وقوتها الضارية.

أما الشيخ "أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي"، فيرى وهو بصدد تفسير الآية (34) من سورة البقرة، يرى أن « الاستكبار و التكبر والتعظم و التجبر نظائر... و ضده التواضع، وحقيقة الاستكبار الأنفة مما ينبغي أن لا يؤنف منه. وقيل حده الرفع للنفس إلى منزلة لا تستحقها. فأفضل الباب الكبر و هو العظم.» ③

① علي ابن أبي طالب: نهج البلاغة، شرح محمد عبده، دار البلاغة، بيروت ط(1)، 1405هـ، ص419

② علي ابن أبي طالب: نفس المصدر، ص423

③ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت، ط(1)، 1406هـ، الجزء الأول، ص187

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالاستكبار عنده نقيض التواضع مسلكا أو تصورا، ويجعل له حقيقة أو جوهرا، وهو "الأنفة"، وهي عندما يجد المرء في نفسه ترفعا و تعززا وتعظما عن أمور و أشياء لا داعي فيها للترفع و التعزز و التعظم، لأنها لا تنسجم مع الخلق السوي للإنسان، فلا يأنف منها إلا من كان في نفسه شذوذ أو انحراف أو مرض.

أما " أبو حامد الغزالي"، فالاستكبار عنده رؤية و اعتقاد و خلق، أي سلوك. فالمستكبر هو الذي « ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة، ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر.» ①

و نستخلص من هذا كذلك أن الاستكبار نتاج رؤية طبقية لعناصر المجتمع، والمستكبر ليس هو الذي يشعر بفوقيته فقط، إنما هو ذاك الذي يضيف إلى شعوره هذا شعورا بدونية الآخرين، ثم يصير له هذا الشعور المرضي المنحرف رؤية وتصورا واعتقادا، يبني عليه سلوكاته وأخلاقه وسط الجماعة الإنسانية.

أما مفهوم الاستكبار عند "شهاب الدين الألوسي" فهو عندما يسعى الإنسان لكي يكون كبيرا متعززا من غير وجه حق، أو مؤهلات نفسية أو علمية تبوئه مكانة اجتماعية ما. يقول في مقام تفسيره للآية (172) من سورة النساء: « و أصل الاستكبار طلب الكبر من غير استحقاق. لا بمعنى طلب تحصيله مع اعتقاد عدم حصوله، بل بمعنى عد نفسه كبيرا واعتقد كذلك. وإنما عبر عنه بما يدل على الطلب للإيذان، بأن مآله محض الطلب بدون حصول المطلوب.» ②

ربما نستنتج من هذا التعريف أن الاستكبار عقدة نفسية يعشها الإنسان غير السوي اتجاه محيطه الاجتماعي، دون أن يحقق لها (العقدة النفسية) الإشباع اللازم. لأن المستكبر يصل إلى حد يصبح فيه يعيش في دائرة مظلمة، لا يدري مبتدأه من منتهاه: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 15].

أما "الإمام ابن جرير الطبري"، فيقول في مقام تفسير قوله تعالى : (الآية 34 من سورة البقرة) « و استكبر يعني بذلك تعظم و تكبر عن طاعة الله في السجود لآدم.» ③

أما الشيخ "رشيد رضا" فيرى أن الاستكبار « هو الظهور بصفة الكبرياء، التي من آثارها الترفع عن الحق. كأن السين والتاء للاستعارة، بأن الكبر ليس من طبيعة إبليس، و لكنه مستعار له.» ④
نفهم من قوله هذا أن الاستكبار خلق منحرف، وليس أصيلا في البنية النفسية والشعورية للإنسان، إنما هو طارئ عليها تحت إلحاح الظروف النفسية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة، التي تتفاعل في ما بينها لتشكل الاستكبار في مختلف أبعاده.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

① أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار الجيل، بيروت، ص144

② شهاب الدين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الجزء 6، ص41

③ أبو جرير الطبري : جامع البيان في تأويل القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (1)، 1412هـ. المجلد 1، ص265

④ رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم، دار المعرفة، بيروت، 1414هـ، المجلد الأول، ص267

و إن الإنسان ليملك الاستعداد النفسي لذلك، بحكم أن النفس البشرية لها القابلية كي تتجاوب مع مختلف الحالات و الظروف، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿الإنسان: 3﴾

أما "صاحب الظلال" فلا يقدم تعريفا محددا للاستكبار، وإن كنا –حين نتتبع شرحه لكل الآيات التي ذكر فيها الكبر والاستكبار– نستنتج أن الاستكبار عنده هو تمرد و عصيان و عزة بالإثم، و استغلاق عن الفهم، وهو هوى طارئ و نزوة متقلبة، و شهوات تقود و نزوات تملي على صاحبها ما لا يستقيم مع الفطرة السليمة من سلوك أو خلق، وهو فساد الفطرة، و اختلال المنطق الإنساني، و اهتزاز المعايير الضابطة لحياة الجماعة الإنسانية. و تصاغر أمام النزوات و الشهوات، و الأهواء، واستغراق في ملابسات الأرض و أوضاعها الباطلة وقيمها الزائفة... و هو شعور كاذب بالقوة.

يقول عند شرحه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿الفرقان: 21﴾.

« لقد عظم شأنهم في نظر أنفسهم، فاستكبروا وطغوا طغيانا كبيرا. لقد تضخم شعورهم بأنفسهم حتى شغلهم عن تقدير القيم الحقيقية ووزنها وزنا صحيحا. لقد عادوا ما يحسون إلا أنفسهم وقد كبرت في أعينهم وتضخمت وعظمت، حتى ليحسبوها شيئا عظيما في هذا الكون يستحق أن يظهر لهم الله جل جلاله ليؤمنوا ويصدقوا! » ①. من خلال هذا النص يكون الاستكبار عنده تضخم شعوري بالنفس، يجعل صاحبها لا يرى إلا ذاته، ولا يقدرها إلا هي، ومن ثم تختل المعايير والموازين والقيم لدى هذه النفس المصابة بداء الاستكبار.

و على مثل هذه الأفكار يؤكد السيد محمد حسين فضل الله في تفسيره للآية 34 من سورة البقرة. إذ يرى أن سبب استكبار إبليس كون الأمر الإلهي وهو الحق، لم ينسجم مع ذاتية إبليس و نظرته إلى نفسه، كما أن هذا الأمر الإلهي جاء متعارضا مع الشعور بالغرور الذي تكتظ به نفسية إبليس، فتمرد واستكبر، و امتنع عن الطاعة، ليكون الاستكبار هو كل سلوك يكون تمردا على أوامره وامتناعا عن طاعته، مهما كانت صور التمرد أو أشكال الامتناع.

يقول "السيد محمد حسين فضل الله":« وانسجم الملائكة مع هذا الأمر الإلهي، لأنهم عباده المكرمون، الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. أما إبليس فإن الأمر يختلف لديه، لأنه لا يعيش هذا الجو الروحي إزاء أوامر الله و نواهيه، بل القضية عنده هي إذا ما كانت الطاعة لله منسجمة مع ذاتيته و نظرته إلى نفسه أو غير منسجمة... وان السجود لآدم لا يرضي غروره الذاتي، و شعوره بالاستعلاء أمام هذا المخلوق الجديد على

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 19، ص2558

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أساس عنصري، كما توحي به الآيات القرآنية الأخرى التي تحدثت عن القصة بإسهاب، فما كان منه إلا أن تمرد وأبى و استكبر و امتنع عن الطاعة.» ①

و يرى "جودت سعيد" في كتابه "حتى يغيروا ما بأنفسهم" أن الاستكبار انغلاق نفسي على محتوى غير سليم، ناشئ عن تفاعل غير سوي مع المحيط الاجتماعي، بكل ما يضبطه من سنن و نواميس. يقول:
« إن الاستكبار حالة نفسية، أي فكرة خاطئة بالنفس، تجعل الإنسان مستكبرا، يقول ما لا يفعل، ويدعي ما لا يقدر عليه، كل ذلك ناشئ عن التقدير الخاطئ للواقع و السنن، ناشئ عن نظر ذاتي محدود... و الإنسان ذو الفهم الصحيح و الإدراك الجيد لوقائع التاريخ لن يكون مستكبرا، إذ أن الاستكبار إنما منبعه فراغ في الفهم، و فراغ في إدراك الحقيقة.» ②

و يتناول "د. صلاح عبد الفتاح الخالدي" مسألة الاستكبار من خلال انفتاح هذه الظاهرة على باقي ما في المجتمع من ظواهر و أوضاع، فيرى أن الاستكبار -كالاستضعاف- انحراف نفسي شاذ عن الموازين المستقيمة التي تضبط المجتمع السليم، ويؤكد أن « الكبراء المتبوعون انتفشت نفوسهم، فرأوا أنفسهم أكبر من غيرهم، فأصيبوا بمرض الاستكبار، وتصرفوا مع من وراءهم بتكبر و استعلاء، و إهانة و إذلال. واستعبدوهم و احتقروهم.» ③

أما الاستكبار عند "محمد تقي رهبر" فمصدره رغبة تنشأ في نفس الإنسان، تدفعه إلى الاستزادة من اللذة و الشهوة، معتمدا في ذلك على ما يملكه من أسباب القدرة و الثروة، ليدفعه ذلك إلى التمرد و الطغيان.

يقول: « إن كلمة الاستكبار مشتقة من الكبر، بمعنى التكبر، أي أن يرى الإنسان نفسه كبيرا، وإن التكبر و الغرور يعتبران نوعا من التمرد و الطغيان اللذين يبتلى بهما الإنسان في بعض الأحيان.» ④

و هو -انطلاقا من أهداف بحثه- يربط بين الدور الاجتماعي الذي يقوم به الاستكبار كقوة رجعية في معارضة ومحاربة قوى الإصلاح والعدل، التي غالبا ما يمثلها الأنبياء، فيلاحظ « أن الاستكبار على الله ورسوله وجميع البشر، وأيضا قتل رسل الله وتكذيبهم وإنكار رسالاتهم، كل هذه الأمور تنشأ في الحقيقة من هوى النفس. فعبادة هوى النفس، والبحث عن اللذة وطلب الراحة هي أمور لا مكان لها إلا في قلوب المستكبرين، وإن هؤلاء -عبر اعتمادهم على القدرة والثروة اللتين هما عصارة روح المستضعفين- يتحولون إلى طغاة مستبدين.» ⑤

---

① السيد محمد حسين فضل الله: من وحي القرآن، دار الزهراء، بيروت، لبنان، ط(1)، 1402هـ، الحلقة 1، ص170

② جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم، دار الهجرة، دمشق. ط(7)، 1407هـ، ص136

③ د. صلاح بعد الفتاح الخالدي: الأتباع والمتبوعون في القرآن، دار المنار، عمان، ط(1)، 1417هـ ،ص32

④ الشيخ محمد تقي هربر: الاستكبار والاستضعاف من وجهة نظر القرآن الكريم، منظمة الإعلام الإسلامي، إيران، ط(1)، 1407هـ، ص9

⑤ م.ن، ص38

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني : مجالات الاستكبار

إذا كان الاستكبار -كما سبق القول- حالة نفسية شاذة، ناتجة عن انحراف في إدراك القيم وتصور المعايير، وهي ليست أصيلة في النفس الإنسانية، التي تملك الاستعداد والقابلية لذلك. فإن هذه الحالة لا ترضى أن تظل حبيسة النفس والشعور، بل إنها تبحث عن عناصر قوتها ونمائها، و عن مجال تطبيقها في الواقع الإنساني المعيش بكل مقوماته، فبين الناس تريد أن تكون، وبينهم تريد أن تنتعش، لأن ذاك هو مجالها الحيوي، إذ أن الرياء و التظاهر و المباهاة عناصر أساسية في نفسية المستكبر و سلوكه. ذلك أنه « عندما يبتلى الإنسان بالغرور و الاستبداد و التكبر، لا يرى قيمة لأي شيء عدا نفسه و أفكاره... فالإنسان المغرور يعبد آراءه وأفكاره كما يعبد الصنم، وينميها في مزرعة الطغيان والتجبر، وينظر إلى جميع مقدسات الخلق من هذا المنظار.» ①. وعندما يخرج الاستكبار من النفس، و ينساح في كل الحياة الاجتماعية، فمن المحتم أن يؤثر في كل مناحيها، وأن يتأثر بكل مناحيها كذلك. وبهذا يصبغ الاستكبار الكثير من نواحي الحياة الاجتماعية بصبغتة، ويوظفها لخدمته، فيلامس الناحية الاجتماعية، والناحية الاقتصادية، والناحية الفكرية الثقافية، والناحية السياسية، و هلم جرا...

إنها الرؤية المتغطرسة والتصور الواهم القوي، الذي يتحرك ويود أن يلقي بكل ظلاله على وجه الحياة، ويوجهها من اجل تحقيق الإشباع والامتلاء، الذي لن يتحقق أبدا. ففرعون الذي بدأ استكباره بادعائه ملك "مصر"، قد أنهى حياته، و هو يدعي أنه رب وإله، وما على الناس إلا أن يعتبروه كذلك، لأنه لا يكتفي أن يرى نفسه ربا و إلها إنما على الناس أن يروه كذلك: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ﴿القصص: 38﴾. و قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ﴿غافر: 29﴾

و صدورا عن هذه الذهنية المهيمنة المستعلية، تتسع دائرة الاستكبار على حساب مساحة الحياة المستقيمة التي يحياها بسطاء، « لتشمل أي نوع من أنواع القوة يواجه أي نوع من أنواع الضعف كعنصر ضاغط، يشل إرادة الإنسان أو يلغيها بما يملك من وسائل الضغط التي تمنحها له القوة. فنجد أمامنا الأشخاص الذين يملكون النسب العريق الذي يجعل منهم قوة ضاغطة على الآخرين الذين لا يملكون مثل هذا النسب من خلال طبيعة التقاليد التي يقدسها الناس. و نجد في جانب آخر قوة السلاح التي تواجه الضعفاء بالقهر و الغلبة و غير ذلك من الأمور التي تعطي فريقا من المجتمع موقعا مميزا من مواقع القوة التي تسمح لهم باضطهاد الناس و استضعافهم على أساس القوة الاجتماعية، وقد تتصل بالواقع السياسي الذي يمنح قسما من المجتمع موقعا من مواقع الحكم و السيطرة في الداخل و الخارج (...)و يمتد ذلك إلى الواقع الاقتصادي و غيره، وقد تتداخل هذه

---

① ن.م، ص42

② محمد حسين فضل الله : مع الحكمة في خط الإسلام، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط(1)، 1406، ص46

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

النماذج فتملك عدة ألوان من القوة (...) وفي كل هذه الألوان من القوة تواجه ألوانا أخرى من الضعف في هذه المجالات، وتبدأ الضغوط، وتتحرك المشكلة في الحياة لتصنع مأساة في الصراع الدائم بين الأقوياء والضعفاء، والمستضعفين والمستكبرين وقصة العدل والظلم الأبدية في الحياة. » ①

يستنتج من هذا النص أن الاستكبار لا يبقى تضخما مرضيا تعيشه نفس ما، بل إنه ينساح على وجه الحياة، ليلامس كل مجال من مجالات نشاطها، بحيث تتوالد مظاهر الاستكبار عن بعضها بعضا كما تتوالد الأمراض، فالاستكبار النفسي، ينتج استكبارا اجتماعيا، ينجر عنه استكبار اقتصادي، يدعم استكبارا سياسيا، يكون محضنا طبيعيا للطغيان والاستبداد، ينتج استكبارا في العبادات وهكذا دواليك... فلا يبقى وجه من أوجه الحياة إلا ويدنسه الاستكبار، الذي كان بذرة مشؤومة حضنتها نفس متأزمة، فصار نسقا اجتماعيا معقدا، ينتج البؤس والشرك وباقي الأوبئة النفسية والاجتماعية.

- الاستكبار في النفس:

إضافة إلى الكبر في الصدور والتكبر الذي في القلوب، فقد ورد ذكر الاستكبار في النفس في آية واحدة من القرآن الكريم هي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 21].

فهؤلاء البشر الضعاف لن يجرؤا على مثل هذا الطلب المتحدي، لو كانوا يدركون قيمتهم وحجمهم الطبيعي، لكن شعورهم بأناهم تضخم، وصاروا يرون أنفسهم على غير حقيقتها، فكان منهم هذا الطلب الذي لا يصدر إلا عن نفوس ذات رؤية مزيفة وتصور مختل. يقول "الزمخشري" في توضيح هذا النص الكريم: « فإن قلت ما معنى "في أنفسهم؟". قلت: معناه أنهم أضمروا الاستكبار عن الحق، وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه، كما قال: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: 56] ﴿وعَتَوْا﴾ تجاوزوا الحد في الظلم... و قد وصف العتو بالكبير، فبالغ في إفراطه: يعني أنهم لم يجسروا على هذا القول إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار و أقصى العتو.» ②

أما "صاحب الظلال" فيرى أن مطلبا كهذا هو مجرد تطاول على مقام الله وقدرته سبحانه، لا يصدر إلا عن نفس مستهترة، لا ترجو لله وقارا، ولا ترى أنها قد وجدت من أجل رسالة عظيمة، تتطلب منها انسجاما دقيقا من نواميس الحق والخلق...« لقد عظم شأنهم في نظر أنفسهم، فاستكبروا وطغوا طغيانا كبيرا. لقد تضخم شعورهم بأنفسهم حتى شغلهم عن تقدير القيم الحقيقية ووزنها وزنا صحيحا، حتى ليحسبونهم شيئا

① محمد حسين فضل الله : مع الحكمة في خط الإسلام، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط(1)، 1406، ص46
② الزمخشري : الكشاف، المجلد 3، ص88

عظيما في هذا الكون يستحق أن يظهر لهم الله جل جلاله ليؤمنوا و يصدقوا. » ①. أما الشيخ "الطبرسي"، فيرى أن الله سبحانه قد أقسم "فقال: « لقد استكبروا في أنفسهم" أي طلبوا الكبر والتجبر بغير حق "وعتوا" بذلك أي طغوا وعاندوا "عتوا كبيرا" أي طغيانا وعنادا عظيما، وتمردوا في رد أمر الله تعالى غاية التمرد.» ② أما الشيخ بن عاشور، فيذهب في تفسير هذه الآية تفسيرا لطيفا، إذ يعتبر أن نفوس المستكبرين قد صارت أوعية لمحتوى هو الاستكبار... لقد امتلأوا بالاستكبار، و لم يعد في نفوسهم متسع لشيء آخر غيره.

يقول في تفسيره: « "وفي" للظرفية المجازية، شبهت أنفسهم بالظروف في تمكن المظروف منها، أي هو استكبار متمكن منهم كقوله تعالى: "وفي أنفسكم أفلا تبصرون". ويجوز أن تكون "في" للتعليل كما في الحديث "دخلت امرأة النار في هرة حبستها"، أي استكبروا لأجل عظمة أنفسهم في زعمهم.» ③

- **الاستكبار في الأرض:**

الاستكبار في الأرض هو تتبع مصادر القوة و الغنى و حيازتها بغير حق، أو هو توظيف مصادر القـــوة و استثمار الغنى في غير حق كذلك، و هذا الذي يقوم به المترفون في المجتمعات، و يقوم به المستكبرون في الأمم والشعوب، و يقوم به "الاستعمار" -في كل أشكاله- على مستوى الأرض جميعها.

و هم بما يملكون من قوة مادية، يحاولون اكتساب شرعية حكمهم ومصداقية منطقهم وخطاهم، وصواب عاداتهم وتصرفاتهم. وتكون نتيجة هذا الاستكبار في الأرض أن تذل الأمم والشعوب تحت ضغط القوة والغنى فيخضعون للمستكبرين و يطيعونهم و يقلدونهم في كل صغيرة وكبيرة، و يصيرون لهم أتباعا، بعدما تختل المعايير والموازين والحقائق في تصوراتهم المأخوذة والمتأثرة بالأوضاع الاستكبارية البراق. من هنا كان مطلب موسى عليه السلام في قوله تعالى:﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:88].
فهذه الزينة والأموال التي يتقلّب فيها فرعون وملأه « ينشأ عنها إضلال الناس عن سبيلك، إمّا بالإغراء الذي يحدثه مظهر النعمة في نفوس الآخرين، وإمّا بالقوة التي يمنحها المال لأصحابه، فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين وإغوائهم.و وجود النعمة في أيدي المفسدين لا شك يزعزع كثيرا من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار.» ④

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 19، ص2558

② الشيخ الطبرسي: مجمع البيان، الجزء 7، ص261

③ محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984، المجلد 19، ص5

④ سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 11، ص1817

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و قد ورد الاستكبار في الأرض والتكبر فيها في عدة مواضع من القرآن الكريم، منها: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 39]، وقوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: 39]. وقوله جل من قائل: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: 15]. وقوله سبـــحانه تعالى: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [فاطر: 43].

هذه الآيات القرآنية الكريمة تتحدث عن الاستكبار في الأرض، ليس الأرض باعتبارها حيزا جغرافيا، إنما الأرض بمن فيها من قبائل وشعوب وأمم، وما بين هؤلاء من مصالح اقتصادية وعلاقات اجتماعية وثروات طبيعية، فيها قوام المجتمعات والأفراد، فيسعى المستكبرون أن يمتدوا فيها وأن يمتلكوها ظلما واغتصابا، وأن يحرموا الآخرين حقوقهم. وما ينطبق على المستكبر الفرد، وهو يمارس استكباره في الأرض ينطبق على الجماعة المستكبرة، و على الدولة المستكبرة، وعلى مجموعة دول مستكبرة، تنشيء في ما بينهما تحالفا للاستغلال والاستعمار والاستكبار في الأرض بغير الحق، و لا فرق بين هؤلاء جميعا سوى في الرقعة الجغرافية التي يمارسون فيها استكبارهم، و الأدوات الموظفة في سبيل ذلك.

و في هذا المضمار يقول "الشيخ محمد تقي هربر": « إن المستكبرين يؤكدون على قدراتهم الاقتصادية والسياسية لإضفاء الشرعية على وجودهم ونظامهم. وإن منطق الأنظمة السلطوية القائمة اليوم في العالم هو كما يلي:

لما كانت مساحة بلادنا أكبر ومصانعنا أعظم، فإننا نتميز بإنتاج ورأسمال أكثر، ابتداء بالذهب وحقول النفط، وانتهاء بالدولار والأسلحة وبضائعنا التصديرية وغيرها. ومن هنا كان لنا الحق في الحكم!. وعلى أساس هذا المنطق يجب أن تحكم أمريكا والاتحاد السوفياتي والصين وبريطانيا العالم كله.» ① . من أجل تتبع عناصر القوة ومصادر الغنى واستنزافها، متبعة في ذلك طروقا غير إنسانية، متجاوزة كل شرع أو دين، أو عهد أو شرف، كإثارة الحروب الجهوية والنعرات القبلية والمذهبية والطائفية، وخلق بؤر توتر، وتنصيب أنظمة عميلة إلى غير ذلك من الأساليب التي تدعم الاستكبار في الأرض وتكرسه. يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسير الآية (39) من (سورة العنكبوت): « و تعليق قوله ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بـــ ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ للإشعار بأن استكبار كل منهم كان في جميع البلاد التي هو منها، ذلك أن كل واحد منهم من هؤلاء كان سيدا مطاعا في الأرض.» ②

---

① الشيخ محمد تقي هربر: الاستكبار والاستضعاف في وجهة نظر القرآن الكريم، ص33

② محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الجزء 2، ص250

إن هذا التفسير مقبول كباقي التفاسير، لكن ثالوث "المال، السلطة والقوة" يعمل متفاعلا متكاملا، كلاهم يخدم الآخر ليتدعم ويتضح ذلك أكثر في طبيعة العلاقات المصيرية والاستراتيجية التي تربط بين الشركات الاقتصادية والبنوك الكبرى، وبين السلطة السياسية والسلطة العسكرية في بلد ما، من أجل إيجاد أسواق تجارية أو مناطق للمواد الخام والأيدي العاملة الرخيصة. وخلال ذلك كله يقع ظلم، ويحدث امتهان لكرامة الشعوب، وتضييق على معيشة المستضعفين، واستعباد للكادحين وإفقار ممنهج، واستتراف مكثف لخيراقما وثرواقما.

وليت الاستكبار في الأرض يكتفي بهذا، بل إنه يعمد إلى طرق خبيثة من أجل قهر القناعات الفكرية والإيمانية لدى الشعوب، واستدراجها إلى عبودية ناعمة، فيفرغها من كل محتوى حي، ليحشوها بثقافة استهلاكية.

« يقول "فروم" إنه بدون هذه الترعة الامتلاكية، فإن القاهر يفقد اتصاله بالعالم، ذلك أنه بطبعه يحول كل شيء حوله إلى وجود خاضع لسلطته، بصرف النظر عن كون هذا الوجود أرضا أم زمنا أم رجالا.

وهكذا في غمرة رغبتهم الجامحة في الامتلاك فإن القاهرين يولدون من داخل أنفسهم قناعة بأن في تدورهم تحويل كل كائن في هذا العالم إلى شيء يدخل في إطار قدرقم الشرائية، فالنقود عند هؤلاء هي عماد كل شيء، ولا هدف للإنسان من الحياة سوى تحقيق الربح. لذلك فأنت تجد القاهرين في بحث دائم عن تحقيق المزيد من الربح. إلهم يطلبون المزيد دائما حتى وإن تم ذلك على حساب المقهورين الذين قد يأخذون القليل أولا يأخذونه على الإطلاق، وهكذا تبدوا حقيقة الوجود عند هؤلاء مركزة في الامتلاك.» ①

في هذا النص يبدو "باولو فرايري" معلما كبيرا، خبيرا بعقلية ونفسية القاهر أو المستكبر في الأرض، الذي تختل في ذهنه الأشياء وقيمة الأشياء، وتنحرف المعايير وقمتز الموازين في تصوره ورؤيته.

فالمستكبر في الأرض يفقد اتصاله السوي بالعالم المحيط به، أشياء أم أشخاصا. فلا يرى كل ذلك إلا من مكملات ملكه ومستلزمات استكباره. فتمسخ رغبتهم الممسوخة وجه العالم كله ومقوماته، بحيث تكتسح الشيئية كل شيء ليصير كل شيء، خاضعا للتقدير النقدي و أسعار البيع والشراء، بما في ذلك الذمم والأعراض والمبادئ والمواقف، ولن يحقق لهم ذلك الإشباع والامتلاء والاستغناء عن المزيد... إلهم كالهيم التي تزداد ظمأ أكثر كلما شربت أكثر... وفي هذا السياق يضيف "باولو فرايري": « و لا يرى هؤلاء في احتكارهم قدرة الامتلاك شيئا ينال من إنسانية الآخرين، فأنت تجدهم باحثين عن المزيد، تحركهم دوافعهم الأنانية، على الرغم

① باولو فرايري: تعليم المقهورين، ص39

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من اختناقهم بما يمتلكون. والغريب أنهم يعتبرون كل ما آل إليهم بطريق القهر حقا قد كسبوه بمجهودهم، بل ويعتبرون أن هذا الحق قد تحقق لهم بفضل شجاعتهم في ارتياد المغامرة. »» ①

إن هذه الفقرة التي كتبها خبير بشؤون القاهرين والمستكبرين ونفسياتهم تذكر القارئ المسلم بقصة "قارون" في القرآن الكريم، وما ذلك إلا لأن القرآن الكريم، يقدم لنا نماذج إنسانية خالدة متجددة، تظل تظهر على طول مسيرة الإنسانية وهي تكدح نحو الله.

الاستكبار عن الآيات و الحق و العبادة :

إن الاستكبار عن الآيات التي دلائل الحق وبراهين الساطعة وحججه الدامغة، استكبار عن الحق، الذي هو قوام الحياة وأس العبادة. هذه العبادة التي تهدف -شعيرة وشريعة- إلى إقامة العدل والقسط بين الناس جميعا، بحيث أن العدل يكبح جماح المستكبرين، ويقمع فيهم الرغبات الضالة والشهوات الجائرة، التي تبحث عن الإشباع ولو على حساب الآخرين.

و قد ورد الاستكبار عن الآيات في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿الأعراف: 36﴾. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ ﴿الأعراف: 40﴾. وقوله جل من قائل: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿الزمر: 59﴾

إن الآيات دليل على صدق و حق في غير قلب المستكبر وروحه، وفي غير صالحه كذلك، ولهذا يجد نفسه مدفوعا بحكم مصالحه وموقعه الاجتماعي مدفوعا إلى أن يكذب بها ويستكبر عنها، ويدعو الآخرين إلى أن يكذبوا بها ويستكبروا عنها، ولا يكتفي بهذا، بل إنه يسعى جاهدا كي يصوغ منظومة تصورية ما ، لا لها حججها وبراهينها و مرجعيتها، تكون منافسا أو بديلا عن المنظومة التصورية التي جاءت تدعمها هذه الآيات.

و يشرح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور "الاستكبار عن الآيات" فيقول: «« و الاستكبار الأعراض في قلة اكتراث، فبهذا يتعدى إلى الآيات، أو أريد من الآيات التأمل فيها، فيكون الاستكبار على حقيقته، أي تستكبرون عن التدبر في الآيات، وترون أنفسكم أعظم من صاحب تلك الآيات.»» ②

فالمستكبر عن آيات الله لا يكلف نفسه عناء السماع إلى هذه الآيات، ناهيك عن التأمل فيها أو التدبر في

---

① م.ن : ص39

② محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، المجلد 7، ص380

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

معانيها، وما ذلك منه في الحقيقة إلا لأنه لا يملك القدرة على مقاومة الحق الذي توضحه و تجليه، فإذا هو ظاهر بين.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ ﴿فصلت: 26﴾، وما أكثر اللغو الذي يثيره المستكبرون عبر كل العصور، حول كل دعوة تسعى إلى توضيح الحق للناس، والدعوة إلى الالتزام به. وما أكثر التشويش الإعلامي الذي يقومون به بغية الصد عن كل فرد أو جماعة تحمل خطابا مغايرا أو بديلا. « و هي مهاترة لا تليق، ولكنه العجز عن المواجهة بالحجة والمقارعة بالبرهان، ينتهي إلى المهاترة عند من استكبر على الإيمان. ولقد كانوا يلغون بقصص "اسفنديار" و"رستم" كما فعل "مالك بن النضر" ليصرف الناس عن القرآن، ويلغون بالصياح والهرج. ويلغون بالسجع والرجز. ولكن هذا كله ذهب أدراج الرياح وغلب القرآن، لأنه يحمل سر الغلب. والحق غالب مهما جهد المبطلون. » ①

أما "محمد حسين فضل الله" فيرى "الاستكبار عن الآيات" أبعد من أن يكون مجرد وسيلة للدفاع عن المصالح والمواقع المكتسبة بمخالفة، بل أنه يعتبر المسألة عقدة بالأساس. يقول: « و قد نتوقف عند كلمة "عن آياته تستكبرون" فهي توحي أن موقف الكفر أو الابتعاد عن الحق، لا يمثل حالة فكرية موضوعية مضادة لخط الإيمان، بل يمثل -في عمقه- عقدة ذاتية استعلائية تمنع الإنسان من الخضوع للحق، الذي يعتبرونه خضوعا لذات الحق، وتنازلا ذاتيا عن قناعاتهم التي يعتبرونها جزءا من الذات، مما يجعل من التعصب لها تعصبا للذات، ومن الحفاظ عليها حفاظا على الكرامة وعلى الوجود. ولعلنا نجد ذلك واضحا في الكثير من الممارسات الفكرية والعلمية التي تنطلق من خلفيات الاستكبار والاستعلاء بعيدا عن أية قناعة فكرية أو روحية.» ②

إن المستكبر يربط بين الفكرة التي يعارضها والشخص الذي يحملها، ولا يفصل بين ذاته والفكرة التي يتبناها... إنه لا يستطيع أن يتصور القيم مفصولة عن عالم الأشخاص والأشياء، وعن هذه الخلفية تصدر جميع مواقفه وتصرفاته، فلا يتصور أن شخصا عاديا جدا يحمل فكرة كبيرة أو دعوة عظيمة في مستوى النبوة، ولا يتصور أن بسطاء الناس يسبقونه إلى فكرة جديرة بالتبني، وفي هذا كله يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ﴿الزخرف: 31﴾. وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ، وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ ﴿الأحقاف: 11﴾

« و الأمر ليس كذلك، فما كان يمنعهم عنه أنهم يشكون فيه، أو يجهلون الحق الذي يقوم عليه والخير الذي يحتويه، إنما كان هو الكبر عن الإذعان لمحمد -كما كانوا يقولون-، وفقدان المراكز الاجتماعية، و المنافع

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 24، ص3120

② محمد حسين فضل الله : من وحي القرآن، الحلقة 9، ص298

الاقتصادية، كما كان هو الاعتزاز الأجوف بالآباء و الأجداد، و ما كان عليه الآباء والأجداد (...) إنه الهوى يتعاظم أهل الكبر أن يذعنوا للحق، وأن يستمعوا لصوت الفطرة، وأن يسلموا بالحجة. وهو الذي يملي عليهم العناد و الأعراض، و اختلاق المعاذير، و الإدعاء بالباطل على الحق و أهله. فهم لا يسلمون أبدا أنهم مخطئون، و هم يجعلون من ذواتهم محورا للحياة كلها يدورون حوله، و يريدون أ، يديروا حوله الحياة.» ①

و يرى الشيخ"رشيد رضا" أن للعناد والمكابرة الجوفاء النصيب الأوفر في دفع المستكبرين إلى الاستكبار عن آيات الله. كما أن الخوف من زوال الامتيازات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية يدفعهم إلى ذلك أيضا، يقول "رشيد رضا":« الاستكبار عن الآيات هو رفض قبولها كبرا و عنادا، ولمن جاء بها أن يكون إماما متبوعا للمستكبرين، لأنهم يرون أنفسهم فوقه و أقوامهم فوق قومه، أو يحبون أن يروا الناس و يوهموهم ذلك.» ②

و هناك علاقة جدلية -حسبما توحي بها النصوص الكريمة- قائمة بين الأعراض عن آيات الله، والاستكبار، فالاستكبار يؤدي إلى الإعراض عن آيات الله، كما أن الإعراض يؤدي إلى الاستكبار، إذن فكل مستكبر معرض، وكل معرض مستكبر، فكلاهما خلل نفسي يفضي إلى صاحبه، فلولا إعراض المرء ما استكبر، ولولا استكباره ما أعرض، يقول الشيخ "محمد الطاهر بن عاشور:« و الاستكبار مبالغة في التكبر، فالسين والتاء للمبالغة، وهو أن يعدّ المرء نفسه كبيرا، أي عظيما، وما هو به، فالسين و التاء للعدّ والحسبان، وكلا الأمرين يؤذن بإفراطهم في ذلك، وأنهم عدّوا قدرهم، وضمين الاستكبار معنى الإعراض، فعلّق به ضمير الآيات، والمعنى: واستكبروا فأعرضوا عنها.» ③

- **الاستكبار عن العبادة:**

بدءا لابد أن نعرف نوعية العبادة التي يأباها المستكبرون، ويستكبرون عنها، ذلك أنهم هم أنفسهـــم، و في لحظة شرودهم عن عبادة الله يكونون يعيشون العبودية المقيتة للشهوات والأهواء والنوازع المنحطة، وإضافة إلى هذا، وربما إشباعا لهذا، نجدهم يوسسون لعبادات تكون مرتعا للجهل والانحطاط والاستغلال والجمود والاستسلام والخرافات و الشعوذات، تمنع جماهير الناس من أن ينفتحوا على الحياة من خلال الوعي المستنير والرؤية الواضحة و المنهاج المستقيم.

إن القرآن الكريم يحدثنا أن فرعون يخاف على الدين ويحرص عليه من أن تطاله يد "موسى" بالتغيير والتبديل، ويحدثنا أن جلّ المستكبرين أشدّ الناس دفاعا عن دين الآباء والأجداد، و أشد الناس انغماسا في طقوسه و شعائره، و لكن، أي دين وأية طقوس، و أية شعائر؟ !

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 6، الجزء 26، ص3258

② الشيخ رشيد رضا : تفسير المنار، المجلد 8، ص410

③ محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، المجلد 8، ص111

إنها العبادة التي تمدّه في غيّه وهواه، إنّه الدين الذي يبّرر الوضع المنحرف بشتى المسوغات، إنها الشعائر التي تدخل الناس في ما يشبه الغيبوبة المزمنة، ذلك « أن الشرك الاجتماعي لا يتلاءم والتوحيد الاعتقادي، إن الجماعات والطبقات المختلفة -في الشرك الاجتماعي- كانت تبرر الاختلاف في الوضع الاجتماعي ودورها الاقتصادي و السياسي، على أنه اختلاف في الذات الإنسانية وجذورها العنصرية، ومن أجل هذا التبرير كان عليها أن تبحث عن ملاك نفسي اعتقادي، أي على أساس وجودي وعالمي. وطبعا -وبصورة تلقائية أيضا- عندما تتغير العينية، فإن صورها تنعكس على شاشة الذهنية.

و هكذا، عندما تبدلت وحدة ذاتية الإنسان (آدم) إلى تعددية ذاتية الإنسان، فإن وحدة ذاتية الإله تتبدل أيضا إلى تعدد ذاتية الإله، أي إلى نظام تعدد الآلهة. » ①

نستنتج من هذا كله، أن الشرك ليس أصيلا في نفسية الإنسان، و ليس أصيلا في بنية الوجود، بقدر ما هو طارئ مرحلي، يعبر عن تطور مصالح الإنسان في صراعه مع محيطه الاجتماعي والطبيعي. وليس مستبعدا أن "الرؤية الطبقية" هي التي أملت على الملأ من قريش أن يعترضوا على وحدانية الإله، بحكم أن المجتمع مقسم. وكأن "الطبقية" لم تكن حينها وضعا اقتصاديا وامتيازا اجتماعيا فحسب، بقدر ما كانت وضعا دينيا كذلك، يقول الله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ﴿ص: 5﴾.

إن الملأ والمستكبرين لا يستكبرون عن العبادة في حد ذاتها، إنما يعترضون على نوع منها محدد، وهو ذاك النوع يكسر علاقة التبعية بين المستكبرين والمستضعفين، ويحولها إلى علاقة تبعية للدين الحق، وهو ذاك النوع الذي يوحد الناس ويعتبرهم متساوين في الإنسانية، وفي كل ما ينبني عليها من حقوق وواجبات وقيم. إنها تلك العبادة التي جاءت كي « تنزل بالمتألهين والمتكبرين من عليائهم وجبروتهم، وتحجزهم عن التطاول على الآخرين، وأن ترتفع بالدهماء والمستضعفين من مناخ الذل والصغار الذي فرض عليهم، وتطلقهم فوق صعيد الحرية والكرامة، وتعيد إلى كيانهم مشاعر العز والإباء، وبذلك يلتقي هؤلاء أو أولئك عند حـــدود عادلة متساوية ولا تدع لهـــذا الجانب أو ذلك فرصة لاستغلال أو وسيلة لاستعباد.» ②

إنها العبادة الحرة التي لا كهنوت فيها و لا وسطاء و لا أكليروس، هي تلك التي تحرر وتدفع كل قوى الإنسان لتتعلق بالله وحده، وتنبذ من سواه، وتمضي بالإنسان صعدا كي يحقق كمالاته المثلى، متحررا من الضغوط النفسية المختلفة، ومتحررا من الضغوط الخارجية، مهما كان مصدرها وطبيعتها.

فهي عند الدكتور "يوسف القرضاوي": « عين الحرية وسبيل السيادة الحقيقية، فهي وحدها التي تعتق القلب من رق المخلوقين، وتحرره من الذل والخضوع لكل ما سوى الله من أنواع الآلهة والطواغيت التي تستعبد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

① د. علي شريعتي : الإنسان و الإسلام، ص32

② د. يوسف القرضاوي : العبادة في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت 1987، ص68

الناس وتسترقهم أشد ما يكون الاسترقاق والاستعباد، وإن ظهروا -صورة وشكلا- بمظهر السادة الأحرار...و ليس أشرف للإنسان العاقل من أن يعبد من خلقه فسواه فعدله، و يطرح عبادة كل ما سواه.» ①

بعد هذا، فليس عجبا أن يستكبر المستكبرون عن عبادة الله، و أن يعرضوا عنها، ما دامت تقمع فيهم غرورهم وكبريائهم، وتنزل بهم من علياء الوهم إلى أرض الإنسانية، ذات الأصل الواحد والهدف الواحد والإله الواحد. وترتفع بالمستضعفين من وهدة الاحتقار والاستخفاف لتضعهم على صعيد الإنسانية، وتنمي فيهم الملكات المكبوتة والقابليات المقموعة، وتزكي أنفسهم، وتوجهها صوب الحق والعدل والحرية. يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ﴿غافر60﴾.

يقول الشيخ "الطاهر بن عاشور": « فالدعاء يطلق على سؤال العبد من الله حاجته، وهو ظاهر معناه في اللغة، ويطلق على عبادة الله طريق الكناية لأن العبادة لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيم والتضرع إليه، وهذا إطلاق أشد شيوعا من الأول، ويراد بالعبادة في اصطلاح القرآن إفراد الله بالعبادة، أي الاعتراف بوحدانيته.» ②

إن المستكبر، و هو يعيش تحت ضغط الكبر والغرور، والذي يأبى عليه أن يشعر بافتقاره وحاجته إلى قوة أخرى غنية ومهينة، هذا المستكبر يستنكف أن يقر بشيء من ذلك لأية قوة أخرى، فيأبى أن يخضع لها ويخنع ويظهر في حضرتها الافتقار و الذلة والعجز و الضعف، والانسحاق والاستكانة.

إن العبادة، في أي صورة كانت تتبع مواطن الكبر في النفس و الشعور، والفكر والضمير، تتبعه وتقضي عليه، ليعود إلى الإنسان شعوره الحقيقي بنفسه، و إحساسه الواقعي بذاته، و عندها قد يفطن إلى طبيعة دوره الوجودي، ورسالته الاستخلافية.

يقول "الطبرسي"في تفسير هذه الآية: « و قيل معناه وحدوني واعبدوني أثبكم. و يدل عليه قول النبي (ﷺ) الدعاء هو العبادة. لوما عبر عن العبادة بالدعاء جعل الإثابة استجابة ليتجانس اللفظ "إن الذين يستكبرون عن عبادتي" و دعائي "سيدخلون جهنم داخرين" أي صاغرين. و في الآية دلالة على عظم قدر الدعاء عند الله تعالى وعلى فضل الانقطاع إليه.» ③

أما "الطبري" فيرى أن الاستكبار عن العبادة تعظم وتكبر، بحيث يرى المستكبر نفسه، وقد صار ذا مال و بنين وسلطة وجاه، يراها أكبر من أن تتوسل إلى الله وأعظم من أن تسأله عطاء أو عافية، و لها من الغنى ما

---

① م.ن ، ص102

② محمد الطاهر بن عاشور: التحرير و التنوير، المجلد 8، ص114

③ الشيخ الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن. المجلد 7-8. ص823

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يضمن لها العافية وتوابعها ولوازمها. يقـول الطبري: « وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ يقول: إن الذين يتعظمون عن إفرادي بالعبادة، وإفراد الألوهية لي.» ① يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿الأعراف: 206﴾.

في هذه الآية القرآنية الكريمة، يلفت الله سبحانه نظر الناس، خاصة الذين يستكبرون عن عبادته، لظنهم أنهم أصحاب عظمة ومكانة، ومرتبة وشرف، يرشدهم إلى الملائكة، وهم من هم في السمو والرفعة ونفاسة العنصر، فهم لا يستكبرون عن عبادته، بل إنهم « معترفون بذل عبوديتهم، خاضعون لعز الربوبية، لا يخالجهم في عبادتهم كبر، ولا يأخذهم عنها صلف، بل هم دائما يسبحونه وله يسجدون. فما أحوج الإنسان وقد ركبت فيه مبادئ الشهوة والغضب أن يتخذ إلى ربه سبيلا.» ②

نستنتج من هذا كله، أنه كلما حدث انحراف في علاقة الإنسان مع ربه، ونتج عن ذلك الانحراف الاستكبار عن العبادة، كلما حدث انحراف في علاقة الإنسان بالإنسان، وانجر عن ذلك الاستكبار في الأرض، وما يتبعه من قهر واستعمار وامتهان لكرامة الإنسانية جميعا. والله سبحانه وتعالى يربط نوعية العلاقة التي تكون بين الإنسان وربه بنوعية العلاقة التي تكون بين الإنسان ومحيطه الاجتماعية والطبيعي. فعلى قدر استقامته في علاقته على الخط الأول (مع الله) تكون استقامته في علاقاته على الخط الثاني (مع المحيط الاجتماعي والطبيعي) يقول الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ ﴿الجن: 16﴾. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ ﴿المائدة: 66﴾. ويقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿الأعراف: 96﴾.

ففي هذه النصوص القرآنية الكريمة ثمة علاقة جدلية وطيدة، بين نوعية العبادة التي يمارسها الإنسان والجماعة الإنسانية وبين نوعية العلاقات الاجتماعية التي تشكل الملامح المشتركة و اللحمة المشتركة للمجتمع، وبين نوعية العلاقات التي تكون مع الطبيعة باعتبارها مصدرا للأرزاق والأقوات والغنى.

فهذه المستويات الثلاث من العلاقات، تشكل نسقا قيميا، يتداعى إلى بعضه بعضا في الخير والشر، والفساد والإصلاح. « و هذه العلاقة ليست ذات محتوى غيبي فقط، نعم نحن نؤمن أيضا بمحتواها الغيبي، ولكن إضافة إلى محتواها الغيبي الرباني هي تشكل سنة من سنن التاريخ بحسب مفهوم القرآن الكريم. وذلك لأن مجتمع الظلم، مجتمع الفراعنة على مر التاريخ مجتمع ممزق، مشتت. الفرعونية على مـر التاريخ حينما تتحكـم في

① الطبري: جامع البيان، المجلد 11، ص73

② الشيخ محمود شلتوت: تفسير القرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأولى، دار الشروق، بيروت، ط(10)، 1983، ص507

علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان تستهدف تمزيق طاقات المجتمع، وتشتيت فئاته، وبعثرة إمكانياته، ومن الواضح أن تشتيتا وبعثرة وتفتيتا وتجزئة من هذا القبيل لا يمكن لأفراد المجتمع أن يحشدوا قواهم الحقيقية والسيطرة على الطبيعة. » ①

و إن المستكبر عن عبادة الله ليعلم أن جماهير الناس يستحيل عليها أن تعيش دون عبادة، تماما كما يستحيل عليها أن تعيش دون أكل أو شراب. والمستكبر نفسه لا بد له من شيء ما يعبده ويخضع له، تحت تأثير الفطرة المكبوتة الباحثة عن الإشباع. وبما أن عبادة الله تقمع استكباره، وتردع طمعه وغروره، وتضعه على صعيد واحد مع كل الناس، فإنه يلجأ إلى استحداث عبادة أو عبادات، تساير استكباره وتماشي هواه، وتخدم أغراضه وأهدافه بين الناس. وتلك هي الوظيفة الحقيقية للوثنية في أية صورة كانت. ذلك « أن أي نظام استغلالي في العالم يضع لنفسه إيديولوجية ومنظومة فكرية وفلسفية، تستهدف الاستغلال وتحطيم روح المقاومة الرفض والثورة ضد الاستغلال لدى المستغلين. وفي هذا المنظور تدخل نظريات التمركز الأوروبي.» ② . التي سوغت لمجموعة من الدول أن تستعمر العالم، وتجعله من لواحقها وتوابعها، مستكبرة عن كل الثقافات والمعتقدات لكل الشعوب، جاعلة منها هامشا حضاريا، ومنجما للمواد الخام ومزبلة للنفايات النووية وغير النووية.

و ما "حق الفيتو" إلا صورة معقدة وحركية عن "الاستكبار عن العبادة". إذ أن هذا الحق الباطل! يخول الدول الاستكبارية ألا تدعن لأي قرار أو إجراء يخالف هواها ومصالحها، تماما كما يفعل المستكبر الفرد حين يعترض على أي شكل من أشكال العبادة لا يخدم مصالحه ولا يماشي هواه.

المبحث الثالث : أركان الاستكبار

بتطور الحياة وتعقد الحاجات الإنسانية في مختلف صورها، لم يبق الاستكبار عقدة نفسية يعيشها فرد أو جماعة أفراد منعزلين، ويبحثون لها عن الإشباع والامتلاء بطرق بدائية بسيطة، بل إن الاستكبار قد صار نسقا مؤسسيا معقدا ومتفاعلا، ينتج حياة منحرفة في شتى نواحيها.

يقول الله تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ(9)وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ(10)الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ(11)فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ ﴿الفجر: 9-12﴾. إن هذا النص الكريم الذي يصف فرعون –كفرد مستكبر– بـ"ذي الأوتاد"– ليقر في الأذهان والتصورات صورة البناء الذي له أرضية وسقف وأوتاد ودعائم أخرى، تساهم كلها في إعطائه شكلا وظيفة.

① محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية، ص227

② رابح لونيسي: البديل الحضاري، دار المعرفة- الجزائر، ص66

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالجبال أوتاد الأرض، لأنها تثبتها وتحميها من الزلازل والانجرافات، وأوتاد الخيمة هي تلك القطع الخشبية التي ترز في الأرض وتركز، لترتفع عليها الخيمة، وتثبت في وجه الريح. وليس مستبعدا أن يكون أوتاد الفرعونية هم رجالها وجنودها، الذي تقوم عليهم وتثبت وتدوم بهم.

و قد ورد في "لسان العرب": « و أوتاد الأرض الجبال، لأنها تثبتها، وأوتاد البلاد رؤسائها، وأوتاد الفم أسنانه على التشبيه.» ①

و قال "الطبرسي" في تفسير الآيات السابقة: « أي ذي الجنود الذين كانوا يشيدون أمره عن ابن عباس. وسماهم أوتادا، لأنهم قواد عسكره، الذي بهم قوام أمره.» ②. وقد يقول بعض المفسرين إنها الأهرامات، وقد يقولون آخرون أنها آلة للتعذيب تقوم على أربعة أوتاد، وقد يقول آخرون غير هذا، لكن الأقرب إلى أساليب العربية في التعبير، وطريقتها في الكناية والمجاز، والذي يستأنس به الذين يعرفون هذه الأساليب، هو المعنى الأول، أي "ذي الجنود" الذين بهم قوام الفرعونية، حين يتوزعون على وجه الحياة في إطار شبكة من العلاقات والمصالح المتبادلة، وهم إن اختلفوا في وظائفهم وأدوارهم، فإنهم يتفقون في الهدف والغرض البعيد، وهو الحفاظ على الاستكبار ضد الناس والجماهير المستضعفة. ويذهب كثير من المفسرين والمفكرين إلى أن الاستكبار وإن تعددت أجناده ووظائف أجناده، فإنه يقوم على ثلاثة ركائز أو ثلاثة أركان أساسية، وهي: 1. الركيزة الاقتصادية، 2. الركيزة السياسية، 3. الركيزة الدينية. أي أنه قائم على تحالف ووطيد ومصيري بين المال والسلطة والدين المنحرف. وفي هذا يقول د. "علي شريعتي": « و على حد تعبير القرآن، هناك أكثرية جماهيرية إسمها "الناس"، وهناك قطب ضد هؤلاء الناس، هذا القطب المخالف للناس -والذي هو حاكم على الناس في التاريخ، ويتصرف بمصير التاريخ البشري والمجتمع البشري- هو القطب القابيلي الذي له ثلاثة وجوه: وجه اقتصادي، ووجه سياسي، ووجه ديني. المال و القوة و الدين.» ③

و أن أفضل من يمثل الوجه السياسي أو السلطوي هو "فرعون"، الذي استكبر بسلطته استكبارا بعيدا. وخير من يمثل الوجه الاقتصادي أو المالي، هو "قارون" الذي قص علينا القرآن كيف أبطرته النعمة، وكيف أخرجه المال عن أطواره السوية، وكيف صار يفكر ويزن الأشياء... أما الوجه الديني، فيمثله الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، و يمثله من شابههم من علماء البلاط ووعاظ السلاطين، ويمثله ذلك الذي قال فيه الله سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ(175)وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ

---

① لسان العرب: مادة : وتد

② الشيخ الطبرسي : مجمع البيان، المجلد 9-10، ص739

③ د. علي شريعتي: الإنسان والإسلام. ص39.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿الأعراف: 175-176﴾.

و سواء كان اسم هذا الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، "بلعم بن باعوراء" أو "أمية بن الصلت" أو "أبو عامر الفاسق" أو أي اسم آخر، فإن ذلك لا يغير في المعنى شيئا، حسبه أن يكون إنسانا يمثل حالة متكررة، ونموذجا إنسانيا باقيا لطائفة من الناس « يكذبون بآيات الله بعد أن تبين لهم فيعرفوها ثم لا يستقيموا عليها... وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر، ما أكثر الذين يعطون علم دين الله، ثم لا يهتدون به، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه، واتباع الهوى به... هواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم - في وهمهم- عرض الحياة الدنيا.» ①

و هكذا تتحد السلطة الطاغية و المال الباغي و الدين المنحرف، ليشكلوا ركائز وأوتاد طبقة واحدة هي طبقة المستكبرين، التي كانت تستغل الناس بالمال وترهبهم و تقمعهم بقوة السلطة، وتخدرهم باسم الدين في صبغته الاستكبارية. يرى د. علي شريعتي أن الثالوث الموجود في كثير من الديانات هو انعكاس لهذا الثالوث الذي تقوم عليه هذه الطبقة الاستكبارية، فالإله الذي هو ثلاثة في الوقت الذي هو واحد، هو انعكاس لتركيبة هذه الطبقة « التي لها ثلاثة وجوه بالوقت الذي هي طبقة واحدة: وجه راهب زاهد، الطبقة الروحانية أي البلعمية الباعورية. ووجه القوة والسلطة، أي الوجه الفرعوني. و وجه الثروة و الرأسمال، أي الوجه القاروني، ففي الوقت الذي هي ثلاثة هي واحدة.» ②

- الاستكبار بالمال :

يطالعنا القرآن الكريم بنماذج خالدة للاستكبار المالي، ومواقف متكررة على مر العصور، حين يتملأها القارئ الذكي بصدق وعمق، ليكتشف بعد مقارنة بسيطة أن القوارين -على اختلاف بيئاتهم وأزمانهم- سواء، في نفسيتهم وسلوكهم، وغرورهم، وتصورهم. يستوي في ذلك من كان فردا، أو من كانوا عصبة، أو ناديا أو ملأ... ومن بين النماذج التي قدمها القرآن الكريم، نجد "صاحب الجنتين"، الذي دخل جنته وهو ظالم لنفسه، وراح يقلب عينيه في خيراتها ومباهجتها، مأخوذا بما صارت عليه من زينة وفتنة، وما أكثر الذين يستعرضون مظاهر ثرائهم وترفهم صباحا مساء، ويجدون في ذلك المتعة واللذة والهناء.

يقول "سيد قطب" في تفسير الآيات: "32 ← 42" من سورة الكهف:« وهو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحس بالزهو، وينتفش كالديك، ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير.» ③

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 4، الجزء 15، ص1397

② د. علي شريعتي : الإنسان و الإسلام، ص30

③ سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 22، ص2270

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و يقف "قارون" وحده نموذجا خالدا للمستكبر الذي يبطره المال فيدفعه إلى البغي في شتى صوره التي نعرفها والتي لا نعرفها، والتي يتخذ إليها المال وسيلة و سببا كذلك، و التي يتخذ إليها شبكة علاقاته وسيلة وسببا، و هو خلال هذا البغي يدوس على قيم ويتجاوز أخلاقا، ويقطع أرزاقا، ويهتك أعراضا، وينكث عهودا، ويتنكر لمواثيق، ويتبرأ من علاقات حفاظا على علاقات أخرى، وهكذا يستمر في سلسلة من سلوكات البغي والاستكبار، يحركه إليها منطق مطموس عن رؤية الحقائق، بحيث يدعي أن المال هذا قد صار إليه بفضل حكمة وعمل، وحسن استثمار، وليست المسألة مسألة حظوظ أو أقدار، أو ابتلاء من الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ ﴿القصص: 78﴾. « و هو نموذج مكرر في البشرية، فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه، ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق وما يمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حسابا، ولا ناظر إلى غضبه و رضاه. » ①. وبما أنه من المترفين، فإنه ينفق ماله في الكماليات والزينة وزخرف الحياة، ليخرج في ذلك كله على قوم لاحظ لهم من ترف أو كماليات، أو زينة أو زخرف الحياة، حينها يتمنى الفقراء المعدمون أن يكون لهم مثل ماله، ليكونوا مثله و أو ربما أكثر منه قليلا، قياسا إلى الحرمان الذي يقاسونه، إذ غالبا ما يصير المقهور إذا تمكن أقسى من القاهر، ما لم يكسر نموذجية القاهر في نفسه: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ﴿القصص: 79﴾.

« و في كل زمان ومكان تستهوي زينة الأرض بعض القلوب، وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا، ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها، فلا يسألون بأي ثمن اشترى صاحب الزينة زينته، ولا بأي الوسائل نال ما نال من عرض الحياة؟ من مال أو منصب أو جاه، ومن ثم تتهافت نفوسهم و تتهاوى، كما يتهافت الذباب على الحلوى و يتهاوى! ويسيل لعابهم على ما في أيدي المحظوظين من متاع، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذي أدوه، ولا إلى الطريق الدنس الذي خاضوه، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التي اتخذوها.» ②، والتي يصورها القرآن الكريم في موضع آخر، وفي قصة مستكبر، جمع إلى ماله كل المثالب والدنس الذي يمكن أن يعلق بإنسان، فإذا الثمن الذي دفعوه في سبيل المال باهظ، وإذا الطريق الذي خاضوها إليه بخسة قذرة، وإذا الوسيلة غير إنسانية وغير كريمة.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ(10)هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ(11)مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(12)عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ(13)أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿القلم: 10-14﴾.

فالمستكبر بماله -في أي زمان أو مكان كان- يدفعه ماله وترفه إلى الاتصاف بمجموعة من الأوصاف القبيحة، تمكنه من الجمع والاستكثار، دون أن يقيم وزنا لعرف أو دين أو خلق. و ما نظن أن أصحاب

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 20، ص2712

② سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 20، ص 2713

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الشركات العابرة للقارات حاليا، و أصحاب البنوك العالمية في منجى عن هذه الصفات، و هم يعقدون الصفقات و يقدمون الرشاوى في سبيل الحصول على المشاريع الاستثمارية في الدول المتخلفة، و هذه الصفات كما قدمها النص القرآني الكريم هي: 1. كثرة الحلف، و ما يفعل ذلك إلا الذي يعلم الكذب في نفسه، فيخاف أن يتفطن إليه الناس، 2. مهين: لا يحترمه الناس إلا طمعا في ماله أو اتقاء لشره، أو قضاء لمصلحة من مصالحهم عنده، 3. هماز: يعيب الناس بما فيهم وما ليس فيهم، سعيا منه إلى الحط من قيمتهم وإفساد علاقاتهم بالآخرين، 4. مشاء بنميم: وما يفعل ذلك إلا ليقطع صلات الناس بالناس، ليبقى هو "المعبر" الوحيد للناس إلى الناس، فيستثمر ذلك في تنمية ماله، 5. مناع للخير: يمنعه عن نفسه ويمنعه عن الآخرين، لأنه يعتقد أن العطاء ينقص المال، وأن الجود يفقر، 6. معتد: فهو يتجاوز الحق والعدل والعرف، وكل الموازين التي يمكنها أن تكبح جماح شهواته ونزواته، 7. أثيم: لا يتورع عن ارتكاب الموبقات والآثام إن كان ذلك يحقق له مصلحة و يجب منفعة، 8. عتل: و هي صفة تختزل عدة صفات قبيحة، فهو غليظ جاف، شره للأكل والشرب منوع، فظ في طبعه، لئيم في نفسه، خبيث كثير الشرور، و لعل هذه الصفات هي التي جمعها الأستاذ إمـــام "عبد الفتـــاح"، و هو يتحدث عن الإنسان الذي يطغى و يستكبر، فيقول: « و هو يقضي حياته في خوف مستمر، و يعاني على الدوام آلاما مرهقة، و يبدو أكثر الناس بؤسا، بل يمكن أن نضيف إلى تلك الشرور شرا آخر، وهو أن السلطة تنمي كل مساوئه، وتجعله أشد حسدا وغدرا وظلما، وأقل أصدقاء... كل ذلك يجعله أتعس الناس قاطبة، بل تعاسته هذه تجعله يفيض أيضا على كل من يحيط به. » ①

و هذا شيء قليل من كثير يوحي به النص القرآني الكريم، وهو يصف حالة ناس آتاهم الله مالا فاستكبروا به وأفسدوا في الأرض: يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 55].

إن قلقهم على مصير المال يملأ حياتهم حيرة وقلقا، ويجعل أعصابهم متوترة على الدوام، فيلجأون إلى المسكنات والمهدئات والحبوب المنومة، لتجرهم إلى عالم المخدرات بحثا عن سعادة مفقودة، وسعيا وراء سكينة وطمأنينة وهدوء لم يعد لها من أثر في حياتهم.

و إن كل الشرور التي تضيق بها الأرض حاليا، سببها البنوك الكبرى والشركات المتعددة الجنسيات، وهي تبحث عن امتدادات غير مشروعة في فضاءات الشعوب جريا وراء المزيد من الذهب والثروة، وهي لا تتورع في سبيل ذلك من إفساد العلاقات بين الدول، وتدبير الانقلابات العسكرية، وإشعال الحروب الأهلية والجهوية، وإثارة النعرات الطائفية، وإشاعة الفواحش والأمراض والأوبئة والمجاعة بين الناس، متجاوزة في ذلك كل القيم الدولية و الأعراف الإنسانية. حسبها أن تمتد في فراغات تخلقها بالمكر و الفتن و الدسائس والدم.

① إمام عبد الفتاح : الطاغية، ص118

و قد صارت السلطة السياسية و الأنظمة والجيوش في خدمة هذه الشركات و البنوك، فالأنظمة تقدم جشع هذه الشركات والبنوك في خطابات سياسية خادعة، أما الجيوش، فإنها تمرر هذا الجشع، و تجعله واقعا ميدانيا معيشا بالحديد والنار... ولا يختلف تحالف "قارون" و"فرعون" و"هامان" في قومهم وأرصهم، عن تحالف هذه الشركات والبنوك والأنظمة السياسية والقوات العسكرية في العالم كله حاليا. الذي أصبحت الطبقة البورجوازية فيه «عالمية مترابطة المصالح، ما دامت الشركات المتعددة الجنسيات الكبرى هي المسيطرة، يحكم في الشركة الواحدة أناس من جنسيات وقوميات مختلفة (...) وما يساعد هذه الطبقة العالمية اليوم هو تداخل المشاكل الدولية كتلوث البيئة والإرهاب والأسلحة النووية وخطورة انتشارها... وغيرها من المشاكل، فكل هذا يستدعي في نظرها إقامة حكومة عالمية تدير شؤون العالم، لكن هذه الدولة ستكون في خدمة هذه الطبقة، مثلما كانت الدولة القومية في خدمة البرجوازية الوطنية. فيستمر بذلك الاستغلال و سلب فقراء العالم عرقهم وحقوقهم باسم القانون و الشرعية.» ①

- **الاستكبار بالدين :**

كان الدين قديما -ولا يزال- هو الذي يوفر الغطاء الإيديولوجي، ويفصل مفردات الخطاب بالاستكبار، لكي يخترق جدار الناس بأيسر السبل و أقل مجهود، كما أنه يبرر للمستضعفين و الظلم و القهر، و الاستبداد واغتصاب الحقوق. و يقر في أذهانهم و تصوراتهم أن الواقع خاضع لقدر لا يرد، و قضاء لا يدفع، و أن البدائل التي يبشر بها هذا الطرف أو ذاك، ليست إلا يوتوبيا محلقة في فضاءات الخيال، فما عليهم إلا الإذعان للأقدار وإن كانت قاسية، والاستسلام للقضاء، و إن كان جائرا.

و غالبا ما كان الدين قناعا لحروب شرسة شنها مستكبرون ضد مستضعفين طمعا في ذهبهم و ثرواتهم، وما الدين سوى قناع براق يخفي المطامع الخسيسة.

و من هنا يصير الدين ضد رسالته الحقيقية، وهي الهداية إلى الله، فالناس يرون أن رجل الدين بوصلة تشير إلى الله دائما، ولأن المستكبرين يعلمون ذلك، فإنهم يسعون بكل الحيل والمكر لكي يضعوا يدهم على رجل الدين، ويدخلوه في زمرتهم، ليوظفوه في تبرير الاستكبار وتمريره، يقول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 34]. « و أكل أموال الناس كان يتمثل في صور شتى و ما يزال : منها ما يأخذونه على فتاوى تحليل الحرام وتحريم الحلال لصالح من يملكون المال أو السلطان. و منها ما يأخذه القسيس أو الكاهن مقابل الاعتراف له بالخطايا و غفرانه

① رابح لونيسي : البديل الحضاري، دار للمعرفة، الجزائر، ص44

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بالسلطان المخول للكنيسة في زعمهم-لتلك الخطايا! ومنها الربا—و هو أوسع أبوابها وأبشعها-و غيرها كثير.» ①

يضيف إليها "محمد حسين فضل الله" ما يلي: « فقد كانوا يقيمون الحواجز بين الناس وبين الدعوة إلى الله، لأنهم يخافون على مراكزهم وامتيازاتهم من الزوال والذوبان. » ②

و إن النص القرآني الكريم، و إن كان قد ذكر الأحبار والرهبان فقط، باعتبارهم علماء ملة اليهود والنصارى، فهو لا يستثني عالم أية ملة أخرى، حتى وإن كانت الإسلام، إذا وقف نفس مواقفهم، وأدى نفس أدوارهم، وتلبس بمثل ما تلبسوا به. لأن القرآن الكريم لا يشجب الأشخاص، ولا يرفض الصور والهيئات، إنما يشجب المواقف المتواطئة، ويرفض المبادئ المنحرفة، وينبذ المتاجرة بالقيم المقدسة من أي كان، و ينكر الركون إلى المستكبرين، حتى و إن كان الذي ركن ذا عمامة كبرى أو كان متأبطا مصحفا كريما.

انطلاقا من هذا، نستطيع القول إن الآية القرآنية السابقة « تشمل -في إيحائها العلماء المسلمين، الذين يجعلون لأنفسهم مركزا فوقيا يستغلون به على الناس، ويستغلون تمثيلهم للدين في تكديس الثروات بالباطل، وتحصيل الامتيازات بطريق غير مشروع، ويقيمون الحواجز بين الناس وبين المعاني الحقة، في حركة العقيدة والامتداد، ويتزلفون إلى أصحاب المال والسلطان على حساب المبدأ والعقيدة وقضايا الناس، ويجعلون من مركزهم الاجتماعي منطلقا للإضرار بالناس، فيقربون القريب وإن كان مبطلا، ويبعدون البعيد وإن كان محقا، بحيث يفقد الحق قيمته في حياتهم كأساس للتقييم و التقدير. » ③

بمعنى أن الجاهلية التي جاءت ديانات السماء لتنسفها منطقا و تصورا و خطابا، و تولى ذلك الربانيون و الأحبار والعلماء بما استحفظوا من كتاب الله، و كانوا عليه شهداء، معناه أن الجاهلية قد انبعثت من جديد، أو أنها قد استمرت متسربلة بمسوح الدين، متحالفة مع القوى الاستكبارية، من خلال هؤلاء الأشخاص الذين خانوا رسالتهم، وتنكروا لوظيفتهم، وانسلخوا من آيات الله انسلاخا.

يقول الله تعالى، وهو يقدم لنا ملامح أخرى وظلالا من صورة هؤلاء: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ(175)وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿الأعراف: 175- 176﴾.

و هذا النموذج ما زلنا لحد الآن نراه ونعايشه، ممثلا في علماء الدين، ومثقفين، تمكنوا بطريقة أو بأخرى من العلم والثقافة وأدوات التحليل والاستنباط والقراءة، وصارت لهم في ذلك سمعة وصيت، لكنهم بدل أن يجعلوا ذلك في خدمة الحق والناس، انحازوا إلى صف المستكبرين والمتجبرين والسلط الديكتاتورية، يبررون لها

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 10، ص1645

② محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، بيروت، ط(3)، 1405هـ، ص128

③ م.ن ، ص130

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإجرام، و يمررون لها المكر ما ظهر منه وما بطن، مقابل مناصب وامتيازات مادية واجتماعية يملكها المستكبرون، ولا يملكها بسطاء الناس.

فهم ينسلخون من الهدى، وينشدون نحو الأرض تجاوبا مع طبيعتهم و شاكلتهم، بكل ما ترمز له الأرض من ضعة في التصور وانحطاط في القيم، وخسة في السلوك وضآلة في التطلعات، وضيق في الرؤية، وانغلاق دون الحق والحقائق، وانفتاح على الشهوات الوطيئة، واللهاث وراء المتاع الفاني الرخيص.

و بهذا كله يصير العالم بوقا للمستكبرين، ويصير المثقف عصا في قبضة الجلاد، ويصير الكاهن بائع مخدرات، تتعاطاها القلوب و الأرواح والضمائر، أي أنهم قد انقلبوا ضد رسالتهم الحقيقية، و خانوا وظيفتهم ... الحياة. وصاروا أدوات للبطش والقمع والتعسف، هي أمضى من السيف وأقتل من الرصاص، وأظلم من زنازين السجون...« و الحياة البشرية ما تني تطلع علينا بهذا المثل في كل مكان وفي كل زمان وفي كل بيئة، حتى إنه لتمر فترات كثيرة، وما تكاد العين تقع على عالم إلا وهذا مثله، فيما عدا الندرة النادرة ممن عصم الله، ممن لا ينسلخون من آيات الله، ولا يخلدون إلى الأرض، ولا يتبعون الهوى، ولا يستذلهم الشيطان، ولا يلهثون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان... فهو مثل لا ينقطع وروده ووجوده، وما هو بمحصور في قصة وقعت في جيل من الزمان. » ①

و كما اعتمد الاستكبار القديم على الدين، فإن الاستكبار الجديد في صورته المعقدة، لم يتخل عن الدين المنحرف، بل إنه لا يترك مواجهة صغيرة أو كبيرة مع خصومه، إلا ويدخل فيها الحبر أو الراهب أو عالم بلاط وواعظ سلطان، بغية إتيان المستضعفين من داخل نفوسهم، وزعزعة يقينهم بعدالة قضية ما، أو بضرورة تغيير ما، حيث يسلب المستضعفين قدرتهم على التغيير من خلال التشويش على رسالية الموقف وعقدية المواجهة. وفي هذا يقول "فرانز فانون":« هناك وسيلة أخرى يعمد إليها المستعمر من أجل أن لا يعبأ بالمستعمر ... وهي ... فبواسطة الإيمان بالقدر يجرد المضطهد من المسؤولية، باعتبار أن الله علة على كل شيء، فهو الذي أراد هذه الآلام وهذا البؤس، وهو الذي رسم هذا المصير، فعلى الفرد أن يقبل هذا القضاء الذي أراده الله، وهكذا يخضع للمستعمر، مدعنا للقضاء و القدر. » ② . و غير بعيد عن هذا المعنى، لا يفوت الدكتور علي الشريعتي أن يؤكد على مدى خطورة الدين كسلاح إذا وقع بين أيدي المستكبرين، بحيث يؤدي دورا تمويهيا ضد الناس والحياة، حين يربطهم بعالم الموت فقط، بحجة الاستعداد للآخرة، وما ذلك منه إلا ليصرفهم عن فساد المستكبرين وظلمهم و طغيانهم. يقول د. "علي شريعتي" عن طبقة المستكبرين أنها:« استخدمت الدين كسلاح بتار لخداع الناس و صرف أحاسيسهم عن مصائرهم الحالية، وحصرهم فيما يتعلق بالماضي، وتحويل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 9، ص1398

② فرانز فانون: معذبو الأرض، سلسلة الأنيس، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط 1990، ص21

المشاكل الحقيقية العينية عندهم إلى مشاكل ذهنية، وجذب اهتمامهم باسم الدين من مرحلة ما قبل الموت إلى مرحلة ما بعد الموت، و ذلك لكي تحول بينهم وبين مزاولة حياة كريمة فوق الأرض، وتنقل مثلهم يتوقون إلى تحقيقها في هذه الحياة إلى الآخرة. ونتيجة لذلك فقد صوروا الدين-و هو من أعظم الطاقات المعنوية التي تدفع الناس إلى الكفاح في حياتهم الدنيا-في صورة توجه الأنظار والأسماع والقلوب من الحياة الدنيا إلى الآخرة. » ①

و عندما يقوم الدين بهذا الدور فإنما يقوم بـــ "استحمار" الناس، حسب مصطلح د.علي شريعتي، ولن يكون هناك "استحمار" إلا بعد أن يزيف ذهن الإنسان، ونباهته الفردية والإنسانية والاجتماعية، من خلال طبيعة القضايا والاهتمامات والتطلعات، التي ينشرها في طريقة "رجال الدين"، ويصرفونه إليها صرفا رفيقا، حيث يفنى فيها جهده، ويصرف فيها طاقته، ويحقق شيئا من الإشباع لفطرية التدين، دون أن يلحق أي ضرر بالطغمة الاستكبارية لأنه قد جرده من كل شعور بالمسؤولية اتجاه المجتمع، « و يدور كلامي هنا حول الدين الاستحماري، الدين المضلل، الدين الحاكم، شريك المال والقوة، الدين الذي تتولاه فئة من الرسميين، لديهم بطاقات للدين، و إجازات للاكتساب، وفيهم علامات خاصة، تنم عن احتفاظهم بالدين، وبأنهم من الدعاة.» ②

و هذا الدين هو الذي يرعاه الفراعين والمستكبرون على مر التاريخ، ويتعهدونه بالهبات و الأعطيات، ويتعهدون القائمين عليه بتقريبهم و الانفاق عليهم. وما يقيم المعابد الفخمة الضخمة الغارقة في الترف إلا المستكبرون، ويجعلون لها أوقافا واسعة متنوعة، تدر أموالا طائلة، وهم يخافون على هذا الدين أن يتغير أو يتبدل، أو تتزعزع أركانه، لأن بذلك قد ينهارون ويزولون، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ﴿غافر: 26﴾. و هذا هو منطق الاستكبار في كل زمان ومكان، عندما تواجهه حركة إصلاحية أو صحوة أو دعوة تجديدية، فإنه يرد عليها باستثارة العواطف الدينية الطيبة في قلوب الناس، ويظهر أمامهم بمظهر المدافع عن دين الآباء والأجداد، وإن في حقيقته لا يدافع إلا عن مصالحه و عن مكانته، ويدافع عن الدين الذي جعل من الواقع الذي هو سيده ... لا يمكن تجاوزه، وإلها لا يمكنه تغييره، ومن فعل ذلك أو فكر فيه فإنه متهرطق يجب أن تلحقه لعنة الآلهة، إن « الفراعنة على مر التاريخ حينما يحتلون مراكزهم، يجدون في أي تطلع إلى المستقبل، وفي أي تجاوز للواقع الذي سيطروا عليه، يجدون في ذلك زعزعة لوجودهم وهزا لمراكزهم. و من هنا من مصلحة فرعون على مر التاريخ أن يغمض عيون الناس على هذا الواقع، إنه يحول الواقع الذي يعيشه مع الناس إلى مطلق، إلى إله، إلى مثل أعلى لا يمكن تجاوزه. » ③

---

① فاضل رسول: هكذا تكلم علي شريعتي، دار الكلمة للنشر، 1982، ص132

② د. علي شريعتي: النباهة و الاستحمار، الدار العالمية للطباعة و النشر، بيروت، ط(1)، 1404، ص54

③ محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص151

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و من ثم يصير القدر -الذي كان بالأساس عقيدة للتحدي والتجاوز- فكرة الهزامية معرقلة، لأن كل النكسات والمصائب قد بررت وفسرت بطريقة غامضة مبهمة ما ورائية، لا دخل للإنسان فيها، ولا قدرة له عليها، و لا سبيل إلى مقاومتها إلا بالإذعان لها ومسايرتها، و مطاوعتها. و في هذا السياق يقول "باولو فرايري": « و عندما نحاول تحليل تلك القدرية التي يتميز بها المقهورون، فسنجد أن لها جذورا اجتماعية وتاريخية، فهي غالبا ما تقترن عندهم بالحظ أو المصير الذي هو من صنع الله، ولا يد للإنسان فيه. فمن خلال ممارسة المقهورين للسحر والأساطير يصل الفلاحون إلى قناعة مؤداها أن كل ما يلحق بهم من عناء واستبداد هو من مشيئة الله، وكأن الله هو سبب هذه الفوضى المنظمة. » ①

و ليس مستبعدا أن يكون "بنو إسرائيل" تحت القهر الفرعوني، قد استنبطوا هذه المشاعر النفسية، وهـــذه التصورات، حين كان "موسى" (عليه السلام) يعمل على تحريرهم من قبضة الفراعين، فقد واجهوه ذات مرة بهذه النفسية المنهزمة المستسلمة قائلين: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿الأعراف: 129﴾. يقول "سيد قطب" في تفسير هذا: « إنها كلمات ذات ظل! وإنها لتشي بما وراءها من تبرم! أوذينا قبل مجيئك، وما تغير شيء بمجيئك، وطال هذا الأذى حتى ما تبدو له نهاية! » ②

إن هذا "الدين الرسمي" الذي صاغه الاستكبار ورعاه، ليكون ركيزة من ركائزه، وأداة في يده، والذي صار بمرور الوقت جزءا من "المؤسسة الاستكبارية"، هذا الدين هو الذي يعمل على مقاومة أية حركة ايديولوجية، مهما كانت صيغتها، ومهما كانت وجهتها ومحتواها الايديولوجي، حسبها أنها تدعو إلى تغيير الواقع، أو تطالب بإعادة ترتيبه، ليكون أكثر عدالة و إنسانية. وفي المقابل فإنها تدافع عن الاستكبار، وتعمل على بقاء هيمنة المستكبرين، متخذة إلى ذلك أسبابا شتى، لا تخرج عن دائرة الكبت الشعوري، و القمع الروحي والتشوه التصوري.

« فالمهمة الرئيسية لهذا الدين: أولا: إبراز أن الوضع الاجتماعي الموجود على أنه أزلي وإلهي. وثانيا: إرجاء الانتقام من الظلم، وإقامة العدل، وإحقاق الحق، وإدانة الغضب ،ورفاهية الحياة، والمتعة المادية، والخلاص من الكدح والجوع والعبودية إلى مرحلة ما بعد الموت والعالم الآخر. وأيضا استخدام المركزية الموجودة في المراسيم الدينية والإمامة الدينية والوساطة المحتكرة لهم بين الخلق والله والآلهة لاكتساب النفوذ والسيطرة على الناس، واتخاذ طبقة رجال الدين مكانا في صف الطبقة الحاكمة، وتعاملها المختلف بمقتضى الزمان في العلاقة مع الجناحين الآخرين.» ③

① باولو فرايري : تعليم المقهورين، ص41

② سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 9، ص1355

③ د. علي شريعتي: العودة إلى الذات. تحقيق ،د. إبراهيم دسوقي شتا، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.ط(1). 1406هـ. ص353

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

■ الاستكبار بالسلطة، أو الظاهرة الفرعونية :

تحدث القرآن الكريم عن "فرعون" كثيرا، ولقد سلط عليه الإضاءة من كل جوانبه، وأتاه حتى من داخله، ليقدمه للناس، باعتباره نموذجا إنسانيا للحاكم المتسلط الجبار، الذي سوف يبقى يتكرر بأسماء مختلفة وأوضاع شتى، وبجوهر واحد.

إن "فرعون" دائما يقدم نفسه على أنه يمتلك سلطة تمثيل الجماعة، والتحدث باسم الجماعة، ثم إنه يصير رمزا للجماعة، فيه تلتقي، وفيه تتحد، ثم يصير يعتقد أنه "روح الجماعة" الذي يحفظ لها كيالها ويعطيها هويتها، ويعطيها ملامحها، ويحفظها من التلاشي والذوبان في الآخرين، ليقول بعدها "أنا الدولة" أو "أنا الأمة". « و لكي يكون بمستطاع الجماعة أن تؤكد على تمايزها، ينبغي أن تكون غير منقسمة، وأن ترتكز على رفض الانقسام الاجتماعي في إرادتها، لأن تكون كلا شاملا، يستبعد كل الجماعات الأخرى، أي لكي تعقل ذاتها كـ (نحن) يستبعد الآخرين، ينبغي أن يكون الـ (نحن) جسما اجتماعيا متجانسا (...) فلكي يكون بمستطاع الجماعة أن تواجه بفعالية عالم الأعداء عليها أن تكون موحدة و متجانسة و غير منقسمة.» ①.و هي لن تكون كذلك إلا إذا التفت حول فرعون، الذي يحقق وحدها، ويحفظ تجانسها، وبالتالي فهو يمتلك شرعية تمثيلها والحديث باسمها.قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ﴿غافر: 29﴾ أنه بمقولته هذه يثبت أنه يفكر، وأنه يبحث لهم عن رؤية وعن سبيل راشد، دون أن يسمح للآخرين بالتفكير أو المساهمة في التفكير، وتلك طبيعة الاستبداد على مر التاريخ. « إن الصفوة المسيطرة تفكر بدون أن تشاركها الجماهير، وهي لا تسمح لنفسها بالفشل في ممارسة ترف التفكير، لأن التفكير يقودها إلى معرفة أحسن السبل لتأكيد سيطرتها، وهكذا فإن أي حوار أو اتصال بين هذه الصفوة والجماهير يتحول إلى مجرد بيانات إيذاعية لا يستهدف سوى تدجين المقهورين. و من حقنا أن نسأل لماذا لا تشعر الصفوة المتسلطة بالضعف وهي تفتقر إلى مشاركة الناس لها في التفكير؟.و الإجابة هي أن الناس يمتلكون المقابل المعاكس لهذه الصفوة، فإذا امتلك الناس قدرة التفكير انتفى التناقض القائم بين الصفوة والجماهير، وبالتالي يتوجب على الصفوة أن تفقد دورها في التسلط، لذلك فمن وجهة نظر المتسلطين لا بد أن يكون هناك تفكير يحكم عدم التفكير الذي تمارسه الجماهير.» ②

ثم إن الفرعون المستبد يقمع الأمة باسم مصلحة الأمة، ولا أحد يدري أية مصلحة للأمة في قمعها وإضعافها وقتل الكرامة والإنسانية؟ وبهذا المنطق الأخرق يشرع الفرعون في تكميم أفواه الأفراد الناهين ومحاربة الحريات، التي لا يراها سوى مشاغبة وتشويشا على الأمة، أو مؤامرة خارجية.

---

① مارسيل غوشيه وبيار كلاستر: أصل العنف و الدولة، تحقيق علي حرب، دار الحداثة بيروت، ص120

② باولو فرايري : تعليم للمقهورين، ص98

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و حين ندقق أكثر في المنطق الفرعوني نجد أن الأمة ليست إلا هو، فيتقدم خطوة أخرى ليعلن "ألوهيته السياسية" على الأمة، بحكم أنه هو الآمر الناهي. ﴿وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ﴿القصص: 38﴾.

و الظاهر من قول فرعون أنه لا ينكر وجود آلهة أخرى، تحكم أناسا آخرين، إنما هو إله هؤلاء الملأ ومن يتبعهم بطبيعة الحال، بحكم مركزه السياسي بينهم ومكانته الاجتماعية بين قومه. « و لم تكن دعوى فرعون الأصلية بالألوهية الغالبة المتصرفة في نظام السنن الطبيعية، بل الألوهية السياسية! فكان يزعم أنه الرب الأعلى لأرض مصر ومن فيها، و يقول أنا مالك القطر المصري و ما فيه من الغنى والثروة، وأنا الحقيق بالحاكمية المطلقة فيه، وشخصيتي المركزية في الأساس لمدنية مصر و اجتماعها، و إذن لا يجرين فيها إلا شريعتي وقانوني.» ①

و إذا كانت الألوهية تعني -ضمن ما تعنيه- القدرة على قضاء الحاجات، والقدرة على إلحاق الضرر أو النفع، والتوفيق، والنصر، والحماية والإجارة، وإجابة الدعاء، وامتلاك القدرة و القوة والغنى من أجل تحقيق ذلك كله لسائليه، إذا فهمنا هذا أدركنا أن "الألوهية السياسية" التي يدعيها الفرعون تكمن في قدرته على جمع كل صلاحيات السلطة في يده، وجعل الحكم مركزيا، متمحورا على ذاته، و رؤيته، مستجيبا لأوامره و رغباته ونواهيه.

و انطلاقا من مركزية الفرعون ومحوريته، فإنه يقدر على أن يملك كل شيء، بل يقدر أن يصدر مرسوما ما يجعل الآخرين لا يملكون أي شيء، لأن رغبة المستبد ليس في أن يملك فقط، إنما في أن لا تملك الآخرون. ﴿ وَ نَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿الزخرف: 51﴾.

و لا يسجل القرآن الكريم أن أحدا من الملأ أو عامة القوم، قد اعترض أو استنكر أو جابه هذا الإدعاء الاستبدادي، لأن الجميع مسكونون -على ما يبدو- بنموذجية الفرعون، « و ذلك ما يغذي في القاهرين حب التسلط والامتلاك للعالم والرجال، فالقاهرون لا يستطيعون تبين حقيقة أنفسهم إلا حين يقومون بدورهم كقاهرين. يقول "فروم"، إنه بدون هذه النزعة الامتلاكية، فإن القاهر يفقد اتصاله بالعالم، ذلك أنه بطبعه يحول كل شيء حوله إلى وجود خاضع لسلطته، بصرف النظر عن كون هذا الوجود أرضا أو زمنا أم رجالا.» ②

---

① أبو الأعلى المودودي: المصطلحات الأربعة في القرآن، دار التراث العربي، ط(2) 1406هـ، ص66

② باولو فرايري : تعليم المقهورين، ص98

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و يبدو أن المسألة لا تخرج عن استلزام جدلي، فالذي يملك يتسلط، والذي يتسلط يدعي الألوهية سواء قال ذلك صراحة، أو قاله من خلال تصديه لوظيفة الألوهية ودورها في الحياة. « إن كلا من الألوهية والسلطة تستلزم الأخرى، وأنه لا فرق بينهما من حيث المعنى و الروح، فالذي لا سلطة له، لا يمكن أن يكون إلها، ولا ينبغي أن يتخذ إلها. وأما من يملك السلطة فهو الذي يجوز أن يكون إلها، وهو وحده ينبغي أن يتخذ إلها.» ①

و إذا كانت "السلطة" أو التسلط تعني الغلبة والقهر، والظهور بحجة مادية أو معنوية، فإن الحفاظ عليها يستدعي تتبع مصادر القوة والاستزادة منها، وخلال عمل الفرعون الدؤوب من أجل الاستكبار بمقدرات القوة والغنى، فإنه يكون، على الطرف المقابل، يقوم بعملية استضعاف ممنهجة ومنظمة، حتى لا يترك الفرصة اللازمة لأي كان كي يفكر في الحكم وسياسة الحكم...يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿القصص: 4﴾.

إن الفرعون قد صار عاليا باستكباره، ولئلا يسمح لأي كان أن ينزله من عليائه، فقد عمد إلى القاعدة الجماهيرية العريضة، التي هي محضن أية معارضة محتملة، وراح يفككها، ويجعلها طوائف وأحزابا وشيعا، تختلف أكثر مما تتفق، وتحقد على بعضها بعضا أكثر مما تتسامح، « و في ضوء هذا يبدو أن المذهبية -بصرف النظر عن منطلقاتها- هي في حقيقتها ضرب من العمل وتعطيل للعقل، ولما كان المذهبي غير قادر على رؤية ديناميكية الواقع، فإنه يسيء فهمه، وحتى لو حاول أن يفكر بأسلوب جدلي، فإن جدليته تكون من النوع المدجن.» ②
و إن سلب القوة وممارسة الاستضعاف وتحزيب الجماهير هو شكل من أشكال التدجين.

إذن فالفرعون لا يكتفي بأن يكون قويا عاليا، بل إنه يعمل على أن تكون الجماهير ضعيفة وضيعة، من خلال ما نشره بينها من عوامل الفرقة والضعف، التي تنتهي بها إلى التشوه والاستلاب، لأنهم قد فرغوا من كل ما يجعل لهم هوية ويعطيهم وزنا. يقول الله في شأن الفرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿الزخرف: 54﴾. « و استخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه، فهم يعزلون الجماهير أولا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها، ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة. ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بها ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين! » ③

و يرى "سيد قطب" أن الاستخفاف الفرعوني، كان نتيجة فسوق الجماهير عن سبيل الله ومعايير الإيمان. ولكن يبدو أن العكس هو الصحيح، فالفسوق نتيجة للاستخفاف . إذ أن هدف الفرعون هو إخراج

① أبو الأعلى المودودي : المصطلحات الأربعة في القرآن، دار التراث العربي، ط(2). 1406هـ، ص66
② باولو فرايري : تعليم المقهورين، ص98
③ سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 25، ص3194

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الناس من موقعهم الأصيل، الذي يستطيعون من خلاله ممارسة الحياة بفعالية وإيجابية، إلى موقع آخر مصطنع، يصابون فيه بما يشبه "العقم" أو "الانقباض" عن الاندماج في الحياة الجادة ذات البعد الرسالي... فالممارسة الفرعونية هي الاستخفاف، والانتقال من موقع إلى آخر هو الفسوق...

أما الدكتور "علي شريعتي"، فيرى أن الاستخفاف هو محو مقومات شخصية الأمة أو المجتمع وتشويهها، وذلك بعزلها عن مصادر نماء الشخصية وزكائها، وجعلها تعيش الفراغ الوجودي، والخواء الروحي، والاغتراب عن الذات... لتصير بعدها تحتقر ذاتها، لأنها لا تشبه أي شيء، وليست ذات قيمة تذكر، فتتحرك باتجاه جلادها وقاهرها لتستلهم شخصيته وذاته، ولتندمج في حركيته وزمانه، وتدور في فلكه ، منسلخة ما استطاعت من كل ما كان يكون هويتها وشخصيتها. هذا الدور هو الذي قام به "الاستعمار" —كظاهرة فرعونية حركية معقدة، وممتدة— حيث قام « بتخلية الأمم ذوات التاريخ العميق والثقافة العالمية من محتواها، وفصلها عن تاريخها، وجعلها غريبة عن ثقافتها، وبعيدة عن نفسها عن طريق الحيل العلمية الدقيقة وعلم الاجتماع المعقد الذكي، بحيث لا تجد شيئا داخلها ولا تعرفه، فيقوم بمسخ تاريخها و ثقافتها وكل قيمها المعنوية والتقليدية و تحقيرها.» ①

و بعد أن تفرغ الأمة كلية من محتواها الأصيل، وتمتلئ -أو تتشبع- بنموذجية الفرعون، فإنها تواصل دور الفرعون وتكمل مهمته في تخريب نفسها، وطمس معالم شخصيتها، ومحو كل مقوم من مقوماتها، والاستهزاء بكل عنصر من عناصر أصالتها... وما ذلك منها إلا رغبة في أن تكون جلادها وقاهرها...

و نفس هذه الرؤية عن الاستخفاف —كممارسة ديكتاتورية يؤكدها "باولو فرايري"، وربما هي التي يعنيها بمصطلحه "اللاأنسنة"، أي سلب الإنسان مقومات إنسانيته، أو تفريغه من كل قيمة أو مبدأ أو خلق يجعل منه، أو يساهم في جعله إنسانا. يقول "باولو فرايري":« إن اللاأنسنة في جوهرها إخلال بقدرة الإنسان على أن يمارس وجودا بشريا متكاملا. و مثل هذا الإخلال كثيرا ما يحدث في التاريخ .» ②

و اللاأنسنة، وإن كانت ظاهرة تاريخية يمارسها الفرعون المستبد ضد الناس، فهي ليست قدرا، وليست حتمية مصيرية، لا فكاك منها، إنها « مجرد ظاهرة مؤقتة تعكس الظلم المكرس بالقوة في أيدي القاهرين، ويمارسه هؤلاء ضد المقهورين.» ③، الذين لا يجدون في أنفسهم أية قدرة على التصدي والمقاومة، لأن الاستخفاف الاستكباري صيرهم أوعية فارغة من أية قيمة مبدئية أو أخلاقية ذات قدرة تحريضية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① د. علي شريعتي : العودة إلى الذات، ص108
② باولو فرايري : تعليم المقهورين، ص 22
③ باولو فرايري : تعليم المقهورين، ص27

و بحكم أن أي درجة من الاستكبار، تغري بما فوقها، وتدفع إليها دفعا قويا، فإن الفرعون لا يقنع بأن يكون سيدا مطاعا، أو ربا أو إلها، إنه يتطلع إلى أن يكون رمزا للأمة أو الجماعة، تلتقي وتتوحد فيه، فيصبح هو مصدر الرؤية الجامعة والتصور الواحد الموحد. ليصير أي تصرف منه –حتى وإن كان تافها وسطحيا، ورمزا– ذا دلالات عميقة، يتولى الملأ تبسيطه وشرحه للناس، في حملات عامة، قد تسمى حملات الشرح والتوعية، ثم إنه يقع ضحية هذا الوهم، ليصدق أنه الوحيد الذي يقول الكلام العميق، وأنه الوحيد الذي ينطق بالحق والحقيقة، فيروح يستهزئ بكل كلام لم يقله، ويسخر من كل قول لم يصدر عنه، حتى وإن كان وحي السماء يحمله رسول. وقد حفظ لنا القرآن الكريم طرفا معتبرا من استهزاء المستبدين وسخريتهم من وحي السماء وحامليه من الرسل والأنبياء عليهم السلام. يقول الله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ ﴿الزخرف: 52﴾، ﴿ وَ فِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ(38)فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿الذاريات: 38-39﴾. أما بالنسبة للرسالة، فإنها –في نظر الفرعون– لا تعدو أن تكون مجرد أساطير قديمة، وتلفيقات صيغت بأسلوب يستغوي الدهماء ويستهوي المستضعفين.

و هكذا نجد أن الفرعون كلما تمادى في استكباره و استبداده، فإن الجوانب الشعورية و الفكرية و العقلية والروحية تضمر لديه و تتقزم، لتفسح المجال للغرور و العلو بغير الحق. فينتابه القلق و السأم لما يكون تصوره قد تفه له كل الحياة و كلما في الحياة من أحياء و أشياء، فيصاب بالضمور العقلي، فيصير كل تصرف منه معقولا، لأن المتملقين هم الذين يتولون عقلنة كل ما يصدر عنه من تصرفات حمقاء، وهم الذين يزورون واقع الناس حين يغلو الفرعون في الأوهام والتخيلات... و من هذا المنطلق قد نفهم تلك الكلمة الفاجرة الساخرة، التي أصدرها الفرعون: ﴿ و قَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ(36)أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ ﴿غافر: 36-37﴾. يقول "سيد قطب" في شأن هذا المنطق الفرعوني الساخر المستهزئ: « و بعيد عن الاحتمال أن يكون هذا فهم فرعون وإدراكه. وبعيد أن يكون جادا في البحث عن إله موسى على هذا النحو المادي الساذج. و قد بلغ فراعنة مصر من الثقافة حدا يبعد معه هذا التصور. إنما هو الاستهتار و السخرية» ① الناتجان عن خلو نفسية المستبد وفكره من الاهتمامات الكبرى إن كانت غير محتواة في ذاته.

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 24، ص3082

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الرابع : المصطلحات التي تعبر عن المستكبرين

مما لا شك فيه أن هناك علاقة جدلية بين الوضع الاجتماعي واللغة التي تعبر عنه. فكما أن كل وضع اجتماعي يخلق لغته، فكذلك كل لغة تسعى إلى خلق وضع اجتماعي، لأنها تعبير عن تصوراته وقيمه ومفاهيمه.

و يبدو أن الانحراف الذي أصاب البنية الاجتماعية، و خلق وضعا اجتماعيا منحرفا، قد أوجد لغته وخطابه، كما أوجد قيمه و مفاهيمه و أخلاقه. و من هذا المنطلق فقد فرضت نظرة النـــاس إلى المستكبريـــن و تقييمهم لهم، فرضت عليهم أن يشيروا إليهم بأسماء ويصفوهم بأوصاف، أهمها :

▪ **السادة:**

ورد في "لسان العرب":« و السيد يطلق على الرب والمالك والشريف، والفاضل الكريم والحليم، ومحتمل أذى قومه" (...) "و السيد الرئيس .» ①

إذن، فقد كان المستضعفون وعامة الناس، يرون أن هؤلاء المستكبرين، قد توفروا على جملة من الخصال والأخلاق، فهم أهل شرف وأهل فضل، وأصحاب حلم وكرم، ولهم قدرة على التسامح والتجاوز على السيئات والهفوات... قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ «الأحزاب: 67».

▪ **الكبراء:**

هم أولئك القوم الذين تجمعت لديهم أسباب القـــوة والغنى، وبسطوا نفوذهم على الحياة الاجتماعية، وألقوا بظلالهم على كل جوانبها، فصار لهم بين الناس شرف وجاه. وقد ورد في "لسان العرب":« و الكبر الرفعة في الشرف (...) ورثته كابرا عن كابر، أي و رثته عـــن آبائي و أجـــدادي كبيرا عن كبير في العـــز و الشرف (...) و يقال: ورثوا المجد كابرا عن كابر، أي عظيما و كبيرا عن كبير.» ②

و كلمة "الكبراء" وردت في القرآن مقرونة بكلمة "السادة"، لأن كل كبير يصير سيدا، وكل سيد لا بد أن يكون كبيرا، خاصة في المجتمع الذي تضبطه القيم و المعايير المنحرفة، و تسيره التصورات المادية القاصرة. و ليس شرطا أن يكون الكبير اجتماعيا كبيرا عن حق أو حقيقة، إنما حسبه أن يوحي إلى الناس بذلك، أو يرونه على ذلك، و من ثم يكون الكبراء هم الذين يتميزون « بصفات حقيقية أو ظاهرة، هي مدار تقدير شديد و ذات تأثير قوي في المجتمع الذي يعيشون فيه.» ③

①لسان العرب: مادة: سود

②لسان العرب: مادة: كبر

③ت. ب. بوتومور: النخبة و المجتمع- ترجمة: جورج جحا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت (ط1)، 1972، ص8

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- **الملأ:**

الملأ هم نخبة طبقة المستكبرين وممثلوها والناطقون باسمها، وهم فئة مستكبرة، منفلتة من كل ضبط أخلاقي أو التزام ديني، إلا ما ماشى هواها وخدم مصلحتها واتسق في إطار رؤيتها وتصورها.
وهذه الفئة بتلاحمها وانغلاقها على نفسها، تملأ عيون البسطاء رهبة ورغبة، بفضل ما حازته من أسباب القوة والمنعة، وبفضل ما نسجت حولها من أوهام ونسبت إليها من قدرة وامتداد، وبما صاغت من ذهنية اجتماعية قائمة على مفاهيم خاطئة، وقيم مختلة وأخلاقيات منحرفة.
يقول "الراغب الأصفهاني" في المفردات: « الملأ جماعة يجتمعون على رأي، فيملأون العيون رواء ومنظرا، والنفوس بهاء وجلالا.» ①

إن هذا التعريف القصير لكلمة "الملأ" يتجاوز حدود تعريف مفردة من مفردات القرآن، ويتعداها إلى تحديد نظرية في علم الاجتماع، إذ نستنتج منه أن الملأ نخبة متجانسة منطقا وتصورا ومسلكية، وهم بهذا الاجتماع والتجانس يحدثون في نفوس الآخرين تأثيرا معينا، يملأها بهاء وجلالا، كما يملأ عيونهم بمناظر النعمة ورونق النعيم.

أما في "لسان العرب" فقد ورد: « و الملأ = الرؤساء، سموا بذلك لأنهم ملاء بما يحتاج إليه (...) وقيل أشراف القوم ووجوههم ورؤسائهم ومقدموهم، الذين يرجع إلى قولهم.» ②
لكن القرآن الكريم، لا يستعمل هذا المصطلح -إذا تعلق الأمر بالحياة الدنيا- إلا متعلقا بطبقة المستكبرين. وقد كان كثير من صحابة الرسول ﷺ ملاء بما يحتاج إليه من مال وسلطة وعلم، ولم يطلق عليهم صفة "الملأ"، وفي ذلك دليل على أن هذه الكلمة مرتبطة بدلالات استكبارية أكثر من ارتباطها بأي شيء آخر.
ويعرف الشيخ الطاهر بن عاشور "الملأ" فيقول:« و ملأ فرعون: أهل مجلسه وعلماء دينه وهم السحرة.» ③
يبدو أن الشيخ قد ضيق كثيرا من فئة "الملأ"، فهم حسبما يفهم من القرآن أوسع من أن يكونوا وزراء وسحرة ومستشارين فقط...

و الملأ عند الدكتور "صلاح عبد الفتاح الخالدي" « هم أعمدة نظام حكم فرعون، من الوزراء والزعماء والقادة، الذين كانوا يعتمد عليهم فرعون في حكم شعبه (...) في تسميتهم الملأ دلالة لطيفة، فالكلمة مشتقة من الملء و الامتلاء، فهم ملأ لأنهم يملأون المنصب الذي يشغلونه، ثم يملأون أيديهم من الحكم و المسؤولية، و يتصرفون بكل شيء، و يتحكمون في كل شيء (...) ثم هم ملأ لأنهم- بهذه المراكز والمزايا

①الراغب الأصفهاني: المفردات، مادة : ملأ

②ابن منظور : لسان العرب، مادة : ملأ

③الشيخ الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، المجلد 18، ص 145

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و المكاسب– يملأون عيون أتباعهم وقلوبهم ونفوسهم مهابة وإجلالا...» .

و يبدو أن الدكتور قد جانبه الصواب في قوله "لأنهم يملأون المنصب الذي يشغلونه"، لأنهم لو ملأوه لكانوا جديرين به وأهلا له. و لو قال يمتلئون بالمنصب الذي يشغلونه لكان ذلك منه أقوم وأصوب.

و قد وردت كلمة "الملأ" في القرآن الكريم أكثر من ثلاثين مرة، كلها تتحدث عن تلك "النخبة" المترفة، المنتفعة بالأوضاع المنحرفة، التي تتولى مواجهة الأنبياء ومحاججتهم، وتأليب الرأي العام عليهم، ومحاربتهم في نهاية المطاف...

و غالبا ما تكون هذه الفئة هي السلطة، أو هي بطانة السلطة، التي تستشار وتتولى إصدار الأوامر وتبليغها إلى القاعدة... قال الله تعالى: ﴿و قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ ﴿الأعراف: 126﴾، وقال سبحانه: ﴿و يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ ﴿هود: 38﴾، وقال عز من قائل: ﴿قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِي﴾ ﴿النمل: 32﴾، و قال عز وجل: ﴿و انطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا و اصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ ﴿ص: 6﴾

و من كل ما سبق نستنتج أن " الملأ " قد تكون اللبنة الأخيرة في تشكل التركيبة الطبقية للمجتمع. المصطلح لا يعبر عن وضع اجتماعي مادي فقط، لكنه يعبر عن حالات نفسية يشعر بها هؤلاء، وأولئك اتجاه أنفسهم، واتجاه بعضهم بعضا. لأن الترف الذي يتقلبون فيه صباح مساء، قد أفسد فطرهم و غلظ مشاعرهم، و بلد أحاسيسهم، كما أنه قد شوش على الآخرين في أن يأخذوهم وينظروا إليهم بمعيار الإيمان.

① د. صلاح عبد الفتاح الخالدي : الأتباع والمتبوعون في القرآن، ص172

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ئة :

يتناول بعض المفكرين بعض الآيات التي يرونها تتناول مسألة "أصالة الضعف" في الإنسان، ثم يذهبون في تأويلها مذاهب شتى، ويبنون عليها نتائج لا توحي بها المقدمات ولا تنسجم معها مطلقا. مما يوحي في النهاية أن الإيمان بالله يستلزم شعورا بالضعف والانسحاق، أو يستلزم -على الأقل- تظاهرا بالضعف و الانسحاق. وكأن ضعف "النسية" و"الخلقة" -التي تؤكدها بعض الآيات الكريمة- ينطلي على قطاع عريض من حياة الإنسان، ليشمل ضعف الإرادة، وضعف العزيمة، وضعف الموقف، وضعف التحدي... إلى غير ذلك.

و هؤلاء قد نسوا -أو ربما تناسوا- أن الإنسان يولد ناقصا من شتى النواحي، لكنه مزود بإمكانيات النماء والتطور والكمال، فهو يولد جاهلا ويتعلم، ويولد صغيرا ويكبر ويصير قويا، ويولد غير منتمٍ، ثم يختار انتماءه إلى غير ذلك من النقائص التي تتداركها إمكانات النمو والتطور، فتجعلها بذور الكمالات إنسانية.

إذن، فقضية الضعف الإنساني -في عموميته- ليست أساسية، أو قدرا لا يقاوم، إنما هي « قضية القوة والضعف عندما يتحركان في الحياة من موقع الاستغلال والسيطرة، بعيدا عن المبادئ الأساسية، التي تحكم سلوك الإنسان، فتحصل [illegible] في العلاقات العامة والخاصة، وفي صيغة التعامل... الأمر الذي يجعل من [illegible] الضعفاء فإنهم لا يملكون إلا الصدى الواهن الضعيف الذي يستمد [illegible] إلا من خلال الإرادة المسحوقة المقهورة تحت ضغط إرادة الضعفاء... فتتعطل إزاء ذلك كل حيوية الطاقات التي يملكونها، والفعاليات التي يمكن أن يتحركوا من خلالها في عملية [illegible] والتحرير.»①

يريد السيد "محمد حسين فضل الله" أن يؤكد على أن الاستضعاف نتاج علاقات اجتماعية استغلالية، تدور في فلك الأقوياء القادرين، الذين خططوا للحياة الاجتماعية، بحيث صارت -في مختلف نشاطاتها- في خدمتهم، لا يمثل الضعفاء فيها سوى صوتا واهنا ضعيفا، ولا يتحركون إلا على هامش الحياة، فتتعطل فيهم كل القابليات التي يمكن من خلالها أن يكونوا ذوي كرامة إنسانية وفعالية اجتماعية.

و الحقيقة التي ما ينبغي أن تغيب على الأذهان، هي أن استشعار الضعف من طرف الإنسان يكون تجاه الله، وليس تجاه الآخرين، لأن استشعار ذلك يعطي للناس القوة والروح المعنوية التي تسمو بهم فوق الضغوطات الحياتية المختلفة.

و [illegible] لا يختلف في شيء عن استنزاف المقدرات المعنوية و الروحية، التي تبقي الناس في حالة قصور فكري، محاصرين من طرف ظروف مختلفة، لا تتيح وعيا و [illegible]

---

① السيد محمد فضل الله : مع الحكمة في خط الإسلام ، ص27

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تستثير نباهة، بقدر ما تحاول أن تبقي على حالة الركود والجمود. « ذلك أن القاصر فكريا لا يملك الحيلة ولا يهتدي السبيل، لأن فكره محدود لا يتحرك أبعد من مجاله الذي يعيش فيه. فكيف يمكن أن يجد الحل لقضية المعرفة ذاته. وهكذا الغافل الذي قد يملك الوسيلة للمعرفة من خلال الأدوات المطروحة لديه، ولكنه لا يملك الحالة النفسية التي تدفعه إلى استعمالها في سبيل الوصول، لأنه لا يشعر بالحاجة إليها، لعدم الشعور بوجود جهل أو مشكلة تحتاج إلى حل » ①. ويحدث ذلك عندما يحول المستكبرون الواقع المعيش إلى مطلق، لا يمكن التفكير فيه، أو التفكير في بدائله، ويرسخون ذلك بالوهم والخرافات، التي تقصد التشويش على الفكر والرؤية.

و الأخطر من هذا هو عندما يتحول هذا المكر الاستكباري، فيترسخ في القلوب والأذهان كقناعة، وكحالة نفسية مثبطة، يشعر من خلالها الناس بالانسجام، أو بعدم التنافر مع الواقع المعيش، ومن ثم لا يفكرون في تغييره، ولا يفكرون في بدائله، ليصير ذلك خاصية من جملة خصائص نفسية يتميزون بها. و للسيد "باولو فرايري" كلام رائع ودقيق في هذه المسألة، إذ يقول: «كذلك، فإن من خصائص شخصية المقهور تحقير الشعور الذاتي. ولقد استمد المقهورون هذه الحقيقة من استبطانهم لآراء قاهريهم المتأصلة في نفوسهم. فكثيرا ما يسمعون عن أنفسهم أنهم لا يصلحون لشيء، ولا يعلمون شيئا، وليس لديهم الاستعداد لتعلم أي شيء، وأنهم كسالى ومرضى وغير منتجين.

و لكثرة ما تردد هذه الأقوال في مسامعهم يقتنعون بها، ويفتقدون -بالتالي- الثقة في أنفسهم، والأغرب أنهم يزدادون ثقة بقاهريهم، الذي يمثلون في نظرهم المعرفة والقدرة على تسيير الأمور.» ②

انطلاقا من هذا المنظور، فإن الاستضعاف هوان تحضنه النفوس المقهورة، الممتلئة بكل معاني القهر وايحاءاته، نتيجة تأثيرات خارجية مركزة، ومستمرة. تجعل نفوس بسطاء الناس تنتكس على سلم الكرامة الإنسانية، وتأخذ مسارها نحو الضعة والانحطاط. إذن فالاستكبار والاستضعاف محكومان بعلاقة جدلية، كلاهما يستلزم الآخر، فلا استكبار بلا استضعاف ولا استضعاف بلا استكبار، تماما كما يلد المرض المرض، وما يفصل بينهما أحد إلا لغرض الدراسة والبحث، وذلك لتشابكهما وتداخلهما، بحيث يعثر الباحث والمفكر على نقاط ضعف كثيرة في المستكبرين، ولن يعدم شيئا كثيرا من نقاط التكبر لدى المستضعفين.

المبحث الأول: الاستضعاف لغةً و مفهوماً

الاستضعاف لغة:

ورد في "لسان العرب": « الضَّعف والضُّعف: خلاف القوة، وقيل الضعف بالضم في الجسد،

① محمد حسين فضل الله: مع الحكمة في خط القرآن، ص49

② باولو فرايري: تعليم المقهورين، ص42

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و الضعف بالفتح في الرأي والعقل... وأضعفه وضعَّفه = صيَّره ضعيفا.

و استضعفه و تضعفه = وجده ضعيفا فركبه بسوء. » ①

مما سبق نستنتج أن الضعف حالة يكون فيها المرء على عكس حالة القوة، في البدن والعقل والرأي، بحيث لا يستطيع أن يجلب لنفسه خيرا، أو يدفع عنها شرا.

ونستنتج مما سبق كذلك، أن هناك عمليتين متلازمتين، هما = الاضعاف، والاستضعاف. أما الأولى، فمعناها أن تجعل طرفا معينا ضعيفا، كأن تسلبه كل عامل للقوة فيه، أو تسوق كل عامل للضعف إليه، أما الاستضعاف فمعناها أن تستغل حالة الضعف التي أوجدها الاستضعاف.

أما "الفيروز أبادي" فيرى أن « الضعف يضم ويحرك، ضده القوة (...) وضعفه تضعيفا عده ضعيفا، ضعفه و تضعفه.» ②

نستنبط من هذا الشرح مفهوما آخر للاستضعاف، وهـــو الظن والاعتقاد، أو العد والحسبان. أما "الراغب الأصفهاني" فيقول: « و الضعف قد يكـــون في النفس و في البدن وفي الحال. وقيل الضَّعف والضُّعف لغتان. قال الخليل : الضُّعف بالضم في البدن. و الضَّعف بالفتح في العقل و الرأي.» ③

وبما أن كلمة "الاستضعاف" واردة على صيغة " الاستفعال" فهي في موقع المفعول به. وبهذا يصير معناها كون الشيء ضعيفا.

من كل ما سبق نستنتج أن الاستضعاف لغويا ذو أربعة مستويات هي:

1- المستوى الأول : يعني وجود ضعف حقيقي في شخص ما، لأسباب موضوعية.

2- المستوى الثاني : اعتقاد وجود ضعف مع العمل على تأكيده، بالتعامل مع الشخص الذي اعتقد فيه ذلك، كما لو أنه ضعيف فعلا.

3- المستوى الثالث : إيجاد الضعف، وهو أن يقوم شخص بالعمل على سلب شخص آخر كل مقومات القوة فيه ليصير ضعيفا.

4- المستوى الرابع : استغلال الضعف -في أي صورة كانت- كأن يقوم شخص قوي بتسخير شخص ضعيف لقضاء مصالحه.

« و خلاصة القول : إن الاستضعاف يعني أن يرى شخص شخصا آخر ضعيفا، أو يعتبره ضعيفا من حيث الحالة المادية أو المعنوية أو الجسمانية أو الروحية أو العلمية أو الفكرية أو الثقافية، فيستغل ضعفه ويتحكم به. وكذا الحال بالنسبة للمجتمعات.» ④

① ابن منظور : لسان العرب : مادة : ضعف

② الفيروز آبادي: بصائر التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المجلد 3، ص475

③ الراغب الأصفهاني: مادة ضعف

④ محمد تقي رهبوت : المصدر السابق، ص50

- **الاستضعاف مفهوما :**

من خلال المفهوم اللغوي للاستضعاف، قد نستنتج تعريفا مفهوميا له، فنقول: إن الاستضعاف إعاقة جسدية أو قصور فكري، أو قلة نباهة اجتماعية، أو انتكاسة روحية، تحول بين الشخص وبين تحقيق كمالاته الإنسانية، أو بلوغ مراده. كما تجعله مجالا لتوسع القادرين، وأداة لذلك بين أيديهم، دون أن يستطيع من ذلك تحررا، أو يستطيع لذلك دفعا.

و الاستضعاف -كالاستكبار تماما- ناتج عن اختلال المفاهيم والمعايير الحياتية، وانحراف شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تصير في صالح القادرين المستكبرين.

و كما قد يكون المستضعف فردا خاضعا، وقد يكون جماعة تستغلها جماعة أخرى، وقد يتعلق الأمر بدولة تستضعفها دولة أخرى، إلى آخر تمظهرات جدلية الاستكبار والاستضعاف. وهذه إحدى الزوايا الهامة التي تناول من خلالها القرآن الكريم مسألة المستضعفين، فلقد تحدث عنهم « من خلال واقع الاضطهاد الذي يمارسه الطغاة و المستكبرون ضد الفئات الضعيفة التي لا تملك من أسباب القوة المادية والوسائل الفعالة للمقاومة. فتستسلم وتستكين لما يريده هؤلاء من شؤون العقيدة والحياة من دون اعتراض أو مناقشة، بل القضية -كل القضية- عندهم فيما يعرض عليهم أن ذلك هو عقيدة السادة الأقوياء فلنعتقدها... وأن هذه هي شريعتهم فلنسر عليها.» ①

و قد وردت كلمة الاستضعاف ما يقارب أكثر من عشرين مرة في القرآن الكريم، منها على سبيل المثال قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ ﴿القصص: 4﴾، وقوله سبحانه:﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ ﴿النساء: 75﴾، ومنها قوله عــز وجل: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الأعراف: 75﴾.

يقول "الطبري" في تفسير هذه الآية: « ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ يعني لأهل المسكنة من أتباع صالح والمؤمنين به منهم، دون ذوي أهل الشرف فيهم وأهل السودد منهم. » ②

فالمستضعفون عند "الطبري" هم أهل المسكنة، بكل ما يعني ذلك من وضعية اقتصادية ومنزلة اجتماعية وحالة نفسية قد شوهها الفقر والقهر. وإذا كانوا هم على النقيض تماما من أهل الشرف والسودد، فإن ذلك يضيف ملمحا آخر من ملامحهم عنده، وهو أنهم بدون شرف اجتماعي، و بدون سودد ومجد، يبوئهم المنزلة الرفيعة في أعين الناس. أما "صاحب المنار" فيقول: « مضت سنة الله تعالى بأن يسبق الفقراء المستضعفون من

---

① محمد حسين فضل الله : مع الحكمة في خط الإسلام، ص27

② الطبري : جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء 5 ، ص 565

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الناس إلى إجابة دعوة الرسول و اتباعهم، وإلى كل دعوة إصلاح، لأنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تبعا لغيرهم» ①

لا يجدد "الشيخ رشيد رضا" تعريفا شافيا للمستضعفين، بقدر ما يعتبرهم الفقراء من الناس، الذين عاكستهم الحيل والأسباب في التمكن من أسباب المعاش، وهم بحكم موقعهم الاجتماعي أسرع الناس إلى تلبية نداء الرسل (عليهم السلام)، لأن فطرهم لم تتلوث، ولأن نفوسهم لم تتدنس بالأوضاع المنحرفة، فليس صعبا عليهم بعد ذلك أن ينقادوا لمن يريد أن يحررهم.

و يقول "الشيخ الطبرسي" و هو يفسر الآية 97 من سورة النساء: « يستضعفنا أهل الشرك بالله في أرضنا وبلادنا وبكثرة عددهم وقوتهم، يمنعوننا من الإيمان بالله، واتباع رسوله على جهة الإعتذار» ①

فان المستضعف عنده هو ذاك الذي سلطت عليه قوة خارجية، وجعلته يتخلى عن قناعته الفكرية واعتقاداته الإيمانية تحت ضغط القهر، خدمة لمصالح القاهرين والمستبدين.

أما المستضعفون عند "الشيخ الطاهر بن عاشور" فهم: «عامة الناس الذين أذلهم عظمائهم واستعبدوهم لأن زعامة الذين استكبروا كانت قائمة على السيادة الدنيوية الخالية من خلال الفضيلة، من العدل والرأفة وحب الصلاح، فلذلك وصف الملأ بالذين استكبروا، وأطلق على العامة وصف الذين استضعفوا. » ②

فالمستضعفون عنده هم عامة الناس الخاضعين لسلطة مستبدة، أذلتهم واستعبدهم، وأهانت فيهم كل القيم الإنسانية، من خلال إشاعة كل السلوكات المنافية للفضيلة بغية تفريقهم واستخفافهم.

أما السيد "محمد حسين فضل الله"، فيرى أن كلمة الاستضعاف وما يتفرع عنها من مفاهيم أوسع من حصر في نطاق خاص من الضعف، بل إنها تمتد لتشمل وتسع أي شكل من أشكال الضعف، يسلط عليه أي شكل من أشكال القوة، التي ليس شرطا أن تكون هراوة أو عصا أو دبابة، أو رصيدا ماليا، حسبها أن تكون قوة ذات تأثير في نفس الإنسان وذاته، وفكره وروحه وقناعاته، وغير ذلك، فقد تكون هذه القوة التي تنتج الاستضعاف سلطة سياسية، أو سلطة دينية، أو نسبا عريقا، أو قوة عسكرية « و في كل هذه الألوان من القوة نواجه ألوانا أخرى من الضعف في هذه المجالات -وتبدأ الضغوط، وتتحرك المشكلة في الحياة لتصنع مأساة الصراع الدائم بين الأقوياء والضعفاء، والمستضعفين والمستكبرين في قصة العدل والظلم الأبدية في الحياة. وتلك هي قصة الاستضعاف في نطاق العوامل الداخلية والخارجية التي تحول الإنسان إلى شخصية مسحوقة، لا تملك حرية الإرادة، في حركة القوة والضعف في الحياة. » ③

أما عند سيد قطب، فلا يكاد الباحث يعثر على تعريف الاستضعاف أو المستضعفين، لكنه إذا تتبع موارد الاستضعاف، يستطيع أن يخرج بتعريف بسيط أو مفهوم تقريبي للمستضعفين في "الظلال"، إذ يجدهم

① رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم، الجزء 8 ، ص504

② الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، الجزء 3 ، ص151

③ الشيخ الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، ص222

أولئك الذين كانوا أذلاء في الأرض، بقلوب خاوية من الإيمان الفعال، ونفوس خالية من الثقة، فهي قلقة ن...رة، لا تملك من أمرها شيئا، بعدما فرطت -تحت إلحاح هذا الظرف أو ذاك- في حريتها وكرامتها وإدراكها، واستسلمت للقيم الزائفة والهالات الخادعة.

و الشعور بالاستضعاف والانسحاق، يصير حجة سهلة التناول من طرف كثير من الذين يريدون التملص من تبعات الإيمان، وتكاليف المبادئ. فتراهم يجردون أنفسهم من أية قوة، ويتظاهرون بالضعف والانسحاق، وبالتالي يستسلمون للحياة المسترخية، والسلوكات الكسولة، التي لا تكلفهم بذل جهد أو دفع مال أو سكب عرق، ولو أرادوا أن يكونوا غير مستضعفين لكانوا، لأنهم يملكون عقولا تفكر، وبصيرة ترى عواقب الأمور، وتعرف الحق من الباطل. يقول الله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا(97)إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿النساء: 96-97﴾.

إن الطراز الأول ليس بمستضعف في المعيار القرآني، لأنه يملك بديلا تصوريا عن الحياة الحقيرة التي يعيشها، فما عليه إلا أن يتحرك في سبيل التمكين لذلك البديل الأمثل، وإنهم يستطيعون إن أرادوا، وتخلصوا الشعور الوهمي بالعجز والضعف...يقول السيد محمد حسين فضل الله:« و لهذا اعتبر النوع الأول من الناس مسؤولين عن واقع الضعف الذي يعيشون فيه، لأنهم استسلموا له من موقع القدرة على صنع الظروف الملائمة التي تخرجهم من ذلك إلى واقع القوة والعزة والاستقامة، (...) ويمكننا أن نلاحظ في جو هذه الآية، أن الوسائل التي يعتبرها الإسلام رافعة للعذر في حساب المسؤولية لا تنحصر في الوسائل المباشرة، التي يمكن أن تصارع القوة الغاشمة، بل تشمل الوسائل غير المباشرة، التي تصل إلى أهدافها في مدة بعيدة، أو الممارسات السلبية التي يكتفي فيها الإسلام بابتعاد الإنسان عن أجواء الضغط الفكري والعملي ليتنفس في جو فكري وعملي يستطيع أن يمارس فيه حرية الحركة بعيدا عن كل ما يعطل قوة الإرادة عن التحرك في الاتجاه السليم.» ②

أما الشهيد "سيد قطب" فيرى أن النوع الأول من الناس، الذين يتحدث عنهم النص القرآني الكريم، قد أدرج نفسه في خانة المستضعفين، وهو لم يكن كذلك، لأنه يعي حقيقة المواقف والمبادئ، ويدرك اختلاف وطبيعة الصراع. كما يملك بجهد معين أن يهاجر إلى حيث يعيش أفكاره، ويضبط حياته وفق ما يمليه عليه إيمانه.

① محمد حسين فضل الله : مع الحكمة في خط الإسلام، ص47
② م.ن : ص53

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و بعد هذا كله، ما ينبغي له أن يتظاهر بالعجز، أو يتحجج ببطش المستكبرين وقهر القاهرين « إنه لم يكن العجز الحقيقي هو الذي يحملهم -إذن- على قبول الذل والهوان والاستضعاف والفتنة عن الإيمان... إنما كان هناك شيء آخر...حرصهم على أموالهم ومصالحهم وأنفسهم يمسكهم في دار الكفر، وهناك دار الإسلام. ويمسكهم في الضيق وهناك أرض الله الواسعة، والهجرة إليها مستطاعة مع احتمال الآلام و التضحيات. » ①

و بهذا التحديد الواضح الصارم لمفهوم الاستضعاف في المنظور القرآني، يضع القرآن الكريم حدا لحالة الوهن والخور، التي تكتسح النفوس المسترخية المهانة، التي تؤثر العافية على أن تعيش فكرها وتحيا لمبدإها، لئلا تتحول هذه الحالة إلى عقدة تجعل الناس لا ينفتحون على الحياة إلا من خلال ذهنية مقهورة و مستلبة، ومن خلال رؤية انحرفت فيها كل المعايير، تتقزم من خلالها الذات، و ينعدم أي شعور سوي بها وبقدراتها، فيصير لا يراها إلا من خلال مرآة المستكبرين، وفي هذا يقول "باولو فرايري":« من خصائص شخصية المقهور تحقير الشعور الذاتي، ولقد استمد المقهورون هذه الحقيقة من استبطانهم لآراء القاهرين المتأصلة في نفوسهم. فكثيرا ما يسمعون عن أنفسهم أنهم لا يصلحون لشيء ولا يعلمون، وأنهم كسالى ومرضى وغير منتجين، ولكثرة ما تردد هذه الأقوال في مسامعهم يقتنعون بها ويفقدون -بالتالي- الثقة في أنفسهم، والأغرب أنهم يزدادون ثقة بقاهريهم.» ②

نستنتج من هذا، أن الاستضعاف -كالاستكبار- عقدة نفسية، تكون نتاج نظرة غير سوية لموقع الذات ضمن محيط طبيعي وفضاء اجتماعي. هذه الذات التي تحركها ترسبات قيمية ومعرفية وذكريات وأحكام، وغير ذلك من الأمور التي تضغط على النفس و على ما يصدر عنها من تصرفات، وهذه الترسبات المختلفة هي القيود الحقيقية التي تكبل الإنسان أن ينطلق، وهي الأوزار التي تثقل كاهله، وتجعله دائما يعيش بقامة منحنية و نظرة مكسورة ذليلة، فتضيق معها حياته، و يصير همه الكبير أن يحصل على لقمة خبز، أي أن يعيش الحياة في مستواها البيولوجي الوطيء.

و إن المستكبرين ليستعينون على هذا بالعصا كرمز للقهر الخارجي، والقناعات التصورية والمبدإية كرمز للقهر الداخلي، وسيان عنده أن تتمرد على السوط والعصا أو تتمرد على الفكرة والرؤية للقهر الداخلي.

فسحرة "فرعون" -كما يقص لنا القرآن الكريم موقفهم- قد تمردوا على القهر الداخلي، وتمردوا بعدها على القهر الخارجي. بعد أن آمنوا بموسى و استهزأوا بالتهديد والعنف والإرهاب الفرعوني، يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿طه: 72﴾.

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 2، الجزء 5، ص744

② باولو فرايري : تعليم المقهورين، ص42

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و في معنى السياق السابق يقول "مالك بن نبي":« و عرفنا كيف يؤثر المعامل الاستعماري لتضييق نشاط الحياة في البلاد المستعمرة، حتى تكون مصبوبة في قالب ضيق، يهيئه الاستعمار في كل جزئية من جزئياته، خوفا من أن تتيح الحياة المطلقة لمواهب الإنسان أن تأخذ مجراها الطبيعي إلى النبوغ و العبقرية» ①

و بعد أن يعدد مالك بن نبي ما يريده المستكبرون –ممثلين في الاستعمار– بالمستضعفين –ممثلين بالمستعمرين– يؤكد على أهمية العامل النفسي في توطين الاستضعاف والتمكين له، وعدم الشعور حياله بأي حرج أو تبرم: « و بذلك تكون العلة مزدوجة، فكلما شعرنا بداء المعامل الاستعماري الذي يعترينا من الخارج، فإننا نرى في الوقت نفسه معاملا باطنيا، يستجيب للمعامل الخارجي، من كرامتنا بأيدينا.» ②

المبحث الثاني : مجالات الاستضعاف

يؤكد الله سبحانه وتعالى في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، على أن الإنسان ضعيف كمعطى خام... لولا أن يتولاه الله بالتربية والهداية والإرشاد...

وبـ هذه المسألة الملحوظة في ذات الإنسان، فهو ضعيف في بنيته الجسدية ومناعته البدنية قياسا إلى باقي ما خلق الله من الأشياء والأحياء.

و هو ضعيف في كيانه النفسي والشعوري، الذي سرعان ما يتداعى وينهار، أمام كثير من الحالات والمواقف، على العكس تماما من باقي المخلوقات، التي تبقى أمام هذه الحالات والمواقف صامدة ثابتة... وهو ضعيف كذلك أمام مطامحه ومطامعه، وشهواته واندفاعاته، لولا أن يكون لها وازع من قيم أو رادع من أخلاق.

يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ ﴿الروم: 54﴾.

ويقول سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ ﴿النساء: 28﴾.

و قد يظن البعض من ذوي النظرة القاصرة، أن القرآن الكريم، يريد أن يعمق في الإنسان الشعور بالضعف والانسحاق، فلا يطمح ولا يتطلع إلى تحقيق كمالات يحسها في نفسه و يشعر بها تضطرب بين جنبيه "إن خطأ الفكرة يكمن في أن صاحبها لم يدرس أجواء الآية التي انطلقت لتوحي بأن التشريع راعى في عملية التخطيط للإنسان فيما يريده له من هدى وقوة، هذا الجانب الذي تتوزعه نقاط الضعف...ولهذا فقد خفف عنه ليستطيع الوصول إلى طموحاته في القوة و الانطلاق بطريقة واقعية تتناسب مع طاقته و إمكاناته. » ③

① مالك بن نبي: شروط النهضة- دار الفكر، دمشق، ط 1987، ص156

② م.ن، ص157

③ السيد محمد حسين فضل الله : من وحي القرآن، الحلقة 7، ص134

- **الاستضعاف في الأرض:**

يقوم الاستضعاف في الأرض مقابلا حتميا للاستكبار في الأرض، لأن كل واحد مهما نال من الآخر... فكلما توسعت وكبرت حاجات فريق من الناس، فإن ذلك يقابله تضاؤل حاجات فريق آخر، ويصدق هذا مقولة تنسب للإمام علي (كرم الله وجهه): "ما متع غني إلا بفقر فقير"... فكان المتعة الزائدة لدى المستكبرين، ينتج عنه بالضرورة الفقر الزائد لدى المستضعفين. وهذه العلاقة يؤكد عليها السيد باقر الصدر، فيقول: « إنه كلما نمت قدرة الإنسان على الطبيعة، واتسعت سيطرته عليها، وازداد اغتناء بكنوزها، ووسائل إنتاجها، تحققت بذلك إمكانية أكبر فأكبر للاستغلال على خط علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان "كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى" هذه الآية الكريمة تشير إلى هذه العلاقة، إلى أن الإنسانية بقدر ما تتمكن وتستقطب الطبيعة وتتوصل إلى وسائل إنتاج أقوى وأدوات توليد أوسع، تكون انعكاسات ذلك على حقل علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان، انعكاساته على شكل إمكانيات وإغراءات وفتح الشهية للأقوياء لكي يستثمروا أداة الإنتاج في سبيل استغلال الضعفاء. » ①

و هذا المنظور القرآني مشمول في مفهوم الاستضعاف في الأرض، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿واذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ [الأنفال: 26]. ويقول عز من قائل: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 5]

ففرعون "مصر" -كعادة الفراعين في كل زمان ومكان- بعد أن علا في الأرض، بكل ما جمع من أسباب مادية ومعنوية، قد لجأ إلى تقسيم أهل الأرض، وتحزيبهم، جعلهم شيعا وأحزابا، لا يلتقون تحت راية واحدة، ولا يتفقون على تصور واحد، إنما كل حزب بما لديهم فرحون. ثم إنه أوقع أشد الاستضعاف على طائفة بني إسرائيل، لأنهم يختلفون عنه جنسا ودينا. وفي تفسير هذا يقول الشيخ "الطاهر بن عاشور":« إنه يستضعف طائفة من أهل مملكته، فيجعلها محقرة مهضومة الجانب، لا مساواة بينها وبين فرق أخرى ولا عدل في معاملتها بما يعادل به الفرق الأخرى، في حين أن لها الحق في الأرض ما لغيرها، لأن الأرض لأهلها. وسكانها الذين استوطنوها و سكنوا فيها. » ②

نفهم من هذا النص، أن الاستضعاف في الأرض لدى الشيخ الطاهر بن عاشور، هو أن يقوم المستكبرون بهضم حقوق المستضعفين، بكل الوسائل المتاحة، وفي أي صورة كانت، وليست الحقوق المادية فقط، إنما الحقوق المعنوية كذلك، من المساواة أمام القانون و تكافؤ الفرص و غير ذلك.

و إن مصطلح "الاستضعاف في الأرض" ليوحي أن الحيف و الجور و الظلم، يقع في ما يرتبط

① باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص224

② الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير و التنوير، ص69

بالأرض من خيرات وأرزاق ومقومات حياة، بحيث يتنافس فيه الناس من أجل الملكية والحيازة أكثر، انطلاقا مما تمليه عليهم الحاجات التي تتوالد في النفس بصورة غير منتهية.

و في سبيل ذلك يعمد المستكبرون إلى سن القوانين والشرائع، صياغة المفاهيم والتصورات، والأعراف، ووضع النظم بما يكفل لهم ديمومة الاستكبار وديمومة الاستضعاف. بحيث تصير جميع أوجه النشاط الاجتماعي تصب في مصلحتهم وفي خدمتهم. و لا تهدف جميع شرائعهم إلا إلى التقليل من النباهة الفردية و الاجتماعية، و بالتالي التقليل من فعالية الفرد والمجتمع.
و هذا هو الاستضعاف في صورته العقدية و المفهومية.

- **الاستضعاف الاجتماعي:**

إن الضعف البشري -نفسية و مشاعر و كيانا- شيء لا تخطئه العين في الناس جميعا، فالإنسان يبدأ ضعيفا، ثم ينمو شيئا فشيئا، ليبلغ أشده ويستوي لينتكس مرة أخرى، ويصير ضعيفا، كما بدأ ضعيفا. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم : 54].

فهذا النص القرآني الكريم يقرر حقيقة يعيشها البشر، بل يعيشها كل مخلوق تقريبا، فالإنسان يولد ضعيفا ليتقوى، ثم ليؤدي وظيفة ما في الحياة، ثم ليصير بعدها ضعيفا -كما خلق أول مرة- في حاجة إلى رعاية وعطف.

و هذه الحقيقة الفطرية، يبني عليها المستكبرون سياستهم ومخططاتهم. بحيث يعملون بكل ما أوتوا على تكريس حالة الضعف هذه و الإبقاء عليها، واستغلالها وتوسيعها، ليصير الضعف يلامس كل كيان الإنسان، من بدن و فكر و شعور، وموقف، ونزوع، وسلوك، وغير ذلك. ليصير المستضعفون-بمرور الزمن-لا يشعرون بأي حرج أو تناقض، أو عدم انسجام مع ذواتهم، لأن عملية الاستضعاف قد أفرغتهم من كل محتوى سوي.

« **إنها قضية القوة والضعف عندما يتحركان في الحياة من موقع السيطرة والاستغلال، بعيدا عن المبادئ الأساسية التي تحكم السلوك الإنساني، فتخطط له طريقته في العلاقات العامة والخاصة، وفي طبيعة التعامل... الأمر الذي يجعل من حركة الحياة تعبيرا عن حركة الأقوياء...أما الضعفاء، فإنهم لا يمثلون إلا الصدى الواهن الضعيف الذي يستمد وحيه وفعاليته من وحي الأقوياء، ولا ينطلقون إلا من خلال الإرادة المسحوقة المقهورة تحت ضغط إرادة الطغاة... فتتعطل إزاء ذلك كل حيوية الطاقات التي يملكونها، والفعاليات الكبيرة التي يمكن أن يتحركوا من خلالها في عملية بناء و تفجير.** » ①

---

① محمد حسين فضل الله : مع الحكمة في خط الإسلام، ص27

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من هذا المنظور نستنتج أن الاستضعاف الاجتماعي ناتج عن حالة القوة التي قد يكون عليها طرف، وحالة الضعف التي قد يكون عليها طرف آخر، ثم إن الحالتين تتحركان على الساحة الاجتماعية، بعيدا عن أي التزام أخلاقي، أو رقابة مبدئية، أو ضبط إيماني. و هذا يؤدي إلى أن تصطبغ الحياة الاجتماعية بإرادة الأقوياء، وتصورهم في الحياة، لتصير لا تعبر إلا عنهم، أما الضعفاء الذين وقع عليهم الاستضعاف الاجتماعي، فهم لا يمثلون إلا بعض اللواحق غير الأساسية في حياة المستكبرين، وهذا يؤدي بالضرورة إلى أن تكبت في أعماقهم كل الاستعدادات الإنسانية، وكل الطاقات والفعاليات، التي زودوا بها ليحققوا وجودهم، و يؤدوا رسالتهم.«و هكذا فإن الواقع الاجتماعي القهري هو نتيجة حتمية للتناقض القائم بين القاهرين والمقهورين.» ①

كما أن المستكبرين يعملون بكل ما أوتوا على أن يجعلوا من الواقع الاجتماعي، شيئا فوق التحول والتغيير، أي يجعلونه مطلقا. ولذلك يحاربون كل البدائل الممكنة، بل يحاربون كل تفكير في البدائل.

و بالتالي فإن الواقع الاجتماعي يتزيف، ويظهر في غير صورته، فيكون أي تعامل معه غير ذي جدوى، خاصة إذا كانت المفاهيم و التصورات و اللغة، مزيفة هي كذلك، من هنا يتكرس الاستضعاف الاجتماعي أكثر، من خلال اعتماده، على استضعاف في عالم الأشياء والأشخاص والأفكار والمفاهيم. «وهنا تكمن الأسباب أو العقبات التي صممت من أجل تعطيل الناس عن ممارسة دورهم النقدي للواقع. فالقاهر يعلم تمام العلم أن مثل هذا النقد لن يكون في صالحه، فمصلحته لا تتحقق إلا عندما يستمر الناس في استغراقهم وعجزهم أمام حقيقة القهر» ②. وهذا يستطيع الاستكبار في صورته الاجتماعية، أن ينشئ مجتمعا مطابقا لحساباته ومعاييره، وملتزما بمفاهيمه وتصوراته، تصب حركة جميع أفراده و نشاطاتهم في مصلحته، دون أن يملك أي واحد منهم القدرة على النقد أو الاعتراض أو التفكير في الخلاص، ربما لأنه حتى هذه الكلمات أو هذه المفاهيم: النقد، الاعتراض، التفكير، الخلاص، هذه كلها غير موجودة في خطابه اليومي، وإن كانت موجودة فهي ذات محتوى آخر، ومعاني لا علاقة لها بالمعنى الصميم الأصيل.

و في هذا المعنى يقول "د. علي شريعتي": « و لو نظرنا إلى أنظمتنا التربوية والاجتماعية، لرأينا مأساتنا بوضوح، فكم حقرونا في هذا المجال؟... لقد أذلونا إلى حد، بتنا معه لا نؤمن بقابليات قدراتنا ذاتها، أصبحنا نرى أنفسنا في عجز تأباه حتى فراخ الحيوانات! ... فنحن عاجزون عن الانتقاد، عن الاستفسار، وحتى عن الكلام! صرنا، لا نجرأ أن نتصور أنا قادرون على أي عمل صغير! ... نعم... بلغنا هذا المستوى من الضعف وعدم الثقة بالنفس!! » ، ولا شك أن الجيل الذي يستحقر نفسه بنفسه، يكون حقيرا أيضا، حتى يظن هذا الأخير نفسه من أسرة منحطة و طبقة دنيا، فيسهل عليه عندئذ تقبل المذلة بصدر رحب، و يلجأ مستسلما إلى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① باولو فرايري: تعليم المقهورين، ص33

② م.ن : ص 34

حضن الرق و العبودية » ① باحثا عن لقمة الخبز. و لتفقير مظهر آخر من مظاهر الاستضعاف الاجتماعي، يلجأ إليه المستكبرون ليصرفوا سواد الناس عن التفكير في الواقع، وضرورة الانقلاب عليه، بل حسبهم أن يجدوا لقمة الخبز التي ترد عليهم وعن ذويهم غائلة الجوع والمخمصة، هذا الجوع الذي يصير هما مطاردا، وفكرة مؤرقة، وشاغلا عما دونه من الاهتمامات والمثل، حتى تصير فكرة "الخوف من الجوع" أخطر من الجوع ذاته و أشد فتكا، لأنها تفسد المجتمع قيما و أخلاقا و علاقات و مفاهيم.

و في هذا السياق يقول المفكر "مالك بن نبي"، وهو يتحدث عن إنسان المستعمرات، وقد انحط بفعل الاستضعاف الاستعماري من الإنسان المتأمل إلى "الإنسان النباتي" « فلقد نمى الاستعمار في نفسيته خوف الجوع، الذي يظهر في جميع طبقات المجتمع المستعمر، خلق منه الرجل الجائع دائما، وخلق منه الرجل الذي يخاف دائما من الجوع، وهاتان الصورتان من صور الخوف، قد حطمتا عند الكائن المستعمر كل إمكانية للتكيف مع التكوينات والأوضاع الاقتصادية.» ②

قد يستنتج من هذا أن الاستضعاف الاجتماعي، يعمل على تفقير القلوب والأرواح، قبل أن يعمل على تفقير الأرصدة والجيوب. ذلك أن أخطر استضعاف هو ذاك الذي ينتج عن آلية نفسية وفكرية وشعورية، تتحرك داخل ذات المستضعف، وليس ذاك الذي يسلطه المستكبرون بالقهر والترهيب والترغيب.

و إذا كان القرآن الكريم لا يلقي بمسؤولية انحراف الحياة الاجتماعية على كاهل المستكبرين فقط، بل إنه يعد المستضعفين مساهمين في ذلك، ويعتبرهم ظالمي أنفسهم، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ﴿النساء: 97﴾.

. ... سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ ﴿القصص: 8﴾.

فنفس الشيء يلحظه كل ذي بصيرة، وفي هذا يقول عصمت سيف الدولة، وهو يعلق على مقولة لـــ "جان جاك روسو" يؤكد فيها أن الغنى الفاحش والفقر المدقع أخوان لا ينفصل أحدهما عن الآخر:« فهو لا يدين الأثرياء ثراء فاحشا، ولا يرئ الفقراء فقرا مدقعا، بل يحمل التناقض ذاته مسؤولية انعدام الديمقراطية وسيادة الطغيان. فهو طغيان يشترك في إقامته الأثرياء ثراء فاحشا (الطغاة) والفقراء فقرا مدقعا (أعوان الطغاة)، لأن الأولين يشترون الحرية، و الأخرين يبيعونها.» ③

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① د. علي شريعتي : النباهة و الاستحمار، ص30

② مالك بن نبي : فكرة الإفريقية الأسيوية-ترجمة : عبد الصبور شاهين، دار الفكر. دمشق- ط(3)، 1413هـ، ص163

③عصمت سيف الدولة : الاستبداد الديمقراطي، ص146

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- **الاستضعاف العقدي :**

هذا المجال خطير من مجالات الاستضعاف، بل ربما هو أخطر مجال، يعمل من خلاله الاستكبار على حجب الحقائق عن المستضعفين، في أي صورة كانت، دينية أو فكرية أو ثقافية، لكي يحولوا بينهم وبين التفكير في الواقع المعيش و بدائله الممكنة.

و من هنا يسعى الاستكبار لتكوين رؤية أو فلسفة عن الحياة، يضع ضمنها المستضعفين، فلا يفكرون إلا كما يفكر، ولا يرون إلا في حدود رؤيته هو.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ﴿غافر: 29﴾.

يقول "سيد قطب": « إني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابا، وأعتقده نافعا. وإنه لهو الصواب والرشد بلا شك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟! وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون، وهو يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيا؟! ، وإلا فلم كانوا طغاة.» ①

فالاستكبار كما يطرح رؤية وتصورا، يطرح كذلك مسلكية أخلاقية اتجاه الحياة، ويراها هدى ورشادا، وما ونا تيها وضلالا، دون أن يسمح لأي كان بأن يناقش أو يعترض.

إذن فالاستضعاف العقدي، وضعية اجتماعية، يجد المرء نفسه من خلالها عاجزا عن معرفة الحق والسلوك وفقه، وعاجزا عن معرفة اختلاف الناس في الفكر والعقيدة والتصور، ويعرفه "محمد حسين فضل الله"، فيقول: « و هناك مجال آخر لهذا المصطلح وهو "الاستضعاف في العقيدة"، ونعني به الحالة التي لا يملك الإنسان معها الانفتاح على الحق من خلال الفكر القوي المرن، أو الوسائل التي تتيح له أن يحصل على المعرفة التفصيلية في وجهات النظر المتنوعة أو المعرفة الإجمالية التي تثير أمامه احتمالات الفكرة المضادة لما يملكه من فكر وقناعة.» ②

و يحدث هذا عندما يلجأ المستكبرون إلى فرض تصورهم للدين، ومحاربة كل البدائل التي تطرح على الساحة الاجتماعية، من خلال تشويهها والتشكيك فيها، والصد عنها، حتى يحدث التباس لدى المستضعفين، فلا يتبينوا هدى من ضلال، ولا يميزوا حقا من باطل، يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ ﴿الأنعام: 138﴾.

إنهم يهلكونهم بقتل أولادهم، ويهلكونهم من خلال إحداث فوضى تصورية، و التباس عقدي، فيغيب ـج و المسلك، و ينعدم التطلع نحو المستقبل، و إن المجتمع الذي يغيب التطلع المستقبلي من تخطيطه، يتدحرج

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5 ، الجزء 24، ص2080

② محمد حسين فضل الله : مع الحكمة في خط الإسلام، ص48

نحو الهلاك، ولا تجد معه جماهير المستضعفين سوى الاستسلام لإرادة المستكبرين ودينهم وتصورهم. «لأن التصورات المتلبسة بالدين –وما هي منها– بكل ثقلها وعمقها، تتعاون مع العرف الاجتماعي المنبثق عنها، وتنشئ ثقلا ساحقا لا تقف له جماهير الناس، ما لم تعتصم منه بدين واضح، وما لم ترجع في أمرها كله إلى ميزان ثابت.

و هذه التصورات المبهمة الغامضة، وهذا العرف الاجتماعي الذي ينبثق عنها، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق... لا ينحصر في تلك الصور التي عرفتها الجاهليات القديمة، فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح في الجاهليات الحديثة » ① . ممثلا في أنماط شتى من طرائق التفكير والاستهلاك والمظاهر، والعلاقات المكلفة، التي تصير في مرحلة ما عرفا اجتماعيا ضاغطا غير قابل للنقاش، لأنه يشبه الدين في إلزاميته وحجيته.

و تكون وطأة هذا التلبيس أشد، وتأثيره أبلغ، إذا قابله من جانب المستضعفين.« القصور الفكري الذاتي الذي يمنع الإنسان من مواجهة المشاكل الفكرية أو القضايا بالعقدية في انفتاح وسعة وعمق، فإذا حدثت لديه الشبهة، فإنه لا يستطيع أن يفككها أو يحللها، بل يقف أمامها حائرا جامدا، لأنه لا يملك القوة الفكرية التي تواجه ذلك كله بالمناقشة و التحليل.» ②

و هذا التلبيس في أمر الدين يؤدي إلى أن يفقد المقدس الحقيقي قدسيته، ليكسب غير المقدس قدسية زائفة، وبالتالي، فإن الحياة الاجتماعية تفقد حيويتها وتفقد وقارها وطابعها الأخلاقي، لتوغل في العبث والوهم، ليصير شعار أهلها جميعا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ﴿الجاثية: 24﴾.

فعندما ما يتمكن هذا "التصور الديني" من عقلية المستضعفين، تفقد الحياة رسالتيها، ويفتر حماسهم للتغيير، وينحون منحى شهويا مسلكا و تصورا، فيقعون في شرك العبثية، التي تقوم الحياة على أنها شوط قصير، لا جدوى من ورائه، ليصير الملتزمون أخلاقيا مثالا للطيبة البلهاء أو البلاهة الطيبة. فتقوم حياة المستضعفين على تصورات خاطئة وأهداف وهمية، و تصورات خاطئة، و منطلقات هشة ضعيفة، واهتمامات تافهة.

و أنى لمن تكون حياته قائمة على هذه المرتكزات، أن يشكل خطرا على المستكبرين؟! خاصة بعدما انعدمت المحرضات النفسية والشعورية من ذاته، وانطمست الحوافز الوجودية من سبيله.

و يرسم لنا القرآن الكريم حدا آخر يبلغه الاستضعاف العقدي، وهو الحد الذي يصير الإيمان أو الكفر **مسألة سلطوية! ... تأذن بها السلطة متى شاءت على من شاءت، وتمنع منها من شاءت، وقت ما شاءت... يقول الله سبحانه و تعالى عن السحرة الذين آمنوا برب هارون و موسى، وخروا سجدا يوم المبارزة على مرأى**

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 8 ، ص1219

② محمد حسين فضل الله : مع الحكمة في خط الإسلام، ص48

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من فرعون و ملإه والناس أجمعين: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى﴾ ﴿طه : 70﴾.

يقول محمد حسين فضل الله تعليقا على هذا النص القرآني الكريم: « إن فرعون ينكر عليهم أن يؤمنوا قبل أن يأذن لهم... كأن عملية الإيمان تحتاج إلى الإذن الفرعوني، كما يحتاج إليها أي عمل آخر، يتعلق بقضايا الإدارة والحياة...

و تلك هي سيرة الطغاة، وعقليتهم في كل زمان ومكان. عندما يريدون أن يملكوا على الناس عقولهم وأفكارهم، فلا يفكرون إلا بما يقدمونه لهم من أفكار، ولا يؤمنون إلا بما يدعوهم إليه من عقيدة، فالتفكير ممنوع، والإيمان محرم بدون الإذن الرسمي من قبل السلطة الرسمية، التي تملك العقول كما تلك الأجسام و الأعمال.» ①

كما يتبع المستكبرون طريقة أخرى في سلسلة الاستضعاف العقدي، وتتمثل في وضع الحواجز والعراقيل المختلفة، في طريق المستضعفين، كي لا ينفتحوا على تصورات أخرى أو دين مغاير لدين السادة والمستكبرين، فيوحون إليهم بطريقة أو بأخرى أن يعرضوا عن الأفكار الجديدة، و ألا يشغلوا بالهم بما قد يظهر على الساحة من تصورات. يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ ﴿فصلت: 26﴾. وهي كلمة يقولها المستكبرون للمستضعفين، وهي أن يعرضوا عن القرآن الكريم، وأن يحدثوا حوله الصياح والهرج، وان يحاولوا التشويش عليه من أن يتسرب إلى أرواح الناس ومشاعرهم، فيحدث فيها الرجات و الهزات و الانقلاب النوعي، « فهو كما كانوا يدعون يسحرهم، ويغلب عقولهم، ويفسد حياتهم، ويفرق بين الوالد و ولده، والزوج وزوجه (...) و هي مهاترة لا تليق. ولكنه العجز عن المواجهة بالحجة و المقارعة بالبرهان، ينتهي إلى المهاترة عند من يستكبر على الإيمان.» ②

و قد لا تجدي هذه الأساليب المستكبرين شيئا في عملية القهر والاستضعاف، فيلجأ إلى عملية الإكراه وحمل الناس على معتقدهم بقوة الحديد والنار، زاعمين أنهم يبتغون من وراء ذلك حماية الأمة و الصالح العام، تلك هي شنشنة المستكبرين قديما وحديثا!. قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ ﴿الشعراء: 29﴾، فهو يخشى أن يتحرر الناس من سلطته، القائمة على السحر، الذي هو جوهر دينه، إنه يخشى أن يعبدوا رباً آخر، لا سيطرة له عليه، فيضيع سلطانه، وتزول هيبته، وبالتالي فهو يحاول أن يعزل صاحب الدين الجديد عن جماهير الناس، وذلك بأن خيره إما أن يعبده، وإما أن يكون في السجن،

① محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن، ص273

② سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 24، ص3120

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

« و الطغيان لا يخشى شيئا كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب، ولا يكره أحدا كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة، ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية، ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور، عندما يمس بقوله هذا أوتاد القلوب، فينتهي الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح، الذي يعتمد عليه الطغاة عندما يسقط في أيديهم، و تخذلهم البراهين.» ①

إن أحادية الرؤية التي يقوم عليها منطق المستكبرين وخطاهم، هو الذي يملي عليهم أن يكرهوا الناس على التمسك بدين، أو التخلي عن دين آخر. وهذا يدفعهم إلى ممارسة العنف والإرهاب ضد المستضعفين، ووضعهم بين خيارات صعبة، كلها تعني لهم التلاشي والاضمحلال والذوبان في النسق الاستكباري، دينا وشعورا وسلوكا وأخلاقا، لأن المستكبرين لا يرون في المستضعفين إلا حثالة اجتماعية وأراذل، لا يتوفرون على قيمة إنسانية، تؤهلهم كي يعيشوا التكريم الرباني... قال الله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ ﴿الأعراف: 88﴾.

و الإخراج من الديار -في مختلف صوره وأشكاله- يعني الإبعاد عن الساحة الاجتماعية، لئلا يحدث التواصل والتأثير في الناس والتأثر بهم، هذا شبيه بالعودة في ملة المستكبرين، فكلاهما يعني التلاشي والضمور والذوبان في ذات المستكبرين وروحهم وعقيدتهم، وأجوائهم النفسية والشعورية.

و الشيء الملاحظ في الاستضعاف العقدي، هو تلك « الحركة التشنجية التي لا تملك مجالا للمواجهة من موقع الفكر... فتحاول أن تغطي ذلك بالأساليب القلقة من السباب والشتائم والإمعان في إثارة الاتهامات الظالمة بدون حساب... ثم العمل على حشد الأجواء الانفعالية حول دعاة التوحيد التي قد تؤدي إلى ممارسة الاضطهاد والتعذيب و غير ذلك مما يلجأ إليه -عادة- الطغاة الذين لا يملكون الحجة أمام خصومهم، فيسخرون القوة التي يملكونها لخنق مقاومتهم. » ②

إن المستكبرين -على مر التاريخ- لا يطيقون وجود "الآخر" المخالف أو المختلف، أو المعارض أو المغاير. لأنهم لا ينفتحون على "الآخر" إلا من خلال كونه، تابعا ذليلا، أو صامتا أصم، أو هامشيا مكملا لبنية الاستكبارية، متلاشيا في نسقها.

أما "الآخر" الذي يريد أن يبرز من خلال فكرة مختلفة، أو تصور مخالف، أو دين مغاير، أو موقف معارض، فإنهم لا يطيقون وجوده، ولا يحتملون رؤيته بين الناس، فيستنفرون جميع قواهم من أجل مسخه أو تشويهه، أو تذويبه وتمييعه في ذات الاستكبار، فيخيرونه بين أن يلتزم بالطابع الاستكباري للمجتمع، وطبيعة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

① م.ن : المجلد 5، الجزء 19، ص2593

② محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن، ص70

الملة التي هم عليها، وبين أن يتلاشى في المنافي والصحاري والبوادي! « هكذا، في تبجح سافر، وفي إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش! إلا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد... لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة... نقطة المسالمة والتعايش، -على أن يترك لمن يشاء الدخول في العقيدة التي يشاء، وأن يدين للسلطان الذي يشاء في انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين- وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة، تحت أي ضغط أو تهديد من طواغيت... وإلا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه، فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة في ملتهم، صدع شعيب بالحق مستمسكا بملته، كارها أن يعود في الملة الخاسرة، التي نجاه الله منها.» ①. قال الله تعالى مصورا موقف شعيب، وهو يواجه صعوبة الاختيار بين موقفين أحلاهما مر: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ. إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿الأعراف: 88﴾.

و يرى السيد "محمد حسين فضل الله" أن لجوء المستكبرين إلى إكراه الناس على دين واحد، دليل قطعي على تهافت منطقهم وبطلانه، كما أن لجوءهم إلى القوة دليل على شعورهم بالضعف في موقف الحوار وحرية الأخذ والرد: « إنه المنطق الذي لا يحاور ولا يناقش، لأنه لا يملك أدوات الحوار و روحيته، بل يملك أدوات القوة، فهو يتهدد و يتوعد، فليس هناك مجال للفاهم للتفاهم، لأن التفاهم يهزم الذين لا يملكون حجة، و بذلك فإنهم يعيشون الشعور بالضعف أمام دعوة الحوار و التفاهم، فيحاولون تغطية ذلك بأساليب التهديد و الوعيد.» ②

و إمعانا في الاستضعاف العقدي، يلجأ المستكبرون إلى ممارسة سياسة الانغلاق دون الأفكار المضادة، والانعزال عن الجماعات الإنسانية الأخرى التي قد تعتقد عقيدة أخرى، وقد يكون لها في الحياة رؤية مغايرة، عون بين شعوبهم وبين ذلك حوائل وموانع، قد تفقدهم حرية الحركة، وحيوية التفكير، والتعاطي مع الأفكار الأخرى، فتنشأ الجماعة المستضعفة على قصور ذهني وفكري، يجعلها لا تستطيع حيلة ولا تهتدي سبيلا، لتنشأ في أعماقها قناعة نفسية قاتلة، تجعلها تشعر بالانسجام مع الواقع الرديء، دون أن تجد رغبة في تغييره، لأنها لا تملك تصورا عن بدائل أخرى، وهذا النموذج من المستضعفين، هو -عند السيد حسين فضل الله- ضحية حالة نفسية هي الغفلة، التي بذرها الاستكبار وتعهدها ورعاها، و هي « تغلق على الإنسان كل نوافذ الاحتمال من خلال ما سمعه أو قرأه أو فكر فيه، ومن خلال ذلك يبقى هذا الإنسان في دائرة أفكاره الموروثة من دون أن يكون له أي حافز نحو البحث و التفتيش عن شيء آخر.» ③

---

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 8، ص 1318

② محمد حسين فضل الله : من وحي القرآن، الحلقة 10، ص185

③ محمد حسين فضل الله : مع الحكمة في خط الإسلام، ص48

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من هذا المنطلق، يأخذ الاستضعاف العقدي معناه الواسع، ويشمل آفاقا أرحب، ليصير سياسة ديكتاتورية قمعية، تمارسها أنظمة كبيرة، وأجهزة استخبارات معقدة، بهدف إبقاء شعب أو أمة، في إطار الرؤية الأحادية للنظام الديكتاتوري، تحت ادعاءات شتى، والحيلولة بينها وبين معرفة أفكار جديدة قد تفتح أذهانهم، فتمتد إلى ما وراء الرؤية الديكتاتورية والإيديولوجية الاستكبارية.

و بهذا كله يجد المستضعفون أنفسهم منشدين -من داخلهم وخارجهم- إلى المركزية الاستكبارية، لأن المستكبرين يملكون قوة جذب خاصة، بفعل ما يملكونه من أسباب مادية ومعنوية، وبفعل ما سلبوه من المستضعفين من أسباب مادية ومعنوية، وكذلك بفعل ما أكسبوا المستضعفين من مفاهيم وأخلاقيات وسلوكيات حياتية، تجعلهم دائما في حالة إنشداد واستقطاب من طرف المستكبرين. كما أن التدجين المركز المستمر يجعل منهم ذوي قابلية لاستقبال الأوامر وتطبيقها دون أن يناقشوها أو يفكروا في مناقشتها.

المبحث الثالث : مقومات الاستضعاف

إن المستضعفين، باعتبارهم قطبا اجتماعيا، قلما تخلو منه مرحلة تاريخية، أو مجتمع من المجتمعات، يمتازون بعدة صفات تحددهم كجماعة بشرية، ذات شعور واحد، وأوضاع نفسية واجتماعية متشابهة، تكسبها وظائف متميزة في الحياة الاجتماعية، خاصة إذا كان المجتمع طبقيا. فهم نتاج انحراف الحياة الاجتماعية عن "التراتب الطبيعي" الذي توجده سنن الاجتماع، لكي تكون هناك حياة إنسانية.

و هناك جملة من الأسباب أو المقومات، تتفاعل في ما بينها لتخلق وتبرز إلى الوجود هذه الفئة أو الطبقة الاجتماعية، ككل الأسباب والمقومات التي توجد أية طبقة أخرى، وفي هذا يقول "بيار لاروك":

« تترابط مختلف عوامل التمييز الطبقي الاجتماعي رغم تنوعها، وتتبادل التأثير فيما بينها. وكما بينا ترتبط ممارسة بعض الأدوار أو بعض الوظائف بدخل ما، ويتيح امتلاك دخل أو ثروة الارتقاء إلى بعض الوظائف، وبالتالي إلى طراز معين من المعيشة. ومن ناحية أخرى يساعد الدور الاجتماعي والدخل وطراز المعيشة على تبني مواقف نفسية مشتركة، وعلى وجود شعور مشترك. » ①

و إن عوامل التمييز أو الفرز الطبقي كثيرة، متبادلة التأثير في بعضها بعضا، فهي عوامل نفسية واجتماعية و سياسية، و ثقافية، و اقتصادية و اجتماعية وغيرها، بحيث تعمل متضافرة على اكتساب فئة من الناس منزلة اجتماعية معينة، وتوحد بينهم من المشاعر و السلوكات و التطلعات و الظروف، ما يجعل منهم كيانا متميزا ذا ملامح و خصوصيات مشتركة.

---

① بيار لاروك : الطبقات الاجتماعية، ص20

و من مقومات الاستضعاف حسب المنظور القرآني، ما يلي:

- **قصور الإمكانات المادية والفكرية:**

تحتوي كلمة "الضعف" على فكرة القصور المادي القصور الفكري. فهي -أي كلمة الضعف- بالفتح، تعني القصور الفكري والعقلي، وما ينبني عليهما من قصور في الوعي والإدراك والتصور والاعتقاد ، وغير ذلك. وهي بضم تعني ضعف البدن والبنية الجسدية للإنسان، وما ينجر عن ذلك من قصور في أداء الكثير من وظائف الحياة، التي تؤهله بما تدره عليه من مال وقوة، لكي يخرج من دائرة الاستضعاف.

و إذا كان الإنسان قد خلق ضعيفا -كما صرح بذلك القرآن- فإنه قد زود بإمكانات النمو والقوة، لكن المكر الاستكباري يعمل لكي يستمر هذا الضعف الطبيعي، فيصير ضعفا اجتماعيا وضعفا نفسيا ملازما، من خلال خنق إمكانات القوة في نفوس الناس، وكبت كل تطلعاتهم في الحياة، فيظلون كالضعفاء الطبيعيين من شيوخ ونساء وولدان صغار، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، لوجود مانع طبيعي كالكبر والصغر، والعمى والعرج، والسفه والجنون، وهذه الموانع كلها تمنعهم أن يمارسوا حياتهم بطريقة طبيعية.

إن المستضعفين يصيرون كالضعفاء، بعد ما يتأصل فيهم الشعور بالضعف والانسحاق، فيعيشون بعقلية الضعفاء، ومشاعر الضعفاء، وطموح الضعفاء، رغم أنه لا توجد العلة الشرعية المقبولة التي تمنعهم أن يمارسوا حياتهم بشكل طبيعي، سوى أنهم قد استسلموا لمخططات المستكبرين، واستعذبوا حياة الاسترخاء والتكسل الخالية من كل التضحيات والإلزامات المبدئية، والاهتمامات الرسالية، ومتطلبات الإيمان. ولئلا يصير الاستضعاف حجة هؤلاء يقول الإمام "علي"، وهو يبقي هذا المفهوم ضمن حدوده التي أوضحها القرآن الكريم: « و لا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجة، فسمعتها أذنه ووعاها قلبه.» ① فكل من بلغه أي شكل من أشكال الوعي، فسمعه ووعاه، ورسم له هذا الوعي سبلا للخلاص، واستطاع أن يتصور بدائل أخرى عن الواقع المعيش المنحرف، فإن ذلك يخرج من دائرة الاستضعاف. ومن نفس المشكاة يقتبس الإمام "جعفر الصادق"، فيقول: « من عرف اختلاف الناس فليس بمستضعف.» ②. و بهذا يكون الوعي والمعرفة حجة على الناس كما هم حجة لهم.

و إمعانا في أحداث القصور المادي والقصور الفكري لدى المستضعفين، تلجأ قوى الاستكبار إلى سياسة التفقير والتجهيل، بالحصار الاقتصادي، وإثارة الشهوات في طريق الشباب، باعتبار أن الشهوات سوارق العقل والفكر، وآفة النباهة والوعي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

① الإمام علي بن أبي طالب : نهج البلاغة

② نقلا عن كتاب محمد حسين فضل الله : مع الحكمة في خط الإسلام، ص50

يقول الله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ «المنافقون: 7».

هي قولة يتجلى فيها خبث الطبع، و لؤم الطوية. وهي خطة التجويع التي يبدو وأن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان، في حرب العقيدة ومناهضة الأديان. ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة، كما هي في حسهم، فيحاربون بها المؤمنين.

إنها خطة قريش وهي تقاطع بني هاشم في الشعب لينفضوا عن نصرة رسول الله (ﷺ) ويسلموه للمشركين! .

وهي خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية لينفض أصحاب رسول الله (ﷺ) عنه تحت وطأة الضيق والجوع!

وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين، ليموتوا جوعا أو يكفروا بالله، ويتركوا الصلاة!

وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام، بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق.» ①

و إننا لنشهد ذلك ما زال سياسة منتهجة، وخططا متبعة، تهدف إلى حرمان المستضعفين من أي قوة، حتى يبقوا تابعين أذلاء، منشغلين بلقمة الخبز، ساعين إلى تحصيلها بكدح شديد، وعسر أشد، وأنى لهم بعدها أن يفكروا في الواقع الذي صاغه المستبكرون، وأن يطرحوا حوله تساؤلات، وأن يتصوروا بدائل عنه!؟ وفي هذا يقول "إمام عبد الفتاح": « هناك وسيلة أخرى للطغاة، هي إفقار رعاياه حتى لا يكلفه حرسه شيئا من جهة، وحتى ينشغل المواطنون من جهة أخرى بالبحث عن قوت يومهم، فلا يجدون من الوقت ما يتمكنون فيه من التآمر عليه.» ②

و بغية إشاعة القصور الفكري، و العطالة الذهنية، يلجأ المستكبرون -كما أسلفنا- إلى إشاعة الفواحش والشهوات وسط المستضعفين حتى يتسنى لهم شل الوعي، وتزييف التفكير، فيصير للمستضعفين اهتمامات و سلوكات بعيدة كل البعد عن طبيعة وضعهم الاجتماعي والاقتصادي. ذلك أن القصور الفكري يجعلهم لا يقدرون ما أودع في نفوسهم من طاقات و قوى و قيم إنسانية أصيلة، و بالتالي فإنهم لا يستطيعون أن يحددوا هدفا نبيلا و رساليا، اللهم إلا تلك الأهداف الغريزية المنحطة، التي لا تخرج عن دائرة تقليد المستكبرين و التشبه بهم في الأخلاق و السلوك و الاستهلاك. لأن كل قواهم تتحرك نحو الخارج، أي نحو المظاهر كنوع من التعويض، أو البحث عن الخلاص بالإمعان في الاستلاب! فيقعون ضحية مظاهر الترف و أنماط الاستهلاك، التي تصير بالنسبة لهم معيارا للحياة النموذجية، و السعادة المرتجاة.

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 11، ص1817

② محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن، ص244

و لعل الذي يضيء هذه الفكرة بشكل جلي هو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿يونس: 88﴾.

فهذا النص الكريم يحدد بجلاء و وضوح أن المستضعفين قد يذهبون ضحية المظاهر الاستهلاكية التي يتحرك فيها المستكبرون، فتتزعزع قلوبهم، وتضطرب أفكارهم، وتختل تصوراتهم، ويهتز إيمانهم بالمبادئ المجردة من الزينة والزخرف. « و وجود النعمة في أيدي المفسدين لا شك يزعزع كثيرا من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار (...) وموسى يتحدث عن الواقع المشهور في عامة الناس. ويطلب لوقف هذا الإضلال، و لتجريد القوة الباغية المضلة من وسائل البغي و الإغراء، أن يطمس الله على هذه الأموال بتدميرها و الذهاب بها.» ①

إن المظهر العام الذي يحيط بالمستكبرين، والأجواء المرفهة المنعمة التي يتحركون فيها، هذا كله لا تصمد أمامه النفوس الخالية من الاهتمامات الكبرى، و لا تصبر عليه القلوب المأخوذة بمظاهر الترف والزخرف، فتراه علامة كمال وعلم واقتدار، فيقلدون صاحب الترف ما استطاعوا، وينهجون سبيله في غير روية ولا تفكير، ويتعلقون بالمظاهر والزينة دون أن يتعمقوا في لب القضايا وجوهر الأشياء، فيتعلمون بذلك الكسل العقلي، أو الترف الفكري، في أحسن الأحوال، وهو الذي يزين لهم التبعية والاستلاب، ويظهرها في مظهر لا يوحي بالعبودية والهوان.

و المستكبرون عندما يواجهون المستضعفين بمظاهر و أخلاقيات، إنما يعملون على إيجاد إنسان مقهور العواطف، مبهور الأحاسيس... إنسان لا يغايرهم ولا يشابههم، إنما يتبعهم هوى واعتقادا. إذن فالمقصد البعيد للمستكبرين، وهم يسعون إلى تأكيد القصور المادي والفكري وترسيخه، هو تشويه إنسانية المستضعفين، وإلغاء شخصيتهم، ليسهل تذويبهم و تمييعهم في "الشخصية الرمزية" أو "الشخصية النموذجية" للمستكبرين.

و بفضل الضغط النفسي الذي تحدثه أوضاع الترف في النفسيات المستلبة، يصير المستكبرون معيارا للقوة والحق والذوق والجمال. وقد يكون هذا الذي أراد "قارون" أن يحدثه، في نفوس المستلبين حين خرج عليهم في زينته، وهذا الذي تريد أن تحدثه مواكب الملوك و المستبدين على مر التاريخ، « إنه يريد أن يبهر الأنظار بزينته، لتظل العيون معلقة به، مشدودة إليه، تتفحصه بنظراتها المسحورة، ولفتاتها المبهورة... ويبقى المستضعفون البسطاء من قومه خاضعين للإحساس العميق بعظمته ومكانته، من خلال معرض الزينة و الثروة الذي يتجدد في كل يوم، ليجدد لديهم الخضوع و الخشوع للثري الكبير، الرجل الخطير، و يتحقق له ما

①سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 2، الجزء 5، ص631

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يريد في هذا الاستعراض، وتشتد الأنظار إليه، ويقف القوم صفوفا صفوفا مبهورين مسحورين في تفكير مشبع بالدعوات و التمنيات.» ①

و إمعانا في الإبقاء على القصور الفكري والروحي لدى المستضعفين، يلجأ المستكبرون إلى إشاعة الفواحش والشهوات على اختلاف أنواعها وأشكالها، فتفقد حياة الناس قدسيتها ورساليتها، وتقل نباهة الأفراد، وتسود الرداءة، ويقل الطموح، وتنعدم الرغبة في السمو، يقول الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ ﴿النساء: 27﴾، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ﴿النور: 19﴾.

إنهم يريدون أن تكتسح الشهوات فضاءات العقل، وتتولى وظائفه، ليصير هو في خدمتها، فلا يخطط إلا لإشباعها، ولا يبدع إلا ما ينميها، ولا يأخذ من الطاقة إلا النزر اليسير، وبالتالي يشرع في الضمور والانكماش، لتمتد على حسابه الشهوات، فلا يهدأ قلب، ولا يسكن عصب، ولا يستقر شعور، ليكون بعد ذلك الجنون الذي يسوق الناس إلى معاطن الفاحشة كالعبيد. لتصير تجارة الجنس ومتعلقاته أربح تجارة في هذا العصر، وتقوم بذلك شركات عملاقة عابرة للقارات، وإنها لتجني من وراء تلك التجارة البائسة ملايير الدولارات كل عام، وقد تفوق عائداتها عائدات شركات البترول و الحديد و الفحم!

إنهم -مؤسسات و أفرادا- يريدون « أن يطلقوا الغرائز من كل عقال ديني أو أخلاقي أو اجتماعي. يريدون أن يطلقوا السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح من أي لون كان... السعار المحموم الذي لا يقر معه قلب، ولا يسكن مع عصب، ولا يطمئن معه بيت، ولا يسلم معه عرض، ولا تقوم معه أسرة، يريدون أن يعود الآدميون قطعانا من البهائم.» ②

و هذا الدور، كما يقوم به المستبد الفرد، يقوم به الاستبداد في صوره المعقدة، كالاستعمار مثلا، فأول ما يقوم به هو ضرب النباهة الفردية والاجتماعية، بإشاعة الفاحشة ونشر الفساد، وترويج الاهتمامات التافهة والحقيرة، و استغواء المستضعفين بثقافة الاستهلاك، و صرف أنظارهم عن واقعهم البائس بالفلسفات العبثية والفنون الهابطة التي تخاطب الغرائز وتنمي الشهوات، التي تنصب على عقول الناس كالمطارق المدمرة من خلال شاشات السينما و التلفزيون، و من خلال الكتب و المجلات، و كل ما يساعد على النصب والاحتيال على عقول المستضعفين، و الذي يدخل في دائرة "الشعوذة العصرية" التي تستهدف قلب الحقائق الموضوعية في عيون الناس وعقولهم.

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 20، ص2713

② سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 2، الجزء 5، ص632

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يقول "مالك بن نبي" في شأن الاستعمار: « و هو يريد منا انحطاطا في الأخلاق كي تشيع الرذيلة بيننا، تلك الرذيلة التي تكون نفسية رجل "القلة" فيجدنا أسرع إلى محاربة الفضيلة.» ①

و ينجر عن شيوع الشهوات ضمور عقلي و قصور فكري، و يقل فهم الحياة من خلال عجز الأفراد عن القراءة و التحليل، والتفكيك و الاستنباط، والتفكير في بدائل أخرى، و ينشط التأويل و الحفظ والاستظهار، و يطغى التعصب الغبي للسلف والآباء والماضي، وتخلع على ذلك كله الألقاب الكاذبة، والصفات التي لم تكن فيه، ودائما نجد في القرآن الكريم، المستكبرين هـــم الذين يمتلكون شرعية الحديث باسم التاريخ والآباء، الذي يكون برذعة يسرج بها المستضعفون. وكما يقول "باولو فرايري": « فالشخصية القاهرة تجنح بالضرورة إلى تدمير الطاقة الابداعية التي تكمن في الحياة، وبذلك فهي تسهم في تدمير الحياة. وفوق ذلك كله فإن القاهرين يستخدمون العلم والتكنولوجيا من أجل تحقيق أغراضهم التي تتركز في الإبقاء على نظامهم القهري القائم على الاستغلال والبطش، أما المقهورين في ظل هذا النظام فيعيشون كمجرد أشياء، يتوجب عليها أن تنفذ ما يرسمه لها القاهرون. » ②

و يصل المستكبرون بمخططهم إلى نهايته، عندما تصير حياة المستضعفين قائمة على الشهوة، وتمسخ كل القيم، وتنسحب إلى دائرة النسيان، لتحل محلها الشهوات، وهذه المرحلة من حياة المستضعفين وأسيادهم من المستكبرين، يحددها الحديث النبوي الشريف، الذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: « يأتي على الناس زمان همهم بطونهم، و شرفهم متاعهم، و قبلتهم نساؤهم، و دينهم دراهمهم و دنانيرهم، أولئك شر الخلق، لا خلاق لهم عند الله. » ③

فلا شيء يخرج عن الشهوة في هذا الحديث النبوي الشريف، فمن شهوة البطن، إلى شهوة المتاع، إلى شهوة النساء والمال، ولا شيء للعقل والقيم والمبادئ والمثل العليا، وإن أمة تكون الشهوات هي محرضاتها الحياتية، أمة قد شرعت في التفسخ والانحلال، لينشئ الله من تراب رفاتها قوما آخرين!.

- **التبعية:**

إن الاستلاب في مختلف أشكاله، و العطالة الفكرية، وقلة النباهة الفردية والاجتماعية، هذا كله يفقد المستضعفين استقلاليتهم الذاتية، في الفكر والفهم والشعور والسلوك، وفي كل مجالات الحياة، ويجعلهم تابعين للمستكبرين تبعية تكاد أو تكون مطلقة، فهم الذين يخططون لهم ويشرعون، ويرسمون لهم المناهج، ويختارون

① مالك بن نبي : شروط النهضة، ص157

② باولو فرايري : تعليم المقهورين، ص39

③ عز الدين بليق : منهاج الصالحين، دار الفتح، بيروت، 1397هـــ، ص938

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لهم العقائد والإيديولوجيات حسب المراحل والظروف، تماما كما يختار الأب لأبنائه الألبسة والهدايا حسب الفصول والمناسبات!

لقد جعل منهم المستكبرون، بفضل سياسة مسخ مدروسة و مركزة، أشبه بالقردة، لا يحسنون إلا تقليدهم، فيكونون أشبه بالمهرجين في الألعاب البهلوانية، لا يثيرون إلا الضحك، وذلك بعد أن انمحت كل ملامح شخصيتهم الخاصة، و هويتهم الدينية و الثقافية و الإنسانية، و العرقية والتاريخية، إن كان المستضعفون أمة من الأمم أو شعبا من الشعوب، ليصيروا بعدها مجرد إطار مادي أو كيان بشري لكل تصورات المستكبرين و سلوكاتهم و مشاعرهم. « و السبب في ذلك أن النفس تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه. إما لنظر بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقادا، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به » ①. و بهذا تكون التبعية شكل من أشكال "الاغتراب" عن الذات، التي صارت مبهمة وغير واضحة المعالم، ولا تشي إلا بالفوضى بعدما قام المستكبرون بمحو كل معالمها، وتشويه كل قيمها ومحتواها.

و على أنقاض هذه الفوضى والتلاشي، تبرز شخصية المستكبر متكاملة، ومنظمة ونظيفة، وراقية، ونموذجية، وآسرة، تصلح للأسـوة والاقتداء، لأنها تمثل الكمال الذي يطمح إليه. « و هذا مبدأ مسلم به في علـم النفس، أن الفرد الذي لا شخصية له، ولا أصالة عنده، والتابع الذي لا قيمة له، يقوم دائما عن طريق التقرب والتظاهر والتقليد بتعويض نقصه نفسيا، وعن طريق إلغاء نفسه وكل ما هو منسوب إلى نفسه وإنكارها وتحقيرها، والفرار من كل ما يذكره بنفسه وبماضيه، وعن طريق التشبه بالآخرين يبحث لنفسه عن شخصية جديدة وصفات جديدة وقيم جديدة.» ② .التي لن تكون إلا شخصية المستكبر وصفاته وقيمه. يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ ﴿المائدة: 60﴾، وهؤلاء الصنف من الناس، يعيشون حالة التبعية في العمق، يعيشونها بكل جوارحهم، حتى تصير في شكل عبادة وحجمها وروحها، من خلال تمثلهم لكل شرع المستكبرين و أخلاقهم المترفة و سلوكاتهم المنحرفة. و في هذا السياق يقول "باولو فرايري": « و إذا نظرنا إلى الأمر من جانب آخر. فسنجد أن المقهور في فترة ما خلال حياته يحس برغبة جارفة في تمثل حياة قاهره. وهو يشعر برغبة في أن يعيش على طريقة القاهرين، وتصبح أساليبهم مطمعا من المطامع التي يرنو إليها. وفي هذه المرحلة يبذل المقهور كل ما في وسعه من أجل أن يعيش بأسلوب قاهره، فتجده يجنح إلى تقليده والسير على نهجه.» ③

① عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص137

② د. علي شريعتي : العودة إلى الذات، ص108

③ باولو فرايري : تعليم المقهورين، ص42

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و إن نموذجية المستكبر، ومثالية صورته، التي يستبطنها المستضعفون المقهورون، هذه النموذجية هي التي تجعلهم يعيدون إنتاج قاهريهم، بمجرد ما يتحررون منهم وينتصرون عليهم، لأنهم مسكونون بتلك النموذجية، و لم يستطيعوا أن يتطهروا منها بالشكل الكافي. وهذا الذي يجعل من "الثوار" ديكتاتوريين، ويجعل من حركات التحرر "استعمارا جديدا"، وهذا أمر مشاهد في كل البلدان التي خاضت حروبا ضد الاستعمار الأوروبي.

و يضرب الله لنا مثلا بجماعة بني إسرائيل، الذين بمجرد ما انتصروا على الفرعون، وتحرروا من حياة الذل والاستعباد، حتى راحوا يعيدون إنتاج عدوهم وقاهرهم، ممثلا في إلهه الذي هو "عجل آبيس الأبلق!" الذي أشربوا في قلوبهم حبه، فلامس بذلك كل خلية وكل عصب وكل شعور فيهم، وذاك الذي كلفهم أربعين سنة من التيه، ليتطهروا من قاهرهم، ويكونون جديرين بالأرض المقدسة والوعد المقدس. لأن حد التبعية الذي توصلوا إليه هو أخطر الحدود وأعمقها، إنه حد "الإله" أو التبعية في "الإله" الذي يصدر عنه كل شيء في الحياة من قيم ومفاهيم، وأفكار وتصورات، ولغة، إلى آخره...

و حتى لما رفع فوقهم "الطور" كآية من أعظم الآيات، وأمروا أن يأخذوا ما أوتوا بقوة، ما كان ردهم إلا أن قالوا: ﴿سَمِعْنَا و عَصَيْنَا﴾ ﴿البقرة: 93﴾.

« لقد سمعنا كل ما قلت، ولكننا غير مستعدين للانسجام معك في واقعنا العملي، لأننا لا نريد تغيير وقعنا وعاداتنا وأوضاعنا، التي تلتقي بأطماعنا وشهواتنا ومواقعنا في الحياة "و أشربوا في قلوبهم العجل"، فلا تزال ذكريات العجل تعيش في و جدانهم وقلوبهم، و لا يزال يجري في مشاعرهم مجرى الدم في العروق...» ①

و في هذا الدليل الأوفى على مدى استحكام التبعية والاستلاب في نفوسهم. وكيف أن تبعيتهم للفرعون لم تكن استجابةً لشروط القهر المادي المسلّط عليهم، إنما كانت تنبع من داخلهم كشعور عارم بتفوّق الفرعون و نموذجيته الإنسانية، وكانوا هم يشعرون أنهم دونه بكثير، و شعورهم بعقدة النقص، جعلهم ينخرطون في تبعيته و طاعته العمياء... و ليت أنهم حين تمنوا أن يكون لهم مثل الذي أوتي " قارون " –حسبما يرويه القرآن الكريم– أنهم قد تمنوا –و لو سرا– أن يكونوا فراعين يوما ما! ... لأن التبعية تمحو كل استقلالية لدى المستضعفين، وكل شعـــور بالتفـــرد والتميز، فيبحثون عن ذواتهم حين يتمثلون ذات القاهرين.

و لهذا غالبا ما تجر التبعية على المستضعفين مسخا وتشويها، يصيرون معه لا يشبهون أي شيء، وهـــذا الذي خطط له الاستعمار الأوروبي، حين قام « بتخلية الأمم ذوات التاريخ العميق و الثقافة العالمية من محتواها، و فصلها عن تاريخها، و جعلها غريبة عن ثقافتها و بعيدة عن نفسها عن طريق الحيل العلمية الدقيقة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① السيد محمد حسين فضل الله : من وحي القرآن، الحلقة 2، ص114

و علم الاجتماع المعقد الذكي، بحيث لا تجد شيئا داخلها ولا تعرفه، فيقوم بمسخ تاريخها وثقافتها وكل قيمها المعنوية والتقليدية وتحقيرها (...) وعندما حقق الاستعمار هذا الهدف من أجل دخوله وسيطرته وغارته وإيقاع الأمم في أسره، لم يعد لديه شيء آخر يقوم به، ذلك لأن الأمم نفسها جاهدت بكراهية وحقد حارقين للعادة في تخريب أنفسها بقدر ما تستطيع، وتحقير دينها وأخلاقها وأصالتها التي مسخت، وبشوق وإصرار ألقت بأنفسها في أحضان الأوروبيين.» ①

نستنتج من هذا أن "التبعية" شكل من أشكال "المازوشية الاجتماعية" التي تسعى إلى تحقيق ذاتها من خلال إهانة هذه الذات وتحقيرها ومحوها، والفرار منها، ليحدث مرض آخر لا يقل خطورة عن سابقه وهو "انفصام الشخصية الاجتماعية" للمستضعفين. لأن التبعية –كمرض نفسي أساسا- يؤدي إلى تفكك شخصية الفرد أو الأمة في فصام نكد، نتيجة لانشطارات داخلية، لأن المحتوى الداخلي للفرد أو الأمة، قد فقد تجانسه وانسجامه، حين أدخلت عليه التبعية أفكارا أخرى، ومشاعر غريبة، وتصورات مناقضة لتصوره الأصيل.

يقول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿الزمر: 29﴾.

« إنهما لا يستويان، فالذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين، وتجمع الطاقة، ووحدة الاتجاه، ووضوح الطريق، والذي يخضع لسادة متشاكسين معذب مقلقل لا يستقر على حال ولا يرضي واحدا منهم فضلا على أن يرضي الجميع. » ②

و هذا الذي تفعله "التبعية" في النفوس إذا استحكمت و أعرقت في الروح و الفكر و الشعور، فإنما تجعلهم مذبذبين، لا تستقر خطاهم على طريق، ولا تنظر عيونهم في اتجاه، يعيشون خارج الزمن، لأنهم كان مجرد عش للآخرين. و بما أننا سنعرض للتبعية في فصل لاحق، فلا داعي للتوسع في هذا المقام.

الاستخفاف:

يعمل المستكبرون –على مر التاريخ على إخراج المستضعفين من مواقع توالدهم الطبيعية، التي يستطيعون من خلالها، أن يعيشوا الحياة على المستوى القيمي و المبدإي، هذا المستوى الذي يؤهلهم كي يتصوروا البدائل الإنسانية المثلى، وكي يمكنوا لها ويعيشوها، يخرجوهم من هذه المواقع التي شيدت بمجاهدة تاريخية كبرى، استمرت مئات السنين، إلى مواقع توالد اصطناعية، لا تخرج عن الرؤية الاستكبارية، تصاب فيها الشعوب بما يشبه العقم بحيث يقل لديها الطموح، و يخبو في أعماقها وهج الإبداع، و تضمر لديها شيئا

---

① د. علي شريعتي : العودة إلى الذات، ص108

② سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 24، ص3049

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فتشيئا الرغبة في الحياة، وإن المستكبرين ليتبعون في سبيل تحقيق هذا أساليب كثيرة، منها الظاهر، و منها الخفي، و لكن يشملها عنوان واحد هو الاستخفاف.

ورد في "لسان العرب" عن الاستخفاف لغة: « استخف فلان بحقي = إذا استهان به (...) استخفه الطرب = إذا حمله على الخفة و أزال حلمه. واستخفه = طلب خفه ... استخفه فلان = إذا استجهله، وحمله على اتباعه في غيه (...) خف فلان لفلان = إذا أطاعه وانقاد له.» ①

نستنتج من هذا أن الاستخفاف كمفهوم لغوي، هو طاعة وانقياد عن جهل وغي، ودون تدبر في عواقب تلك الطاعة وذاك الانقياد. وقد وردت مادة الاستخفاف في القرآن الكريم في عدة مواضع منها قوله سبحانه و تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ ﴿النحل: 80﴾. و قال سبحانه:﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿الروم: 60﴾. و قال عز من قائل:﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿الزخرف: 54﴾

ففي الآية الأولى يتحدث الله عن تلك البيوت التي تتخذ من جلود الأنعام، وليس فيها من مقومات البيوتات إلا أنها تحمي من القر والحر، وتصد الريح، أما ثبات البيوت وثقلها ورسوها فليس فيها من ذلك شيء، فهي خفيفة يسهل طيها وحملها على ظهور الجمال...

أما في الآية الثانية، فإن الاستخفاف يأخذ معنى آخر، وذلك حين يعمل المستكبرون والكافرون، على استفزاز النبي وزعزعته عن موقفه الإيماني الثابت، ودفعه إلى تصرفات غير محسوبة العواقب، بغية جره إلى معركة قد وقتوا لها وقتها وأعدوا لها عدها...

أما الآية الثالثة، فتتحدث عن سنة تاريخية، ومخطط استكباري متجدد، يتمثل في تفريغ الشعوب والجماهير من كل ما يجعل منها ثابتة صامدة في وجه أهواء الجبارين، ولا شيء يجعلها صامدة وثابتة سوى الدين القيم، والأخلاق السامية، والمبادئ العليا، والثقافة الأصيلة، والنباهة الاجتماعية، والمشاعر الإنسانية النبيلة. « و استخفاف الجماهير أمر لا غرابة فيهن فهم يعزلون الجماهير أولا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنها الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها، ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك ، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال. ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق.» ②

---

① ابن منظور: لسان العرب، مادة : خفف

② سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 25، ص3194

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إذا كان الاستخفاف هذا هو منطلقا و غاية، فمما لا شك فيه أنه ليس ابن يوم وليلة، بل إنه نتاج تخطيط مركز بعيد المدى، طويل النفس، تتضافر لتحقيقه عدة أسباب وعدة برامج على أصعدة شتى، تهدف في النهاية إلا "لا أنسنة" الإنسان، أي تفريغه من أي محتوى إنساني سام، وجعله يعيش الحياة على مستواها البيولوجي والغريزي. ليحصل بعدها المستكبرون على شعب مستخف، يصلح للاستعراضات السياسية إشباعا لنزوات الجبارين.

و كما يؤدي الاستخفاف إلى زوال قيم، فإنه يؤدي كذلك إلى استنبات قيم أخرى ونموها، لا تخرج عن دائرة الاستهلاك والإيغال في التبعية والإمعان في الاستلاب.

و بهذا تخرج الجماعة المستخفة من حالة إلى حالة، ومن فكرة إلى أخرى، ومن موقع إلى موقع مغاير. أي أنها تخرج من فضائها الاجتماعي الأصيل، الذي تشكل عبر سيرورة تاريخية طويلة ومعقدة، لتدخل في فضاء اجتماعي مصطنع. كل ما فيه من قيم وأخلاق ومثل ومبادئ لا يساعد إلا على ضمور القوى المبدعة والطاقات الخلاقة، و لا يدعو إلا إلى الغياب على الذات، وبالتالي الشروع في الهلاك بمفهومه القرآني والواسع. وهذا هو الفسوق الذي يعني في جانبه الحضاري الخروج من موقع طبيعي أصيل، والدخول في موقع هجين، يكبح الحيوية وتجارب الانطلاق، ويقتل الحرية، ويقمع الإبداع، وبذلك يضمن المستكبرون دوام العلاقات الاجتماعية التي تضمن لهم مصالحهم.
و الفسوق لا تقوم عليه حياة و لا حضارة، لأنه شروع في الانقراض و الهلاك و الموت البطيء.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ ﴿الإسراء: 16﴾، و عن هذا المكر الاستكباري في استخفاف الناس، يقول د. علي شريعتي:« إنه كما تصنع الأواني اليوم من مادة المطاط، بعد وضع مادتها الخام في جرة، فتذوب ثم تصب في حفر أعدت على أشكال الأواني، ليستنتج منها الإبريق والقدح والكأس وغير ذلك من الأدوات التي تعرض في السوق للبيع، هكذا أخذوا يصنعون الإنسان! يصنعون الجيل! » ①. ثم يستعرض بعد ذلك كيف يجتمع الخبراء في كل علم وفن، ليتدارسوا طبيعة الإنسان و محتواه، كما يريده الاستكبار، إنسان مفرغ و مستلب، واستهلاكي لكل ما تصنعه المؤسسات الاستكبارية المختلفة، و لا يملك اتجاه الحياة أي شعور بالحرية أو المسؤولية أو الالتزام!. ولا معنى للإنسان -حسب "د. علي شريعتي"- من هذه "البلاهة المتطورة الحديثة" -حسب تعبيره- إلا الوعي في صوره المختلفة، « إن الوعي النفسي "النباهة"، يمكن أن يشعر الإنسان بما فات منه، هذا الإنسان الذي تجاوز الحد في الإقتداء و الاستهلاك لكل ما يقدم له! و يمكن أيضا للوعي الاجتماعي أن يشعره كيف تجري

① د. علي شريعتي : النباهة و الاستحمار، ص37

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أمور مجتمعة في الخفاء! نعم! إن الدرايتين النفسية والاجتماعية هما الشيء الوحيد الذي باستطاعته أن ينجي الإنسان من هذه البلاهة المتطورة الحديثة المغرية.» ①

فالدكتور "علي شريعتي" يعرض الداء المتمثل في هذه "البلاهة المتطورة الحديثة"، التي تصيب الفرد والمجتمع بالمسخ و الفوضى المبدانية، ويعرض الدواء، الذي لن يكون إلا "النباهة"، إن على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع، فهذه النباهة أو الدراية، هي التي تحدد للمجتمع شخصيته وهويته وتجعله يعرف ما ينسجم معها ويجانسها، ويزكيها وينميها، ويعرف كذلك ما لا يتجانس معها، فيحدث التآكل الداخلي، والصراع النفسي، الذي يلحق المسخ بشخصية الفرد والمجتمع معا.

المبحث الرابع : المصطلحات التي تعبر عن المستضعفين

يعبر القرآن الكريم عن المستضعفين في مختلف أوضاعهم الاجتماعية والنفسية، بمصطلحات واضحة، تحدد لنا حين نرتبها ونسلسلها مراحل انحطاط المستضعفين وتقهقرهم على سلم المعايير الاجتماعية المنحرفة، وكيف أن كل درك اجتماعي يدحرجهم إلى الدرك الذي يليه، ومن هذه المصطلحات ما يلي:

- **الناس:**

معروف ن مصطلح "الناس" –حسب وروده في القرآن الكريم- يعني كل هذه الخلائق الإنسية، بعيدا عن أي تمييز عرقي أو ديني أو طبقي أو طائفي.

لكنها على مر التاريخ ارتبطت بالقاعدة العريضة من المجتمع، لأن المستكبرين قد انحرفوا عن خط الاستقامة –صعودا كما يتوهمون-، وصاروا لا يعتبرون أنفسهم في جملة الناس، بل صاروا "ملأ" و"كبراء" و"سادة" بينما ظل الناس ناسا! لم يحصل لهم الغنى فلم يطغوا ولم يتكبروا و لم يتميزوا عن السواد الأعظم من خلق الله. وإن كان سوف يشعرون بالتميز حين يستسلمون للفرز الطبقي، تحت ضغط المعايير والقيم المنحرفة.

و قد ورد في "لسان العرب" أن « الناس = قد يكون من الإنس ومن الجن » ②. و قد يكون هذا صحيحا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الرسول ﷺ مكلف بتبليغ رسالة الإسلام حتى إلى الجن، و قد خاطبه الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿سبا: 28﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ(1)مَلِكِ النَّاسِ(2)إِلَهِ النَّاسِ(3)مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ(4)الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ(5)مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ(6)﴾ ﴿سورة الناس﴾. فهذه السورة تنفي أية قدرة لأدعياء الربوبية والألوهية على امتلاك ناصية

...ن : ص38

② ابن منظور : لسان العرب، مادة :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إيحاء الناس، بل أن رب الناس ومالك الناس وإله الناس، هو الله سبحانه وتعالى. وفي هذا النص القرآني الكريم إيحاء بأن الناس قد يقعون تحت تأثير قوى ضاغطة، تسلبهم حريتهم وإرادتهم، وتتسلط عليهم بالتشريع، فتستترفهم ماديا و روحيا. «فالناس تستعيذ بالله من شر العوامل الخفية والمعلنة، الأيادي والأجهزة، التي تغسل أدمغة الناس فتلوثها، وتنحرف بأفكار وإيمان وقيم ووعي الناس وأحاسيسها الإنسانية الطاهرة (...) أجل، أليس الناس -في ضوء الرؤية الكونية الإسلامية- من الله وترجع إليه؟، وأليس مع الناس ومقابل أعدائهم.» ①، وليس أعداء الناس إلا أولئك الذين يتميزون عنهم بالتكبر والتجبر، وإدعاء الربوبية حينا والألوهية حينا آخر.

■ **الفقراء:**

ورد في "لسان العرب" أن «الفَقر والفُقر ضد الغنى (...) الفقير الذي له بلغة من العيش (...) وقال ابن الأعرابي: الفقير الذي لا شيء له، قال: و المسكين مثله. و الفقر = الحاجة.» ②

إذن فالفقير -لغويا- هو المحتاج إلى أسباب الحياة ومقوماتها، التي تيسر عليه أسباب المعاش. وقد وردت كلمة الفقر ومشتقاتها أكثر من عشر مرات في القرآن الكريم، تتحدث -في معظمها- عن أولئك الناس الذين يقعون ضحية نهب واستتراف، إما من طرف أشخاص متنفذين، أو من طرف نسق اجتماعي يسلبهم كل مصادر القوة، ويسلط عليهم كل عوامل الضعف، ويجعلهم محتاجين للآخرين في كل ما يقيم الجانب المادي من حياتهم، فلا يتحركون في الحياة إلا بعسر شديد.

و الفقير، بحكم أنه مفرغ من كل المقومات المادية، فإنه يقابل "الملأ" الذين امتلأوا بمجموع ما فرغ منه الفقير، فبقدر ما فقد الفقير اكتسب الغني، وبقدر ما صار الفقير فارغا من كل الأسباب المادية للحياة، صار الغني ممتلئا بها.

و لأن الفقر منبوذ في معيار الفطرة السليمة، فإنه مدخل من مداخل الشيطان إلى النفس الإنسانية، فيخوفها بالفقر إن هي أحسنت و تصدقت. يقول الله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: 268].

يقول الشهيد "سيد قطب": «الشيطان يخوفكم الفقر، فيثير في نفوسكم الحرص و الشح و التكالب. و الشيطان يأمركم بالفحشاء -والفحشاء كل معصية تفحش أي تتجاوز الحد، وإن كانت قد غلبت على نوع معين من المعاصي، ولكنها شاملة، وخوف الفقر كان يدعو القوم في جاهليتهم لوأد البنات وهو فاحشة. والحرص على جمع الثروة كان يؤدي ببعضهم إلى أكل الربا وهو فاحشة... على أن خوف الفقر سبب الإنفاق في سبيل الله في ذاته فاحشة.» ③

---

① د. علي شريعتي : الأمة و الإمامة، ص22

② ابن منظور: لسان العرب، مادة : فقر

③ سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 1، الجزء 3، ص312

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المساكين

ورد هذا المصطلح [illegible] في القرآن الكريم، وهو يعبر عن وضعية اجتماعية، يكون فيها المرء أتعس من [illegible] وأحوج [illegible] وقد ورد في "لسان العرب": «و المسكين الذي لا شيء له، وقيل: الذي لا شيء له يكفي عياله، (...) و الفقير أحسن حالا من المسكين، والفقير الذي له بعض ما يقيمه والمسكين أسوأ حالا من الفقير» [illegible] وكلمة "المسكين" غالبا ما ترد في القرآن الكريم، ضمن جو الضعف والحاجة والافتقار [illegible] فهي [illegible] مقرونة بابن السبيل الذي انقطع عن أهله وماله ومصدر رزقه، وتذكر مع اليتيم [illegible] وتذكر مع الأسير، وهو ذاك الذي صار في قبضة أعدائه، فهو لا يملك حتى نفسه، [illegible] مع [illegible] تعريف هذا المصطلح.

[illegible] ﴿[illegible] الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾ [الإنسان: 8]، ويقول جل من [illegible] ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها﴾ [التوبة: 60].

[illegible] هم الذين يجدون دون الكفاية، والمساكين [illegible] ولا يسألون.[2]

[illegible] مسكينا = وهو الفقير الذي لا شيء [illegible] المصطلح أن الفرق بين المسكين والفقير، وبين المسكنة والفقر فرق بسيط، يكمن في [illegible] فهو يعرض حاله على الناس ويسألهم، [illegible].[3]

الضعفاء

[illegible] عندما يستطيع المكر الاستكباري أن يقتل في الناس كل أمل في السمو، وكل [illegible] في [illegible] في ذلك مشقة وجهدا، ومصارعة للأقدار التي لا يصارعها أحد إلا [illegible] كما أن [illegible] بالنسبة إليهم ترفا سلوكيا، لا يقدم عليه إلا المتهورون، المنفلتون من أي ضبط [illegible] أو مسؤولية في [illegible] وهذا كله يتأصل فيهم الضعف وفي ذريتهم فيعيشون بعقلية الضعفاء الحقيقيين، فيكون منهم [illegible] وما هم [illegible]! ويكون منهم العرج المقعدون، وما هم بعرج ولا مقعدين، ويكون منهم [illegible] وما هم [illegible] ولا [illegible]، لكن الحياة الخالية من أي وعي رسالي، هي التي صاغتهم على [illegible] الشاكلة!.

---

(1) ابن منظور: لسان العرب، مادة سكن.
(2) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد3، الجزء10، 1669.
(3) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، الجزء9، ص617

وقد ورد في "لسان العرب" « الضَّعْفُ و الضُّعْف خلاف القوة، وقيل الضُّعْفُ بالضم في الجسد، الضَّعف –بالفتح– في الرأي » ①.و بالتالي يكون الضعيف هو كل من لا يملك شيئا من الأسباب، يجعله قويا و غنيا، وفي غير حاجة إلى الآخرين.

- **المستضعفون:**

و هم ضحايا الممارسات الاستكبارية في تكريس الضعف على كل المستويات، واستخفاف الجماهير من كل قيم القوة والتميز، وقد سبق التعريف بهم.

- **الأرذلون:**

الأرذلون هم المستضعفون القابعون في أحط دركات السلم الاجتماعي، إذ يجردون فيها من كل القيم الإنسانية، و تنسب إليهم كل صفات الحقارة و الوضاعة، و من خسة و دناءة وطيش و سفاهة و فقر، ورداءة ودونية، إلى الدرجة التي تصير فيها قدرتهم على الإيمان بالرسل عارا على الرسالة و سبة للرسول حسب منطق المستكبرين!! لأن الأرذلين–حسب منطق المستكبرين–لا يستطيعون أن يميزوا ما بين خير وشر!. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ ﴿الأحقاف: 10﴾ و في موضع آخر من القرآن الكريم، يجابه المستكبرون النبي، بأنه لم يتبعه إلا هؤلاء الأراذل السطحيون!. ﴿وَمَا نرت اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿هود: 27﴾.

و قد ورد في "لسان العرب": « الرذل والرَّذيل والأرذَلُ = الدون من الناس (...) و قيل هو الدون الخسيس، وقيل: هو الرديء من كل شيء. » ②

و يقول "سيد قطب" في تفسير الآية السابقة: « و هم يسمون الفقراء من الناس "أراذل"... كما ينظر الكبراء إلى الآخرين الذي لم يؤتوا المال والسلطان! وأولئك هم أتباع الرسل السابقون غالبا. » ③
وفي آية أخرى يقول الله سبحانه: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ ﴿الشعراء:111﴾.«أي، وقد اتبعك سفلة الناس وأراذلهم وخساسهم عن قتادة، وقيل يعنون المساكين الذي ليس لهم مال ولا عز من عطاء. وقيل يعنون الحاكة و الأساكفة عن الضحاك و علقمة، و المعنى: إن أتباعك أراذلنا وفقراؤنا وأصحاب الأعمال الدنية، و المهن الخسيسة، فلو اتبعناك لصرنا مثلهم، ومعدودين في جملتهم » ④ و في المحصلة فإن الرذالة–كصورة لوضع اجتماعي – تعني الدونية و الخسة و الرداءة، و المسكنة، التي قد يسبغها المستكبرون على المستضعفين، و يصيرون يرونهم عليها.

---

① ابن منظور : لسان العرب، مادة : ضعف

② ابن منظور : لسان العرب، مادة : رذل

③ سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 4، الجزء 12، ص1872

④ الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن، الجزء 7، ص 308

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة :

يرتبط مفهوم "التبعية" —دائما— بمفاهيم أخرى تقترب منه في الدلالة، و تماهيه في الإشارة إلى نفس الحالات، و تشي بما يشي به من إيحاءات وظلال، وإحالات فكرية ونفسية وتصورية، و من بين هذه المفاهيم : التقليد، المحاكاة، التمثّل، التشبه، وغيرها

و لكن بإمكان المحاكي أن يزيد عمّن يحاكيه فيبدع، ويمكن أن ينقص منه فيعّد ذلك إخفاقا، وبإمكان المقلد أن يفعل شيئا من ذلك أو لا يفعل، لأنه مازال يشعر بذاته وبعض استقلالية كيانه وتميُّزه عن مقلّده.
أما التابع، فإنه لا يملك من كل ذلك شيئا، فيكون كالمنوّم وراء متبوعه، من بعدما أُشرب نموذجية هذا المتبوع ومثاليته.

و ترتبط التبعية في الأدبيات المعاصرة بالاقتصاد، وذلك لطغيان النظرة المادية والتحليلات الاقتصادية في حسابات الأفراد والشعوب. وهذا الذي جعل "التبعية" -كمفهوم- تحيل غالبًا على الناحية المادية الاقتصادية، رغم أنّ التبعية الاقتصادية ليست سوى تجليات محسوسة لتبعية أخرى أخطر وأعمق، هي التبعية التصورية أو الإيديولوجية أو السياسية، بل إنّ التبعية الاقتصادية هي التي تكشف أن مجتمعا ما، أو طبقة ما، تعيش حالة التبعية في العمق. «فالتحليلات الأكثر شمولا واستيعابا للحالة ترى أنها حالة بنائية تشمل معظم مستويات البنية الإجتماعية وأصعدتها، بما في ذلك حالة الذهن والإدراك والموقف النفسي للفرد وللجماعات من الأنا ومن الآخر، وأنها حالة تاريخية ذات جذور ومراحل كمية وكيفية.
ن كانت عسكرية سياسية، ثم اقتصادية أضحت متغلغلة في مناحي ونشاطات أخرى تتقاطع أفقيا ورأسيا عبر أبعاد الحياة اليومية (...)
وأنها حالة دينامية متغيرة تسهم أبعادها وعملياتها في تجديد شروط استمرار ثقافة بعضها البعض.» ①

و بهذا تكون "التبعية" مفهومًا معقدًا ومركبًا وناميًا، سرعان ما يأتي على النسق الاجتماعي بمختلف أجهزته، إذا تمكن من جهازٍ واحدٍ فيه، وإذا لم يقطع ويُستأصل، وغالباً ما تكون قابلية ذهنية لدى التابع، تجعله يلتقي كل الإشارات التي يصدرها المتبوع في اتجاهه، دون أن يميّز بين جيّدها و رديئها، لأنه قد استقر في لا شعوره أنّ المتبوع لا يصدر عنه إلا الجيد الصالح.

المبحث الأول : مفهوم التبعية

من هذا المنطلق، تندرج التبعية في إطار الشعور بالفقد، و الرغبة في الامتلاك، و يكون المتبوع هو الذي يمتلك كل الحاجات التي يفتقدها التابع، فأول ما تكون التبعية تكون قهرا من طرف المتبوع، لتنتهي إلى حالة من الانبهار و الإعجاب من طرف التابع، و بين القهر و الانبهار، و الشعور بالفقد و الرغبة في الامتلاك، تنشأ

① عبد الباسط عبد المعطي: التبعية في العلم الإجتماعي، مجلة الوحدة، السنة 4، العدد 45 جوان 1988. المجلس القومي للثقافة العربية. المغرب، ص 102

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شبكة من العلاقات النفسية و الشعورية، و الاجتماعية و السياسية، لترسّخ وضعاً قائمـــاً، و تضمن له النمـــو و الديمومة.

نستنتج من هذا أن « التبعية دينامية داخلية و خارجية، تتكيف بمقتضاها الهياكل الإقتصادية والاجتماعية في المجتمعات التابعة وفقا لحاجات المراكـــز الرأسمالية المتقدمة. و يقود هذا التكيّف السلبي المتواصل أو يتضمّن انتقال عملية صنع القرارات و السياسات الاقتصادية خارج هذه المجتمعات. » ①

و قد نقيس على هذا التعريف للتبعية، لنعْطيها تعريفًا آخر بعيداً دون أن نحصرها في الإطار الإقتصادي، فنقول: إن التبعية –أوّل ما تكون– هي حالة نفسية، تنتج عن مؤثرات خارجية قاهرة هادفة، يكون الأفراد بمقتضاها والمجتمعات، تابعين لمركز مستقطِب، يعمل على استلحاقهم به، ليكونوا مجرّد لواحق له. ونتيجة للقهر المركّز المستمر ، يشرعون هم في التكيّف وفق حاجته ومتطلباته، فيتشبهون به، ويتخذونه نموذجًا و قدوة ومثلا أعلى، ويفقدو ن اتجاهه حرية التفكير و حرية السلوك، ليصيروا –مع القهر المتواصل– لا يشعرون أنهم فقدوا الحريـــّة، و ما هذا الشعور منهم إلا لأن دينامية التبعيّة قد شلّت قدرتهم الفكرية و سلبت منهم النباهة، و أرثتهم العطالة و الخمول. فكأن التبعية –بهذا المدلول– هي محضن التخلّف والقصور لدى الأفراد والمجتمعات على السواء.

إن حالة كهذه، لا تكون ست يوم وليلة، بقدر ما تكون مشروعًا ممتدًا في الزمان والمكان، يكون قوامه تفاعل غير المتكافئ والمتوازن بين جهتين فاعلتين ضمن حياة اجتماعية، جهة ترسل التأثير، وجهة تتلقاه.

كما أنها لا تكون نتاج عصـــرْ دون عصر؛ كأنْ يظـــن بعض المعاصرين أنها نتـــاج تطوّر الرأسماليـــة و هيمنتها، وما نتج عنها من ظاهرة الاستعمار، التي كانت أداةً في خدمة الليبرالية وإشباع حاجاتها من المواد الخام و الأرزاق الموجودة في بلاد المستضعفين.

« كانت هذه المشكلة قائمة في الماضي قبل نزول القرآن، حيث أخبرنا القرآن عن "الأتباع والمتبوعين" الضالين الكافرين، الذين وقفوا أمام دعوات الرسل(...).

وهذه المشكلة بقيت قائمة بعد نزول القرآن، حيث شهدت القرون اللاحقة نماذج بارزة للأتباع والمتبوعين في مختلف المواقع والبلدان، في بلاد المسلمين، وفي أوروبا، وفي آسيا وأفريقيا.

لكّن مشكلة "التبعية" و مسألة " الأتباع و المتبوعين "، أبرز ما تكون وضوحًا، وأكثر ما تكون خطورة في هذا العصْر الحديث. » ②

و ذلك لأنّ أدوات الإستتباع قد تطورت بشكل كبير، كما تطوّرت الطرائق والأساليب، بعدما وظّف المستكبرون الكثير من العلوم التي انصبّت حول دراسة الإنسان والمجتمعات كوحدة عضوية، و ظفوه في إبداع

① مطيع المختار : آليات التبعية ومأزق التنمية في الوطن العربي. مجلة الوحدة. العدد 45 ، ص39

② د.صلاح عبد الفتاح الخالدي : الأتباع و المتبوعون في القرآن. دار المنار- الأردن ط1- 1417 هـ، ص2

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تقنيات في التبعية، تجعل الأتباع « مجرّد آلات مستسلمة للظلم لا تحس بالظلم، لا تدرك أنها مظلومة، ولا تدرك أن في المجتمع ظلما، هي آلات تتحرّك، تحرّكا يشبه التحرّك الميكانيكي للآلة، تحرّك التبعية والطاعة دون تدبّر دون وعي، سلب فرعون منها تدبّرها، عقلها، وعيها، يربط يدَها به، لا عقلها به، ولهذا فهي تحرّك يدها تحريكا آليا، وتستسلم للأوامر الفرعونية دون أن تناقشها، دون أن تتدبرها حتى بينها وبين نفسها، لا بينها وبين الآخرين. هذه الفئة طبعا تفقد كل قدرة على الإبداع البشري في مجال التعامل مع الطبيعة، تفقد كل قابليات النمو لأنها تحوّلت إلى الآلات، إذا وجد أن هناك إبداعاً في هذه الفئة إنما هو إبداع من يحرّك هذه الآلات، إبداع تلك الفرعونية التي تحرّك هذه الآلات، وأما هذه الفئة فلم تعد أناسًا وبشرًا يفكرون ويتدبرون لكي يستطيعوا أن يحققوا لونًا من الإبداع على هذه المساحة. » ①

إذن، فالتبعية تقوم على محْو الشخصية المستقلة للأفراد و المجتمعات، و استئصال كل قيم التميّز و التفرّد و النمو، لتجعل منهم كيانات بيولوجية، تقتصر وظيفتها في الوجود على إنتاج قدر بسيط من الحياة.

و بالتالي تكون التبعية تفريغًا للإنسان من كل القيم التي تجعل منه إنسانًا ذا قابليات نامية متطوّرة.

و هكذا تصير التبعية من جانبها هذا، شكلا من أشكال "اللاأنسنة" حسب تعبير: "باولو فرايري" في كتابه "تعليم المقهورين".

فهو يرى أنه إذا كانت عملية تحرير الإنسان من كل أشكال القهر، وتزكية قدراته وإمكاناته عملية أنسنة. فإن عملية تجميده بكل أشكال القهر وشلّ القدرات و القابليات عملية "لا أنسنة". « إن اللاأنسنة في جوهرها إحلال بقدرة الإنسان على أن يمارس وجودًا بشريًا متكاملا. ومثل هذا الإحلال كثيرا ما يحدث في التاريخ، ولكنه لا يشكّل في جوهره حتمية تاريخية، ...أن اعتبار اللاأنسنة حتمية تاريخية إنما يؤدي إلى الجنون أو اليأس الكامل (...)فهي مجرّد ظاهرة مؤقتة تعكس الظلم المكرس بالقوة في أيدي القاهرين ويمارسه هؤلاء ضدّ المقهورين.» ②

و إذا كانت التبعية عند "باولو فرايري" هي "لا أنسنة" فهي عند الدكتور "علي شريعتي" انتكاسة في عالم الحيوانية، فيسمّيها "الإستحمار" لِمَا يظهر من آثار المسْخ والتشويه والاستلاب التي تلحقها بكل مقومات الإنسانية في الإنسان.

فاللاأنسنة و"الاستحمار" وجهان لعملة واحدة هي "التبعية"، لأن التبعية تسخير للإنسان في خدمة قوى قاهرة مهيمنة، بينما لا يجني هو من كدّه وسعيه إلاّ التعب، ويصير الإنسان أو الجماعات الإنسانية المقهورة، لا تؤمن بقدْرها على الفعْل، بل إنها لا تفكر في الفعل إطلاقًا، لأن الفعل هو فكرة و حركة في سبيل تحقيقها، بينما التبعية تشلّ في الناس القدرة في التفكير و القدرة في السّير اتجاه البديل. « لقد أذلّونا إلى حدّ بتنا معه لا نؤمن

① محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص231

②باولو فرايري: تعليم المقهورين، ص 27

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بقابليات قدراتنا ذاتها، أصبحنا نرى أنفسنا في عجز تأباه حتى صغار الحيوانات!!، فنحن عاجزون عن الانتقاد، عن الاستفسار، و حتى عن الكلام! صرنا لا نجرأ أن نتصوّر أننا قادرون على أيّ عَمَلٍ صغير! نعم ... بلغنا هذا المستوى من الضعف وعدم الثقة بالنفس !! إن الجيل الذي يستحقر نفسه بنفسه، يكون حقيرًا أيضا، فسياسة الاستعباد حتى يظن هذا الأخير نفسه من أسرة منحطة، و طبقة دنيا، فيسهل عليه عندئذ تقبّل المذلة بصدر رحيب، و يلجأ مستسلما إلى حضن الرق و العبودية.» ①

و إن تأصيل التبعية في نفوس التابعين وترسيخها، لا يتوقف عند حدّ أن التابع يحب متبوعه، ويعجب به، و يتخذه قدوة و أسوة و مثلا أعلى في الحياة، بل إنه يتعدّاه إلى الحدّ يصير معه يحتقر ذاتها و يكرهها، و يدفعه هذا التحقير والكره إلى محاولة الانفلات منها والتخلّص منها بالتشويه والتزييف والتدمير في اللحظة التي يريد فيها أن يصير متبوعه.

كما أنّ كل إشارات التحقير والإذلال، التي يتلقاها التابع من المتبوع، تترسّخ في قلبه وفكره، وتترسب في لا شعوره، ليعيد هو إنتاجها في حق ذاته، من حيث لا يشعر، فيصير عدوّ نفسه، لأنّه قد استبطن قاهره. وفي هذا السياق يقول "باولو فرايري": « من خصائص شخصية المقهور تحقير الشعور الذاتي، ولقد استمدّ المقهورون هذه الحقيقة من استبطاهم لآراء القاهرين المتأصلة في نفوسهم؛ فكثيرًا ما يسمعون عن أنفسهم أنهم لا يصلحون لشيء، ولا يعلمون شيئًا، وليس لديهم الاستعداد لتعلّم أيّ شيء، وأنهم كسالى ومرضى وغير منتجين، و لكثرة ما تردّد هذه الأقوال في مسامعهم يقتنعون و يفقدون -بالتالي- الثقة في أنفسهم، والأغرب أنهم يزدادون ثقة بقاهريهم.» ②

و نفس هذه الدلالات، -بل أوسع من هذه الدلالات- أشار العلامة "ابن خلدون" من قبل، فهو يرى أن التابع يغالط نفسه عندها يكرهها على الانقياد لمن يعتقد فيهم الغلبة و الكمال، حتى إذا استحكمت تلك المغالطة و تمكنت من نفسه، صارت تتصرف في كل ما يصدر عن تلك النفس من مشاعر و تصرفات و نوازع، لتصير علاقة التبعية القائمة بين التابع والمتبوع، تشبه في عمقها وحميميتها كالعلاقة بين الولد والوالد .. فالولد يعتقد في والده القوة و الكمال و الغلبة، فتراه يقتدي به في كل أحواله، حتى يصير -من شدّة الرغبة في التشبيه- مدعاة للضحك والتفكه، وكذلك شأن الجماعات و الأمم المستلبة حين تتشبه بأمم أخرى تعتقد فيها الكمال و القوة و الغلبة.

يقول العلامة إبن خلدون: « و السبب في ذلك أن النفس أبدًا تعتقد الكمال في مَن غلبها و انقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وُقر عندها من تعظيمه أو لِمَا تغالط به من أنّ انقياده ليس لغلب طبيعي إنما هو الكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك و اتّصل لها اعتقادًا فانتحلت جميع مذاهب الغالب و تشبهت به وذلك هو الإقتداء،

① د.علي شريعتي: النباهة و الإستحمار ،ص30

② باولو فرايري : تعليم المقهورين، ص 42

أو لما تراه –والله أعلم– من أنّ غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، و إنما هو بما انتحلته من العوائد و المذاهب، تغالط... أيضا بذلك عن الغلْب، وهذا راجع للأوّل،ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب(...) وانظر في ذلك في الأبناء مع آبائهم. » ①. و تأخذ التبعية وضعها الأخير والأخطر، وهو أن تصير دينا، أو تصير في مقام الدين، بحيث يصير المستضعفون يستنبطون شعورًا دينيا اتجاه المستكبرين، وتصطبغ العلاقة بينهما بالصيغة الدينية في حالة الغضب أو في حالة الرضّا، وتصير اللغة التي تعبر عن هذه العلاقة لغة دينية أو تماهي اللغة الدينية و تحاكيها.

و يشعر الأتباع أنهم يتحصلون على الرضا و الطمأنينة النفسية والسلام القلبي. حين ... لمون و ينسحقون أمام المستكبرين، بمعنى أنهم يحصلون من وراء هذا الاستسلام والانسحاق على إشباع تعبّدي، « و قد لا يقتصر الأمْر على شعور الضعفاء بالانسحاق والتضاؤل أمام الإرادة القوية القاهرة، بل هناك القناعة الطاغية التي تعيش في وعْي الأقوياء بأن الضعفاء لا يملكون أمْر تقرير مصيرهم، أو إختيار قناعاتهم، أو التحرك في حياتهم إلاّ من خلال ما يقررونه أو يختارونه لهم في شؤون الإيمان و الحياة و المصير ..ولذلك فهم يؤكدون لهم قداسة المركز الذي يضعون فيه أنفسهم، ويزرعون في أنفسهم الأوهام الكبيرة حول الأسرار العميقة الغامضة التي يملكونها على أساس علاقاتهم بالآلهة بالمستوى الذي يجعلهم في موقع الآلهة الصغار الذين يجب على الناس تقديم فروض الطاعة العمياء لهم... و بذلك يتحوّل انسحاق الضعفاء إلى عبادة ذاتية يشعرون فيها أنهم يمارسون قناعاتهم الروحية، و التي تمنحهم السعادة في الدنيا والآخرة... وهذا هو أخطر أنواع الاستغلال، لأنه يوحي للضعفاء بأنهم لا يخضعون للقويّ من خلال قوته ليعيشوا الشعور بالاستغلال من خلال ذلك ... بل يعتقدون بأنهم يخضعون للسرّ الإلهي المودع فيه، مما يعطّل كل انتفاضة أو تمرّد في داخلهم، وكل حركة ترمي ... هم من هذا الواقع، لأنهم يعتبرون ذلك كفرا أو هرطقة أو تحطيما للقداسات الروحية و العاطفية المرتبطة بالتراث المغموس بالأسرار.» ②

و إن المستكبرين ليعتبرون النسق القيمي و المعرفي و الفكري، و كل ما ينجرّ عنه من ... و سلوكات و شرائع، يعتبرونه دينا، في قدسيته وحجيته وإلزاميته غير المبرّرة للجميع ! ..قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ﴿غافر:26﴾ « أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح ؟ أليست هي عينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل ؟.. أليست هي عينها كلمة الخداع الخبيثة لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ ؟..
إنه منطق واحد، يتكرّر كلما التقى الحق بالباطل، والإيمان و الكفر، و الصلاح و الطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان. و القصة قديمة مكرّرة تعرض بين الحين و الحين.» ③

---

① ابن خلدون : المقدمة، ص147

② محمد حسين فضل الله : مع الحكمة في خط الإسلام، ص28

③ سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد5 ، الجزء 24، ص3078

أما المستضعفون، فإنهم يعيشون على نفس ذاك الاعتبار؛ بحيث يعتقدون أنهم من خلال طاعتهم للسادة وانقيادهم للكبراء، إنما يمارسون دينا، ويؤدّون واجبا أخلاقيا يمليه الإيمان، وآية ذلك هو اعتقادهم أن المستكبرين، الذين كانوا ينفعون -حسب زعمهم- ويضرون في الدنيا، يستطيعون أن يفعلوا ذلك، أو شيئا من ذلك في الآخرة إنهم ظلوا على هذا الوهم وهذه السذاجة وهم يواجهون أهوال يوم القيامة!. قال الله تعالى: ﴿وبرزُوا لله جميعًا فقال الضُّعفاءُ للذين استكبرُوا إنّا كُنّا لكُمْ تبعًا فهلْ أنْتمْ مُغْنون عنّا منْ عذاب اللّه منْ شيْء﴾ [إبراهيم: 23].

المبحث الثاني : أركان التبعية

إذا كانت التبعية مركّبا شاملا، ونسيجا متفاعلا من المفاهيم و التصورات، التي يشعر بها المستضعفون اتجاه المستكبرين، و المستكبرون اتجاه المستضعفين، و تجعلهم يتواصلون بسلوكات محدّدة ولغة معينة، فإن هذه التبعية تقوم على أركان و دعائم، وما يتبعها، و هي :

أ- تبعية الآباء:

غالبا ما يصير "الآباء" بعد انفصالهم عن الواقع المعيش، وإيغالهم في الماضي، غالبًا ما يصيرون "نموذجا" للذين يأتون من بعدهم، قد نسميها "الآبائية"، أو قد نسمّيها "السلفية" حسب المصطلح الشائع. وهؤلاء "الآباء" يمثلون للأجيال اللاحقة، لحظة ميلاد مجيد، أي حدث تميّز بقطع سيرورة ما، و بامتداد هذا الميلاد في التاريخ تصير لحظة الأولى لحظة غير متزمنة، و تكون مثالا يحتذى لكل الأجيال التي تعاني -بحكم طبيعة الحياة- حالة التغير المستمر. و بذلك تنفصل "الآبائية" أو "السلفية" عن التاريخي والزمني، لتحاط بهالة من القداسة والحنين.

و عن لحظة الميلاد هذه، التي يكون "الآباء" محورها الأساسي، يقول الأستاذ "مالك بن نبي": « ولكن حين نتحدث عن ميلاد معيّن، فإنّا نعرّفه ضمنا "كحدث" يسجّل ظهور شكل من أشكال الحياة المشتركة. كما يسجّل انطلاق لحركة التغيير التي تتعرض لها الحياة.
ويظهر هذا الشكل في صورة نظام جديد للعلاقات بين أفراد جماعة معينة. ومع ذلك فإن هذه الصورة الجديدة للحياة المشتركة قد تبدأ بفرد واحد يمثّل في هذه الحالة نواة المجتمع الوليد، وذلك بلا شكّ هو المعنى المقصود من كلمة "أمة" عندما يطلقها القرآن الكريم على إبراهيم عليه السلام في قوله: " إن إبراهيم كان أمة".

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ففي هذه الحالة نجد أن المجتمع "أمة" يتلخّص في "إنسان واحد" أي أنه يتلخص في مجرد إحتمال حدوث تغيير في المستقبل، مازال في حيّز القوة، تحمله فكرة يمثلها هذا "الإنسان".» ①

و غالبا ما يكون التمسك بـ "الآبائية" أو "السلفية" نوعًا من الدفاع عن الذات في عجزها عن معايشة الحاضر وما يضطرب فيه، ومسايرة المستقبل وحركيته، أو في رغبتها في ألاّ تنقلع عن سكونية الحاضر، هذه السكونية التي تضمن بعض المصالح و توفّر بعض الامتيازات المادية و المعنوية، لهذه الطائفة الحاكمة، أو لتلك الطائفة المنتفعة بالوضع القائم.

و على العكس تمامًا من هذا، نرى أن المجتمعات أو الجماعات المنسجمة مع حركية الحياة وهي توغل في المستقبل، هذه المجتمعات قلما تتحجج "الآبائية"، أو تتخذهم ذريعة لحماية الذات الكسولة، و إذا حدث و أن التفتت هذه المجتمعات إلى "الآباء" و "السلف"، فعلى سبيل التبصّر والاعتبار، أو على سبيل تحقيق الإشباع للميل الفطري في الإنسان في أن يحنّ إلى ماضيه وآبائه السالفين.

إن هذا التعلق المرَضيّ المغرض بالآباء أو السلف، يستدعي بالأساس إلغاء العقل والتحليل، وفسْح المجال أمام "الذاكرة" والتقليد والاجترار. وهذا الذي يجعل دعاة "الآبائية" أو "السلفية" يتبعون من يملك القدرة على الحفظ، وليس الذي يملك القدرة على الفهم، ويكونون أشياعًا متحمسين لمن يملك القدرة على الوصف، وليس الذي يملك القدرة على التحليل والتفكيك. وكل دعوة إلى التدبر والتفكر والتعقل هي دعوة مضادة من منظور "السلفية"، بل هي دعوة بدعية يجب أن تُقاوم وتُحارب.

و بحكم أن السواد الأعظم من الناس لا يستطيعون تمثّل الأفكار و القيم والمثل العليا أو الاقتراب من دلالاتها، إلاّ بعْد أن تتجسد في طائفة سابقة أو جيل ماض، هذا يجعل هذا السواد الأعظم ينخرط في دعوة "الآبائية" و يصدق كل منْ يتكلم باسمها، ويتحمّس لكل منْ يدعو إليها، لأن ذلك يضعُ عنه أعباء الوعي وتكاليف الرسالية. ومنْ ثمّ يرفض أنصار "الآبائية" و دعاة "السلفية" التجديد في لغة تناوُل الحياة المتطورة، بحكم أنّ اللغة ليست أوعية فارغة، إذْ كثيرًا ما تتلبس بالدلالات والقيم والتصورات التي تعبّر عنها أو تشير إليها، وبهذا تصبح دعوة الآبائية" منظومة معوّقات و كوابح تكبح كل حركية تستهدف المستقبل، وتصير المجتمعات -في منظور هذه الدعوة- مجبرةً على أن تحيا حاضرها لتعود إلى ماضيها حيث نموذجية الآباء الممجدين، ومثالية السلف الأطهار. وفي هذه الانتكاسة نحو الماضي تكون الردة والتخلف والانفصام، لأنّ الواقع المعيش ليس فضاءاً فارغًا، بل هو "نسق ملزم" و"نظام ضاغط" غالبًا ما يتعب منْ يعاكسه.

و قد وردت في القرآن الكريم الكثير من النصوص التي تثبت تحجج هؤلاء بالآباء و تعصّبهم لهـــم،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة : عبد الصبور شاهين، دار الفكر -دمشق، 1985، ص14

و اتخاذهم لكل ما كانوا عليه حجة و قدوة و دينا، قال الله تعالى:﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ(22)وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ(23)قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿الزخرف: 22-24﴾.

«و هي قولة تدعو إلى السخرية؛ فوق أنها متهافتة لا تستند إلى قوة، إنها مجرّد المحاكاة ومحض التقليد، بلا تدبّر ولا تفكّر ولا حجة ولا دليل. وهي مزرية تشبه صورة القطيع يمضي حيث هو منساق، ولا يسأل: إلى أين يمضي، ولا يعرف معالم الطريق !(...)

وهكذا يتجلّى أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة، وحجتهم كذلك مكرورة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ أو "مقتدون"... ثم تغلق قلوبهم على هذه المحاكاة، وتطمس عقولهم دون التدبر لأيّ جديد. ولو كان أهدى. ولو أجدى. ولو كان يصدع بالدليل. وثم لا يكون إلا التدمير والتنكيل لهذه الجبلّة التي لا تريد أن تفتح عينيها لترى، أو تفتح قلبها لتحسّ. أو تفتح عقلها لتستبين.» ①

إن "الآباء" –في النص القرآني السابق- قد صاروا معلم هداية لعامة الناس، بحكم أن هذه العامة، لا تستطيع أن تمثل القيم والمثل إلا إذا صارت مجسدة أو "مُوثَنة" إذ جاز التعبير.

بينما الخاصة، ممثلة في المترفين، و بحكم أنها هي المنتفعة بالأوضاع المنحرفة، فإن "الآباء" قد صاروا لها قدوة و أسوة، لا يجوز التخلي عنهم و لو للأهدى و الأزكى و الأقوم.

و هنا يكون "الآباء" في الذهنية الجماعية نموذجًا حياتيا ومعيارًا قيميًا خالدًا مطلقا، لتصير حركة هذه الأمة أو الجماعة -- و عن غير شعور منها تتجه نحو الماضي؛ فكل ما لديها من طاقة و أشواق و تصنعات، و حرارة الحياة، تسخّرها للانتكاس نحو الماضي و الإرتكاس في ظروفه!.

و عندما نقرأ القرآن الكريم نجد أن المستكبرين وأصحاب المصالح هم أشدّ الناس تعصبًا للتاريخ والصياغات التاريخية الساكنة، لأنهم يستمدون من ذلك شرعية التسلط وشرعية المواجهة مع الحركات التغييرية الانقلابية: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿البقرة: 170﴾.

فالآباء صاروا أندادًا لله، وما كان عليه الآباء من شرائع وأعراف وتقاليد يضاهي ما أنزل الله !.. والتبعية للآباء تقوم مقام التبعية لله!.

و هكذا يُلاحظ أنّ البدائل المنحرفة متوفرة بالقدر الكبير، و هي قاهرة للأعصاب و المشاعر، و ضاغطة

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد5، الجزء 25 ،ص 3178

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

على الأفكار والتصورات، بالقدر الذي لا يمكن هؤلاء من الاستقلالية في التصور، و من الانفتاح على الدعوات المخالفة لمَا هم عليه، بل إن هذه "الآبائية" يبررون بها حتى ما هــم عليهم من شذوذ و انحراف في الأخــلاق و السلوك و التصور: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ ﴿الأعراف: 28﴾. ففي عرفهم يعتقدون أنّ ما كان عليه آباؤهم كان بأمرٍ من الله!.

و هذه الذهنية الماضوية هي من إبداع المستكبرين ومَن يدور في فلكهم، من الوصوليين والمنتفعين بالأوضاع المنحرفة، بحيث تصير عامة الناس تعيش الغياب والذهول عن الحاضر وما فيه من قسوة ومعاناة، لتسود بعدها الذهنية الجبرية التبريريّة.

و الملاحظ في هذا العصر أن أكثر الناس تغنّيا بالماضي وأمجاد الماضي هم المستكبرون وأصحاب السلطان، ثم إنهم يغرون بذلك العامة، فتندفع وراءهم كالقطيع !.. و لا بأس بعدها أن تختلّ المعايير، أو تنقلب الموازين، مادام ذلك كله من مصلحة "الآباء" والأشخاص التاريخيين. « الذين يرتبط بهم هذا الات ذاك، بعيدًا عن الأسس الواقعية للقداسة، ممّا يجعل للأشخاص دورًا حاسما في تأكيد الانتماء، بحيث تنقلب المعادلة إلى شكل معكوس؛ ففي الوقت الذي تكون المعادلة الطبيعية أن ينطلق الانتماء إلى الشخص من خلال الانتماء إلى الفكرة، نجد الواقع المطروح أن الارتباط بالشخص هو الذي يطرح الانتماء إلى الفكرة حتى تحوّلت القضية إلى تغييب قداسة الشخص على قداسة الفكرة، فقد لا يكون مانع لديها في أن تنحرف الفكرة عن الخط الطبيعي العام للرسالة إذا كان ذلك نافعا لعظمة الشخص ومجده، لأنه قد قام ببعض الأعمال التي تُعتبر منحرفة عن الخط مما يجب أن نصحح فهْما للخطأ من خلال الشخص الذي قد لا يملك عصمة حتى في نظر أتباعه، وبذلك تتحول الجماعات إلى أتباع للأشخاص.» ①

من هذا المنطلق، فإن هذه "الآبائية"، حين تشلّ في جماهير الناس العقل والتروع والتطلع، فإنها تكسبهم ضعفا كبيرًا، وتكسبهم مع هذا الضعف "حمية جاهلية"، تصير لهم قوةً دافعة، وأداة للتعاطي مع كل ما يطرأ على ساحة الحياة، فهم ممتلئون بالتاريخ ونموذجيته، وبالتالي يعيشون غيابًا وجوديا شاملا عن الحاضر والمستقبل، ليس كفضاء زمني، لأنّ ذلك ليس بوسعهم، إنما كفضاء وجودي حضاريّ حياتيّ. يقول الله تعالى:

﴿ و لَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ(51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ ﴿الأنبياء: 51-53﴾.

« و هو جواب يدّل على التحجر العقلي و النفسي داخل قوالب التقليد الميّتة، في مقابل حرية الإيمان، وانطلاقه للنظر والتدبر، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمها الحقيقية لا التقليدية، فالإيمان بالله طلاقة و تحرّر من القداسات الوهمية التقليدية، و الوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل (...) و ما كانت عبادة الآباء لتكسب هــذه

① محمد حسين فضل الله : مع الحكمة في خط الإسلام، ص72

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التماثيل قيمة ليست لها، و لا لتخلع عليها قداسة لا تستحقها، فالقيم لا تنبع من تقليد الآباء وتقديسهم، إنما تنبع من التقويم المتحرّر الطليق. » ①

ب- تبعية الآلهة:

و من أركان التبعية كذلك، تبعية الآلهة. و هذه الآلهة المختلفة، تُنسج حولها الأساطير، و تُحاك حولها الخرافات و يخلع عليها من خلع الألوهية و مسوح القداسة، و ينسب إليها قوة و قدرة على النّفع و الضـــرّ، و يثار حولها شيء كبير من الغموض والرهبة و الأسرار، وهذا كله كفيل بأن يكسبها قداسة و مهابة في قلوب الأتباع، ثم تملأ بمحتوى فحويّ عقدي إيديولوجي، يتماشى تمامًا مع مصالح المستكبرين، فتصير مصدرًا لنسيج معرفي كامل وحياة اجتماعية قائمة. قال الله تعالى: ﴿ و قَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿العنكبوت: 25﴾

فكأنما هذه الأوثان والآلهة هي الثوابت في حياة اجتماعية متغيرة أو هي التعبير عن المصالح المشتركة والروح الجمعي للمجتمع، بحيث يضمن من ورائها المستكبرون حشد عامة الناس كما يحشد الراعي قطيعه..« إنه يقول لهم : إنكم اتخذتم الأوثان من دون الله. لا اعتقادًا واقتناعًا بأحقية هذه العبادة، ولا يريد الصاحب أن يترك عبادة صاحبه- حين يظهر الحق له- إستبقاءً لمَا بينكم من مودة على حساب الحق والعقيدة ! وإن هذا ليقع في الجماعات التي لا تأخذ العقيدة مأخذ الجدّ، فيسترضي الصاحب صاحبه على حساب الحق و العقيدة، و يرى أمرها أهون من أنْ يخالف عليها صديقه ! » ②

إن المستكبرين يتخذون هذه الآلهة يبتغون بها العز و الغلبة و النصر و العلو، بما يجمعون حولها من مشاعر وأحاسيس، و طاقات مبدعة، كلها أشكال من الطاقة، إذا تجمّعت حول الإله، -في أي شكل من أشكال التجمّع- فإنها حتمًا قد تجمّعت حول المستكبر في أي صورة كان، لأنه هو حامي الآلهة والناطق الرسمي باسمها !.

لأن فرعون -كنموذج واضح للمستكبرين- « يستمد هيبته وسلطانه من الديانة التي تعبد فيها هذه الآلهة.. يزعم أنه الإبن الحبيب لهذه الآلهة ! وهي بنوّة ليست حسّية !.. فلقد كان الناس يعرفون أن فرعون مولود من أب وأم بشريين.. إنما كانت نبوة رمزية يستمد منها سلطانه و حاكميته. فإذا عبد "موسى" وقومه رب العالمين، وتركوا هذه الآلهة التي يعبدها المصريون، فمعنى هذا هو تحطيم الأساس الذي يستمد منه فرعون سلطانه الروحي على شعبه المستخَف. » ③

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد4 ، الجزء 17، ص2375

② سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 20، ص2732

③ سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 9، ص1354

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و نظرًا لأهمية الآلهة -في أي صورة كانت- فإن المستكبرين يعملون كلّ ما في وسعهم كي يحافظوا عليها، لأن بقاءهم مهيمنين ومسيطرين مرهون ببقائها مستعلية في نفوس الجماهير وفي أفكارهم ومشاعرهم، وعندما يشعرون أن هذه الآلهة مستهدفة، فإنهم يثورون ويستنفرون جماهير الناس المتحمسة، مستثيرين فيها النخوة الكاذبة و الكبرياء الزائف والإيمان الواهم، و ما ذلك منهم إلاّ دفاعًا عن قناة أساسية للتبعية أن تنقطع، و عن هذه القوى و القابليات و العواطف و المشاعر المستلبة أن تنفضّ من حولهم، و تتركهم صغارًا عابدين كما هم على حقيقتهم. قال الله تعالى:﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ﴿نوح:23﴾. و قال سبحانه:﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ ﴿ص: 6﴾.

« و هكذا تلك القيادات الضالة المضلّلة تقيم أصناما، تختلف أسماؤها وأشكالها، وفق النعرة السائدة في كل جاهلية، وتجمـــع حواليها الأتباع، وتهيّج في قلوبهـــم الحمية لهذه الأصنام، كيْ توجههم من هذا الخطام إلى حيث تشاء، وتبقيهم على الضلال الذي يكـــفل لها الطاعة والانقياد : ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام... أصنام الأحجار. وأصنام الأشخاص. و أصنام الأفكار.» ①

و إذا علمنا أن... الوثن -لغةً- هو الثابت غير المتغير، أدركنا أن الأوثان هي مجموعة الثوابت، التي ترمز إلى كيان مجتمع من الناس، فكأن تلك الأوثان هي رموز للروح الجمعي لذلك المجتمع، وإن أيّ تفريط فيها هو تفريط في وحدة المجتمع وبقائه.

إذن.. فالأوثان قديمًا، لم تكن بالبساطة التي ينظر إليها بعض الدارسين، إنما كانت رموزًا لتصورات اجتماعيـــة و سياسية واقتصادية وعقدية، تشكل فيما بينها نسيجًا مؤسساتيا متفاعلاً، ينتج قدرًا معينا من الحياة، ويحقق لناس قدرًا معينا من المصالح المشتركة. و يتولى الدفاع عن هذه الآلهة والأوثان كل من له النصيب الأوفر من الحياة، و القدر الأزكى من مصالح المشتركة. كما هو شائع الآن في الأيديولوجيات التي تضبط حياة المجتمعات و تؤسسها، إذ نرى أنّ أشدّ المدافعين عنها هم أوفر الناس نصيبا وحظوظا في المردودية النفعية لهذه الأيديولوجية أو تلك. والمستكبرون يخدعون الجماهير، حين ينسبون الآلهة إليها "آلهتكم"، وينسبون الدين إليها: "دينكم". قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ﴿غافر:26﴾.

و عندما تستجيب جماهير لنداء المستكبرين، وتندفع بكل حماس للدفاع عن الدين المستهدف، والتعصّب له، والالتفاف حوله، تكون بذلك قد استجابت لنداء جلاديها المستكبرين، وتعصبت لهم والتفت حولهم، وحافظت على بقائهم.

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد2، الجزء29، ص3712

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن هذا التعصب الأعمى، والانغلاق والجمود على بعض الممارسات التي تؤدّى في غياب الوعي، وهذا كله يكرّس الجهل ويؤصّل التبعية في النفوس.

ج- تبعية الأحبار و الرهبان والسحرة :

إن الأحبار و الرهبان والسحرة وعلماء البلاط هم "الوسطاء الدينيون" الذين يقفون على أبواب الآلهة! كما يقف الترجمان بين متحاورين!.
و هي وظيفة حسّاسة و حيوية جدًا، لأنها تتولى رفع حاجات الجماهير و طلباتها إلى الإله، و نقْل أوامر الإله إلى الجماهير. كما يكونون -في أغلب الأحيان- هم الموقعين باسم الإله، و المترلين الميدانيين لأوامره و نواهيه.

و لهذا يعمل المستكبرون دائمًا على استلحاق هذه الفئة الإجتماعية، وخلقها إن لم تكن موجودة، نظرًا للدور الحيويّ الذي تقوم به في تكريس التبعية، وتأصيلها دينيًا في النفوس، من خلال "زخرف القول" أو "تحريف الكلم عن مواضعه" أو "ليّ اللسان" بكلام ما، أو إخفاء نصوص مقدسة، أو تغييبها من خلال تأويلها تأويلا خاطئا. حسْب هذه الفئة أن تخرج على الناس بدين أو مذهب ديني لا يصادم أهواء المستكبرين ولا يعاكسها، بل يخدمها ويماشيها، ويجمع الجماهير حولها، مدَعّما بذلك الاستكبار.
يقول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ «[التوبة:34]». ويقول سبحانه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ «[التوبة:31]».
فالنص القرآني الكريم يبيّن أن الأحبار والرهبان، قد انحرفوا عن وظيفتهم الوجودية، التي أساسها الدعــوة إلى الله وإحقاق الحق في كل المعاملات التي تتــم بين الناس. ثم إن الجماهير العريضة قد اتخذهم أربابًا من دون الله، يحلّون لهم الحرام، ويحرّمون عليهم، فيتبعــونهم دون امتعاض أو اعتراض، وقد تأصلت التبعية في نفــوس الناس حتى بلغت مقام العبادة، ويشرح هذا قول الرسول ﷺ: "إنهم حرّموا عليهما الحلال، وأحلّو لهــم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم". فالتبعية -في المنظور النبويّ- قد أخذت صفة العبادة لأنها تنهج نهجها، وتُحدث آثارها، وبين هذا وذاك تقوم مقامها في إحداث الإشباع للميْل الفطريّ في العبادة.

د- تبعية السلطان:

منذ القديم أدرك الناس هذه الحقيقة، وصاغوها في شكل حكمة، فقالوا: " الناس على دين ملوكهم". و قليلون هم أولئك الملوك والسلاطين، الذين لا يفسدهم التسلط ولا تغرّر بهم الكراسي والعروش. أما الغالبية العظمى من هؤلاء، فإنهم سرعان ما تفسد أوضاع التسلط والترف فِطرَهم، فتتضخم نفوسهم وتضيق عقولهم،

و تمتدّ شهواتهم على حساب الفكر و الإيمان، و عندما تتضخم نفوسهم في عيونهم، يتقزّم الآخرون، و يتقزّم كل شيء خارج هذه النفس المريضة المتأزمة؛ تتقزم الأخلاق والشرائع والقوانين، و يتقزم التاريخ، يتقزم الزمن، تتقزم المثل العليا والمقدسات. ومن ثم يريد المتسلط أن يكون كل شيء، وأن يكون في كل شيء، فيشرع في اكتساح كل شيء ليس هو ! فيبدأ الاستبداد و الجبرية والفرعونية كظاهرة تاريخية تبدأ في إستتباع كل شيء خارجها واستحقاقه

و قد تحدث القرآن الكريم عن "فرعون" كنموذج إنساني للحاكم المستبد المتسلط، الذي ينتهي بادّعائه الربوبية و الألوهية، بعد أن تجاوز ما دونها من مقامات ورُتب!.. دون أن يجد في المستتبعين و المستلحقين من يعترض أو يهمس بالرفض أو ينطلق لسانه بالتعقيب! قال الله تعالى:﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى(22)فَحَشَرَ فَنَادَى(23)فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ﴿النازعات:22-24﴾.

« فإنها الطاغية مخدوعًا بغفلة جماهيره، وإذعانها وانقيادها. فما يخدع الطغاة شيء مثل ما تخدعهم غفلةُ الجماهير و ذلّتها وطاعتها وانقيادها. وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوةً ولا سلطانا. إنما هي الجماهير الغافلة الذلول؛ تمطي له ظهرها فيركب ! وتمدّ له أعناقها فيجرّ ! وتحني له رؤوسها فيستعلي ! وتتنازل له عن حقّها في العزّة والكرامة فيطغى ! والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة، وخائفة من جهة أخرى. وهذا الخوف لا ينبعث إلاّ من الوهم. فالطاغية –وهو فرد– لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين لو أنّها شعرت بإنسانيتها و كرامتها و عزّتها و حريتها. » ①

هذه "الألوهية" و "الربوبية" التي يدّعيها الفرعون –ويدّعيها كل متسلط جبّار من بعده– لا تبقى إدّعاء دينيا أو شعارًا معلّقا في فضاء الدعاية السياسية، إنما تتحول إلى مشاريع اجتماعية وثقافية وسياسية وتربوية، وتصير "الألوهية" عملا له مؤسساته وأيديولوجيته، تنسج حوله هالة وخطابات، ويصاغ منه فكر وعقيدة، لتحمل جماهير الناس على اعتقاد ذلك و اعتناقه حملًا فيه رفق وشدّة، و مكر و خداع، و وعود و وعيد. و تتدخل آلة الدعاية الفرعونية لتعمل بقوة في النفوس و الأرواح و الضمائر و الأفكار والقناعات، لتنتج إنسانًا مفرّغًا من كل القيم الإنسانية، ممتلئًا حتى الجمام هيبة الفرعون و هيمنته، لينتكس المجتمع كله نحو البهيمية، و يصير قطيعًا، بكل ما للقطيع من معنى شفيف، بلغة تشي بجوّ القطيع و ظلاله : قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (96) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ ﴿هود:96-98﴾.

إن هذه الجماهير التي كانت في حالة القطيع ونفسية القطيع، وأجواء القطيع وراء فرعون في الحياة الدنيا، يسوقها كيفما شاء، وحيث شاء، هاهي في الآخرة في حالة قطيع وراء الفرعون، الذي يتقدمها إلى النار

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 2، الجزء3، ص3715

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التي لا تروي ظمأً، ولا تبلّ صدى.

« و يصلح النموذج الفرعوني للتبعية الضالة، مثالا واضحًا لمسالة الأتباع و المتبوعين، باعتبار هذا النموذج مكرّرًا في تاريخ البشرية. ففرعون مكرّر في أمثاله من الفراعين، و آلــه مكرورون في آل الفراعــين، و جنوده مكرورون في جنود الفراعين المتبوعين، و الأتباع مكرورون في أتباع المتبوعين. و عندما نقف مع قصة فرعون في القرآن، فلا بد أنْ نلحظ أبعادها المعاصرة، و أنْ ننظر من خلالها إلى الأتباع و المتبوعين المعاصرين.» ①

و بعد هذا، لا نضيف جديدًا إذ قلنا: إن المستضعفين بمواقفهم المستسلمة وتبعيتهم العمياء هم الذين يصنعون الفراعين والطواغيت على مرّ التاريخ، فبقدر ما يتنازلون عن قوتهم يصير الفرعون قويًا، وبقدر ما يفرّطون في حريتهم يصير الفرعون جبّارًا طاغيا، وبقدر ما يتهاونون في شرفهم وكبريائهم يصير الفرعون فاسقا و عابثا، وبقدر ما يتنازلون عن فطرية الإيمان فيهم وعن التزامهم الاجتماعي يصير الفرعون ربًّا ويصير إلها.

و على العكس من ذلك تمامًا، فعندما يقدم الإيمان النّقي في أرواح المستضعفين وقلوبهم، ويشّع الوعي الذكي في أفكارهم، عندما يبدأ المستضعفون في استرجاع قوتهم، ليبدأ الفرعون في الضعف والتقزم وعندما يبدأون في استرجاع حرّيتهم يضيق مجال التجبر والفسوق لدى الفرعون، وعندما يصيرون مؤمنين ملّتزمين، يفقد الفرعون ما حوله من هالة وقداسة، ويبدو بشرًا عاديا أمام الناس.

لكنّ المستضعفين، لا يصبرون طويلا أمام الإغراء الاستكباري، إذْ سرعان ما يفتر التوتر الإيماني لديهم، و يخبو وهج الوعي، فيستسلمون للوعود و الأوهام، لتنتعش نموذجية الفرعون و مثاليته في نفوسهم، فيتعلقون بـ الوعود و الأوهام، و يرون فيها سبيلا للخلاص من وضعية الاستضعاف، و الانخراط في مجتمع "المــــلأ و النخبة". لكن هذه الأوهام لا تؤهلهم إلاّ أن يكونوا "مرتزقة نظام" و "حاشية حاشية"؛ تثير بعض الحركة، و تلقي على وجه الحياة ببعض الظلال تؤانس المتسلطين المستبدين، و تحقق لهم فضاءًا بشريًّا يمارسون فيه شهوة التسلط، إنهم لا يرون الآخرين وما لدى الآخرين إلاّ أشياءً تُمتلك.« إنه بدون هذه النزعة الامتلاكية، فإن القاهر يفقد اتصاله بالعالم، ذلك أنه بطبعه يحوّل كل شيء حوله إلى وجود خاضع لسلطته بصرف النظر عن كون هذا الوجود أرضا أم زمنا أم رجالا.و هكذا في غمرة رغبتهم الجامحة في الامتلاك فإن القاهرين يولدون من داخل أنفسهم قناعة بأنّ مقدورهم تحويل كل كائن في هذا العالم إلى شيء يدخل في إطار قدرتهم الشرائية» ②

إن المستضعفين -تحت تأثير سياسة الاستخفاف والاستضعاف- تتشوه تصوراتهم وتنحرف المعايير لديهم، فيرون في أدعياء الكبْر والسيادة سادة وكبراء فعلا، لهم عقل وعلم وحكمة بالغة، وبالتالي فهم جديرون

① د. صلاح عبد الفتاح الخالدي : الأتباع والمتبوعين في القرآن- دار المنار- عمان ط1- 1992، ص172

② باولو فرايري : المقهورين،ص 38

بأنْ يكونوا متّبعين. بينما هم يرون أنفسهم سفهاء وتافهين، وصغارًا عاجزين، لا عقل لديهم ولا حكمة، فحريٌّ بهم أن يكونوا للسادة والكبراء أشياعًا وأتباعًا..

« و لقد استمدّ المقهورون هذه الحقيقة من استنباطهم لآراء القاهرين المتأصلة في نفوسهم، فكثيرًا ما يسمعون عن أنفسهم أنهم لا يصلحون لشيء، و لا يعلمون شيئًا، و ليس لهم الاستعداد لتعلّم أيّ شيء، و أنهم كسالى ومرضى و غير منتجين. ولكثرة ما تُرَدّد هذه الأقاويل في مسامعهم يقتنعون بها و يفقدون --بالتالي- الثقة في أنفسهم، والأغرب أنهم يزدادون ثقة بقاهريهم، الذين يمثلون في نظرهم المعرفة والقدرة على تسيير الأمور» ①. من هذا المنطلق النفسي العميق، يستعذب الأتباع التبعية، ويجدون فيها راحة من ذلك القلق الذي تثيره الرغبة في الحرية و الإنعتاق. كما أنها تضع عنهم أعباءً و تعفيهم من تكاليف الإلتزام الرساليّ و الإجتماعي، الذي غالبًا ما ينتج على ما لا تحمد عقباه من المواقف والنتائج.

هـ - تبعية الترف:

ممّا لا شك فيه أنّ المال هو رمْزٌ لطاقة إنتاجية حاصلة ضمن فضاء اجتماعي إنساني. وكل فرْد يسعى إلى امتلاك هذه الطاقة أو الاستزادة منها ظنًّا منه أن ذلك أضمن للبقاء، وهذا المال عندما تحركه نفسيات ليست على مستوى مقبول من التربية وحسْن تصوّر، بالضرورة سوف يتكدس في جهة وينحسر عن جهة أخرى، ليشكل ضبيعة اجتماعية مبنية على الصراع، ومزاجًا عامًّا قوامه التباغض والتحاسد والتربص، لتنشأ بعد ذلك علاقات اجتماعية قائمة على العدوان و الإستغلال. وكل المجتمعات ذات الرؤية القاصرة، والتصوّرات المحدودة الضيقة « لا تنظر إلى الحياة إلاّ من خلال شوطها القصير الذي ينتهي بالموت. و لا تدرك ذاتها ومتعتها إلا من خلال إشباع ما لدى الإنسان من غرائز وشهوات، وهي على هذا الأساس تجد في المال -بوصفه مالا- وفي تجميعه وادّخاره و التنافس فيه الهدف الطبيعي الذي يضمن للإنسان القدرة على امتصاص أكبر قدر ممكن من الحياة، و تحديدها نوعيًّا وكميًّا، أي على الخلود النسبي بقدْر ما تسمح به إمكانات الحياة المادية على الأرض.
و كان هذا التصوّر للحياة ودور المال في تحديدها هو الأساس لكل ما زخرت به المجتمعات الجاهلية من محاولات الاستزادة و التكاثر و ألوان التناقض و الاستغلال. » ②

و عندما يسود التصور الخاطئ للمـــال وسط المجتمع، فإن العلاقات الإجتماعية يتسرّب إليهـــا الخلل، و تفقد طابعها الإنساني بين مَن يملكـــون و مَن لا يملكون، وتصير علاقـــة سيد بعبد، و مستكبر بمستضعف، و تابع بمتبوع. و يصير عامة الناس يرون في صاحب المال نموذجًا للإنسان الكامل الجدير بالإحترام و الإتّباع. فهؤلاء الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى، اعترضوا على أن يكون "طالوت" ملكًا عليهم، رغم أن تعيينه

① م.ن : ص 24
② محمد باقر الصدر : الإسلام يقود الحياة، ص 34

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ربّاني، لأنه لا يملك المال الوفير: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ ﴿البقرة:147﴾.

و صاحب المال -في منظور الناس- هو الذي يملك القدرة على أنْ يفعل ما يشاء، وأن يحقق ما يطمح إليه من ليونة العيش وهناء الحياة، فيصير أسوة وقدوة لكل مَن يرجو ليونة في العيش وهناءةً في الحياة. قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿يونس: 88﴾.

و يكون الإضلال -حسب سيد قطب- « إما بالإغراء الذي يحدثه مظهر النعمة في نفوس الآخرين، وإما بالقوة التي يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم. ووجود النعمة في أيدي المفسدين لا شك يزعزع كثيرًا من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أنّ هذه النعمة ابتلاء واختبار، وأنها كذلك ليست شيئًا ذا قيمة إلى جانب فضل الله في الدنيا والآخرة. وموسى يتحدث هنا عن الواقع المشهود في عامة الناس، ويطلب لوقف هذا الإضلال، ولتجريد القوة الباغية المظلة من وسائل البغي والإغراء أن يطمس الله على هذه الأموال بتدميرها والذهاب بها. » ①

و نفس الدعاء رفعه من قبل "نوح" عليه السّلام، لَمّا رأى أن عامة الناس تنفضّ من حول الحق العاري من الزخرف و الرياش، لتتّبع الباطل و المبطلين و هم يتمرغون في النعيم و الثراء: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿نوح:21﴾.

ثم إن الجماهير العريضة تنتقل من تبعية أصحاب المال، إلى تبعية الأوضاع و العـــادات و السلوكات و المظاهر المترفة التي يخلقها المال، فتأسر عقولهم و ألبابهم المظاهر العامة التي تحيط بالمستكبرين، و الأجواء المنعمة التي يتحركون فيها، و يرون في ذلك علامة قوة و اقتدار، بل وآية من آيات رضا الله ! فيمضون في تقليد أحوال المترف وعوائده ما استطاعوا، و إنهم ليجدون في سبيل ذلك مشقة وعنتا، فأنى لمستضعف كادح أن يجد الوقت و الراحة و النعمة وأنى له أن يجد ما يسدّ به إلْحاح الرغبات و الشهوات المنحطة، و هو الذي بالكاد يحصّل لقمة الخبز؟!. لكنّ ضعفهم النفسي والإيماني.. يجعلهم لا يصمدون أمام مظاهر النعمة والترف، « و في كل زمان ومكان تستهوي زينة الأرض بعض القلوب، وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا، ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى و أكرم منها، فلا يسألون بأيّ ثمن اشترى صاحب الزينة زينته ؟، و لا بأيّ الوسائل نال ما نال من عرض الحياة ؟ من مـــال أو منصب أوجاه؛ و مـــن ثم تتهافت نفوسهم و تتهـــاوى كما يتهافت الذبـــاب على الحلـــوى و يتهاوى !، و يسيل لعابهم على ما في أيدي المحظوظين من متاع.» ②

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد3، الجزء11،ص 1817

② سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد5، الجزء 20،ص2713

و المستكبرون عندما يضعون جماهير الناس في مواجهة ما هم عليه من مظاهر الترف والنعيم، إنما يقصدون من وراء ذلك إيجاد خاو، مقهور العواطف مبهور الأحاسيس، إنسان لا يغايرهم و لا يشابههم، إنما يتبعهم هوى، ويتبعهم اعتقادًا، دون أن تمكنه وضعيته الاجتماعية أن يصير مثلهم ترفًا ومقامًا، ودون أن تتركه شهواته ييأس مما في أيدي المترفين، فيبقى تابعًا ذليلا، في وضعية "المسخ"، فلا هو أبقى على صورته الأصلية، ولا هو اكتسب الصورة التي يطمح إليها. إذن فالمقصد الإستراتيجي للمستكبرين -أشخاصا أو أجهزة- و هو تشويه "إنسانية" المستضعفين و إلغاء شخصيتهم، حتى يسهل عليهم تمييعها و تذويبها في "الشخصية النموذجية" للمستكبرين.

و بفضل الضغط النفسي الذي تحدثه أوضاع الترف في النفسيات المستلبة، يصير المستكبرون معيارًا للقوة والحق والجمال والذوق، وقد قال الله تعالى في شأن هؤلاء جميعا: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿هود:116﴾. وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ ﴿الإسراء:16﴾.

و طبيعي جدًّا، بل حتميّ أن تهلك أمّة تستسلم لأوضاع الترف، وتسخرّ ضروريات الأمة خدمةً لكماليات فئة قليلة مترفة، وتصير الأمة كلّها تبحث عن الراحة المجانية والكسل الناعم، رغم أن تكاليف هذه الراحة وهذا الكسل وباقي عوائد الترف مكلفة جدًا، « و المترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين، الذين يجدون المال ويجدون الخدم، ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة، حتى تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجانة، وتستهتر بالقيم والمقدسات و الكرامات، وتلغ في الأعراض و الحرمات، و هم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فسادًا، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وارخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها و لها. ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، و تفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها. » ①

و يضرب لنا القرآن الكريم مثلا عن انبهار بسطاء الناس بالذي يملك المال ومظاهر الترف، إنه "قارون" ذلك الغني المترف، الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتيحه لتنوء العصبّة أولي القوة، وكيف أنه خرج ذات يوم على قومه في كامل أبهته وزينته، فتعلقت به العيون والقلوب، والمشاعر والأرواح وكلّ يتمنى أن له مثل ما "قارون". قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ﴿القصص:79﴾. « إنه يريد أن يبهر الأنظار بزينته، لتظل العيون معلقة به، مشدودة إليه، تتفحصه بنظراتها المسحورة و لفتاتها المبهورة. ويبقى المستضعفون البسطاء من قومه خاضعين للإحساس العميق بعظمته و مكانته من خلال معرض الزينة و الثروة الذي يتجدد في كل يوم، ليجدّد لديهم الخضوع

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد4، الجزء 15، ص2217

و الخشوع للثريّ الكبير، و الرجل الخطير، و يتحقق له ما يريد في هذا الإستعراض، و تنشدّ الأنظار إليْه، ويقف القوم صفوفًا صفوفًا مبهورين مسحورين في تفكير مشبع بالدعوات و التمنيات.» ①

و- تبعيّة الفواحش والشهوات:

لاشيء يوشك أن يلغي العقل كالشهوات إذ لا شهوة مع العقل، ولا عقل مع الشهوة، فكلاهما يمتدّ على حساب الآخر، وقديما قيل: "إذا أقبل أمر الدولة كانت الشهوات في خدمة العقل، وإذا أدبر أمرها كان العقل في خدمة الشهوات"، إذن، فالمقصود من إشاعة الفواحش والشهوات هو تغييب العقل، هو أن تمتلئ الذات باهتمامات وتطلعات بهيمية منحطة، تدور في جو الشهوات الدّنس الوطيء، حيث تنطلق الغرائز فيه متحرّرة من كل وازع ديني أو أخلاقي أو رادع اجتماعي، فتضطرب القلوب، و تهتاج الأعصاب، و تتوتر المشاعر، و يعمّ الخوف على الممتلكات والأعراض، و تفقد الحياة و قارها وقدسيتها، و يفقد الوجود الاجتماعي رساليته، ليصير الجميع -بطريقة أو بأخرى- إمّا صيادًا، و إما طريدة !.

لينصرف بعدها المستكبرون إلى شؤونهم ومخططاتهم، قد أمنوا من مراقبة المستضعفين وردّ فعلهم، بعدما استسلموا لخدر الشهوات و سحر الفواحش.

يقول الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ ﴿النساء:27﴾. ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿النور:19﴾.

و في تفسير الآية الأولى، يقول الشهيد "سيد قطب": « و أما ما يريده الذين يتبعون الشهوات، فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال: ديني أو أخلاقي، أو اجتماعي... يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح، من أي لون كان. السعار المحموم الذي لا يقرّ معه قلب، ولا يسكن معه عصب، ولا يطمئن معه بيت، ولا يسلم معه عرض، ولا تقوم معه أسرة. يريدون أن يعود الآدميون قطعانًا من البهائم، ينزو فيها الذكران على الإناث بلا ضابط إلاّ ضابط القوة أو الحيلة أو مطلق الوسيلة ! كل هذا الدمار وكل هذا الفساد، وكل هذا الشر باسم الحرية، و هي- في هذا الوضع- ليست سوى اسم آخر للشهوة و النزوة. » ②

أما الأستاذ "مالك بن نبي"، فيرى أنّ الدعوة إلى تبعية الشهوات في أي شكل كانت، يؤدي إلى تضخّم "الأنا"، هذا المرض الذي يؤدي إلى تفكك المجتمع لصالح الأفراد، ولحظتها يصعب التفكير الجماعيّ، والعمل الجماعيّ، وهذا يؤدي إلى تفكك شبكة العلاقات الاجتماعية، وبالتالي انهيار المجتمع « وكلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معيّن حدث تمزّق في شبكة العلاقات التي تتيح له أنْ يصنع تاريخه. بـــل إنّ

① محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن، ص244

② سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد2، الجزء 5، ص631

محْدثي مثل هذا الإخلال، أولئك الذين يدعون -مثلا- إلى حرية الأخلاق من أجل التقدم، ليسوا في أعماق نفوسهم سوى أطفال استثارتهم حواسهم، وهم لا يرتابون لحظة فيما يجرونه على المجتمع من أخطار ه.... فهم يلعبون بحواسهم كما يلعب الأطفال بأعواد الكبريت دون أن يشكّوا في أنهم يتركون حيث يلعبون بوادرَ حريق يلتهم المدينة بأسرها. » ①

و في موضع آخر ② يرى الأستاذ "مالك بن نبي" أن إشاعة الفواحش والشهوات، هو أداة فعّالة في يد المستكبرين بغرض "التلويث الأخلاقي"، الذي يستتبع بالضرورة تخريب العقول، و شل الإرادات و الانحراف بالمواهب والطاقات المبدعة، و ليْس أصدق من التعبير القرآني في التعبير عن هذه الوضعية حين سمّاها "الميل العظيم"، فالذي يتبع الشهوات يميل عن خط إنسانيته الصاعد، و يميل عن خط الأخلاق المتسامي، و يميل عن خط الأفكار و المبادئ الذي يعطي للوجود قيمة و للحياة رسالة.

كما أنّ الجو الاجتماعي الذي تعبق فيه رائحة الفواحش والشهوات، وما يقرّب إلى الفواحش والشهوات من قول أو عمل، هذا الجوّ قَلما يكون صالحا لنموّ الأفكار الصالحة المتسامية، أو الأفكار الثورية الانقلابية « و لهذا السبب نجد الأيدي المأجورة الكافرة والمنحرفة تعمل جهدها على تهيئة الأرضية المساعدة للفساد الأخلاقي والعملي لأجل انتزاع الفكر الراقي من الأمة وتضعيفه بشتى الوسائل التي يملونها لتلويث المحيط الاجتماعي. وبعبارة أخرى، فإن الغرق في الشهوانية واللامسؤولية، يشكل أحد موجبات الاتجاه الفكري الماديّ. فالمادية الأخلاقية لا تقوم إلاّ على أساس عبثية الحياة، وليست الحياة الدنيا إلا صبابة يجب أن تُغتنم في مجالي اللذة، وليس له فيها أي وجهة نظر أخلاقية.» ③

و طبيعي جدًّا أن تنهار الحياة وينقبض مداها في المجتمعات ذات الرؤية الشهوانية، ذلك لأن كل القيم والكمالات الإنسانية التي تدفع الحياة قدُمًا، تكون قد ضمرت أو شرعت في الانقراض، مثل: الشجاعة، الشهامة، الشرف، التضحية ، الكرم والإيثار، العزة، الحرية، العدالة، وكل من يتمسك بهذه القيم في مثل هذا الجو الإجتماعي الموبوء، يكون مثار شفقة أو سخرية من الآخرين باعتباره رجعيا، أو مثاليا واهمًا فوق اللزوم.

المبحث الثالث : نشأة الجاهلية

لقد استقر في أذهان الناس -بحكم التفسير التراثي للقرآن- أنّ «الجاهلية» مرحلة تاريخية عاشها العرب قبل الإسلام، كانوا خلالها لا يعبدون الله، ولا يوقّرون الحياة، و لم تستطع القيم والتصوّرات التي كانوا عليها

①مالك بن نبي : ميلاد مجتمع. ت: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق 1985، ص49

② مالك بن نبي: في مهب المعركة ، ص 78

③مرتضى المطهري : الدوافع نحو المادية. ت: محمد علي التسخيري ، طهران 1402، ص100

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عاكفين، أن تجعلهم أمة واحدة ذات حضور في التاريخ البشري آنذاك.

و لكن، بحكم أن القرآن تبصرة و هدى و تشريع للعالمين إلى آخر الزمان، فإن كل ما فيه من نماذج تاريخية، و نماذج بشرية قابلة للتجدّد و الانبعاث؛ بل إنّ القرآن الكريم، قد وسع الحياة المتجددة المتحركة بما فيه من أمثال، يكفي للدارس أن ينزع عنها ظلال الزمان و المكان و الظروف المتصرمة، ليجدها حيّةً ماثلة بين يديه، قد استوعبت عصره و ظروفه، وتمثلت كل ما يتحرك في الأنفس و الحياة.
يقول الله تعالى: ﴿ و لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ﴿الروم: 58﴾

و يقول "سيد قطب" في تفسيره لهذه الآيات: « و ينطوي الزمان والمكان، فإذا هم مرّة أخرى أمام القرآن، وفيه من كل مثل، وفيه من كل نمط من أنماط الخطاب، وفيه من كل وسيلة إيقاظ القلوب والعقول، وفيه من شتى اللمسات الموحية العميقة التأثر، وهو يخاطب كل قلب وكل عقل في كل بيئة وكل محيط. وهو يخاطب النفس البشرية في كل حالة من حالاتها، وفي كل طور من أطوارها. » ①

و قد وردَ في كتاب "مجمع الأمثال" للميداني، تعريف لطيف للمثل، نسوقه في هذا المقام ليزيد المعنى وضوحًا: « المثل المأخذ من المثال. و هو قول سائر يشبّه به حال الثاني بالأول، و الأصل فيه التشبيه(...) وقال "ابن السكيت": المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ، شبهوه بالمثال الذي يعمل عليه غيره(...) وقال إبراهيم النظام: يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسْن التشبيه، و جودة الكناية. فهو نهاية البلاغة. و قال ابن المقفع : إذا جُعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق، و آنق للسمع و أوسع لشعوب الحديث. » ②

يبدو أنّ هذه المقدمة كانت ضرورية، للحديث في شأن "الجاهلية" والقول: إنها ليست فترة من فترات مضت، وليست وضعية اجتماعية أو سياسية أو ثقافية، كانت عليها قبائل العرب قبل الإسلام، وليست وثنية دينية، أعطت للمجتمع العربي قبل الإسلام ملامح باهتة مضطربة، تصنع الفوضى تفاصيل حياتها. ليست الجاهلية هذا فقط، لكنها حالة معرفية، ومنطق تصوّري، ونسق إيديولوجي يسعى من أجل إيجاد اللحمة الإجتماعية بين أفراد، بعيدًا عن منهج الله وشرعه. فالناس دائمًا في وضعيتين، إمّا في إسلام حين يخضعون لشرع الله و معايير دينه تصورًا و سلوكا و نزوعًا و حكما، و إما في جاهلية حين يخضعون لِمَا دون ذلك تصورًا و سلوكا ونزوعًا وحكما.

من هذا المنطلق، يكون الحديث عن جاهلية هذا العصر–مثلا– و عن جاهلية العصور التي ستلحقه ليس موقفا أصوليا متطرّفًا، و لا هو تشدد في الدين، أو تعصّب له، إنما هو إسقاط أو إنزال حقيقي لقيم القـرآن

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 21، ص2777
② الميداني: مجمع الأمثال، المجلد الأول، دار مكتبة الحياة، بيروت 1985، ص13

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومفاهيمه على العصور المختلفة والظروف المتباينة، وما دون ذلك، فهو تغييب للنص القرآني عن حياة الناس.
يقول "سيد قطب" في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿المائدة: 50﴾

« إن الجاهلية -في ضوء هذا النص- ليست فترة من الزمان، ولكنها وضع من الأوضاع. هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غدًا، فيأخذ صفة الجاهلية، المقابلة للإسلام. » ①

لكنْ، قبل الخوض في الدلالات الاجتماعية و النفسية للجاهلية، يستحسن أن تُعَرّف لغويًا، فهي مأخوذة من المصدر "جهل" و « الجهْل= نقيض العلم(...) والجهالة أن تفعل فعْلاً بغي علم(...) تجاهَلَ= رأى من نفسه الجهل، وليس به، و استجْهله عدّه جاهلا، و استخفّه أيضا(...) وفي حديث ابن عباس أنه قال: مَن استَجْهَلَ مؤمنا، فعليْه إثمه. قال ابن مبارك: يريد بقوله « من استجهل مؤمنا أي حمله على شيء ليس من خلقه(...) و الجاهلية= زمن الفترة و لا إسلام(...) و الجهل= المفازة لا أعلام فيها و أرض مجهل= لا يُهتدى فيهــا (...) و أرض مجهولة= لا أعلام بها و لا جبال، وإذا كان بها معارف أعلام فليست بمجهولة(...) وكل ما استخفّك فقد استجهلك. » ②

نستنتج من هذا التعريف اللغويّ أن لفظ "الجاهلية" ذو دلالات شتى، وظلاَل تزيد عمّا استقر في أذهان الناس. فهي تعني عدم العلم والمعرفة، كما تعني الخروج عن الخُلق السويّ القويم، كما تعني الاستخفاف أو استفراغ الشيء من محتواه، واستخراجه من حالة، ومن وضْع إلى وضْع. كما تعني غياب معالم الاهتداء.
و من ثمّ تكون الجاهلية هي حــالة الاستلاب أو الاغتراب "ALIENATION" التي يتــورّط فيها الأفــراد، و تتورّط فيها الجماعات، عن طريق استدراج و تخطيط، تقوم به هذه الجهة أو تلك.
كما تعني حالة فقد معنويّ أو قيميّ يبوء به الفرد أو تبوء به الجماعة، ليصير غريبا عن ذاته ومستلبا. [...] أي تكون الجاهلية كــل وضعية سياسيــة أو اقتصادية أو ثقافية أو تصورية، يفقد فيها الإنسان أصالته وكرامتــه، و تُسلبُ منه مركزيته الوجودية، ليصير هامشيا، مكمّلا لعالم الأشياء، و خادمًا للحاجات، و نكِرةً في فوضى الآلات وبرامج الإنتاج، ليصير تابعًا للآلة عضلة وعصبا وفكرا.

و يعدّ مفهوم "الاستلاب" أو "الاغتراب" من بين المفاهيم الكثيرة، التي يتداولها الدارسون، حين يتطرقون لعلاقة الإنسان بالكون كقيمة أصلية و محورية في هــذا الوجود. فكلهم – على اختلاف مشاربهــم و مواقفهم- يجمعون على أنّ الإنسان يعاني استلابًا و يشكو اغترابًا جرّاء فقدانه لمركزيته في حركة الوجود، وأصالته في فوضى الأشياء.

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد2، الجزء2، ص904

② لسان العرب : مادة "جهل"

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

« و في الماضي كما في الحاضر، نجد أن استخدامات هذا المفهوم متعددة على نحو ملفت للانتباه إلى حدّ أن مفهوم الاغتراب بات يخدم في توصيف أشدّ الظاهرات تباينًا و تنوّعًا في ميدان الاقتصاد و السوسيولوجيا و علم النفس، إلى جانب الفلسفة واللاهوت، ابتداء من الحرمان من الملكية، إلى العمل القسري، زمن عبادة المال إلى الأمراض النفسية، و من القلق إلى السلبية السياسية، و من التمرّد إلى ضعف الإيمان، و من الغربة عن الله في اللاهوت إلى غربة الفرديّ عن الاجتماعي في الفلسفة.» ①

إن مفهوم "الاستلاب" " ALIENATION" -ذي الجذر اللاتيني لغويًا، والبروتستانتي من حيث التوظيف المذهبي والفكري-، يوحي بنفس القيم و المفاهيم و الدلالات التي يوحي بها مصطلح "الجاهلية"، عندما نحرّره من أسْر المفهومات التاريخية و الفقهية؛ فكما تعني "الجاهلية" الضلال، الاغتراب، الاستخفاف، الفقد والاستلاب، فإن مصطلح "الاستلاب" "ALIENATION " يعني : الاغتراب، الضلال، الفقد، التخلي، التنازل عن ..... الانفصال عن ...

• إن الطرق التي يتم بها استخفاف الناس واستفراغهم، هي ذات الطرق التي يتمّ بها السلب، والدفع إلى التنازل والتخلي والانفصال.

و لم يجد "مارتن لوثر" من مصطلح أشمل في التعبير عن الحالة التي يعيش فيها الناس بعيدين عن الله وتعاليمه، من مصطلح "ALIENATION" الذي يعني "الاغتراب": « و نقرأ في ترجمة "لوثر": جعلهم غرباء عن حياة الله لقساوة قلوبهم » ② . و هؤلاء الأغراب عن حياة الله -أو عن الحياة وفق تعاليم الله- هم "الجاهليون" بالمصطلح القرآني، الذين خسروا أنفسهم، أي فقدوها وتخلّوا عنها مقابل عرض تافه، وصاروا أغرابًا عنها مقابل ثمن زهيد بالقياس إلى ما دفعوا أو ما فقدوا، و إن الذي يخسر نفســـه - التي بها قوام كيـــانه و شخصيته و أصالته- لن يربح بعدها أي شيء، لأنه في كدّه وكدحه إنما يفعل ذلك من أجل نفسه، حتى إذا خسرها فقد التطلع إلى ما وراء الشروط الموضوعية، و العالم الوطيء الذي يعيش فيه ككائن بيولوجي، رغم أنه (الإنسان) كائن ما ورائي، وبالتالي يفقد كرامته و أصالته، و مركزيته الوجودية.

يقول الله تعالى: ﴿ و مَنْ خفَّتْ موازِينُهُ فَأُولَئكَ الَّذينَ خسِرُوا أنفُسَهمْ في جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:103]،
و يقول سبحانه: ﴿قلْ إنَّ الْخاسِرينَ الَّذين خسرُوا أنْفُسهُمْ وأَهْليهمْ يوْمَ الْقيامةِ أَلا ذَلكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبينُ﴾ [الزمر:15].

و يقدّم لنا القرآن الكريم نماذج متحرّكة ممتلئة بالحيوية و الحياة عن أشخاص و جماعات تعيش حالة الجاهلية و الاستلاب، فيقدم ما ينتابها من قلق و حيرة و اغتراب بكلمات هي أقرب للألوان و الظلال، بحيث

① فالح عبد الجبار: من تاريخ مفهوم الاغتراب: مجلة الفكر الديمقراطي العدد 11، 1995، ص 146
② م.ن : ص148

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أن القارئ الذكيّ غير المطموس، ليستطيع أن يرى الجاهلية و الجاهلين في فوضى الاستلاب وتيه الإغتراب.
يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:71].
يقول سبحانه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر:29].
و يقول جلّ من قائل: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:31].

فهذه النصوص القرآنية وغيرها تصوّر الفرد المستلَب -ومن ورائه المجتمع المستلَب الجاهليّ- وهو يعيش الحيرة والقلق موزّعا بين أهواء شتى ونوازع مختلفة، قلّما يهتدي إلى نفسه و ذاته، قلما يجد إليها سبيلا، فهو حائر بين آلاف السبل التي ترتسم أمام خطاه، و آلاف النداءات التي تطرق سمْعَه في إلحاح، وآلاف المشاهد ترتعش أمام ناظريه كالسراب !.. فأي عذاب نفسيّ هذا الذي يطبق على روحه و ضميره !! خاصة بعدما هوى من أفق الإيمان ورفعة اليقين إلى مهاوي الشك و القلق، حيث لا ثبات و لا استقرار، يقول سيد قطب في تفسيره للآية التاسعة و العشرين من سورة "الزمر": « يضرب الله المثل للعبد الموحّد و العبد المشرك بعبْد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضًا فيه، وهو بينهم موزّع، ولكل منهم فيه توجيه، ولكل منهم عليه تكاليف، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج، ولا يستقيم على طريق، و لا يملك أن يرضى أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزّق اتجاهه و قواه، و عبد يملكه سيد واحد، و هو يعلم ما يطلب منه، و يكلفه به، فهو مستريح مستقر على منهج واحد و صريح.» ①

و ما ينطبق على فرْد يعيش جاهلية واستلابًا ينطبق على جماعة أو أمّة تعيش نفس الحالة والوضعية، إذْ قلّما تستقر أمّة لا تركن إلى تصوّر واحد و منهج واحد وشريعة واحدة، إذ تصير نهْبًا لإيديولوجيات مختلفة وتصوّرات متنافسة متشاكسة و شرائع متصارعة. ولحظتها تصير الجاهلية هي اشتراك جملة هذه التصورات و مجموع هذه الشرائع و الإيديولوجيات -على ما بينها من تناقض و اختلاف- في تشكيل إيديولوجية واحدة، وتحديد اتجاه واحد، رغم أنها ذات اتجاهات مختلفة!
قال الله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:138]. فكلمة "تجهلون" هنا، حسب المفسرين بمعنى "تشركون"... وحيثما تكون الجاهلية يكون الشرْك، حتى و لو في أخفى صوره، حيثما يكون الشرك تكون الجاهلية حتى و لو في إهاب المدنية و أقنعة الحضارة، و في هذا السياق يرى المفكر مالك بن نبي: « أن القرآن

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد5، الجزء24، ص3049

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الكريم قد أطلق اسم الجاهلية على الفترة التي كانت قبل الإسلام، ولم يشفع لهم شعر رائع وأدب فذّ من أنْ يصفهم القـــرآن بهذا الوصف، لأنّ التراث الثقافي العربي لم يكن يحوي سوى الديباجة المشرقة الخالية مـــن كل عنصر (خلاّق) أو فكر عميق. وإذا كانت الوثنية في نظر الإسلام جاهلية، فإن الجهل في حقيقته وثنية، لأنه لا يغرس أفكارًا، بل ينصّب أصنامًا، وهذا هو شأن الجاهلية (...) ومن سنن الله في خلْقه أنه عندما تغرب الفكرة يبزغ الصنم والعكس صحيح أحيانا. » ①

المبحث الرابع : بين الجاهلية والمدنية

ارتبطت "الجاهلية" في الأذهان بالتخلّف والبداوة، والحياة البسيطة التي لا نصيب لها منْ مدنية و لاحظّ ذا من حضارة، وما عادوا يستطيعون أن يتصوّروا أن مجتمعا متمدّنًا أو متحضّرا قد يكون جاهليا، رغم أن القرآن الكريم يحدّثنا أنّ كثيرًا من الأمم التي يصمُها بـ: "الجاهلية" كانت على حظّ وافر من الحضارة، و ذات نصيب كبير من مظاهر القوة وفنون العلم.

يقول الله تعالى: ﴿ فلمَّا جاءتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالْبيِّنات فرحُوا بمـا عنْدهـُمْ منْ الْعلْمِ و حــاقَ بِهِمْ ما كانُوا به يسْتهْزِئون﴾ ﴿غافر:83﴾، و يقول سبحانه: ﴿ فأمَّا عــادٌ فاستَكبرُوا في الْأَرْض بغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا منْ أشَدُّ منَّا قوَّةً﴾ ﴿فصلت:15﴾.

إنه الافتتان بالعلم والقوة، كان قديمًا ومازال حديثا، إنها نفس الكلمات يكرّرها كل عصر وكل قرن، وفي كل مرحلة يظن الإنسان أنه قد حاز من العلم و القوة ما يكفيه اللجوءَ إلى الدين و الأخلاق، ولماذا الدين والأخلاق، مادام الإنسان قادرًا على أن يفسّر كل شيء، وأن يؤثر في كل شيء؟!.

و هذا الظن الخاطئ كفيل بأن يجعل الإنسان يفقد علاقته السويّة اتجاه ما يصنع و يبــدع، فتتضاءل كرامته و قيمته و أصالته أمام ما يركم و يكدّس من أشياء، و هذا ما نراه واضحًا جليًا في حضارة عصرنا، « فحيث تبرز التنمية للمرة الأولى في التاريخ بوجهها المادي التراكمي، يتغضّن وجه الإنسان، وهو مشتبك في تروس خط الإنتاج العصريّ، ويلهث وراء إيقاعه الحديدي الرتيب، بينما يسلب المعنى الروحي الداخلي لعلاقته بقوة عمله، وتقمع مادته الإنسانية الحية خضوعًا لمتطلبات ذلك الإيقاع الصادم للعملية الإنتاجية الحديثة التي لا تعترف إلاّ بقانون المادة الفيزيائية. » ②

و إذا كانت الجاهلية أو الاستلاب، تقوم أساسًا على استخفاف الإنسان وسلبه كل مقوّمات أصالته وكرامته، و لما ترى أن الإنسان يصير خائفًا و مخيفًا بحكم حالة الاغتراب و الفراغ التي تعيش، فإنها تسْعى إلى

① مالك بن نبي: شروط النهضة، ص30

② نبيل مرقس : الجوهر الخلاقي لظاهرة التنمية: مجلة الحوار، العدد3، السنة 1-1972، ص 164

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مذ‌ا‌هب "بدائل موضوعية" كثيرًا ما تزيد في ضلال الإنسان واغترابه، كأن تسعى –مثلا– إلى معالجة الميل الفطري نحو "الغيبي" للإنسان، بأن تبسط أكثر سلطة العقل لينتج ما يستطيع من وهم وخرافة، أو عبث وجنون، وهذا ما هو ملاحظ في المدنية الحديثة، إذ أنها ركزت « على سيادة العقل، غير أنها تولّد الجنون و العبث. و عملت على تخليص الفكر من سلطة الغيب و الماوراء، غير أنها اصطنعت من حيث لا تدري آلهة جديدة. و تمحورت حول الإنسان إلاّ أنها تركته فريسة لأهوائه و لعبه، و تطلّعت إلى تحرير الإرادة، إلا أنّها أفضت إلى مزيد من القيود و الأغلال. و كذلك طوّرت حضارتنا استخدام التقنية على نحو لم يسبق له مثيل، غير أن الإنسان أصبح امتدادًا للآلة بدلاً من أن تكون هي امتدادًا له. و رمت من خلال الانطلاقة العلمية الجبارة إلى السـ... ـلى الطبيعة والانتفاع بها، غير أنها توشك أن تدمّر هذه الطبيعة و تفسدها. » ①

و طبيعيّ جدًّا أن يشعر الفرد في المجتمع الجاهليّ إنه غريب عن ذاته وعن الآخرين، لتصير مقولة "الآخرون هم الجحيم" عاكسه بصدق وشفافية وعمق لإحساس الفرد في هذا المجتمع، كما أنّ شعور الفرد بالاستلاب تجاه المؤسسات الاجتماعية، جعله ينحاز إلى كل جماعة أو فكرة أو إيديولوجية تسعى إلى تقويض هذه المؤسسات أو الحد من سلطاتها، بغية استرجاع ما سلبته منه هذه المؤسسات، فتكون الثورة والتمرّد والتوتر الاجتماعي والأمراض النفسية وغير ذلك من العاهات و الشذوذ الذي تحبل بها الجاهليات على اختلاف أعصارها وأمصارها.

و هذه الفكرة ذاتها يلاحظها الدكتور "عليّ حرب"، فيقول: « و بينما كان عالم البداوة حيث فقر الطبيعة و حدتها يتسم بتألّق الفردية وتكامل الشخصية وغنى الدلالة، نجد بالمقابل تقلص حرية الفرد و إلغاء دوره واغتراب الشخص الإنساني في العالم التكنولوجي، حيث تتكدس كُتَل الأحجار والصفائح، وتزداد هيمنة المؤسسات والقرارات، وتطغى منظومة الأرقام والأزرار، وإنه لمن الغريب والمأساويّ أن الإنسان كلّما تطوّر عالمه الحضاريّ والتكنولوجي أقفرت إنسانيته.» ②

و الحقيقة إن إنسانية الإنسان الموصول بالله، لا تقفر مهما كان حظه من الحضارة كبيرًا و نصيبه من المدينة موفورا، إنما تقفر إنسانية المقطوعين عن الله، المطموسين عن آياته البيّنات الباهرة، وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثلا نبي الله "سليمان" عليه السلام الذي أتاه ربّه من الملك، مالا ينبغي لأحد من بعده، فهذا النبيّ عليه السلام راح ذات مساء يستعرض خيْلاً كريمةً وجيادًا أصيلة، قد استغرق بكل مشاعره وأحاسيسه في ذلك الاستعراض، الذي لا يخلو من جمال وزينة وترف، حتى نسي وقت صلاته و عبادته، و لما انتبه من هذا الاستعراض أحسّ بالندم على ما كان منه من تفريط العبادة، فقال : ردوها عليّ، فـردّت عليه جميعها فطفق يضرب السوق منها

① علي حرب: نحو إعادة قراءة لإشكالية التوحش/ التمدن، مجلة : دراسات عربية، العدد 4- السنة 19، 1983، ص 3

② م.ن : ص 15

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و الأعناق، لأنها شغلته عن ذكر ربّه، و لأنه يريد أن يزيح كل الحجب الدنيوية التي قد تقوم بينه و بين ربّه.
قال الله تعالى:﴿و وهَبْنا لداوُود سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ(30)إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (31) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجَابِ (32) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ و الْأَعْنَاقِ﴾ ﴿ص: 30-33﴾.

أما بالنّسبة لضمور الإحساس بالفرديّة تحت ضغط المؤسسات الإجتماعية، فإن ذلك حاصلٌ في كل جاهلية، سواءً كانت الجاهلية "بدوية" كجاهلية العرب، أو جاهلية "متحضرة" كجاهلية العصر الذي نعيش فيه. ويكفي مثالاً على هذا قول الشاعر العربي القديم:

"و ما أنا إلاّ من غزية إن غوتْ   غويتُ، و إن ترشدْ غزيةُ أرشدِ"

إن ارتباط "الجاهلية" بالعنف و القهر أمر أساسي فيها، و نتيجة حتمية لمنطلقات و مقدمات أصلية و جوهرية في بنيتها. بل إنها هي ذاتها كمصطلح - سواء في معناه العربي، أو معناه اللاتيني- تعني العنف والقهر.

إن الجاهلية - في نزعتها التملكية- تسلب الآخرين ما لا يحق لها أن تسلبهم، إياه، وما لا يحق لهم أن يتنازلوا فيه. و بيّن تلك النزعة التملكية، التدجينية، و نزعة الآخرين في عدم التخلي والتنازل، تبدأ الجاهلية في ممارسة العنف و القهر، « و يتضح من ذلك أنّ وجود علاقة تقوم على القهر، يعني بالضرورة وجود علاقة يسودها العنف، و لا نعرف في التاريخ كله أنّ العنف قد بدأ به المقهورون، إذْ كيف يتصوّر أن يكونوا البادئين و هم في حقيقتهم نتاج ممارسة العنف ضدهم. بل كيف يمكن أن يبادر هؤلاء بالعنف، و العنف في حد ذاته عملٌ موّجه ضدهم، فمن المستحيل أن يكون هناك مقهور بدون أن يكون هنالك عنف قد مورس ضده.» ①

المبحث الخامس : مستويات الجاهلية

إذا كانت الجاهلية -حسبما مرّ معنا- ذات دلالة أعمق وأوسع ممّا تعارف عليه الناس -عامّة وخاصة- فإنها ذات مستويات متعددة، في نسق واحد عضوي متفاعل تام. هذا النسق ذو منطلقات وغايات، ولغة وشرائع وشعائر وغير ذلك ممّا تستلزمه المشاريع المجْتمعية.
وهذه المستويات أشارت إليها النصوص القرآنية الكريمة، التي تحدثت عن الجاهلية، وهي:

- **جاهلية التصوّر:**

و هذا المستوى الأول يمثل "البنية التحتية" للجاهلية في مختلف تمظهراتها وتجلياتها. لأنه حسب نوعية الرؤية الكونية و النظرة التصورية لله والكون ومن فيه وما فيه، تكون حركة الإنسان و حركة الجماعة البشرية

---
① **باولو فرايري: تعليم المقهورين، ص36**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وعاً وكمّاً و فعالية. و المركز الأساس في هذه الرؤية، أو التصوّر، هو المثل الأعلى الذي يسميه القرآن في بعض الحالات باسم "الإله"، لأنه يتسم بقوة تأثير و توجيه لا تكون إلاّ لمنْ يكون في مقام الإله.«و لهذا يعبّر عن كل من يكون مثلاً أعلى، كل ما يحتلّ هذا المركز، مركز المثل الأعلى، يعبر عنه "الإله"، لأنه هو الذي يصنع مسار التاريخ. حتى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾. عبر حتى عن الهوى بأنه إله، لأنه حينما يتصاعدُ هذا الهوى تصاعُدًا مصطنعًا فيصبح هو المثل الأعلى، و هو الغاية القصوى لهذا الفرد أو الذاك. فالمُثل العليا بحسب التعبير القرآني أو الديني هي آلهة في الحقيقة لأنها هي المعبـــودة حقّا، و هي الآمـــرة و الناهية حقا، وهي المحرِّمة حقّا، فهي آلهة في المفهوم الديني و الاجتماعي.» ①

و باعتبار أنّ هذه المُثل العليا. أو الآلهة حسب التعبير القرآني. هي الرّكن الأساس في أيّة رؤية حياتية، أو تصوّر وجوديّ، فإنه على قدْر حيويتها وشموليتها و وضوحها، تكون حيوية المجتمع و وضوحه و شموليتـــه و إذا كانت تلك الرؤية منحرفة، و ذاك التصوّر الوجودي ضالاً، فإن الأهداف والغايات تنحرف، وكذلك الإرادة والفكر و المشاعر، و ينحرف المحتوى الفحوى للإنسان، و المحتوى الفحوى للأمة، و بالتالي تنحرف الأمة و الحضـــارة و التاريخ. قال الله تعالى: ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:154]

فهؤلاء الطائفة الذين أهمّتهم أنفسهم، مازال تصوّرهم لله وظنهم به مشوبًا بتصوّر الجاهلية و مدخولا، إذْ من عادة آلهة الجاهلية أن تصارع الإنسان، و تكيد له وتمكر به، و تسْعى إلى إلحاق الضرر من خلال استدراجه و محاولة الإيقاع به.

يقول الله تعالى: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود:54]، فهذه الآية الكريمة توضّح ما سلف من القول، كون الإنسان الجاهليّ يخاف من إلهه أن ينتقم منه، و يسلّط الأوجاع والأوبئة والمصائب عليه. وتلك الطائفة التي أهمّتها أنفسها، مازالت على هذا التصوّر الجاهلي، أو على بعض هذا التصور الجاهلي، «هم في قلق وأرجحة، يحسّون أنهم مضيّعون في أمْر غير واضح في تصورهم، و يرون أنهم دفعوا إلى المعركة دفعًا ولا إرادة لهم فيها، و هم مع ذلك يتعرضون للبلاء المدمر، و يؤدون الثمن فادحًا من القتل و القرح و الألم .. وهم لا يعرفون الله على حقيقته، فهم يظنون بالله غير الحق كما تظن الجاهلية. و من الظن غير الحق بالله أن يتصوّروا أنه -سبحانه- مضيعهم في هذه المعركة، التي ليس لهم من أمرها شيء و إنما دفعوا إليها دفعًا ليموتوا و يجرحوا، و الله لا ينصرهم ولا ينقذهم، إنما يدعهم فريسة لأعدائهم.» ②

---

① محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص147

② سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد1، الجزء 4 ، ص 496

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و ما كان موقفهم مشينا إلى هذا الحد، ومنطقهم شاكًا وقلقًا ومضطربا إلى هذه الدرجة، إلاّ لأن تصورّهم لله، لم يغيّره ذلك الإيمان السطحي البسيط، الذي لم يلامس شغاف القلب، و لم يسْرِ مع الدم إلى كل الخلايا والمشاعر واختلاجات النفس والضمير.

فالظن مازال ظنًّا جاهليًا، و التصوّر باقٍ تصوّرًا جاهليا، و صفات الله وحضوره، مازالت تماهي صفات الإله الجاهلي وحضوره، فهم بعد لم يشربوا الإيمان النقي الذي يقرّ في كل أحاسيسهم أنّ الله وليّ الذين آمنوا، و أنه معهم بالحماية والنصرة والتأييد، وأنه يحبهم، ولن يجعل للكافرين عليهم سبيلا، وأنه لا يرضى لهم إلا الخير، وأنه أقرب إليهم من حبْل الوريد.

أكيدٌ أنهم لم يستطيعوا استحضار هذا أو بعض هذا، و لو أنهم فعلوا شيئًا من ذلك لتغيّر قولهم وتغيّر سلوكهم وتغيّر موقفهم.و أكيد كذلك أنهم استحضروا صورة الإله الجاهلي، الذي تقدمه الجاهليات المختلفة منصرفا عن خلقه، منشغلا بالتأمّل في جمال ذاته !.

وهذه الطائفة -في هذا الموقف- نموذج حيّ لطوائف شتى يكون تصورها لله خاطئًا، فيكون -بناءً على ذلك- موقفها خاطئا وسلوكها خاطئًا، وحياتها تكون خطأً متصلا، وليس في موقف القتال أو الجهاد فقط، إنما في كل المواقف التي تعترض الإنسان، فيحاول أن يفهمها أو ينسجم معها أو يقاومها.

- جاهلية النزوع(الحمية):

إنّ التصورّ الخاطئ ينتج -بالضرورة- نزوعًا خاطئا في قوته واتجاهه، لا يضبطه وعي ولا توجهه رؤيّة، قدر ما توجّهه تلك "الحمية" التي تحمي الإنسان، وتولّد فيه قدرًا من الطاقة، لا يختلف في قوة دفعه وتوجيهه عن الغريزة، و بالتالي فإن تلك الطاقة المتولدة عن "الحمية" لا تملك خاصية التجدد و الديمومة.

يقول الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلَهَا﴾ (الفتح:26)

من هذا النص القرآني الكريم نستنتج أن "الحمية" هي كل سلوك أو شعور يناقض السكينة والتريث، ويناقض التقوى ومتطلبات الإيمان.

و قد ورد في "لسان العرب" « ... و فلان ذو حميّة منكرة إذا كان ذا غضب وأنفه(...) و قال الليث: حميت من هذا الشيء أحمى منه حميّة، أي أنفا وغيظا، وإنه لرَجُلٌ حميّ= لا يحتمل الضيم، وحميّ الأنف. و في حديث معقل بن سيار= محميّ من ذلك أنفا، أي أخذته الحميّة، وهي الأنفة والغيرة. وحميت من كذا حميّة بالتشديد وحميّة إذا أنفت منه.» ①

① ابن منظور : لسان العرب ، مادة : حمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من خلال هذا التعريف اللغوي نستنتج أن "الحميّة" ليست حالة فكرية أو موقفا واعيًا يكون عليه الإنسان. إنما هي اندفاع حماسيّ وتشنج عاطفيّ، ينتج موقفا يغلب عليه التوتر والاضطراب، ويغيب عنه التبصّر والتفكير والتدبّر. وهو مصطلح لطيف بذاته، فالإنسان لا يتحرّك ولا يندفع إلاّ إذا سرت في مشاعره ونفسه طاقة ما، ناتجة عن عملية تحمية أو تحريض نفسي، يحرّك بعض المفاهيم والقيم والتصورات، التي تنتج -في حالة تحريكها- "حميّة" أو طاقة محركة ودافعة للإنسان الذي يعتقد في مجموع تلك المفاهيم و القيم و التصورات.

وحميّة الجاهلية هذه التي دفعت هؤلاء القوم إلى موقف مخالف لكل عرْف و اتفاق، كانت نتيجة لتفاعل قيم جاهلية التي هي التكبر و الصد و التعنت، و الفخر والأنفة و البطر و غيرها من قيم الجاهلية التي أنتجت هذه "الحميّة". « حمية لا عقيدة و لا منهج. إنما هي حمية الكبر و الفخر و البطر و التعنت. الحميّة التي جعلتهم يقفون في وجه رسول الله ﷺ ومن معه، يمنعوهم من المسجد، ويحبسون الهدي الذي ساقوه أن يبلغ محلّه الذي ينحر فيه. مخالفين بذلك عن كل عرف و عن كل عقيدة(...)
و قد جعل الله الحمية في نفوسهم على هذا النحو الجاهليّ لما يعلمه في نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له. فأمّا المؤمنون فحماهم من هذه الحميّة. و أحلّ محلها السكينة و التقوى.» ①

■ جاهلية السلوك :

لابد أنّ تفضي جاهلية التصور و النزوع إلى جاهلية السلوك، و ذلك لتلازم التصور و السلوك في كل عقيدة أو مذهب، و وجود علاقة جدليّة بينهما، فكما يفضي السلوك الجاهليّ إلى تصور جاهلي، كذلك يفضي التصوّر الجاهليّ إلى السلوك الجاهليّ. يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿الروم:10﴾.

فالسلوك السيّء (الجاهليّ) أفضى إلى تصور سيّء (جاهليّ)، و العكس صحيح، فلا يستطيع إنسان أن يعيش على تصوّر ربّاني وسلوك جاهليّ أو العكس، إذ لابد أن ينتصر طرف على طرف ليحصل الانسجام الذي لابد منه، « فإنفكاك المادية الأخلاقية عن المادية العقائدية، وإن كان ممكنا وواقعيا بكثرة إلاّ أنه ليس ظاهرة عامة يمكن أن تجعل أساسًا لحكْم معيّن، ذلك لأن الإنفكاك حالة غير طبيعية، و لن تدوم حالة تخالف الطبيعة والسير الطبيعي للأسباب والمسببات، فيحصل التلاؤم بالتالي بين السلوك و العمل و العقيدة، بأنْ يغلب أحدُ الطرفين الآخر، إمّا الفكر أو العمل. فقد يضحي بالفكر في سبيل العمل و قد يكون العكس.» ②

و بحكم أنّ الجاهلية لا ترضى أن تبقى أفكارها ومفاهيمها عن الحياة مجرّد نظريات محلّقة في دنيا الخيال، فإنها تحاول بشتى الوسائل و الطرق أن تمكّن لها في واقع الناس، و أن تلزمهم بها، من خلال شبكة من

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 2، الجزء 62، ص3329

② مرتضى المطهري : الدوافع نحو المادية، ص100

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

العلاقات تتحرّك خلالها أخلاقُها و عرفُها قريبة من دفء الحياة وحميميّتها. ذلك أن كل فكرة لا تنمو و لا تتطور إلا في إطار "محضن طبيعي"، الذي لن يكون سوى شبكة العلاقات اليومية للناس بكل حيويتها و توتّرها.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ ﴿الأحزاب:33﴾. هذا النصّ القرآني الكريم يشير إلى أن الجاهلية تصير سلوكًا وأخلاقًا، بعد أن كانت تصوّرًا ونزوعًا، وما ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة، أن يبقى في ذاته شيئًا من أخلاقها وسلوكها، كما تفرّع من قبل من تصوّرها ونزوعها؛ لأن الذي يكفر بدين الجاهلية و نزوع الجاهلية و حميتها، لابد عليه أن يكفر بأخلاقها و سلوكها، ليتطابق تصوره و سلوكه لأنه لا يستقيم مطلقا أن يكون المحتوى الداخلي للنفس إسلامـًا و إيمانًا بالله، بينما ما يصدر عنها من سلوكات و تصرّفات جاهلي. « و يشير النص القرآني إلى تبرّج الجاهلية، فيوحي بأنّ هذا التبرج من مخلّفات الجاهلية، التي يرتفع عنها من تجاوز عصر الجاهلية، وارتفعت تصوراته ومُثُله ومشاعره عن تصوّرات الجاهلية ومُثلها ومشاعرها. والجاهلية ليست فترة معينة من الزمان، إنما هي حالة اجتماعية معيّنة، ذات تصوّات معينة للحياة، ويمكن أن توجد هذه الحالة، وأن يوجد هذا التصوّر في أيّ ومكان وفي أيّ مكان، فيكون دليلا على جاهلية حيث كان ! » ①

- جاهلية الحكم:

هذا آخر مستوى من مستويات الجاهلية، وهو أشملها وأضمن لها جميعا. فجاهلية الحكم دائمًا تحفظ جاهلية التصور، وتزكي جاهلية النزوع، وتشجع على جاهلية السلوك والأخلاق. وهي خلال عملية هذا التوالد الذاتي ترهق الإنسان وتكلّفه من أمره عسرًا، و تكبح فيه كل التطلعات الإنسانية، و تعمل على استخفافه و استلابه، لأن الجاهلية هي نقيض الأصالة الإنسانية " Humanisme ".

و لكي لا تبقى أخلاق الجاهلية و سلوكاتها مجرّد تصرفات فردية، تتحرك في فضاء فضفاض، يعمد المنتفعون من الأوضاع المنحرفة إلى إيجاد "هياكل" أو "نسق" أو "نسيج مؤسساتي" تتجلى من خلال آلياته تصوّرات الجاهلية ونوازعها وأخلاقها كما تتجلّى الروح من خلال حيوية الجسد.

إن الجاهليين لا ينفعهم أنهم أغنياء أو أقوياء أو أهل نفوذ، لأنه لا شيء أضمن لديمومة الغنى والقوة والنفوذ مثل شبكة علاقات اجتماعية أو مؤسسات اجتماعية متفاعلة، و لهذا يكون مطمح المستكبرين الأخير أن يكون لهم في الأرض سلطان و دولة، و ألاّ ينافسهم أحد في هذه الدولة أو السلطان. ذلك أن « فاعلية الأفكار تخضع إذن لشبكـة العلاقات، أي أننا لا يمكن أن نتصوّر عملا متجانسا من الأشخاص و الأفكـار و الأشياء دون هذه العلاقات الضرورية. وكلما كانت شبكة العلاقات أوثق كان العمل فعّالا مؤثرًا.» ②

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد5، الجزء22 ، ص 2861

② مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ، ص 35

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و قد ينقاد الناس –ترغيبا وترهيبا– لسلطة الجاهلية، ويتورّطون فيها كما يتورّط الذباب في نسيج العنكبوت، وقد يلتفتون يمينًا وشمالاً هل من محيص، فلا يجدون سوى حكم الله ، ودين الله وشريعة الله، وقد يرهفون السمع هل من صوت مجير في هذا التيه، فلا يسمعون إلاّ كلام الله يهزّ عقولهم ونفوسهم ومشاعرهم، وآخر نسمة حياة في كيانهم: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:50]

إنّ الجاهلية إذا حكمت و تحكمت، فإنها لا تراعي إلاّ مصلحة الفرعون–في أي صورة كان–، و إلا مصلحة الطائفة أو الحزب أو الجماعة أو القبيلة، أو غير ذلك من العصبيات التي يتجمع عليها الناس و يأتلفون، و في خلال ذلك تضيع مصالح الكثير من خلْقِ الله ومخلوقاته، و تضمر الكثير من الكمالات، و تتضاءل الكثير من الاستعدادات، و تنطفي الكثير من المواهب، و بالتالي تجد الحياة نفسها ترتكس و تنتكس، لتنطلق على حسابها مصالح الجبابرة و أهواء المستبدين في أي صورة من الصور كانوا. « و الإسلام حين يجعل الشريعة لله وحده، و يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ويعلن تحرير الإنسان، بل يعلن "ميلاد الإنسان" .. فالإنسان لا يولد، و لا يوجد، إلاّ حيث تتحرّر رقبته من حكم إنسان مثله، وإلا حين يتساوى في هذا الشأن مع الناس جميعًا أمام ربّ الناس.

إنّ هذه القضية التي تعالجها نصوص هذا الدرس في أخطر و أكبر قضايا العقيدة .. إنها قضية الألوهيـة و العبودية. قضية العدل والصلاح. قضية الحرية والمساواة، قضية تحرر الإنسان –بل ميلاد الإنسان– وهي من أجل هذا كله كانت قضية الكفر أو الإيمان، وقضية الجاهلية أو الإسلام. » ①

و ليس من شأن الله سبحانه، أن يترك الناس نهبا لأوضاع الجاهلية وآلياتها الجائرة، كما أن بنية الوجود –في ذاته– ذات قوة نابذة للباطل الذي تُحْقَنُ به المسيرة البشرية من حين لآخر، بحكم سيرورة من الأحداث، انطلاقا من هذا، لا بد من ظهور حركة مقاومة للجاهلية وآلياتها الظالمة، من أجل إعادة المسيرة البشرية إلى مسارها الصحيح، من خلال إقامتها على الحق والعدل و الحرية، بكل ما تستلزمه هذه المبادئ الكبرى من قيم و تصورات وأفكار، وأخلاق، وشعائر وشرائع وآليات اجتماعية.. و هذا الدور هو الدور التاريخي للنبي و من يقوم مقامه أو يقلد دوره من بعده.

① سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد 5 ، الجزء 22 ، ص 2840

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الخامس

ظهور النبي

توطئة

المبحث الأول : اختلاف الناس

المبحث الثاني : ظهور النبي

المبحث الثالث: طبيعة النبي

المبحث الرابع : خلُق النبي

المبحث الخامس : لغة النبي

المبحث السادس: محتوى رسالة النبي

المبحث السابع : أسلوب النبي في الدعوة

المبحث الثامن : وظيفة النبي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و قد لا يبقى الأمر محصورا في أفراد يدّعون الاتّصال بالغيب و الطموح إلى تغيير الوضع المنحرف، إنما قد تسعى إلى ذلك و تدّعيه جماعات صغيرة عُدّة وعدداً و تنظيما، كجماعات الفقراء و العبيد و الصعاليك، وجماعات أخرى تتّزر بمسوح الدين، كظاهرة "الأحناف" و"الحمس" و"الصعاليك" في جاهلية العرب.

و من هذا المنظور، يعتبر د. "محمد عمارة"، أنّ الإسلام، بوصفه "ثورة كبرى" لم يكن منقطع الصلات عن الظروف الحياتية و الأوضاع الاجتماعية للأمة التي ظهر فيها، « و يشهد لهذه الصلات ما سبق ظهور الإسلام كثورة، من إرهاصات تمثلت في محاولات لتغيير هذا الواقع الجاهليّ أو تطويره، اتخذت أحيانا شكل الرفض والاستنكار و الإنكار، و حينا آخر لجأت إلى العنف الثوري، ممثلا في الانتفاضات و التمرّدات. فحركة "الصعلكة" و "الفتوة" التي عرفها واقع شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام كانت واحدة من حركات الرفض و التمرّد و الانتفاض ضد مظالم ذلك الواقع الجاهليّ، فهؤلاء الشعراء عُرِفوا بشعراء الصعاليك، و من تبعهم من ذوي الأفق المستنير، و من المقاتلين الفرسان... قد انخرطوا في تيار المقاومة الرافضة و تسلّحو "العنف الثوري" الذي استخدموه في الإغارة على الأثرياء ينتزعون ثراءهم كي يُعيدوا توزيعه على الفقراء.» ①

و خير مثال عن النماذج الفردية المناهضة للواقع الجاهليّ العربي قبل الإسلام، نجد "خالد بن سنان العيسي" الذي وصفه الرسول ﷺ: "إنه يُبعث يوم القيامة أمة وحده".

إذن، دائما في الحالات القصوى للتأزم الفرديّ والاجتماعي، تشرئب الأعناق والعيون إلى الغيب، تستمدّ منه العون والمدد والهداية والرشاد، فيرسل الله الرسل والأنبياء، وغالبا ما يفسد عليهم عملهم أنبياء كذبة ودجّالون يكونون سابقين للرسل أو لاحقين لهم، وغالبا ما يلتبس الأمر على الناس، فينقسمون فريقين بين نبيّ الله، والنبيّ المزيف، وقد يجد هذا الأخير من الأتباع والأنصار أكثر مما يجده نبيّ الله الذي يكون صارما ومفاصلا في مسالة المبادئ ومنطلقات النبوة، « و في مقابل ذلك يقف مدّعي النبوة موقف أحد الانتهازيين الذين يتّبعون التيّار الشعبي، فهو بهذا لا أثر له أخلاقياً، وليس ملهِما، بل إن موقفه اتجاه عقائد عصره هو موقف المبالغة في التساهل لدرجة التملّق و الملاينة. » ②

المبحث الأول : اختلاف الناس

يخبرنا القرآن الكريم أنّ الناس كانوا أمة واحدة، يمارسون الحياة بمستوى واحدٍ من الوعي والاهتمام، وكانوا على منهج فطريّ واحدٍ قريب من الحياة البدائية الساذجة من حيث التفكير و التطلعات و بساطة العيش و وفرة أسباب المعاش و شيوعها، لقلّة الرغبات و الحاجات لدى الناس.

① محمد عمارة : الإسلام و الثورة، دار الشروق، القاهرة، ط(3) 1988، ص18

② مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ص92

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و بحكم أن الإنسان مفطور على قابليات حرّة متنوعة ونامية، فقد حدث اختلافات في نمو هذه القابليات، الذي أدّى إلى اختلاف في الوظائف والحاجات، الذي سيؤدي حتْماً إلى الاختلاف في الرؤى والتصورات عن الحياة وعن قيمة ما في الحياة، فحصل التنازع والتدافع من أجل امتلاك الحاجات، ومن أجل تحقيق المصلحة وفرض الرأي على الرأي المخالف، وكعادة البشر دائماً، فإن كل طرف حين يريد لرأيه أن يكون هو القاهر المهيمن، فإنه يلبسه مسوح الدين، أو يعطيه تأويلا دينيا، حتى يكون الدفاع عنه دفاعاً مستميتاً، والتعصب له تعصّباً شديداً.

و إن وضْعاً كهذا، لمؤذن بفساد الجماعة البشرية، و انحراف سُنّة الاختلاف عن وظيفتها البنائية التكاملية إلى وظيفة هدّامة، و في ظل هذا التناحر و انعدام الأمن تتقلّص إمكانات نموّ المواهب وتطوّر القابليات. و هذا الذي أشار إليه العلاّمة "ابن خلدون" من قبل، حيث قال: « إن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم إلا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قُوتهم وضرورياتهم، وإذا اجتمعوا من صاحبه لِمَا في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض، ويمانعه الآخر عنها بمقتضى الغضب والأنفة، ومقتضى القوة البشرية في ذلك، فيقع التنازع المفضي إلى المقاتلة، وهي تؤدّي إلى الهرج وسفك الدماء وإذهاب النفوس المفضي إلى انقطاع النوع، وهو ما خصّه الباري سبحانه بالمحافظة، فاستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض، واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع و هو الحاكم. » ①

و لكن يكون هذا الحاكم صاحب حُجَّة عليهم، وذا تأثير فيهم جميعاً إلا إذا كان يحمل منهجية إصلاح وإرشاد، لا تنبثق من رؤية هذا الطرف أو مصلحة ذلك الطرف الآخر، إنما تكون منزهة من أهواء الأطراف، وغير متلبسة بالمواقع الاجتماعية.

و في هذا المعنى يقول "السيد محمد حسين الطباطبائي": « و ظهور هذا الاختلاف هو الذي استدعى التشريع، و هو جعْل قوانين كلية يوجب العمل بها ارتفاع الاختلاف، و نيل كل ذي حق حقه، و تحميلها على الناس، و لذلك شرّع الله سبحانه ما شرّعه من الشرائع و القوانين، واضعاً ذلك على أساس التوحيد الاعتقاد و الأخلاق و الأفعال، و بعبارة أخرى التشريع مبنيّ على أساس تعليم الناس و تعريفهم ما هو حقيقة أمرهم من مبدئهم إلى معادهم. و مع ازدياد الإنسان قوةً و علما و تنبّهه لمزايا جديدة، و تيقُّظه لطرق جديدة في الانتفاع، و لأنّ بين الناس القويّ و الضعيف، فقد نشأ الاختلاف الفطري الذي دعت إليه قريحة الاستخدام، كما دعت هذه القريحة نفسها إلى الاجتماع و المدنية. ولا خيْر في تزاحُم حكميْن فقهييْن، إذا كان فوقهما ثالث يحكم بينهما و يعدّل أمرهما، و يصلح شأنهما. و الله سبحانه هو الذي يرفع هذا الخلاف برفع الاختلاف الموجود ببعث الأنبياء بالتبشير والإنذار وإنزال الكتاب الحاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » ②

---

① عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة. ص187.

② السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن. الجزء 2. ص117.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و نفس المعنى يقرّره "سيد قطب"، و هو يتناول بالتفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ ﴿البقرة: 213﴾. فهو يرى أن الإنسان كان مجبولا على الاختلاف كما كان مجبولا على الاتفاق و الالتقاء في دائرة الأسرة و الجماعة و القبيلة و غير ذلك من دوائر التجمع البشري.

ثم كان اختلافهم لتكاثرهم وتفرقهم وتباين معاشهم، الذي أدّى إلى بروز الاستعدادات و القابليات المركوزة فيهم بالفطرة، و التي جعلها الله من أجل نماء الحياة وغناها، ولولاها لما تطوّرت الحياة ولما تحققت رسالة الاستخلاف في الأرض التي حملها الإنسان.

و من الطبيعي جدّاً أن يضفي كل إنسان على مجهوده وسعْيه نوْعاً من القيمة و المعنى، سواءً من حيث المصدر أو الهدف والغاية، كما يعطي لسلوكه اتجاه الفضاء البشري والفضاء الطبيعي من حوله نوْعاً من التأصيل المقنع يضمن به بقاءه و ديمومته. ومن هنا يحدث الاختلاف في الرؤى و التصوّرات، و يتسرب الاختلاف إلى دين الفطرة الأول البسيط، « و من ثم لم يكن بد أن يكون هناك ميزان ثابت يفيء إليه المختلفون، وحكَم عدل يرجع إليه المختصمون، وقول فصْل ينتهي عنده الجدل، ويثوب الجميع منه إلى اليقين.» ①

و إن هذا الميزان لا تستطيع أن تضعه طائفة من الناس، لأنه من غير المستبعد ألا تجعله يميل جهة مصالحها وحاجاتها، وإن هذا الحكَم العدل ما ينبغي أن يكون طرفاً في التنازع و التدافع و الصراع، وإلاّ جار في الحكم، و إن هذا القول الفصْل ما ينبغي أن يكون قول أحد منهم، لأنه أعجز من أن يلمّ بالتناقض القائم في كل تجلياته، ناهيك عمّا خفي منه في أغوا النفس والعواطف والأحاسيس. ومعنى هذا « إن الإنسان لا يستطيع أن يدرك التنظيم الاجتماعي الذي يكفل له كل مصالحه الاجتماعية، وينسجم مع طبيعته وتركيبته العام، لأنه أعجز ما يكون عن استيعاب الموقف الاجتماعي بكل خصائصه، والطبيعة الإنسانية بكل محتواها، ويخلص أصحاب هذا القول إلى نتيجة هي: أنّ النظام الاجتماعي يجب أن يوضع للإنسانية، ولا يمكن أن تُترك الإنسانية لتضع لنفسها النظام، مادامت معرفتها محدودة، وشروطها الفكرية عاجزة عن استكناه أسرار المسألة الاجتماعية كلها. و على هذا الأساس يقدمـــون الدليـــل على ضرورة الدين في حياة الإنسان، و حاجـــة الإنسانية إلى الرسل و الأنبياء، وبوصفهم قادرين عن طريق الوحي على تحديد المصالح الحقيقية للإنسان في حياته الاجتماعية وكشفها للناس.» ②

و في ذات السياق تصب رؤية "الشيخ عبد الله نعمه"، حين يؤكد أن الإنسان عاجز عن إدراك ذاته، وما يضطرب في أعماق نفسه وضميره، وبالتالي فهو حين يشرع يكون غافلا عن معطيات جوهرية ومنطلقات أساسية ما ينبغي لمن يشرع إلاّ أن يأخذها بعين الاعتبار، ولهذا يكون أحسن تشريع للإنسان هو

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 1، الجزء 2، ص216

② محمد باقر الصدر: اقتصادنا، ص280

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الذي يأتيه من خارج ذاته، من مصدر لطيف خبير: « و الإنسان –كما سبق– عاجز عن إدراك سبل كماله الروحي و الإنساني، و عن إدراك كل مصالحه التي تأخذ به إلى الأمام، و بخاصّة ما يتعلق بجانبه الروحي والنفسيّ والإنساني، و ماله صلة بضميره و روحه و عاقبته، رغم أنه استطاع بما يملك من نشاطات علمية مادية أن يكتشف الكثير من جانبه المادي، ويسيطر على قوى الطبيعة، ويتحكم بها، في حين ظل في ما يتعلق فيه بالجانب الآخر الأهم الذي تقوم عليه بُنيَتُه الإنسانية والروحية في ما يشبه الظلام.
إذن هو محتاج إلى هداية تأتيه من خارج نفسه وعقله، إلى هداية الله الرحيم، ليرشده إلى مصلحته وكماله، وينبهه إلى ما فيه شقاؤه وتعاسته، وذلك بالطبع لا يكون إلا باتّصال الله بخلقه، و من هنا كانت الرسالة ضرورية.» ①

أما "أبو يعقوب إسحاق السجستاني" فيتناول المسألة باعتبارها ضرورة إيمانية، لأن الإنسان –لديه– كائن أخرويّ، بما تنطوي عليه جوانبه من تطلع نحو الغيب، ونحو عالم آخر يحقق فيه خلوده وما يطمح إليه مثالية في الحياة. فهو يقول شارحا لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ «الإسراء: 59» يقول: « و إنما يخوف الله بالآيات عباده لأن ثمرة التخويف الزهد في الدنيا. وثمرة الزهد في الدنيا الرغبة في الآخرة. وثمرة الرغبة في الآخرة التفكّر في الخلقة. وثمرة التفكر في الخلقة الوقوف على الحقائق. وبالوقوف على الحقائق تثبت النبوءة. فقدّر الله تعالى قبل ظهور رسله في العالم من ظهور الفساد وشمول البلايا ما يلزمهم حجته أن تفكّروا فيه.
والعلّة الثانية في ظهور الفساد قبل ظهور أحد الرسل لأن الرسول مجمع البركات، فإذا كان العالم بأسره مملوءا من الفساد والفرقة والاختلاف، ثم يظهر الرسول، فيرتفع الفساد بظهوره، ويقع الصلاح بدلالته، ومالوا إليه وتوسّموا فيه البركة والخير فتبعوه وتبعوا أمره ونهيه.» ②

المبحث الثاني : ظهور النبي

من خلال ما سبق يُستنتج أنّ الرسول لا يظهر هكذا اعتباطاً، منفصلا عن الشروط أو الظروف التي تمرّ بها الجماعة البشرية. إنما يظهر عندما تنتكس الحياة و ترتكس، وتصير فريسة شهيّة لشهوات الجاهلية وعُقَ... ولا يستطيع أهل الحياة أن يتقدموا ولا خطوة واحدةً على طريق الكدح الطويل بحكم الإصر والأغلال النفسية والروحية والفكرية التي تكبح أيّة انطلاقة جادة، وتقمع أي تفكير حيّ، وتردَع أيّ تطلّع وثّاب، وتصير الحياة كالجسد الذي لا روح فيه، وكالأعمى الذي يتلمس طريقه بين أطباق الظلام فما يجد إلى سبيله من سبيل.

---

① الشيخ عبد الله نعمة : عقيدتنا في الخالق و النبوة و الآخرة. مؤسسة عز الدين، بيروت، ط(2)، 1403هـ، ص270

② أبو يعقوب إسحاق السجستاني: كتاب إثبات النبوءات، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1966، ص154

وقد سمّى الله سبحانه رسالتَهُ روحاً، لأنها تؤدّي في الحياة نفس وظيفة الروح في الجسد الهامد، وسمّاها نوراً، لأنها تكشف كل ظلام، « و الجاهلية كلها ظلمات... ظلمة الشبهات والخرافات والأساطير والتصوّرات. وظلمة الشهوات والنزعات و الاندفاعات والتيه... وظلمة الحيرة والقلق والانقطاع عن الهدى والوحشة من الجناب الآمن المأنوس. وظلمة اضطراب القيم وتخلخل الأحكام والقيم والموازين. والنور هو النور» ①. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: 52]، وقال سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 15].

و يقدّم لنا أمير المؤمنين "علي بن أبي طالب" كرم الله وجهه صورة حيّة متحركة عن أوضاع الناس إبّان ظهور النبي، صورة فيها اضطراب وفيها فوضى، وفيها ضبابية تطبق على القلب والروح والفكر، تجعل الذي يعيش في أجوائها يشعر بالاختناق، والرغبة في الفرار صوب اتجاه غير محدّد!. يقول الإمام "علي"، وكأن من كلماته تقطر الألوان و الظلال، والحركات، فتتشكل الأجواء الخانقة، والملامح المكدودة، والوجوه القلقة الحيرى: « أرسله على حين فترة من الرسل، وطول هجعة من الأمم، واعتزام من الفتن، وانتشار من الأمور، وتلظٍّ من الحروب، والدنيا كاسفة النور، ظاهرة الغرور، (...) شعارها الخوف، و دثارها السيف.» ②...
« بعثه و النّاس ضُلاّل في حيرة، و حاطبون في فتنة، قد استهوتهم الأهواء، واستزلتهم الكبرياء، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء، حيارى في زلزال من الأمر وبلاء من الجهل.» ③، « أرسله على حين فترة من الرسل، وهفوة عن العمل، وغباوة من الأمم.» ④

و ليس في إمكان البشر العاديين، المزوّدين بمناهج وتصورات، تبقى قاصرة وإن أبدت تفوّقا، وتظل ناقصة وإن ادّعت كمالا، ومحصورةً وإن تظاهرت بالإحاطة والشمول، ليس في إمكان هؤلاء البشر العاديين أن يقودوا انقلاباً جذريّاً على الجاهليّة، وأن يخوضوا تحرّراً شاملاً من أغلالها وقيودها التي مدّت عروقها في كل شيء ينبض بالوعي والحياة. وقد يُوفّق هؤلاء البشر العاديين في قلب الأوضاع وتغيير السلطة الحاكمة التي كانت تستغلهم، لكن لا توجد الضمانات الكافية لكي لا يتحوّل المحرّرون إلى جبّارين ومتسلطين، ويصير المستضعفون مستكبرين، ليتحرّك ضدّهم مستضعفون آخرون، وهكذا دواليك، ليبقى المجتمع الإنساني يدور في حلقة مفرغة إلا من العبث والأحقاد، لأن طاقة التغيير و محرّضاته هي هي لدى كل الطوائف والفئات والأطراف. وهذا ما يلاحظه السيد "محمد باقر الصدر" في شأن التغيير المفرّغ من أي محتوى إيماني أصيل، فيقول: « و هي مقاومة تحمل نفس الخلفية النفسية التي يحملها المستغلون، و تنطلق من نفس المشاعر

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 2، الجزء 6، ص863
② الإمام علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص209
③ م.ن : ص81
④ م.ن : ص337

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و الأحاسيس التي خلقتها ظروف الاستغلال، و هذا يؤدي في الحقيقة إلى أنّ الثورة لن تكون ثورة على الاستغلال وجذوره، ولن تعيد الجماعة إلى مسيرتها الرشيدة. ودورها الخلافي الصالح، وإنما هي ثورة على تجسيد معيّن للاستغلال من قبل المتضررين من ذلك التجسيد، ومن هنا كانت تغييرا لمواقع الاستغلال أكثر من كونها استئصالا للاستغلال نفسه.» ①

فلا بد إذن من محتوى عقدي و تصوّري لحركة التغيير يكون متحرّراً من أسْر الشروط الموضوعية و الظروف المرحلية و الحالات العابرة و الأهواء المتقلبة، التي كانت سببا في حدوث الانحراف، و ديمومته. ولابد من محتوى عقدي و تصوري لحركة التغيير يكون منسجما مع النفس التي يخاطبها و يسعى على تغييرها، باعتبار أنّ هذه النفس هي البنية التحتيّة لأية حركة إنسانية، وبحكم أن الإنسان مجبول على التدين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ﴿الروم: 30﴾. فلابد أن تكون البنية القاعدية لحركة التغيير دينية، لتتناغم معها كل النفوس، وتهفو إليها كل الضمائر، « فالدين هو أوّل محاولة تصدّ للانحراف عن المسير الاجتماعي و مبتغاه. و هذا التصدّي الإلهي الباكر لمسألة الاختلاف، واستمرار هذا التصدّي من حقبة لحقبة، إنما يؤكّد استحالة إرجاع حلّ هذه المسألة إلى الإنسان نفسه، كما يؤكد في الآن نفسه، أن العلاج لا يمكن أن يُبنى إلاّ على العلم القطعيّ الذي لا يمكن أن يقدّمه سوى الدين من جهة، ولأن الدين يحكي حكاية مباشرة وواضحة عن الطبيعة الإنسانية، أيّ هو الصدى الذي يتردّد في داخل من غير انقطاع أو خفوت.» ②

و حريّ بنا قبل أن نعرف دور النبي أو الرسول، ووظيفته في المجتمع الإنساني أن نعرف معنى "النبي و الرسول" لغويّاً، فالرسول -لغة- « الذي يتابع أخبار الذي بعثه » ③، و الإرسال هو التوجيه بمضمون من جهة إلى جهة أخرى. ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿النمل: 35﴾.

أما كلمة "النبيّ" فقد قال معظم اللغويين أنها مأخوذة من النبأ، الذي يعني الخبر.

قال الله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ(1)عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿النبأ: 1-2﴾. فالنبي هو كلّ من تلقّى نبأً من جهة ليبلّغه إلى جهة أخرى، حالت بينها و بينه أسباب أن تسمعه من مصدره.

وقيل: إن النبّوة مشتقة من النّبو، وهي كل مكان مرتفع من الأرض، يصير بها علَماً للسالكين والضاربين في أكنافها « و المناسبة بين لفظ النبيّ و المعنى اللغويّ، أنّ النبيّ ذو رفعة و قدْر عظيم في الدنيا و الآخرة، فالأنبياء هم أشرف الخلق، و هم الأعلام التي يهتدي بها الناس، فتصلح دنياهم و أخراهم.» ④

① السيد محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، ص157

② مصطفى الحاج علي: الأمة و الشهادة : مجلة المنطلق، العدد 70، ربيع الأول : 1411هـ، الاتحاد اللبناني للطلبة المسلمين، بيروت، ص86

③ ابن منظور : لسان العرب ، مادة : رسل

④ د. عمر سليمان الأشقر : الرسل و الرسالات، قصر الكتاب، البليدة، الجزائر، ص13

أما من حيث المعنى الاصطلاحي للكلمتين، فالنبي هو ذلك الشخص الذي يأتيه الخبر وحياً بأمر الله، فالنبوّة أمر بين العبد و بين الله. أما الرسول فهو الشخص المكلّف من طرف الله كي يبلّغ عباد الله حكْماً أو تشريعا. والفرق بين الكلمتين هو أن « الرسول من أوحي إليه بشرع جديد، والنبيّ هو المبعوث لتقرير شرْع من قبله » ①، كشأن أنبياء بني إسرائيل، فكلهم بُعثوا لتبليغ رسالة موسى عليه السلام و الحفاظ عليها و إقرارها.

المبحث الثالث : طبيعة النبي

النبي بشر مثل كل الناس، يأكل الطعام و يمشي في الأسواق، يحب الخير و يكْره الشرّ، قد يبكي إذا ألمّ به الحزن، وقد يضحك إذا أصابه ما يفرح و يسرّ، يتزوج و ينجب ويفرح بالحفدة و البنين مثل كل الناس، أي أنهم بمقتضى بشريتهم يتصفون بكل ما يتصف به البشر الآخرون، فهم لا يملكون خرق نواميس البشرية إلا بإذن الله. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ﴿الرعد: 38﴾. وكل رسول يؤكد بكل ما أوتي من قوة الحجة أنه رسول يوحي إليه الله، بينما كان المجادلون والمكابرون يطلبون من الأنبياء ما يخرق نواميس البشرية فيهم، ونواميس الكون من حولهم، وحجتهم في ذلك أنه « إذا كانت النبوة حدثا غير عاديّ، فيجب أن تتجسد في شخص غير عاديّ، ولهذا فإن من الضروري ألا يكون النبيّ بشراً ما دامت النبوة مرتبطة بغير عالم البشر، وما دامت طرق الإتصال غير بشرية. ومن هنا وُلدت فكرة رفض تصديق الأنبياء، لأنهم بشر مثلهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق... فلا ينسجم ذلك مع التصوّر العام للنبيّ الذي [illegible] أن يكون ملكاً من السماء ليصلح لحمل رسالة السماء.» ②

و يقول الله تعالى مفنّداً هذا الاقتراح ومبيّنا تهافت هذا الاعتراض: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ ﴿الإسراء: 95﴾. ويقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿الفرقان: 7﴾.

و لو أن الله سبحانه و تعالى أرسل إلى البشر ملكا، لكانت اعتراضات الناس أقوى، لانتفاء الشبه بينهم و بين من يريده الله لهم قدوة في مجاهدة الشهوات و نوازع الشر، و إقامة الحق والعدل.

« و إنما الحكمة الإلهية كذلك تبدوا في رسالة واحدٍ من البشر إلى البشر، واحدٍ من البشر يحسّ إحساسهم، و يتذوّق مواجدهم، و يعاني تجاربهم، و يدرك آلامهم و آمالهم، و يعرف نوازعهم و أشواقهم، و يعلم ضروراتهم و أثقالهم... و من ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم، و يرجو في قوتهم و استعلائهم، و يسير بهم خطوةً خطوةً، و هو يفهم و يقدّر بواعثهم و تأثراتهم و استجاباتهم، لأنه في النـ[illegible]ـحد منهم، يرتاد بهم الطريق إلى الله، بوحْيٍ من الله وعونٍ منه على عناء الطريق!.

① ن. م: ص15

② السيد محمد فضل الله: الحوار في القرآن، ص95

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من جانبهم يجدون فيه القدوة الممكنة التقليد، لأنه بشر منهم، يتسامى بهم رويدا رويدا، و يعيش فيهم بالأخلاق و الأعمال و التكاليف، التي يبلغهم أن الله فرضها عليهم، و أرادها منهم، فيكون هو بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم، و تكون حياته و حركاته و أعماله صفحة معروضة لهم ينقلونها سطراً سطراً، و يحققونها معنى معنى، و هم يرونها بينهم، فتهفو نفوسهم إلى تقليدها، لأنها ممثلة في إنسان. و لو كان ملَكاً ما فكروا في عمله، ولا حاولوا أن يقلدوه، لأنهم منذ البدء يشعرون أن طبيعته غير طبيعتهم، فلا جرم سلوكه غير سلوكهم على غير أمل في محاكاته، ولا شوق إلى تحقيق صورته.» ①

و ليس شرْطاً أن يكون النبيّ قويّاً أو غنياً أو ذا عصبة أو كثرة، أو متَّصفاً بمعايير أخرى، يعتقد البشر في ضروريتها بالنسبة لكل واحد يريد أن يكون ذا شأن بينهم ومكانة، لأنّ وظيفة النبي، التي تدور في فلك التربية و الارشاد، والتبليغ، وتعليم الناس الكتاب والحكمة، والمجادلة بالتي هي أحسن، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة و الموعظة الحسنة، هذه الوظيفة لا تستدعي مالاً أو قوة عضلية، أو مركزاً اجتماعياً مرموقاً، اللهم إلاّ النية الخالصة، و القلب الصادق، و الضمير الزكي و اللسان الذكيّ.

و قد وقع في شراك هؤلاء نفر من المتدينين، رسموا للنبيّ صورة خيالية، قائمة على التفوّق المطلق في كل شيء، « و قد يمكن لنا في هذا المجال أن نتحفظ فيما يفيض فيه الكثيرون من علماء الكلام، و في كل صفة ذاتية على أساس القاعدة العقلية المعروفة لديهم وهي، قبح قيادة المفضول للفاضل... فإذا لم يكن النبيّ في مستوى القمة في كل شيء، لم يصلح لمركز القيادة الحياتية للناس.» ②

و قد سجّل الله هذه الاشتراطات البشرية على كل من يتولّى وظيفة النبوة، وردّ عليها، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(31)أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿الزخرف: 31-32﴾.

و قال سبحانه:﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7)أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ ﴿الفرقان:7-8﴾.

و هذه الاعتراضات كلها تشي بأنهم يرشحون أنفسهم لكي يكونوا هم الأنبياء! ظنّا منهم أن المعايير المتبعة لديهم في تقلّد المناصب وتولّي المسؤوليات هي ذات المعايير عند الله، لكن الله يجبهم ويردّ عليهم: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ﴿الأنعام: 124﴾.

يقول الشهيد "سيد قطب" معلّقا على هذا الاشتراط الفاجر، وعلى ذاك الردّ الحاسم الحكيم: « إن الرسالة أمر هائل خطير. أمر كوني تتّصل فيه الإرادة الأزلية بحركة عبد من العبيد. ويتّصل فيه الملأ الأعلى بعالم الإنسان

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 19، ص2553

② السيد محمد فضل الله : الحوار في القرآن، ص103

المحدود. وتتصل فيه السماء بالأرض. والدنيا بالآخرة، ويتمثّل فيه الحق الكلي في قلب بشر، وفي واقع الناس، في حركة تاريخ. وتتجرد فيه كينونة بشرية من حظّ ذاتها لتخلص لله كاملة، لا خلوص النية والعمل وحده، لكن كذلك خلوص المحل الذي يعلوه هذا الأمر الخطير. فذات الرسول ﷺ تصبح موصولة بهذا الحق ومصدره صلة مباشرة كاملة. وهي لا تتصل هذه الصلة إلاّ أن تكون من ناحية عنصرها الذاتي صالحة للتلقي المباشر الكامل بلا عوائق ولا سدود.» ①

فأين هذا من نفوس ما زالت مكتظة بالشهوات الحقيرة، و المطامع الدنيوية الوطيئة، و الطموحات التي ... ألعاب أطفال، و حتى النبوّة على جلال قدْرها، لا تخرجها هذه النفوس من دائرة التوظيف الدنيوي المادي، بحيث تستكثر بها الأتباع و تتكاثر بها في المال و الرياش و نعيم الحياة.

المبحث الرابع : خلق النبي

إنّ خلُق النبي انعكاس واقعي ميداني لمحتوى الرسالة التي يحملها، و الوحي الذي يبلّغه، والمبادئ التي يبشر بها وينذر. وربما الأشياء اللطيفة أن نجد في القرآن الكريم كلمتي "الكتاب" و"الإمام" تتبادلان الموقع، فالكتاب إمام ساكن، والإمام كتاب متحرّك، وإن أعظم إمام هو النبيّ. يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ ﴿الأحقاف: 12﴾، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ ﴿يس: 12﴾، و يقول جل من قائل: ﴿ وَ إِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ﴿البقرة: 124﴾.

و نجد في القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى يثني على أنبيائه بأخلاقهم، وبالفضائل التي اتصفوا بها بين قومهم، فكانت عنصر جذب لكثير من الناس كي يدخلوا في دين الله أفواجاً. ولا يوجد خُلق كريم أو خصلة نبيلة أو سلوك فاضل إلاّ ويكون في النبي في أحلى صوره وأكمل حالاته. وفي هذا يقول "سعيد حوّى": «إن أبرز سمة في شخصية الرسول ﷺ المتعددة الجوانب أخلاقيته التي لا مثيل لها. فلو أنك جمعت كل خلُق عظيم في العالم، وكل تصرّف أخلاقي سليم تصرّفه في يوم من الأيام إنسان، فإن ما تجده في حياة الرسول ﷺ يربو على هذا كله مجتمعان ومع انعدام التصرفات غير الأخلاقية في حياته عليه الصلاة والسلام، مما لا تستطيع معه أن تجد في حياته كلها تصرفاً أن ترى أعظم منه.» ②

وهذا كله يختصره قول عائشة رضي الله عنها في الحديث الذي أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود: "كان خلقه القرآن".

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 8، ص1203

② سعيد حوى : الرسول ﷺ، ص130

و غالباً ما يكون النبيّ مجتبى مصطفى من الله، لقابلية أصيلة وكريمة فيه، نجد ذلك عندما نتتبع الآيات التي تتحدث عن الاجتباء، بحيث أن الله يتولّى النبيّ بالإرشاد والهداية و التوجيه حتى يصير إماما و قدوةً في أخلاقه و سلوكه، و حتى يصير خالصاً لله لا حظ للشيطان فيه. وقد قال الله تعالى في شأن رسُله جميعا :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ ﴿مريم: 58﴾.

و من هذا المنطلق نفهم قول الرسول ﷺ في الحديث الذي يرويه "الصعب بن سعد" عن أبيه: قال: "قلت يا رسول الله : أي الناس أشدّ بلاءاً ؟. قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل حسب دينه." وكما يسلط صاحب الذهب النار على شذرة الذهب، ليزيل ما علق بها من شوائب المعادن الأخرى التي لا تجانسها، حتى يجعلها صافية خالصة، كذلك يُسلط الله نار الإبتلاءات على نفس النبي حتى يزيل كل شائبة تشوبها، ويجعلها نفسا متميزة خالصة، لها قدرة على التجاوب والتناغم مع التوجيهات الربانية، و التلقي عنه سبحانه، « و هذا الصقل و التطهير يجعل النفس، و التي هي مثال اللوح قابلة لأن ينقش فيها القلم العقلي أسرار المعارف الحقة، فتصبح عالمة بحقيقة و كنه كل و جود، شاهدةً للغيب الذي تعشى عنه أبصار الخفافيش و المحجوب بالصدأ المتراكم على مرائي قلوب المخلّدين إلى الأرض و أتباع الهوى.» ①

و هذا السياق يوحي لنا أن الإبتلاءات سُلّم كمالات إنسانية، وليست انتقاماً ربانيا، كما قد يتبادر إلى ذهن المطموسين المحجوبين عن الحق والحقائق...

و هذا الذي جعل أنبياء الله-بحكم صلتهم بالله و قربهم منه- يفرحون بالإبتلاءات و يستبشرون بها و يستعدّون لها، كما يفرح السطاء بالنعم و الرخاء، و يستبشرون به و يستعدون له، ظنًّا منهم أنه بالرخاء و النعم يتم كمالاتهم الإنسانية. قال الرسول ﷺ في الحديث الذي يرويه "أبو سعيد الخدري" حين دخل على رسول الله ﷺ و هو يوعك، ووضع يده على الرسول ﷺ فوجد حرّه بين يديه فوق اللحاف، فقال: « يا رسول... ما أشدّها عليك!. قال: إنّا كذلك، يضعف علينا البلاء، ويضعف لنا الأجر. قلت: يا رسول الله، أيّ الناس أشدّ بلاءً؟ قال: الأنبياء، ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليُبتلى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة التي يحويها، و إن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء.» ②

فالله يصطفي الرسل و يجتبيهم، و يختارهم و يصطنعهم، و يصنعهم على عينه، و هذه كلها مصطلحات مختلفة لمعنى واحد، لا يخرج عن دائرة الإعداد الأخلاقي والتمحيص السلوكي، حتى يصير النبي مثلا حيًّا لكل ما يرضاه الله من قول أو فعل، وحتى يصير النبيّ و لا حظّ للدنيا فيه، ولا حظ له في الدنيا، إلاّ ذلك القدر الذي يعينه على تبليغ الرسالة، و يستعين به على تمثُّل أخلاقها و آداب الكتاب و توجيهات الوحي.

① زينب إبراهيم : الأمة الشاهدة ، الشروط و المقومات، مجلة المنطلق ، ص43

② أخرجه ابن ماجة وابن سعد والحاكم، وقال صحيح على شرط مسلم

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يقول الله تعالى في شأن النبيّ من أنبيائه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ ﴿طه: 39﴾. ويقول سبحانه: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ ﴿طه: 41﴾، ويقول كذلك: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ﴿البقرة: 124﴾، وهذه الكلمات هي سلسلة من الإبتلاءات، كانت بمثابة مصْهر أخلاقي، احتازها إبراهيم عليه السلام بصبر و ثبات و قدرة، فأهّله الله بعده ليكون للناس إماماً و قدوة و أسوة حسنة.

لهذا يشعر السالكون طريق الله أنهم في حِمَى الله ورعايته، مادامت الإبتلاءات تنزل بساحتهم من حين لآخر، فيجدون فيها راحة ورَوْحاً، ويجدون فيهم قرْباً وأنسا، ويطمئنون أنهم ينتقلون في مراتب القرب، ويرتقون درجات الاصطفاء، ولأن دورهم في الوجود حسّاسٌ جدّاً، لأن الناس بهم يقتدون ويهتدون، وعليهم يقيسون، وبهم يَزنون الأوضاع والحالات والمواقف، وكل ما له علاقة بالدور الوجودي للإنسان.

«"ونار الابتلاءات تشتد وتقوى بحسب المقامات، وبالتالي الاستحقاقات. ومن هنا كان الأنبياء والأولياء أكثر النسا عُرضة لها، لا على المستوى الكمّي، وإنما أيضا على المستوى الكيفي. لأنها حقيقة سبيل من سبُل التزكية والتربية والتطهير، وطريق إلى مقام القرب، ولذا قيل، و من هذا الباب، إن الله إذا خصّ عبْداً من عباده بلطف منه يجعله عُرضة للشدائد (...) و من الأمثلة القرآنية للابتلاءات التي مرّ بها الأنبياء، فنقلتهم من مرتبة وجودية إلى مرتبة وجودية أقوى و أسمى، الابتلاء الإلهي لإبراهيم (...) إن إبراهيم عليه السلام قد مرّ بمجموعة من الامتحانات والاختبارات، عبّر عنها القرآن الكريم بالكلمات، إلاّ أنه احتاز هذه الاختبارات بثبات و صبر، فتطهّرت ذاته و صقلت و ترقّت إلى أن استحقّت مقام الإمامة.» ①

المبحث الخامس : لغة النبيّ

إن اللغة مسألة حيويّة وعلى درجة كبيرة من الأهمية، خاصة لأصحاب الديانات والإيديولوجيات الكبرى، إنهم يبذلون جهْداً كبيراً في الاشتغال على اللغة حتى تستوعب "حمولة" أكبر من الأفكار والمبادئ التي يؤمنون بها، ويدعون إليها، ولهذا تراهم يعمدون إلى النحت والاشتقاق والتركيب وغير ذلك من الأمور والإجراءات، التي يمكنهم من جعل اللغة في خدمة أفكارهم ورسالتهم. وهذا الذي يجعل الرسالات الكبرى تعْمد إلى "شحن" اللغة بطاقة جديدة تبقى على الشكل وتغيّر في دلالة المضمون، فتصير اللغة بين أيدي هؤلاء كائنا حيّاً، يتغيّر باستمرار، ويكتسب صُوَراً وملامح متغيّرة.

و إذا كانت اللغة أداةً لتطوير الحياة، إذ لا يمكن تفكيك الكون من حولنا دون الاستعانة باللغة، فإن دخول لغة على أخرى، لا يحدث اضطرابا في أساليب اللغة وتصاريفها، بل يحدث اضطرابا في البنية التصورية

① زينب إبراهيم : الأمة الشاهدة ، الشروط و المقومات، مجلة المنطلق ، ص44

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و الفكرية للمجتمع، ومن ثمّ قد يتسرب الخلل إلى البنية الاجتماعية، ولو على مستوى المشاعر كمرحلة أولى.

و نظرا لأهمية اللغة في حياة الإنسان كانت أوّل ما تعلّم الإنسان عن الله سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31].

و لا يمكن الناس أن يفهموا أي خطاب أو رسالة، إذا كانت كلماها (أو منطوقها) لا يثير في ذهنهم صُوَراً حسية أو معنوية مقابلة، مستمدة من البنية الطبيعية أو الاجتماعية، أو الخلفية التاريخية التي نشأوا فيها.

من هذا كله كانت لغة النبيّ هي لغة قومه، بكل ما في تلك اللغة من تقنيات الترميز و فنيات التوصيل: قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [ابراهيم: 4].

فالنبيّ يتخذ اللغة أداة للتواصل مع الأخرين، ليبين لهم على ضوئها شريعة الله. ولو لم تكن اللغة مشتركة بين المرسِل والمرسَلِ إليه، لَمَا كان للرسالة من معنى. وقد كانت قدرة النبي على توصيل الرسالة بلغة قومه من الأمور التي تزعج المستكبرين، بحيث يطلبون من المستضعفين ألا يسمعوا للرسالة وكتاب الله، وان يلغوا فيه لعلهم يغلبون.

يقول الله تعالى: ﴿ وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: 44]

« فهم لا يصغون إليه عربيا، هم يخافون منه لأنه عربيّ يخاطب فطرة العرب بلسانهم، فيقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن، والغوا فيه لعلكم تغلبون، ولو جعله الله قرآنا أعجميًّا لاعترضوا عليه أيضا. وقالوا لولا جاء عربيًّا فصيحا مفصلا دقيقا!. و لو جعل بعضه أعجميًّا و بعضه عربيًّا لاعترضوا كذلك و قالوا أأعجميّ و عربيّ؟! فهو المراء والجدل و الإلحاد.» ①

فالنبي لم يكن يستعمل لغة قومه فحسب، بل أنه كان يوظفها بطريقة بليغة، و يحمّلها دعوته، و ينفخ فيها من صدق إيمانه ما يجعلها ذات مفعول في القلوب والنفوس، يشبه مفعول السحر، حسبما يزعم المستكبرون.

المبحث السادس : محتوى رسالة النّبي

إن رسالة الرسول تمسّ كل جوانب النفس والمجتمع والحياة، وتعتبرها نسقا متكاملاً، يتداعى بعضه إلى بعض في الصلاح و الفساد. وإن كان الرسول يتخذ الانحراف البارز في قومه هو نقطة الانطلاق، أو هو السبب

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 24، ص3128

المباشر للشروع في الدعوة وتبليغ الرسالة. التي تقوم على محور أساسي، ذي تفرعات مكمّلة، و هو "عبادة الله" و الإعراض عما سواه.

قال الله تعالى: ﴿ وَ لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ﴿النحل: 36﴾، ويقول سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي﴾ ﴿الأنبياء: 25﴾

فقوام دعوة النبي هو أنّ هناك ربّاً و إلهاً واحداً، و هو الجدير بالعبادة، و هو الوحيد الذي نتلقى منه الشرائع، و نتوجّه إليه بالشعائر، و نرجو رحمته ونخاف عذابه، « فالتوحيد هو قاعدة العقيدة منذ أن بعث الله الرسلَ للناس، لا تبديل فيها و لا تحويل. توحيد الإله، و توحيد المعبود. فلا انفصال بين الألوهية و الربوبية؛ و لا مجال للشرك في الألوهية ولا في العبادة... قاعدة ثابتة ثبوت النواميس الكونية، متصلة بهذه النواميس و هي واحدة منها.» ①

و إن أول صرخة إنذارٍ وتبشيرٍ يطلقها النبيّ هي "يا قوم اعبدوا الله" بكل ما تقتضيه العبادة من خضوع وطاعة وانقياد واستسلام كليّ، وامتثال شامل لأوامر المعبود و نواهيه. هذا المعبود الذي لا يتفاضل الناس لديه إلا بالتقوى و العمل الصالح، فلا سدنة ولا كهنة و لا وسطاء و لا شفعاء، إنما هو الاتصال المباشر بين العبد و الله في أي وقت، و في أية حالة، و في أي مكان، و بأيّ لسان!... و من ثَم تكون عبادة الله -كما يطرحها الأنبياء، ويدعون إليها- تعني: « الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها و أشكالها و أنظمتها وأوضاعها، والتمرّد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض، الحكم فيه للبشر بصورة من الصور. أو بتعبير آخر مرادف: الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور... ذلك أن الحكم الذي فيه مردّ الأمر إلى البشر، و مصدر السلطات فيه هم البشر، هو تأليه البشر، يجعل بعضهم لبعض أرباباً من دون الله. إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب، وردّه إلى الله، وطرد المغتصبين له، الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم، فيقومون منهم مقام الأرباب، و يقوم الناس منهم مكان العبيد... إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله في الأرض.» ②

و إن رسالة بهذا المحتوى، أو بهذا المنطلق الأساسي فيها، يصعب جداً أن يمكّن لها النبيّ بين جحافل من الانتهازيين، ومنتفعين بالأوضاع المنحرفة، ومسترزقين بآلهة من صنع أيديهم، وكُتب من نسخ أقلامهم. وبقدر ما يصبر النبيّ في الدعوة يستميت هؤلاء في الدفاع عن آلهتهم، وطرائق عبادتهم لها. وما ذلك منهم حبّاً في الآلهة وما نسجوا لها من شعائر، إنما دفاعا عن مصالح دنيوية مختلفة، و ضروب من الامتيازات، ستذهب هباءً منثوراً عندما يكون الرب و الإله هو الله.

①سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 4، الجزء 17، ص2374

②سيد قطب : معالم في الطريق ، ص86

المبحث السابع : أسلوب النبيّ في الدعوة

مما لا يخفى على أحدٍ أن الدور النبويّ في الحياة دور تحريريّ، بأوسع معاني التحرير، ليس تحرير الأبدان وفك أغلال الأيدي و الأرجل، بل تحرير الضمائر و العقول و المشاعر من الأسر و الأغلال التي كانت عليها. وكما يكره النبيُّ المستكبرين حين يُكرهون الناس على الكفر، فإن الله يكره النبيّ أن يُكره الناس على الإيمان... ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يونس: 99﴾.

و من ثم يرتضي الله لنبيّه أن يتحرّك في دعوته تحت شعار كبير، يرتضيه كل ذي فكر مستقيم وضمير نقيّ وفطرة سليمة، هذا الشعار هو: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿البقرة: 256﴾.

و أيّ إكراهٍ فيه فهو الغيّ، وأيّ لا إكراه هو الرشد؛ فالغويّ هو الذي يكره الآخرين أن يتبعوا دينه، و يعتقدوا عقيدته، ويروا رأيه، ويذهبوا مذهبه، أما الراشد والرشيد، فهو الذي يكفل للآخرين حرية المعتقد وحرية الرأي. والذي يكفر بالطاغوت لابد له أنّ يكفر بالإكراه، لأن إيديولوجية الطاغوت قائمة على القتل والقهر والإكراه، أما الذي يؤمن بالله، فعليه أن يكون على النقيض من ذلك؛ صاحب تسامح ومحبّة وحريّة، ولا يقتل على معتقد ولا يقهر على فكره، ولا يُكره على دين، والذي « يقبل فكرة "لا إكراه في الدين" يكون قد وثق بالإنسان وبفطرة الإنسان وبقدرته على الفهم وتمييز الحق من الباطل، والذين لا يثقون بالإنسان وبإمكاناته على التمييز هم الذين يحرقون الناس ويفكرون عنهم، ويفرضون آراءهم عليهم. والإنسان الذي يفقد ثقته بأفكاره ويفقد ثقته بالإنسان يكون قد فقد الرأسمال الأساسيّ للدعوة، وجدير به أن يكون خاسراً مرتين لا مرة واحدة. لأنه خسر الأفكار وخسر الإنسان، ذلك هو الخسران المبين.» ①

و إذا كان هذا هو الفضاء العام الذي يرضى به الرسول ﷺ، ويتحرك فيه، ويدعو الآخرين أن يرضوا به، ويتحرّكوا فيه ما شاءوا من أفكار ودعوات، فإن الله سبحانه يرسم للنبيّ منهجاً للدعوة إلى سبيل الله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿النحل: 125﴾.

في هذا النص القرآني الكريم يبيّن الله لرسوله نه –كداعية– يدعو إلى سبيل الله، رب الناس جميعا، وأنه سيتوجّه إليهم ككيانات كاملة متكاملة، لهم عقول تفكر، ولهم عواطف تتأثر، ولهم فِطَرٌ تستجيب، وعليه، فإذا توجّه إلى عقولهم عليه أن يستعمل الحكمة، التي تعرف كيف ترتب نتائج على مقدمات، وإذا توجه إلى عواطفهم عليه أن يستعمل الموعظة الحسنة التي تعرف كيف تتلطف مع المشاعر وكيف تصانع الأحاسيس.

① جودت سعيد : لا إكراه في الدين ، العلم والسلام للدراسات و النشر، دمشق، ط1418، ص28

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و قد تمتد عملية الدعوة وتتشعب، فتصير حوارا ونقاشا فكريا، وقد تصير جدلاً، حين يلتمس المحاورون أوهى الأسباب والقضايا لإثارتها بغية تحقيق تقدّم ما على جبهة النقاش و الحوار. « و في ضوء ذلك كله ينشأ الجدل ويتحوّل إلى أسلوب من أساليب الإقناع تارة، و التبرير تارة أخرى، أو التلاعب بالألفاظ و التركيز على القوة البيانية التي تتلاعب بالمفاهيم مرة ثالثة... كل ذلك في محاولات متنوعة، تستهدف الدخول في المعركة الفكرية والعقائدية التي تخوضها كل الأطراف لتسجل لنفسها الانتصار، أو تواجه في موقفها مرارة الهزيمة.

و لابد للحق –في مثل هذه الأجواء– أن يواجه ذلك كله بأساليب مماثلة أو متفوقة، لأن الطريق إلى فكر الإنسان و قلبه لم تعد خالية، بل أصبحت مزدحمة بكثير من المفاهيم والآراء التي تحجب عنه الحق أو تمنعه من وضوح الرؤية، مما يتطلب جهدا كبيرا في تمهيد الطريق التي يسلكها إلى حياة الإنسان الفكرية والعقيدية من حيث الأسلوب و الفكرة » ① . عند هذا الحدّ، على الرسول ألا يجاريهم في جدلهم، و أن يحاول تهدئتهم بالتي هي أحسن، حتى لا يُجرّ إلى المراء والنقاش البيزنطيّ، الذي يصير هدفاً أساسياً لهم، من أجل الهروب من وجه الحق والحقائق، وتمييع الدعوة هدفاً وأسلوباً، حتى تصير ضرْباً من ضروب اللغو وترف الحديث، ما لها من وقار المبادئ والدعوات الجادة شيء.

و للشهيد "سيد قطب" كلام جميل في مسألة المجادلة بالحسنى، إذ يقول: «... وبالجدل بالتي هي أحسن. بلا تحامُل على المخالف و لا ترذيل له وتقبيح. حتى يطمئن إلى الداعي، و يشعر أنْ ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، و لكن الإقناع و الوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها و عنادها، و هي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق، حتى لا تشعر بالهزيمة. و سرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي و قيمتها هي عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها. والجدل بالحسنى هو الذي يُطامن من هذه الكبرياء الحساسة، و يشعر المجادل أنّ ذاته مصونة، و قيمته كريمة، و أنّ الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها. في سبيل الله، لا في سبيل ذاته و نصرة رأيه و هزيمة الرأي الآخر...» ②

و هذا الذي يجعل الرسول –بأمر من الله– يتقدم خطوة جريئة، في سبيل ديمومة الحوار وجديته، فيفرغ الجوّ من الأفكار المسبقة، و يجعل الحقّ غير منحاز، لا إلى جهته، و لا إلى جهة الآخرين، بل يجعل الحق هدف الجميع، ثم يدعوهم إلى البحث المشترك عن الحق و الهدى، فحيثما وُجدا وجب اتّباعهما، دون النظر إلى من اكتشفهما أو قال بهما أو هدى إليهما، فيعلن أمام الملأ أنه لا يدّعي ملكية الحق والحقيقة والهدى، وكذلك هم لا يملكون شيئا من ذلك، إنما الموقف كله شك يبحث فيه الجميع مشتركين عن اليقين. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿سبأ: 24﴾.

---

① محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن، ص21

② سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 4، الجزء 14، ص2202

و إن نصّاً قرآنيا كريما كهذا، ليوحي بمدى حيوية الطرف النبويّ في الدعوة والحوار، ومدى ثقته في خطابه ومبادئه كذلك، بحيث يلقيها على طاولة النقاش مجرّدة من كل شيء، إلاّ من أصالة الحق التي تحمله في داخلها، أو حماسة الرسول لها، وإنه في هذا ليشبه صاحب الخيل الكريمة الأصيلة وهو يراهن عليها بكل ما يملك في أي حلبة سباق.

« و لعلّ وجه القيمة في هذا الأسلوب، أنه يجرّد الموقف من حالات التعصب والتزمت التي تحجّر الفكرة فلا تسمح لها بالتحرّك الذي تخوض معه قصة الصراع من جديد. فيكون الموقف الإيماني واضحاً قويّاً يتحدّى ويقبل التحدي، بحيث يكون جاهزاً لذلك، في كل وقت، كلّما برزت هناك حاجة جديدة للصراع، أو كلما استطاع الخصم أن يحصل على دليل جديد للفكرة المضادة » ①، ففي خطوة أكثر حسما، يقول الله لرسوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿القصص: 49﴾. فهؤلاء المحاورون لم يعجبهم القرآن، كما لم تعجبهم التوراة من قبل، فالرسول يعرض عليهم أن يأتوه بكتاب أهدى من التوراة وأهدى من القرآن، وسوف يجدونه أوّل المتبعين له والمؤمنين به، فالمسألة مسألة هدى لابد أن يُتّبع، دون الالتفات إلى مصدره أو من قال به.

المبحث الثامن: وظيفة النبي

غالبا ما يكون ظهور الرسول لتقويم اعوجاج استشرى في أمة أو لمعالجة مرض اجتماعي ينخر كيانـها و يوهي بناءها. وغالبا ما يكون ذلك الاعوجاج أو ذلك المرض دعوةً إلى إعادة بناء شاملة، و إعادة ترتيب للأوضاع، تمسّ كل شيء له تأثير في الكيان الاجتماعي، سواءً كان ماديا أو معنويًا، فرديًا أو جماعيا و بمعنى آخر فإن حركة النبيّ -في أهدافها البعيدة- تهدف إلى إضفاء الطابع الإنساني على المجتمع البشري، من خلال إحداث التناغم والتكامل والانسجام بين مكوّناته الأساسية، ولن يتسنّى له شيء من ذلك إلاّ بالارتكاز على نقطة جوهرية وأساسية هي عبادة الله وتوحيده. لأنّ المقدس هو مصدر القيم والمُثل والشرائع والأخلاق، ولن تستقيم شؤون مجتمع له آلهة متعدّدة، وقيم شتى متنافرة، وشرائع متضاربة، وأخلاق يسفّه بعضها بعضا.

« و من ثم كانت عناية الإسلام الكبرى موجهة إلى تحرير أمْر العقيدة، وتحديد الصورة الصحيحة التي يستقر عليها الضمير البشري في حقيقة الألوهية و علاقتها بالخلق و علاقة الخلق بها، فتستقر عليها نظمهم وأوضاعهم، وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، و آدابهم و أخلاقهم كذلك، فما يمكن أن تستقر هذه الأمور كلها، إلاّ أن تستقر حقيقة الألوهية، و تتبيّن خصائصها و اختصاصاتها.» ②

---

① محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن، ص56

② سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي و مقوماته، ص38

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و إن تحرير أمر العقيدة لن يتمّ بمعزل عن أمور أخرى، منها المادية ومنها المعنوية، ولن يتم إلا ضمن دوائر متعدّدة متكاملة، يفضي بعضها بعضاً؛ فإحياء مشروع الفطرة في أعماق الإنسان: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ ﴿الأعراف: 172﴾، هذا الإحياء لن يأخذ معناه وحقيقته إلا ضمن تحديد "رسالة وجودية" للإنسان ورؤية وجودية له، يصير من خلالها واعياً بذاته، وبالفضاء البشري والطبيعيّ من حوله، محدّداً لكل مخلوق وظيفته وقيمته.

و في هذا السياق يقول الشيخ "محمد مهدي شمس الدين" و هو يعدّد وظائف النبوة :

« الأول: وهو أهمها، إحياء الفطرة الإنسانية الصافية المستقيمة، هذه الفطرة التي يهتدي بها الإنسان إلى الإيمان الصحيح بالله سبحانه و تعالى، ويدرك بها كونه مخلوقاً لله، و من ثم يدرك موقعه في الكون، و يترتب على هذا الإيمان الواعي تصحيح المسار الإنساني في طريق التكامل، يجعل حركة الإنسان التاريخية وثيقة الصلة بعقيدة التوحيد و متفرعاتها.» ①

أما الشيخ "أبو الحسن الندوي" فيرى أن وظيفة النبيّ ممتدّة وشاملة، بحيث تلامس كل شيء في الحياة، له تأثير أو تأثر بحياة الإنسان، لكنّ هذه الوظيفة تركّز على الإنسان بالأساس، باعتباره حجر الزاوية في البناء الكوني، ويتم ذلك عن طريق التوجّه إلى نفسه، لأنها النقطة المركزية في عملية التغيير بما انغلقت عليه من قابلية للخير وقابلية للشر.

« إن الشرّ كل الشر في أن يريد الإنسان الشرّ، وإن الخير كل الخير في أن يريد الإنسان الخير، وكان منبع هذا الخير دوماً تلقين الأنبياء وتعليمهم. هم الذين كانوا -في كل عصر من عصورهم- يبعثون في أمتهم و في جيلهم طبيعة حبّ الخير وكراهة الشر، والانتصار للحق ومحاربة الباطل والفساد. وكانت كلما ضعفت هذه الطبيعة، وتحوّلت الطبيعة الإنسانية طبيعة بهيمية أو سبعية -كما شاهدنا في الأمم التي قصّ الله علينا قصتها في القرآن- عالجوها و حوّلوها إلى طبيعة إنسانية كريمة رقيقة، و وُجد -بتعليمهم الفاضل و جهادهم المتواصل و نسيانهم أنفسهم و لذاتهم ومجازفتهم بأرواحهم ومهجهم وشرفهم- في هذه الأنعام السائمة و السباع الضارية، رجال تعطّرت بأنفاسهم الدنيا، وتجمّل بهم تاريخ الإنسانية، و فاقوا الملائكة في السموّ و علوّ المدارك. » ②

و في موضع آخر يؤكد أن الدور النبويّ يتسع أكثر، متجاوزا دائرة العقيدة والشريعة، ليتسرّب إلى كل حيثيات الحياة وكل تفاصيل الاجتماع البشـــري، فينفخ فيه روحاً جديدة، تكسبه حيوية أكثر فعالية وجدوى، لأنه يجعله متّسقا مع السنن الضابطة للكون كله. يقول "أبو الحسن الندوي": « إن الأنبياء عليهم الصلاة و السلام، لم يدعوا إلى عقيدة و شريعة فحسب، و لم يحملوا دينا جديدا -هو الإسلام- فحسب، بل

① محمد مهدي شمس الدين : حركة التاريخ عند الإمام علي، ص75

② أبو الحسن الندوي : النبوة و الأنبياء في ضوء القرآن، دار القلم، دمشق، ط(6) 1404هـ، ص41

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كانوا مؤسسي حضارة و مدنية و عشرة اجتماع، و أسلوب من الحياة جديد خاص، جدير بان يُسمّى الحضارة الربانية، و لهذه الحضارة أصول و دعائم وعلامات و شعائر، تمتاز بها عن الحضارات الأخرى، الحضارات التي تسمّى الحضارات الجاهلية، امتيازا واضحاً، امتيازاً في الأســاس، و في الروح، و في الأشكــال و التفاصيل. » ①

و ليس بعيدا عن هذه المبادئ والمحاور، تتحدّد وظيفة النبوة لدى السيد "باقر الصدر"، فهي عنده رِهان –بالأساس– على الإنسان/الفرد، من خلال تزكيته وتنمية القابليات الخيّرة لديه على محاور ثلاث؛ المحور الأول: بين الإنسان وبين الله بتزكية رابطة العبدية و العبادة. والمحور الثاني: بين الإنسان والطبيعة، بتزكية رؤية الاستخلاف والتسخير. والمحور الثالث، بين الإنسان والاستخلاف، بتوجيه سننية الاختلاف والتعارف نحو التكامل والتعاون الإنساني.

يقول "محمد باقر الصدر": « ومهمة الأنبياء تُحدّد في بناء الهيكل الروحاني للأفراد –إبتداءً–، والعلاقة بين الإنسان وبين ذاته هدف من أهداف البعثة، وعليه، فإن أساس التكامل هو تكامل "أخلاقي"، نابع من "ثورة" الذات على نوازعها، وإقامة العلاقات المتوازنة بين محاور:

– الله – الإنسان

– الطبيعة – الإنسان

– الإنسان – الإنسان.» ②

و النبيّ، عندما يستهدف تغيير الإنسان من داخله، أو "صناعة" المحتوى الفحويّ للإنسان، فإنه يستهدف من وراء ذلك، ضمان نجاح عملية التغيير الجذري للواقع الإنساني، أي، "البناء العلويّ".
فكثير من الحركات التغييرية راهنت على تغيير الواقع الخارجي أمَلاً في تغيير الإنسان، لكن كان رهانها فاشلا، إذ سرعان ما أعاد الإنسان إفراز الواقع الذي تغيّر، لأنه يستبطنه في ذاتـــه، و لأن عملية التغيير لم تتم بإرادتـــه و وعيه وحريته.

و من ثم نجد « أن النبوة تستهدف أن تصنع الإنسان من داخله، و تستهدف أن تصنع للإنسان قاعدة فكرية تقدم على أساس بنائه "الداخلي"، ثم تقيم على أساس هذا البناء الداخلي البناءَ "الخارجي" للإنسان.» ③

و ليس البناء الداخلي للإنساني سوى فطرة سليمة، و شعور بالأصلة الإنسانية، وكرامة الإنسان وتفرّده بين مخلوقات الله، وينبثق عن هذا كله من الشعور بالحرية والعقل كوظيفة من أجل أداء رسالة وجودية سامية

① ن. م: ص98
② محمد باقر الصدر: النبوة، الخاتمة، ص28
③ن. م : ص51

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هي الخلافة عن الله، بكل تبعاتها الثقيلة و تكاليفها المرهقة، « و على ذلك يكون مسير الأنبياء "ثورات" مبدئية في صراع دائم و مرير، تنشأ عليه سيادة العقل و حريّة الإنسان، و هو طرف آخر في معادلة (الإنسان — الإنسان)، تلغي فواصل الاستغلال المشوب بالظلم و الاضطهاد بين بني البشر على الأرض، و تخلق سيادة مطلقة لله وحده. و من هنا فإن كل سيادة للإنسان على الإنسان ملغاة ضمن أهداف الأنبياء.» ①

و النبيّ لا يستهدف في حركته العدوّ الماثل المشهود، المجسّد ميدانيا في شخص ظالم جبار، أو فرعون مستبد، أو قارون بخيل مترف، بل يستهدف الجذور النفسية لهذه النماذج الإنسانية، فالتجبّر والظلم والتفرعن والرغبة في ممارسة الترف، كلها غرائز شتى لها جذورها في النفسية الإنسانية، لم تجد من يهذبها ويشذ بها، ويصنع منها فعاليات مبدعة خلاّقة، فانحرفت طاقاتها -تحت ضغط شروط العالم الموضوعي- إلى الهدم بدل البناء. ولهذا نجد النبيّ يتحرّك من أجل تحطيم الأغلال النفسية، والأغلال الأخرى المجسدة في واقع الناس، فهو يمزج بين الجهاد الأكبر، وبين الجهاد الأصغر، ويعتبر مقاومة الجذور النفسية للانحراف الجهاد الأكـــبر، بينما يعتبر تطهير الواقع الاجتماعي من الظالمين والمنحرفين، الجهاد الأصغر. « و تسير العمليتان في ثورة الأنبياء جنباً إلى جنب، فالنبي ينتقل بأصحابه دائماً من الجهاد الأكبر إلى الجهاد الأصغر، ومن الجهاد الأصغر إلى الأكبر، بل أنهم يمارسون الجهادين في وقت واحد (...) وعلى هذا الأساس نؤمن بأن الثورة الحقيقية لا يمكن أن تنفصل بحال عن الوحي والنبوة ومالهما من امتدادات في حياة الإنسان، كما أن النبوة و الرسالة الربانية لا تنفصل بحال عن الثورة الاجتماعية على الاستغلال و الترف و الطغيان. (...) فالنبوة ظاهرة ربانية تمثل رسالة ثورية، وعملاً تغييرياً و إعداداً ربّانيا للجماعة لكي تستأنف دورها الصالح.» ②

و تصديقا لهذا، يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿الأعراف: 157﴾.

فهذا النص القرآني الكريم يحدد بعض وظائف النبي، و هي كما تبدو موزعة بين مجالات شتى، منها النفس، و منها العادات و التقاليد، ومنها العلاقات الاجتماعية، والاقتصادية و غير ذلك ممّا يؤثر -بدرجة أو بأخرى- في وعي الإنسان و إحساسه برسالته الوجودية، فلا توجد مساحة من مساحة حياة الإنسان لا تطالها دعوة النبيّ تقويما وتصويبا.

و الملاحظ « أن الأنبياء بُعثوا دائماً في بيئة مظلمة خانقة، معارضة لدعوتهم، ثائرة عليها، وبُعثوا في ضعف شديد، وفقر تامّ في الأسباب، وكان كل ما يعتزّ به إنسان من مال و ملك وشيع و أنصار، و الأسباب

① ن. م : ص29

② باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، ص160

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المادية في جانب أعدائهم، وفي كفتهم، وتحت تصرّفهم، و لم يكن في جانب الأنبياء وكفتهم إلا الإيمان القويّ الذي لا يرقى إليه شكّ، والإخلاص الذي لا يشوبه طمع أو نفاق.» ①

و سيكون من العسير الإلمام بوظيفة النبيّ في القرآن، في فصل -أو بعض فصل- باعتبار أن حركة النبيّ تمتد -عمْقاً واتّساعاً- لتطال كل حركة في الحياة، خاصةً في جانبها المتعلق بالإنسان، وتهيئته لأداء دوره الاستخلافي في هذا الوجود.

و لكن من خلال "قراءة استقرائية" للقرآن الكريم، يمكن تسجيل النقاط التالية، كخطوط عريضة تتحرّك في نطاقها وظيفة النبي، والتي من خلالها -الخطوط العريضة- يسعى إلى إخراج المجتمع المؤمن الزكيّ، الذي يتحرّك في الحياة الدنيا بحسابات الآخرة.

و أهم هذه النقاط والخطوط، التي تشكل وظيفة النبي ما يلي:

1- الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، واجتناب ما دونه من الآلهة والأرباب:

و هذا هو المحور الأساس في دعوة كل نبيّ. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ﴿النحل: 36﴾.

2- البشارة والإنذار:

و النبيّ لا يبشر بالجنة و ينذر من النار فقط، إنما ذلك جزء من بشارته و إنذاره، إنه يبشر بالعدل و المحبة و الحرية، والنور، وينذر من عواقب مخالفته، وتستتبع من هلاك ودمار، وقلق. قال الله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿الأحزاب: 45﴾.

3- الدعوة إلى الله:

إنّ النبيّ لا يملك وليّاً إلا الله، و لا يملك اتجاهاً إلاّ ذاك الاتجاه الذي يهدي إلى الله، و من ثم يكون بكل كيانه، وبكل وجوده متوجّها صوب الله، وهو خلال ذلك يشعر بأصالة إنسانيته وحقيقتها، فيدعو الناس جميعا إلى الله سبحانه، الذي منه يُستمدّ التكريم، وتُستمدّ الأصالة الإنسانية، فكل طريق لا يقود إلى الله هو طريق مشبوه، دون النظر إلى طبيعة المعالم والشعارات التي تتوزع عن يمينه وشماله.

قال الله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ ﴿الأحزاب: 46﴾

①أبو الحسن الندوي : النبوة و الأنبياء في ضوء القرآن، ص109

4- الشهادة:

و هي أن الرسول يوضّح للناس سبُل الهداية و الرشاد، ثم يشرف على أن يسلك المؤمنون هذه السبل حتى لا يقع منهم إفراطٌ أو تفريط، أو تحريف أو تزييف. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: 8]. و قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: 44].

5- إخراج الناس من الظلمات إلى النور:

و الظلمات رمز لكل ما يجعل الإنسان لا يهتدي إلى طريق، و لا يعرف له اتجاها، و لا يحدّد له مسيرا و مصيرا. وما أكثر الأشياء والقيم والمفاهيم والتصوّرات والمشاعر، والعادات والتقاليد، التي تكون في حقيقتها بمثابة ظلمات بعضها فوق بعض، ما يخرج الإنسان من إحداها إلاّ إلى أخرى أكثف وأشدّ حلكة.

أما النور فهو رمز للحرية والانطلاق على هدى من الله، هو رمز لكلّ ما يجعل الإنسان يعثر على ذاته فينمّيها و يزكيها، ويهتدي إلى أصالته وكرامته، فيحافظ عليها من أن تنتكس أو ترتكس في حمأة الجاهلية، ويعرف مكانته وقدره في هذا الوجود، فينطلق على ضوء تلك المشاعر والقيم ليؤدي دورة الاستخلافيّ، ممتلئاً بسلام في الشعور، وراحة في الضمير، وطمأنينة في النفس، ويقين في الفكر، مستمداًّ كل طاقته وقوته من الله.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: 5].

و قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: 9].

6- تلاوة الآيات والكتاب:

هذه الوظيفة متكاملة مع الوظيفة التي سبقت، فالنبيّ لا يخرج الناس من الظلمات إلى النور إلا بما يتلوا من آيات و كتاب. تلك الآيات وذاك الكتاب، الذي هو -بكل ما فيه- مفتاح للفطر الغافية، وتنبيه للعقول الراكدة في العادة و الألفة. وكم هي عظيمة المنّة الألهية على الناس، حين يجتبي أحداً منهم ويصطفيه، ليقرأ عليهم قوله وكلامه، و ما فيه من حكمة وعظات. قال الله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

7- التزكيّة:

التزكية هي أن يعمد الرسول إلى القابليات الخيّرة في الإنسان، فيطوّرها وينمّيها، بأن يحرّرها من ضغط شوائب الجاهلية و أدرانها، ثم يتعهّدها بالرعاية والتوجيه، حتى تؤتي أكْلها إنساناً متميّزاً، متساميا، موصولاً بالله في كل حركاته وسكناته، إنسانا قدوةً ونموذجاً للآخرين الذين ما زالوا في صورة "خام". فالتزكية تطهُّر وترفّع وسموّ، وتحرّر وانعتاق، فالرسول « يطهر أرواحهم من لوثة الشرك ودنس الجاهلية، ورجس التصوّرات التي تثقل الروح الإنساني وتطمره. ويطهرهم من لوثة الشهوات والنزوات فلا ترتكس أرواحهم في الحمأة. والذين لا يطهر الإسلام أرواحهم في جنبات الأرض كلها قديما وحديثا يرتكسون في مستنقع آسن وبيء من الشهوات والنزوات تزري بإنسانية الإنسان.» ①

8- تعليم الكتاب الحكمة:

دائما يرتبط الكتاب بالحكمة في القرآن، فلا يُذكر الكتاب إلاّ ذكرت الحكمة، والرسول، بصفته معلّما، يعلم المؤمنين الكتاب والحكمة.

و قد يكون الكتاب هو ما يتلقاه الرسول ﷺ عن الله من الوحي، و قد يكون الكتاب هو القراءة والكتابة، وإن الرسول ﷺ ليفعل ذلك كلّه بل يتابع ذلك ميدانيا حتى يراه سلوكاً دافعاً، أو خلُقاً وازعاً رادعاً، ويعلمهم مع ذلك الحكمة، التي من بين معانيها، فعْلُ ما يجب في الوقت الذي يجب، بالطريقة التي تجب. بمعنى أنه يعلمهم المنهجية، منهجية القراءة، منهجية الدعوة، منهجية العمل، منهجية تنزيل الكتاب إلى واقسع الناس، منهجية الاختلاف والحوار وغير ذلك من وجوه الحكـــمة التي لا تنتهي، ومن ثم قد نقول: أنه لا كتاب بلا حكمة، ولا حكمة بلا كتاب، فكلاهما يستلزم الآخر و يستدعيه.قال الله تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران: 81]. وقال سبحانه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 151].

« و على ضوء هذا فالمراد بالحكمة -فيما نفهمه منها- هو السَّير على الطريقة الواقعية للعمل، ونعني بها تلك التي تلاحظ الواقع الخارجي للمجتمع الذي تعيش فيه و تدرس ظروفه العقلية، و النفسية و الاجتماعية، و تضع كل ذلك في حسابها قبل بداية العمل (...) ومن خلال هذا العرض نستطيع أن

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 1، الجزء 2، ص139

نخلص إلى القول أن الحكمة ليست مجرّد معلومات يختزنها الإنسان في فكـره تماماً، كأي شيء مما يبني الفكر و يثيره، وليست أسلوبا مميّزا في الممارسة العملية للأشياء في المجالات الخاصـة والعامة، أو حالة داخلية تطبـع شخصية الإنسان فتجعل منه عنصـرا فاعلاً في تدبـير الحياة وتنميتها على أساس متين، بل هي عبارة عن ذلك كله في مزيج، تتفاعل فيه المعلومات بالواقع المنفتح على حركة الشخصية في الحياة. » ①

9- وضع الأصر والأغلال:

قد يكون الأصر والأغلال -في معناه البعيد- هو تلك المعوّقات والكوابح، التي تجعل حركة الإنسان ثقيلة بطيئة، ورؤيته يشوبها قصور وغبش، خاصةً منها ما شابه الدين في حجّيته والزاميته، كالتقاليد والأعراف والعادات، التي لا يستطيع أحد منها فكاكا. فالنبيّ يتولّى مهمة وضع هذه الأغلال النفسية عن الناس، ويخرجهم من العادات وضيق التقاليد إلى رحابة دين الله وسعته، وسهولته وسماحته، وحريته وانطلاقه. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ «الأعراف: 157».

10- تحرير الناس:

إن النبي كما يعمل على تحرير الناس داخليا، من خلال وضع الأصرار و الأغلال، التي تكبّل أرواحهم و تغلّ مشاعرهم وأفكارهم، فإنه يعمل كذلك على تحرير الناس خارجيا، و من خلال إزاحة كل المعوقات التي تقف في وجه الناس كي يصيروا أحرارا ذوي كرامة و أصالة و رؤية رسالية.

وخير من يمثل هذه المعوقات هي القوى الرجعية الحاكمة، التي ترى في أي فكرة تحررية، أو أي خطوة نحو التحرّر، ترى فيها خطراً عليها مصالح ووجوداً.

قال الله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ «طه: 47».

وقال سبحانه: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ «الدخان: 18».

11- هداية الناس:

إن الرسول يحمل معه كتابا من عند الله، فيه تفصيل كل شيء، وتبيان كل أمر، وهو بذلك يخرج الناس من السبل المتعددة، التي اختطّتها المصالح، وابتدعتها الأهواء، ليهديهم إلى الصراط الأصيل، الذي مسـ

① محمد حسين فضل الله : مع الحكمة في خط الإسلام، ص22

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خُلقوا إلا ليمشوا عليه، كي يصلوا إلى حقيقة هدفهم الذي يسعون إليه، وكي يحققوا رسالتهم الاستخلافيــة، وهذا الهُدى يوفّر عليهم جهدا ومشقة، وقوة وطاقة، كانت ستضيع بحثا عن السبيل، وبحثا عن الهدف، وبحثا عن المنهج و الوسائل.

قال الله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿الشورى: 52﴾.

وقال سبحانه: ﴿يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ ﴿مريم: 43﴾.

ودعوة الأنبياء جميعها تستهدف هداية الإنسان، من خلال تغيير وجهة ضميره وتصوره، وروحه ومشاعره و فكره و نفسه و خطاه نحو الله، وتلك هي الهداية، التي سوف تنتج التغيير اللازم في حركة الحياة.

12- الدعوة و التبليغ:

إن الرسول هو حامل رسالة من مصدر إلى جهة، وهو بصفته مجتبي ومصطفى، فهو صادق وأمين في تبليغ هذه الرسالة، وليس له بعد التبليغ أن يؤمن الناس أو يكفروا، لأنه لا إكراه في الدين، وليس عليه هداهم، إن عليه إلا البلاغ.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿العنكبوت: 18﴾.

و قال سبحانه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿المائدة: 92﴾.

و ذاك لئلاّ يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل.

13- النصح الأمين :

لا شك أن الرسول يعلم من الله ما لا يعلمه الآخرون، وهذا الذي يجعله أكثر حرْصاً على الناس من الناس أنفسهم، فلا يكتفي بتلك الصيغة البسيطة في البلاغ، التي تكتفي بالإخبار، ليتخلّص بعدها من تكاليف الدعوة وأعبائها. بل إنه يكلّف نفسه جهدا معتبراً آخر، بأن يأتي الناس من شتى الأبواب، وأن يدخل عليهم نفوسهم من شتى الحالات، وأن يهز مشاعرهم بشتى المواعظ، ولذا فهو ينفخ حرْصاً على الناس ونصْحًا لهم، فيه الصدق وفيه الأمانة، وفيه كل ما يختلج في نفس النبيّ من حبّ للناس وخوف عليهم.

و هذا الإلحاح في النصح، يبلغ حدّاً، يقول فيه القرآن : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ﴿الكهف: 6﴾. و يقول سبحانه : ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿فاطر: 8﴾

أما في ما يتعلق بالنصيحة، فإن الأنبياء يكررون كلمة واحدة هي : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ ﴿الأعراف: 68﴾، معبّرين بذلك عن خطورة ما يعلمون أنه سوف يصيب أقوامهم إذا هم آثروا الانحراف على الاستقامة، و الضلال على الهدى. و عما ما سوف يحصل عليه أقوامهم، إذا هم اتّبعوا نصيحتهم...

14- الإحياء:

إن النبيّ لا يحيي من جرى عليه الموت الطبيعي، فذلك من شأن الله سبحانه، لكنه يحيي من جرى عليه الموت التاريخي، فصار حيا على هامش الحياة المضطربة، ككتلة بيولوجية فقط، أما كوجود قيمي فهو في حكم الأموات.

إنّ النبيّ ينفخ الحياة في الآليات الاجتماعية، ويرتفع بها إلى الفضاءات المثلى، ويعطيها أبعادها الإلهية الراقية، ويجعلها تقوم على الوعي النامي المتطور، لا على التقليد الجامد الساكن.

إن المجتمع الذي لا تقوم حياته على القيم والمبادئ مجتمع ميّت في المنظور القرآني، إنه كالقطيع، بل هو أضلّ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ﴿الأعراف: 179﴾.

و دون شكّ، هناك فرق بين هذا الصنف، وبين الصنف الآخر، الذي فتح الرسول قلبه وعينه وبصره، فهو على نور من ربّه، وعلى بصيرة من أمره، يفعل في محيطه ويتفاعل معه تفاعلاً واعيا ناميا، يعيش الحياة بعمق وبكل امتلاء. يقول الله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ ﴿الأنعام: 122﴾.

« إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية، التي لا تفنى و لا تغيض و لا تغيب. فهو موت...و انعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة في الوجود كله...فهو موت...وانطماس في أجهزة الاستقبال و الاستجابة الفطرية... فهو موت...و الإيمان اتّصال، و استمداد، واستجابة... فهو حياة...» ①

و يقول سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ﴿الأنفال: 24﴾.

فدعوة النبي دعوة إلى الحياة على المستوى الإنساني الأصيل، حياة تنبع من القلب العامر الإيمان، و من المشاعر التواقة إلى معانقة المطلق، و من الأحاسيس المحلقة فوق ملابسات الواقع، و من الضمير اليقظ الذي يزن كل شيء بميزان الآخرة، و من الفكر المتحرّر من الأوهام، المنطلق من أغلال الخرافة و الأساطير و السلفيات المخرفة.

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 8، ص1200

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

15- الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يعني الالتزام الاجتماعي، الذي يتبناه الفرد (أو الجماعة) اتجاه مجتمع ما، من خلال التحرّك الفردي أو الجماعي من أجل محاربة الأخطاء، لئلاّ تصير خطايا، ومحاربة اللمم لئلاّ يصير ذنبا، ومحاربة الذنب لئلاّ يصير معصية، يقف و راءها الوعي و الإرادة و النية المسبقة... إنه تلك المراقبة الدائمة لشبكة العلاقات الاجتماعية لئلاّ تُحقن بجرثومة الانحراف والفساد. لأن تراكم الأعمال السيئة المنكرة، وتوالدها عن بعضها بعضاً، يفضي بالضرورة إلى خلق المشاعر الغليظة، و الضمير المطموس، والقلب الجافي، و الفكر الغافل، الذي لا يرى أيّة غضاضة في الكفر و ما شابه الكفر. يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿الروم: 10﴾.

و بالتالي يكون الأمر بالمعروف النهي عن المنكر مبدأ رساليا صميما، يُساعد على تهيئة الجو النفسي و الشعوري والاجتماعي، الذي يُبقي التوتر الإيماني حيًّا و عاليا، و من جهة أخرى يعمل على تخفيف منابع الجاهلية، بمحاربة الأجواء النفسية الاجتماعية، التي تساعدها على الحياة و النماء.

و من هذا المنطلق، يكون الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر وظيفة نبوية أصيلة، و هي مبدأ أساس في دعوة كل نبي أو اتباع نبي.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ﴿الأعراف: 157﴾.

16- التحليل و التحريم :

إن مسألة تحليل الأرزاق و تحريمها مسألة حساسة و خطيرة، لأنها تتعلق بالتشريع، و التشريع يتعلق بالحاكمية، و الحاكمية تتعلق بالربوبية، و من ثم يكون من شرّع من عنده على غير هدى من الله، يكون قد ادّعى الربوبية سواءً أقرّ بذلك أم لم يقرّ. هذه المسألة أثارها القرآن الكريم، لأنها مسألة حساسة في البناء الاجتماعي، سواء في جانبه الأخلاقي أو الاقتصادي أو النفسي أو التشريعي.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ﴿الأعراف: 32﴾.

و يقول سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿المائدة: 87﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿يونس: 59﴾.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن الذي خلق الأرزاق و أنزلها لعباده، هو الذي يعرف ما يناسب عباده منها و ما لا يناسب، لأنه خلقه و أنزله لأغراض أخرى، و لمخلوقات أخرى، لكنّ الناس، و باسم التزمت حينا، و باسم الأهواء أحيانا أخرى، يعمدون إلى هذه الأرزاق، فيجعلون منها حراماً وحلالاً بدون حكمة وبدون دليل، فيضيّقون على الناس، و يوقعوهم في العسر و الحرج، وهم لا يكتفون بهذا، بل يزعمون أن الله قد قال هذا أو أذن به،حتى يكون عملهم هذا مقنعا و رادعاً لعامة الناس.

و في خضم هذه الفوضى التشريعية، يتدخل الرسول ليبيّن الحلال والحرام، كما أوحى إليه ربه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: 151]. ومن ثم يحلّل النبي طيّبات جعلتها أهواء الناس حراماً، ويحرّم فواحش وأرجاساً جعلتها شهواتهم حلالا... وكل هذا واضح في القرآن الكريم و مفصّل.

17- قيادة الجهاد:

إن دعوة النبي عادلة، و بالتالي: فإنها تصطدم بمصالح الظالمين، الذين يستمدون امتيازاتهم المختلفة من الآليات الاجتماعية القائمة على الزور والجور. وهم لا يملكون الفطرة السليمة التي تجعلهم ينقلعون تلقائيا و بمحض الإرادة و الوعي، من تلك المصالح الموبوءة و الامتيازات الحرام، و بالتالي لابد أن يُقتلعوا بحُكم الحيوية الإيمانية التي يقذفها النبيّ في قلوب المؤمنين، ومن ثم يكون الصراع المسلح ضرورةً وحتميّة، يقوده الملأ من الطرف الاستكباريّ، و يقوده النبي من الطرف المؤمن.

و الآيات تؤكدّ على هذا، و توضحه، و تفاصيله كثيرة في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة:73]

18- الحرص على المؤمنين :

كل تصرفات النبي مع المؤمنين، تتسم بالحرص عليهم، و الرأفة و الرحمة بهم، حتى في الأمور التي تحتاج إلى مشقة وجهد، وفي التكاليف التي تحتاج إلى صبر ومصابرة، فهو يعزّ عليه أن يراهم حفاة عراة وجياعاً، ويعزّ عليه أن يراهم بلا حامٍ ولا نصير ولا ركن شديد، إلا ما يختزنونه في صدورهم من إيمان وصبر، ويعزّ عليه أن يراهم يدفعون ثمن المفاصلة وإعلان البراءة مع أقوامهم، فيكون التشريد في المنافي، والإخراج من المال والأهل والولد، وهو لا يكفّ عن الدعاء لهم والصلاة عليهم استجلاباً للسكينة واستنزالا للرحمة والقناعة والرضا.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و التعبير: ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يشي بعمق العلاقة ومتانة الوشيجة، وحميمية المشاعر التي تربط الرسول بالمؤمنين، و من ثم تنبع المشاعر الحانية و السلوكات الرحيمة، والحرص الذي يتابع كل صغيرة وكبيرة، تمس المؤمنين في أبدانهم ومشاعرهم وعواطفهم، ومن ثم تكون الرأفة والرحمة، والإيثار والتواضع والتودّد، والتفقد المستمر، وما ذلك من الرسول إلا لشعوره بجسامة المسؤولية، وحتى لا يشعر المؤمنون أن المفاصلة الإيمانية قد كلّفتهم وأجهدتهم. ومن شدة حرص النبيّ عليهم ،أنه كان لا يطيعهم في كثير من الأمور والمواقف، التي تكلّفهم مشقة وجهدا وعنتا.

قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ «الحجرات: 7».

« و من مقتضيات العلم هذا الأمر العظيم أنّ لا يقدّموا بين يدي الله ورسوله. ولكنه يزيد هذا التوجيه إيضاحاً وقوة، وهو يخبرهم أن تدبير رسول ﷺ لهم بوَحْيِ الله أو إلهامه فيه الخير لهم والرحمة واليسر. وأنه لو أطاعهم فيما يعنّ لهم أنه خير لعنتوا وشق عليهم الأمر. فالله أعرف منهم بما هو خير لهم، ورسوله رحمة لهم فيما يدبر لهم ويختار.» ①

19- التبيين:

إذا كانت البيّنة هي الدلائل الواضحات، التي تجلّي وتكشف ما غمض من الأشياء والمسائل المختلفة، سواءً كانت عقلية موضوعية، أو إعجازية عن نطاق العقل، حسبها أنها توضح الموقف، إذا كان الأمر كذلك، فإن كل نبيّ قد أتى قومه ليبيّن لهم ما اختلط عليهم وغمض من أمر دنياهم وآخرتهم.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ «النحل: 44».

و قال سبحانه: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ «النحل: 64». واختلافات الناس شتى، وتُعارض مصالحهم أمر حتميّ، وتصعّب كل فريق لمصالحه، ينافح عنها ويكافح أمر طبيعيّ جداً، ومن ثم لابد للناس من جهة عليا، لا مصلحة لها في مصالحهم جميعا، توضح لهم اختلافهم و تبيّنه بما يضمن نماء الحياة و اتّساقها مع السنن المودعة في أعماقها، وهذه المهمة التي يتولاّها الرسول، مزوّداً بكل الدلائل على صدقه ونبله، وعلى تلقّيه البيان من مصدر أعلى، هو رب الناس جميعا. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ «الحديد: 25»

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 6، الجزء 26، ص3342

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

20- الجهاد و إظهار الدين :

ليس النبيّ منظّراً أو مفكّرا، أو كائناً طوباويا، بعيداً عن واقع الناس وما يضطرب فيه. بل انه -وبحكم وظيفة الشهادة التي يؤدّيها- يعيش دعوته ومبدأه بكل عمق و صدق، و يتحرّك به بين الناس داعياً إليه ومرغّبا فيه، ودائما تصطدم دعوته بمصالح الجماعات المستفيدة من الأوضاع المنحرفة و الفساد، التي تسعى إلى إسكاته بوسائل غير انسانية.

و بحكم أن النبيّ أكبر من أن يهادن أو يداهن في دينه، و أشرف من أن يتخذ مبادئه وسائل للاحتيال على الدنيا وهرجها، بحكم هذا كله يجد نفسه مضطراً أن يجاهد حفاظاً على دين الله و إظهاراً له. قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: 28].

فهو يظهره دعوةً ومنهجاً، ويظهره منطلقا ومبدأ، ويظهره أسلوباً حياتيا متميّزاً، يمس كل مناحي الحياة بالإرشاد والتقويم والتوجيه ويظهره فكرة انقلابية، تستهدف استبدال وضع بوضع مغاير، و يظهره مؤسسات اجتماعية قائمة، لها سلطتها في حياة الناس، ويظهره دولةً قوية متماسكة تتعامل مع الواقع البشري من موقع الشهادة، و ما زال دين الحق ظاهراً، حتى في الأوقات التي ينحسر فيها المد الديني، ما زال ظاهراً بطبيعته، وبقوة الحق الكامنة فيه، و بالحجة التي يملكها، و بالبيّنة التي يتوفر عليها، و بالسلطان الغالب الذي يغالب به الآخرين.

« أجل ما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله، من حيث هو دين. فهو الدين القوي بذاته، القويّ بطبيعته، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله! لما في طبيعته من استقامة مع الفطرة ومع نواميس الوجود الأصيلة، ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح، وحاجات العمران والتقدم، وحاجات البيئات المتنوعة، من ساكني الأكواخ إلى سكّان ناطحات السحاب.» ①

21- الحكم بين الناس:

ليس الحكم بين الناس -في المنظور الإسلامي- بالأمر الهيّن البسيط، بل إنه مسألة حسّاسة جداً، لأنّ فيها من المجاهدة والتجرّد ما فيها!. بحيث لا يميل "الحاكم" مع هوى، ولا ينحرف مع شهوة، ولا يدلّس إشباعاً لرغبة مكبوتة فيه أو تطييباً لخاطر واحد من الأشياع أو الأتباع أو الأنصار. إن الحكم بين الناس يُقصَد به إظهار الحق. والحكم للحق قبل أن يكون لصالح فلان أو علان، دون إلقاء بال لما قد يصيب هذا أو ذاك من خير أو شرّ، وإن كان الحكم بالحق خيراً كله، سواءً من حُكِمَ له به، أو من حُكِمَ به عليه، أو من حكَم به وأظهره.

---

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 6، الجزء 26، ص3331

و النبي –باعتباره مستودع وحي الله– هو الأقدر والأجدر بأن يحكم بين الناس بالعدل، لأنه لا يتأثر بالأهواء، والميولات بعد أن اجتباه الله وطهّره تطهيرا.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ ﴿النساء: 105﴾.

و يقول سبحانه: ﴿احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ﴿المائدة: 49﴾.

و ما أكثر أهواء البشر التي تجعل الحكم يجور، والقاضي يظلم، فيجعل كفة المظلوم أخفَّ من كفّة الظالم في ميزان العدل البشري!... وكلها أهواء قد برئ منها الرسول، وبرئ منها منهجه وشريعته، فهو لا يداهن ولا يهادن، ولا يحابي أحداً، ولا يؤثر أحداً على أحد، ولا يخاف في الله لومة لائم.

22- إشاعة الرحمة و السّلام :

إن الرسول مظهر من مظاهر رحمة الله بعباده، والرحمة عِمَاد أصيل من أعمدة دعوته، فهو يقول: "إرحموا تُرحموا" ويقول كذلك: "إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء". يجعل الله سبحانه الرحمة متعلقة بطاعة النبي والانقياد لأوامره، وما ذلك إلاّ لأنّ النبيّ، قد جاء البشرية بدين لا حرج فيه، وقيم لا عنت فيها، وتكاليف سهلة ميسورة، لأنها تتماشى تماماً مع نداءات الفطرة المركوزة في أعماق الإنسان، فبمجرّد ما يعيشها الإنسان، حتى يكتشف أنه يكتشف ذاته ويحقق كمالاته.

ولقد أكّد هذا قول الله تعالى: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾ ﴿آل عمران: 132﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿الأنبياء: 107﴾.

فالرسول الشخص رحمة بتواجده بين قومه، يدعو لهم ويرأف بهم، ويرعاهم، والرسول المبدأ رحمة ممتدة باقية للإنسانية جمعاء، هذه الإنسانية التي ما تنعم بأمن أو رخاء إلاّ عندما تقبس شيئا من مبادئ النبوة ورسالتها، سواءً أقرّت بذلك أم أنكرت.

« فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به طائعة أو كارهة، شاعرةً أو غير شاعرة، وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة لمن يريد أن يستظل بها، ويستروح فيها نسائم السماء الرخيّة، في هجير الأرض المحرق، وبخاصة في هذا الأيّام. و إن البشرية اليوم لفي أشدّ الحاجة إلى حسّ هذه الرحمة ونداها.» ①

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 4، الجزء 17، ص2402

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

23- إقامة العدل في الأرض:

إن الله لم يبعث الرسول إلاّ لضرورة اجتماعية ملحة، تمثلت في الانحراف الكبير الذي أصاب الحياة الجماعية للمجتمع البشري، ممثّلاً في هيمنة الظلم والجور وتوابعهما على الحياة الاجتماعية في شتى مناحيها، مع عجز الصالحين في المجتمع على دفع الظلم أو رفع الجور. ومن ثم يظهر النبي ليقوّم الانحراف ويهدي المنحرفين، ويقاوم دعاة الانحراف ورعاته، فيدعو إلى ضرورة إحلال العدل والقسط في الأرض مسايَرةً لنظام الفطرة المودع في روح الحياة، و الذي لن يغالبه أحد، لأن الله قد خلق كلّ شيء بقدر موزون، وجعل تفاعُل الحياة -بكل ما فيها ومن فيها- بقدر موزون كذلك، إلاّ الإنسان فإنه دائما ينهزم أمام شهواته، و يستجيب لها، فيظلم و يجور، و يُصادم السنن، و يجني من وراء ذلك رهقا ومعيشة ضنكا.

أتى الرسول، ومعه الكتاب، وفي الكتاب الحكمة والميزان، ويطبق أمر ربّه بين الناس، ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ ﴿الشورى: 15﴾.
و يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ ﴿الحديد: 25﴾.

فالرسول يدعو إلى ما هو ثابت في الحياة البشرية، وإلى ما هو مركوز في جبلّتها وفطرتها، وإلى ما هو مركوز في خلْقة الكون الأكبر وفطرته هو كذلك، بعيدا عن الأهواء التي تنحرف بالقيم، وبعيداً عن النوازع التي تنحط بالأخلاق المتسامية، وتشوّه الرؤى والتصورات، وتجور على الديانات فتطوّعها، بل وتبتدع ديانات ذات طواعية لخدمة هذه الأهواء والشهوات، ومن ثم فلابد من ميزان ثابت متجرّد، يلتقي فيه جميع على اختلاف مواقعهم و تصوّراتهم، و لن يكون هذا إلا ميزان الله سبحانه.

"هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف و الزلازل الاضطرابات و الخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء و مضطرب العواطف، و مصطخب المنافسة و حب الذات. فلابد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر، فيجدون عنده الحق و العدل و النصفة بلا محاباة.« ليقوم الناس بالقسط"... فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته، لا يهتدي الناس إلى العدل، وإن اهتدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه، وهي تضطرب في مهبّ الجهالات والأهواء! » ①

و لكن أصحاب المصالح، والمنتفعين من الأوضاع المنحرفة من الملإ المستكبرين، يجدون في دعوة قوامها التوحيد والعدل، خطراً على امتيازاتهم المتعددة، و مصالحهم المتنوعة، ومن ثم يدخلون في صراع ومجابهة مع النبيّ، يستعملون فيها كل ما يملكون من أدوات المقاومة و المجابهة.

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 6، الجزء 27، ص3494

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة :

قد نستطيع أن نضع عنوانا عاما لوظيفة النبوة، وهي تتحرك في الساحة الاجتماعية والتاريخية، فنقول إنه "التحرير".

التحرير في أوسع معانيه و أنبل مراميه، و أجلى صوره، و أعمق تأثيره و آثاره... فالنبي يحرر الإنسان من الظلال و الوهم، الذي يجعل البعض -بحكم موقعهم الاجتماعي- يعتقدون أنهم سادة و أرباب، خلقوا ليأمـروا و يطاعوا و خلق الآخرون ليأتمروا و يطيعوا و ينصاعوا. و يجعل البعض الآخر -بحكم موقعهم الاجتماعي كذلك- عبيدا أذلاء، توشك الذلة أن تكون فيهم خلقة و جبلة، و يوشك واقعهم أن يكون قدرا مقدورا، ما ينبغي لأحد أن يتمرد عليه أو يتملص منه، أو يفكر في الانسحاب منه سلبا أو إيجابا.

و النبي يحرر الإنسان من الجاهلية و أنساقها الاجتماعية، الخانقة للأرواح أن تحلق، الكابسة للقدرات أن تنطلق، و للكمالات أن تتحرر وتزكو.

و يحرره من "الصنمية" -في أي صورة كانت- التي تمسخ مقومات الإنسانية فيه بما تلقي في روعه من "وهم مقدس" يجعله يبدو في صورة نكدة ، بحكم ما يختزن في ذاته من أصر العادات و أغلال التقاليد، وقيود الأعراف، التي صارت -بحكم إيغالها في الماضي- دينا، أو شيئا يشبه الدين، تزيدها القوة الرجعية، المعادية لأي تطلع مستقبلي، وهما على وهم و ضلالا على ضلال.

ثم إن النبي يحرر الإنسان مما ينتابه من عقد وحالات هي بنت ظروف وأوضاع تزري بإنسانية الإنسان في حالة الفقد، و ما يعتريه معها من شعور بالضعة و الانسحاق و الهوان، أو في حالة الكسب و الامتلاك، و ما ينتابه خلالها من رغبة في البغي والطغيان والفسوق.

و بمرور الزمن يتحول هذا الواقع، القائم على آليات منحرفة، والذي تحركه مفردات ظالمة جائرة، يتحول إلى مطلق، إلى مقدس، لأنه لا يوفر لأفراده إمكانية التطلع والتجاوز، وهذا بعض من مكر المستكبرين، والملأ الفراعين، الذين يرون في أي استشراف أو تطلع خطرا عليهم، وفي أي تجاوز للواقع تجاوزا لهم، ومن ثم فـ« فالفراعنة على مر التاريخ حينما يحتلون مراكزهم يجدون في أي تطلع إلى المستقبل، وفي أي تجاوز للواقع الذي سيطروا عليه، يجدون في ذلك زعزعة لوجودهم وهزا لمراكزهم.

من هنا، من مصلحة فرعون على مر التاريخ أن يغمض عيون الناس على هذا الواقع، أن يحول الواقع الذي يعيشه مع الناس إلى مطلق، إلى إله، إلى مثل أعلى لا يمكن تجاوزه، يحاول أن يحبس وأن يضع كل الأمة في إطار نظرته هو، في إطار وجوده هو، لكي لا يمكن لهذه الأمة أن تفتش عن مثل أعلى ينقلها من الحاضر إلى المستقبل، من واقعه إلى طموح آخر أكبر من هذا الواقع.» ①

---

① السيد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص152

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و في هذا يقول الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 29].

و نفس المشاعر التي تشكلت لدى المستكبرين حول الواقع، نجدها قد تشكلت لدى المستضعفين حول الواقع كذلك، فكلاهما يرى في الواقع حقيقة مطلقة لا يمكن تجاوزها و لا التطلع دونها، و يرون في التروع نحو الحرية طيشا و فوضى، و مغامرة تستهوي الحمقى الذين لا يحسنون تقدير الأمور، و بالتالي فهم يحذرون منها ويخافونها. فهؤلاء "بنو إسرائيل" يتضجرون من "موسى" شخصا و رسالة، و يعلنون أمامه، بطرية مباشرة، أو غير مباشرة، ألا شيء تغير من حالهم و وضعهم، من يوم أن وعدهم بتغيير الوضع و تبديل الحال، و من يوم أن صدقوه أن شيئا قد يحصل لهم.

قال تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: 129].

« إنها كلمات ذات ظل! وإنها لتشي بما وراءها من تبرم! أوذينا من قبل مجيئك وما تغير شيء بمجيئك، وطال هذا الأذى حتى ما تبدو له نهاية» ① ، بل حتى تبدو فكرة تغييره وهما، والتحرر منه خطأ وخطيئة!.

لقد أوشكوا -مستضعفين ومستكبرين- أن يتساووا في بغضهم لفكرة "تحرير الإنسان" التي جاء بها النبي، خاصة بعدما صاروا ينظرون إلى واقعهم الساكن الرتيب نظـــرة تقديس، بحيث يعد التفكير في تغييره هرطقـــة و فسوقا ، ومروقا عن جادة الصواب.

سوى أن المستضعفين يكونون أكثر تحررا من الأوضاع الضاغطة، و ما تنشئه في النفس و المشاعـــر، و الأفكار و الضمير، من حالات معقدة، بل مسرفة في التعقيد، تجعل يقظة الفطرة و استجابتها صعبة نوعا ما. و بالتالي يكونون هم الأقدر على الاستجابة لدعوة النبي، والانسجام معها، لأنها تدعو إلى ما يعيد لهم الكرامة والأصالة الإنسانية، وتضعهم مع الآخرين على صعيد واحد. ولأن هذه الفئات المستضعفة « لا تعيش التعقيدات النفسية و الروحية والمادية التي تحجبها عن رؤية الحقيقة و الإيمان بها ، مما يجعلها بعيدة عن موقع التعنت و التعصب الأعمى في الحالات التي ترتفع عنها الضغوط المباشرة التي يمارسها الأقوياء ضدها. » ②

المبحث الأول : النبوة ليست موقعا طبقيا

نجد مكتوبا في القرآن الكريم على أن موقع النبي الاجتماعي ووظيفته التاريخية يتناقضان تماما مع موقع المستكبرين و الملأ المترفين ودورهم التاريخي بل إن الأمر يتعدى أن يكون ظاهرة أو شيئا برز مع حركة نبي معين، ليصير سنة تاريخية ثابتة لا تختلف عن باقي السنن الضابطة لحركة التاريخ، و المسيرة للإجتماع البشري، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: 34].

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 9، ص 1355
② محمد حسين فضل الله : مع الحكمة في خط الإسلام، ص40

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من خلال هذا النص القرآني الكريم نستشف أن « هناك علاقة تطارد و تناقض بين موقع النبوة الاجتماعي في حياة الناس على الساحة التاريخية و الموقع الاجتماعي للمترفين والمسرفين ، هذه العلاقة تربط في الحقيقة بدور النبوة في المجتمع و دور للمترفين و المسرفين في المجتمع (...). إن النقيض الطبيعي للنبوة هو موقع للمترفين و المسرفين. » ①

و نجد مكتوبا في القرآن كذلك أن عامة الناس من المستضعفين و الأرذلين -في منظور المستكبرين- هم أول من يؤمن بالنبي ليشكلوا حوله قاعدة دعوية صلبة و قوة ضاربة في الصراع. و التفاف هؤلاء حول النبي، يتخذه الملأ المترفون ذريعة لكي لا يؤمنوا، إذ أنه من غير اللائق -في منظورهم الإستكباري- أن يلتقوا مع الأراذل في رب واحد، ودين واحد، و صعيد إنساني واحد... و لهذا يشترطون على النبي أن يطردهم ليؤمنوا هم به.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ «هود: 27». وقال سبحانه : ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ(111)قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(112)إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ(113)وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ(114)إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ «الشعراء: 111-115».

إن النبي برده هذا، نجده يتجرد من أي انحياز طبقي أو موقع اجتماعي، فيسمي هؤلاء الأتباع والأنصار انطلاقا من موقفهم المبدئي الإيماني، يسميهم "المؤمنين"، وليس انطلاقا من موقعهم الاجتماعي وانتمائهم الطبقي، كما ينظر إليهم الملأ المترفون، فيسمونهم "الأرذلون".

« مما ذكرنا سابقا، اتضح أن القرآن يؤكد على نظرية الفطرة، و على منطق خاص يتحكم بحياة الإنسان ينبغي أن نسميه منطق الفطرة، و يقابله المنطق النفعي، الذي هو منطق الإنسان المنحط الحيواني، و هنا فالإسلام يرفض مبدأ "انطباق المنطلق و الاتجاه" أو "انطباق القاعدة الاجتماعية و القاعدة العقائدية"، و يعتبره مبدأ غير إنساني، أي أنه يتحقق في الأفراد الذين لم يبلغوا درجة الإنسانية، و لم ينالوا القسط اللازم من التعليم و التربية الإنسانية (...). إضافة إلى ذلك فإن من المجاز و التساهل القول بأن الإسلام يتجه في مواقفه لصالح المستضعفين. الإسلام يتجه نحو العدالة و المساواة، و من الطبيعي أن يكون المنتفعون من هذا المجال هم المحرومين و المستضعفين، و أن يكون المتضررون هم المبتزين و المستثمرين.» ②

إنّ النبي يرفض أن يحشر في خانة من خانات المجتمع الموبوء، فهو لا يحب أن يعد من تلك الطبقة أو ضد تلك الطبقة، فهو للناس جميعا، لإيمانه أن الفطرة التي تستجيب لداعي الإيمان و نداءات الروح مشتركة بين

① سيد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص67

② مرتضى مطهّري : المجتمع والتاريخ، القسم الثاني، ص25

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جميع الناس، وقد تتشوه هذه الفطرة عند هؤلاء، كما قد تتشوه عند أولئك، ومن ثم فلا بد من بذل الجهد لتحريرها مما علق بها من شوائب الجاهلية و لوثاتها، لتنطلق و تحقق الإنسانية في الإنسان.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28]،

و قال سبحانه:﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158].

فهذا النداء الرباني العلوي الذي ينزه حركة النبي عن أي انتماء غير الانتماء الإيماني، هو نداء يوضح « أن صراع الأنبياء مع الظلم والاستغلال لم يتخذ طابعا طبقيا، كما وقع للكثير من الثورات الاجتماعية، لأنه كان ثورة إنسانية، و لتحرير الإنسان من داخله قبل كل شيء، و لم يكن جانبه الثوري الاجتماعي إلا بناء علويا لتلك الثورة حتى أن الرسول الأعظم ﷺ أطلق على ثورة التحرير من الداخل اسم الجهاد الأكبر وعلى ثورة التحرير من الخارج اسم الجهاد الأصغر.» ①

و قد شهد التاريخ ثورات عديدة، ذات منطلقات طبقية، و شهد انتصارها و شهد عليها وهي تقتل الناس وتشنقهم، لا لشيء سوى لانتمائهم الطبقي، و شهد على الثوار من المستضعفين و هم يتبرجزون ويتحوّلون إلى مستغلين-وقد كانوا مستغلين- وشهد عليهم وهم يتبادلون الأدوار والأقنعة، فيصيرون قاهرين وجلادين، لأنهم لم يتحرروا داخليا من جلاّديهم وقاهريهم، ولأن ثورتهم وحركتهم المقاومة « تحمل نفس الخلفية النفسية التي يحملها المستغلون و تنطلق من نفس المشاعر والأحاسيس التي خلقتها ظروف الاستغلال، وهذا يؤدي إلى أن الثورة لن تكون ثورة على الاستغلال وعلى جذوره ولن تعيد الجماعة إلى مسيرتها الرشيدة ودورها الخلاقي الصالح، وإنما هي ثورة على تجسيد معين للاستغلال من قبل المتضررين من ذلك التجسيد، ومن هنا كانت تغييرا لمواقع الاستغلال أكثر من كونها استئصالا للاستغلال نفسه.» ②

و عند تدبر القرآن الكريم نجد أن النبي قد آمن به سادة وقادة وأصحاب مال ويسار -وإن كانوا قلة- لم تمنعهم ظروفهم الاجتماعية وأوضاعهم الطبقية من أن يعرفوا الحق، ويجيبوا داعي الإيمان، لأنهم أدركوا أن قيمة الفرد الإنساني تستمد من داخله من محتواه المعنوي وليس من الملابسات الخارجية الطارئة الزائلة.

كما نجد في القرآن الكريم أن القاعدة الضاربة، التي حركها الملأ المستكبرون لضرب النبي واستئصال دعوته هي من المستضعفين الذين تحركوا تحت راية المستكبرين طمعا في ضروب شتى من المنافع الدنيوية، وهؤلاء يسميهم القرآن "ظالمين" حتى و إن كانوا مستضعفين، إنهم "أعوان الظلمة" و جنودهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: 31]، و قال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: 67].

---

① السيد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، ص29

② م.ن : ص157

إن هذا الكلام في مقام كيوم القيامة ليشي بمدى الضآلة و الانسحاق و الشعور بالدونية الذي يجده هؤلاء المستضعفون الأتباع اتجاه "السادة الكبراء" المتبوعين، إنه ليكاد يشبه الطاعة الدينية والتسليم الإيماني وكأن هؤلاء "السادة الكبراء" ممتلئون بالسر الإلهي! « و بذلك يتحول إنسحاق الضعفاء إلى عبادة ذاتية يشعرون فيها أنهم يمارسون قناعاتهم الروحية، والتي تمنحهم السعادة في الدنيا والآخرة... وهذا أخطر أنواع الاستغلال لأنه يوحي للضعفاء بأنهم لا يخضعون للقوي من خلال قوته، ليعيشوا الشعور بالاستغلال بل يعتقدون بأنهم يخضعون للسر الإلهي المودع فيه، مما يعطل كل انتفاضة أو تمرد في داخلهم، وكل حركة ترمي إلى إنقاذهم من هذا الواقع، لأنهم يعتبرون ذلك كفرا أو هرطقة أو تحطيما للقداسات الروحية والعاطفية المرتبطة بالتراث المغموس في الأسرار.» ①

هذه المشاعر التي تخلقها المذهبية الاستكبارية، من خلال تزييف الواقع المعيش، وتزوير مفرداته وشحنها بدلالات مموِّهة و مموَّهة، هذا كله يجعل المستضعفين يتحركون تحت راية المستكبرين ضد الذي يريد أن يعيد إليهم كرامتهم وإنسانيتهم.

و بالتالي ، فإنه لا يمكن القول –حسب المنظور الإسلامي للتاريخ- بتطابق الوضعية الطبقية والموقف الفكري الإيديولوجي فليس حتما على الذي لا يملك شيئا من متاع الحياة أن يكون ثوريا متمردا، و ليس حتما كذلك على من أوتي سعة من المال والرزق أن يكون مستكبرا رجعيا.

و إن القرآن الكريم ليضع مثل هذه النماذج المستسلمة للواقع –مستكبرين و مستضعفين- في خانة "الظالمين"، فالمستضعف ظالم، و الذي يمارس الاستضعاف ضد الآخرين ظالم كذلك.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ ﴿النساء: 97﴾.

بعد هذا يتضح « أن الإسلام يجعل الثورات الإلهية في صالح المستضعفين، ولكن لا يعتبر المستضعفين هم الأصل والمنشأ في كل نهضة وفي كل ثورة دون غيرهم. أي أنه خلافا للمبدأ المادي الذي يجعل الثورة على عاتق المحرومين فقط، و لصالحهم ضد الطبقات المرفّهة المتنعمة، فإن الإسلام يعتبر نهضة الأنبياء لصالح المحرومين، ولكن لا يحصرها على المحرومين فقط.» ②

و نجد في الأدبيات الإسلامية القديمة ما يوهن و يضعف فكـــرة انطباق الوضعية الـــمادية الاجتماعية و الموقف الفكري الإيديولوجي.

① محمد حسين فضل الله : مع الحكمة في خط الإسلام، ص28

② مرتضى مطهري : مقالات حول الثورة الإسلامية في إيران، ص37

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و إن القرآن الكريم ليعد طاعة الاستكبار نوعا من الاستكبار يمارسه "المستضعفون"، وبالتالي فهم -في المنظور الإيماني الإسلامي- مستكبرون حتى وإن كانوا لا يملكون قوت يومهم. وقد روي عن الإمام علي ﷺ أنه قال معرفا الاستكبار "أفتدرون الاستكبار ما هو؟ هو ترك الطاعة لمن أمروا بطاعته، والترفع على من ندبوا إلى متابعته".

و على هذا الأساس يكون المستكبر هو الذي يأبى الانسجام مع دعوة الحق، ويظل يدور تابعا ذليلا في فلك المستكبرين من المترفين و أصحاب الامتيازات، يداهنهم و يتملقهم، و يترضاهم بالتنازل عن كرامته الإنسانية.

و عندما نقرأ القرآن الكريم نجد أن كثيرا من الشخصيات التي ناصرت النبي و آمنت به، هي شخصيات من الطبقة المستكبرة، و يكفي مثلا، مؤمن آل فرعون، و السحرة، و امرأة فرعون، و بعض أصحاب الرسول محمد ﷺ، فهؤلاء جميعا استطاعوا التخلص من ضغط الواقع المادي الذي نشأوا فيه، و التحقوا بركب الإيمان. و حتى الكثير من أنبياء الله عليهم السلام كانـــوا ذوي وضع مادي مريح، و كانوا من بيوتات ذات عز و شــــرف، و سيادة ويسار.

و رغم هذا « لا بد هنا من الإشارة إلى أن الاستنتاجات التي بنيت على التصور المادي للتاريخ، لا يعني بالضرورة إنكارها من قبل القرآن والفكر الإسلامي، حيث أننا من خلال التحليل للآيات القرآنية نلاحظ الدور المهم الذي يعطيه القرآن للجانب المادي في حياة الإنسان ودوره كعامل مؤثر في حركة التاريخ، لكنه في نفس الوقت لا يعتبره العامل الوحيد. » ①

و عندما تبدأ الدعوة النبوية في التحرك وسط المجتمع بكل رؤيتها المتميزة، فإنها تفرض على المجتمع انقساما آخر يتجاوز ذلك الانقسام الذي فرضته الأوضاع المادية لهؤلاء، و أولئك، أو فرضته الرؤية المادية على هؤلاء و أولئك.

و قد نسمي الانقسام الذي يتجاوز "الانقسام الطبقي" نسميه "الانقسام الإيماني" أو "الانقسام المبدئي التصوري" لأنه مستمد من مبدأ أو فكرة، أو رؤية غير مادية. ومن ثم تنشأ لغة أخرى ذات دلالات جديدة، أو محتوى فحوي جديد، و تبدأ في توصيف جديد لحركة المجتمع و أنساقه القيمية، ومفرداته التي بها تستوعب العلاقات القائمة، و تبدأ "اللغة القديمة" في الضمور و التلاشي، أو "الامتلاء" بدلالات جديدة ، هي من وحي الفكرة الدينية التي دخلت الحياة الاجتماعية.

فتتلاشى كلمات "السادة، الكبراء، الأراذل، المنبوذون، الوجهاء، المستكبرون، المستضعفون" و غير ذلك من المصطلحات، التي لا يبقى منها غير الصدى الواهن لدى المستكبرين المنتفعين بالأوضاع القديمة، وهم يدافعون عنها فيما يشبه اليأس منها واليأس فيها. قال الله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ ﴿ص: 6﴾

---

① د. حسين سلمان : النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ، ص227

و تحل محلها مصطلحات جديدة، و مفردات جديدة ذات حيوية عجيبة، من خلال قدرتها على التسمية و التوصيف، فإذا الناس مؤمنون أو كافرون، مصلحون أو مفسدون، مهتدون أو ضالون، عادلون أو ظالمون، مكذبون أو مصدقون، جاحدون أو مستيقنون، فاسقون أو متخلقون، متأدبون، جبارون أو راشدون،.. إلى آخر هذه الثنائية اللغوية التي تفرضها الفكرة الدينية، مع مفردات أخرى جديدة، تطرحها لاستيعاب الجميع، ضمن حركية إنسانية، تقر بكرامتها وأصالتها، وقدسية رسالتها الوجودية، وأنها من الله، ونحوه تسير وإليه تعود، وهذا الذي يجعل الحركة النبوية لا تراهن على الأوضاع الاجتماعية بشكل مصيري حاسم، لأنها تعتبرها نتائج لأوضاع نفسية بل إنها تراهن على المحتوى الفحوي للإنسان فأيّاه تخاطب، وأيّاه تستهدف، وأيّاه تستنهض، وذلك كله مشمول بالفطرة الإنسانية، « هذه الفطرة التي يهتدي بها الإنسان إلى الإيمان الصحيح بالله سبحانه و تعالى، و يدرك بها كونه مخلوق لله، و من ثم يدرك موقعه في الكون، و يترتب على هذا الإيمان الواعي تصحيح المسار الإنساني في طريق التكامل بجعل حركة الإنسان تاريخية وثيقة الصلة بعقيدة التوحيد و متفرعاتها.» ①

هذه العقيدة ستوفر عليه شتات طاقته وحيويته الفكرية والعاطفية المبدعة، لتجعل منها طاقة محرضة على تزكيته، وتنمية مواهبه وقابليته.

إن النبي لا يخاطب الناس على أي أساس تفاضلي بينهم، فلا يخاطبهم على أساس العرق أو اللون، أو الجنس، أو الجهة، أو الطائفة، أو الطبقة، أو القبيلة، أو العشيرة، أو ما شبه ذلك من هذه التقسيمات التي تفرضها الحياة الاجتماعية والمصالح المادية ، والأهواء المختلفة، إنه يخاطب المشترك فيهم، إنه يخاطب الفطرة التي لا تتلون بهذه الألوان التي تعترض الإنسان في حياته الإنسانية رغم ما يشوبها تحت ضغط الحياة الجاهلية من تزييف وتشويه.

المبحث الثاني : منهجية الحوار

إن النبي يعرض على الملأ المستكبرين منهجية في الحوار، تكون عملية أو منصفة من كلا الطرفين، بحيث يتحرر جو الحوار من الخلفيات الضاغطة والأفكار المسبقة والنوايا المبيتة، التي تضفي على جو الحوار شيئا من روح الصراع والمغالبة، تنحرف به ليكون جدلا عقيما ومراء معاندا، و عنادا مرائيا، على الحد الذي يقول معه الملأ المستكبرون في عناد أهوج و مكابرة رعناء: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿الأنفال: 32﴾.

---

① محمد مهدي شمس الدين: حركة التاريخ عند الإمام علي، ص75

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و تجنبا لهذا كله، يقترح النبي قاعدة مشتركة غير منحازة في موضوعيتها، لا يملك كل من يدعي أنه على ثقة من خطابه و إيمان بمبادئه إلى أن يقبلها، و هي الشك في ما عليه كل طرف، فلا هو يدعي ملكية الحق و الحقيقة في كتابه الذي جاءهم به، و لا هم يدعون شيئا من ذلك في هذه "الأبائية" التي يستندون إليها كمرجعية معرفية و تصورية و دينية، تستنبط منها القيم، و بروحيتها تشحن اللغة و الخطاب. و هذا كله تحدده الآية القرآنية: ﴿ و وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

إذن ليبدأ الحوار بالشك في ما عليه الطرفان، اللذان يرغبان في البحث عن الحق والحقيقة بمجهودات ومنهجية مشتركة، ليحددوا على ضوء النتائج المحققة، أين الهدى و أين الضلال، ومن الذي على هدى، ومن هو في ضلال مبين، « و من هذه غاية النصفة و الاعتدال و الأدب في الجدال ، أن يقول رسول الله ﷺ للمشركين إن أحدنا لابد أن يكون على هدى، و الآخر لابد أن يكون على ضلال، ثم يدع تحديد المهتدي منهما و الضال، ليثير التدبر و التفكر في هدوء لا تغشى عليه العزة بالإثم، و الرغبة في الجدال و المحال.» ①.

و ليس هذا من النبي مداهنة أو مهادنة، أو شكا في ما هو عليه من الحق واليقين، بل إنه نابع من منهجه الرباني، الذي يأتي الإنسان من داخله، فيحرك فيه ما ينبغي أن يحرك، و يلمس فيه برفق ما ينبغي أن يلمس فيه برفق، وبحكم الموقع الاجتماعي الذي يحتله الملأ المستكبرون، فإنهم يتوفرون على شيء كبير من الغرور يعمي ويصم، ويدفع إلى المعاندة والمكابرة، ما لم يحسن النبي "الالتفاف عليه" -إذا جاز هذا التعبير- و تعطيل طاقته وحيويته، لأنه غالبا ما « يجد الإنسان نفسه يتصرف بعصبية لكون الحقيقة منحازة ضده، ولا يجد هذا الإنسان بدًّا من تمثيل دوره إلى النهاية، ينكر الحقيقة أو يفسرها بصورة مختلفة. ومثل هذا الدفاع عن النفس يتفق تماما مع أسلوب النظر الذاتي للمشكلات حيث تضيع الحقيقة على الرغم من عدم إنكارها» ②

و يتقدم النبي خطوة أخرى في دعوته الجريئة إلى حوار موضوعي شفاف، خال من كل العقد، متحرر من كل الخلفيات، ومفرغ من كل أشكال التعصب والتزمت للأفكار، فيبدي مرونة في الانفتاح على الآخر الذي يختلف عنه، وحيوية واستعدادا لتقبل الهدى والإيمان مهما كان مصدرهما، فيقترح -بروح منفتحة- أن يأتوه بكتاب هو أهدى من الكتاب الذي هو عنده، وحينها سيرونه يتخلى عما عنده من الهدى ليتّبع الأهدى الذي أتوا به.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿القصص: 49﴾.

« فالقضية كل القضية أن هناك هدى يجب أن يتّبع في الطريق أو في الغاية ... وقد كان إيماننا و مسيرتنا في خط هذا الإيمان على أساس قناعتنا بأنه الهدى، و أن غيره ضلال وانحراف، فإن كان لديكم طريق أفضل أو كتاب أهدى، فدلونا عليه لنتبعه، لأننا لا نخضع لأية عقدة ذاتية في هذا المجال.» ③

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 22،ص2905

② باولو فرايري: تعليم المقهورين، ص34

③محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص56

و هذه الوضعية النفسية و الاستعداد الفكري، الذي يجب أن يكون عليه كل طرف في عملية الحوار، نقطة أساسية و جوهرية يؤكد عليها "باولو فرايري" بصيغة أخرى، حين يرى أن الحوار ضرورة وجودية، لأنه هو الذي يحدد قيمة الرجال، وما يتوفرون عليه من مصداقية في المبادئ والإيمان بها. وإن من شروطه التواضع، لأن الغرور شروع في خطأ، و هو مناقض للحوار، إذ لا غرور مع الحوار، ولا حوار مع الغرور، « إذ كيف يمكن لي أن أدخل في حوار مع الآخرين إذا كنت أعتبر نفسي شيئا مختلفا عنهم، و كيف أدخل في حوار إذا كنت أعتبر نفسي من أصحاب الدم الأزرق، الذين يملكون ناصية الحقيقة و المعرفة، و ينكرون على من سواهم أي نوع من الفهم، بل و كيف أحاور الناس إذا كنت أعتقد أن معرفة العالم هي من حق الصفوة و أن دخول السّواد في التاريخ يعني بداية الانهيار. كذلك كيف أحاورهم إذا كنت أشعر أن وجودي سيتعرض إلى التهديد حين أبدأ عملية الحوار؟ وهكذا فإن القناعة بما تراه الذات وحدها نقيض لمنهج الحوار.» ①

و مع الأسف إن هذه القناعة الزائفة يمتلئ بها الملأ المستكبرون، إلى الحد الذي تصير معه عقدة مرضية متأصّلة، تشحن عواطفهم و أفكارهم يعيشون بها ولها، و يأمرون غيرهم من أتباعهم أن يثبتوا عليها و يصبروا، و ألا يفتحوا أسماعهم لتلقي القرآن و سماعه، و لو من باب الفضول، و ألا يتركوا القرآن يصل إلى الآخرين إلا مشوبا بلغو، و ممزوجا بشكوك و فوضى و سخرية.
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ ﴿فصلت: 26﴾.

و بحكم أنهم رفضوا الالتقاء على كلمة سواء، روحها البحث المشترك عن الحق و الحقيقة، و تمييز الهدى و الضلال، و بحكم أنهم عاجزون كذلك عن الإتيان بكتاب هو أهدى من كتاب النبي، فإن النبي يرشدهم إلى طريقة مثلى، قد يصلون بفضلها إلى ما يجب الوصول إليه من الحق و الهدى و الإيمان، وهي أن ينفصلوا عن الجو المشحون بالانفعال و العواطف المستفزة الغائرة الثائرة، و أن يفصلوا الفكرة المطروحة عن شخصه-إن كان لهم اعتراض على شخصه- ثم يتساءلون مثنى وفرادى عن محتوى الرسالة الجديدة و الدعوة الجديدة، و عن شخصه في حد ذاته ليصلوا إلى نتيجة مغايرة تماما لما عليه الجو الملتهب بالانفعال و التعصب و الحماس من تقدير وقراءة واستنتاج. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿سبأ: 46﴾.
فاتهام النبي بالجنون لا يعبر عن قناعة شخصية خاضعة لقراءة موضوعية واستنتاج منطقي بقدر ما هي خاضعة للجو الانفعالي الذي يثير صوت الجماعة المهددة المستهدفة، والتي تريد أن تتخذ موقفا أو تصدر حكما، بعيدا عن التعقل و التدبر و التبصر، ليصير صوت الفرد صدى واهنا لا يكاد يظهر، بل و ما ينبغي له أن يظهر مع صوت الجماعة و قرارها الجماعي!.

① باولو فرايري: تعليم المقهورين، ص69

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و هذا الذي يستنبطه السيد "محمد حسين فضل" من النص القرآني السابق، فيقول: « لعل من أشد الأمور ضرورة لوصول الحوار إلى هدفه وجود أجواء هادئة للتفكير الذاتي، الذي يمثل فيه الإنسان نفسه و فكره، والابتعاد عن الأجواء الانفعالية التي تبعد الإنسان عن الوقوف مع نفسه وقفة تأمل وتفكير، فإنه قد يخضع في قناعته وأفكاره للجو الاجتماعي الذي تنطلق فيه الجماعة إلى أجواء انفعالية حماسية لتأييد فكرة معينة، أو رفض فكرة خاصة، فيستسلم الإنسان لها استسلاما لا شعوريا، كنتيجة طبيعية لانصهاره بالجو العام وذوبانه فيه.» ①

المبحث الثالث : أسلوب الحوار

إذا كان قد صار في عرف الناس و مألوفهم أن الصراع هو النافذة الطبيعية الوحيدة المثلى التي ننفتح من خلالها على الذي صار عدوا، بحكم أن العدو هو ذاك الطرف الذي تكون العلاقة معه قائمة على الإلغاء والإقصاء.

و ما العدو -في حقيقته- إلا ذاك الذي كان مختلفا عنا بحكم ناموس الاختلاف الأزلي، ثم لم نحسن محاورته و مجادلته، حتى صار في مألوف الناس أن العدو هو ذاك الذي يمكن أن نلحق به أكبر قدر ممكن من الأذى المادي و المعنوي، صدقا وعدلا، أو كذبا وظلما.

إذا كان قد استقر في أذهان الناس كل هذا، أو بعض هذا، فإن القرآن الكريم يؤكد أن الاختلاف سنة كونية ماضية، وضرورة وجودية حضارية قائمة، وإن انفتاح المختلفين عن بعضهم بعضا على بعضهم بعضا أمر ضروري حتمي في إطار سنة التعارف الإنساني، و لن يكون إلا عن طريق الحوار، الذي يهدف إلى أن يجعل للطاقات الإنسانية هدفا مشتركا و سبيلا واحدة.

و للنبي منطلقاته الأساسية في هذا كله، فهو مأمور أن ينتهج أسلوبا متميزا في الانفتاح على الآخرين، شعاره "إدفع بالتي هي أحسن" مع كل الناس، ومأمور أن يدعو إلى سبيل ربه بحكمة ذكية تستقر في الفكر والعقل، و موعظة حسنة تستجيش أحاسيس الخير و الحق و الفضيلة، كالعواطف و المشاعر و الوجدان.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(33)وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(34)وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت 33-35].

فهذا النص القرآني الكريم يؤكد على أن احسن كلمة هي التي تدعو إلى الله و ترغب فيه، و يصدقها العمل الصالح في الميدان، والسلوك السوي المترفع، الذي ينبع من الشعور العارم بالاستسلام الكلي لله.

---

① محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن، ص44

و هذه الكلمة الطيبة، و هذا العمل الصالح و السلوك السوي المترفع، قد يقابله بعض المرجفين و المغرضين بتأويلات سيئة و إجراءات أسوأ، و يبنون عليه منطلقات مسيئة للرسول شخصا و رسالة، و مبدأ و موقفا، و أنصارا و أتباعا، و لكن عليه هو-من جانبه- أن يقابل السيئة بالحسنة، و النفور بالتودد، والبغض بالتحبب حتى كأن الناس ليسوا أعداء و كأن الأعداء أصدقاء، « و تصدق هذه القاعدة في الغالبية الغالبة من الحالات، وينقلب الهياج إلى وداعة ، و الغضب إلى سكينة، و التبجح بلا حياء، إلى كلمة طيبة، و نبره هادئة، و بسمة حانية في وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام!. و لو قوبل بمثل فعله ازداد هياجا و غضبا و تبجحا و مرودا. و خلع حياءه نهائيا. و افلت زمامه ، و أخذته العزة بالإثم. » ①

و بعد هذا الموقف الأخلاقي يسن القرآن قاعدة عامة في الحوار مع الآخرين، على اختلاف مواقعهم ومشاربهم، هذا المنهج هو القائم على: "الحكمة والموعظة الحسنة".

فالحكمة تقتضي أن يعرف كل ما يتعلق بالمخاطبين، من حيث نفسيتهم وميولاتهم وأوضاعهم الاجتماعية، وطبيعة اللغة التي تحركهم، والخطاب الذي يليق بهم، والوقت الذي يكونون فيه مستعدين للحوار والاستماع.

أما الموعظة الحسنة فقوامها التلطف و التحبب، و إشعار المخاطبين بالرفق و التذكير الحاني الحريص،« و بالجدل بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف، و لا ترذيل و لا تقبيح، حتى يطمئن إلى الداعي، و يشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، و لكن الإقناع و الوصول إلى الحق. فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق، حتى لا تشعر بالهزيمة. و سرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلا عن هيبتها و احترامها وكيانها. والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة وقيمته كريمة.» ②

وهذا بعض الذي يشير إليه النص القرآني: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ﴿النحل: 125﴾.

و هذه الطريقة في الحوار ذات جدوى مع الناس جميعا، وهي أجدى مع ذوي الامتيازات الاجتماعية، أمثال الشخصيات الدينية، و المالية، و السياسية، و أصحاب الجاه و السلطان، فهؤلاء – و غيرهم- يكون لزاما على النبي -باعتبار منقذا للناس جميعا- أن يدخل عليهم نفوسهم بطرق هادئة و خطاب رزين، يفتح مشاعرهم في رفق و لطف، و يستدرج عقولهم إلى الحوار و فحوى الحوار بطريقة رفيقة، لا يشعرون معها بأنهم سوف يخسرون المكاسب والمناصب والاعتبارات الاجتماعية الأخرى.

قال الله تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ ﴿طه 43-44﴾.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① سيد قطب: في ظلال القران، المجلد 5، الجزء 24، ص3122

② سيد قطب: في ظلال القران، المجلد 4، الجزء 14، ص2202

فالقول اللين مع ذوي الهيئات، خاصة أصحاب السلطان السياسي، يحدث تأثيرا حسنا، لأنه يقدر الحالة النفسية المعقدة، التي يمتلئ بها هذا الصنف من الناس، والتي كانت نتاجا طبيعيا للجو الموبوء الذي يتحرك فيه هؤلاء، من فرعون أو ملك أو طاغية أو زعيم ملهم!.

و أحيانا قد يجد النبي في الساحة التي يحرك فيها دعوته جماعة ما، ذات اتجاه إيديولوجي أو سياسي معين، كأهل الكتاب، فإنه يحاورهم كما يحاور الآخرين، ويزيد على ذلك أن يبحث عن قواسم مشتركة معهم تكون منطلقا ومرجعية لحوار هادئ هادف، وقد تكون قاعدة لعمل مشترك، مع الاحتفاظ بكل المقومات التي تجعل الشخصية المؤمنة متميزة عن باقي الشخصيات والمواقع الإيديولوجية التي تحرك معها وتنسق.
قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿العنكبوت: 46﴾.

فالبحث عن النقاط المشتركة مع المشارب الإيديولوجية المختلفة، لتكون قاعدة لعمل أو حوار، ولو مرحلي، هذا كله ينفع الدعوة النبوية في التقرب من الناس والاحتكاك بهم، وتجاوز الحواجز النفسية التي تنشأ – عادة– بين الاتجاهات المختلفة، والاندماج في واقعهم وما فيه من حميميات، « و قد يساهم هذا الأسلوب في إبعاد الداعية إلى الله و إلى الاسلام .. عن العزلة الاجتماعية و السياسية، التي قد تفرض عليه في مجتمعه، في الحالات التي لا يستطيع فيها أن يطرح الفكرة جملة وتفصيلا ...
فقد تجد في هذه ما يوحي بأن عليه أن يطرح القضايا المتفاهم عليها، قبل الدخول في تفاصيل العقيدة والحياة، ليستطيع أن يدخل إلى واقع المجتمع كخطة مرحلية ينفذ من خلالها إلى أفكار الناس و قلوبهم. » ①

من خلال ما سبق، يستنتج أن الحكمة هي الركيزة الأساسية في عملية الحوار مع الذين يختلفون مع النبي، حيث نجد أن الخطاب النبوي يتسم بتقنيات و فنيات شتى في سبيل الوصول إلى نفوس الناس وأرواحهم ومشاعرهم ، ويأخذ بعين الاعتبار جملة من المعطيات والحيثيات ذات تأثير في مجرى الحوار.
« و هكذا فإن الحوار الذي يقوم على التواضع والثقة يكرس العلاقة الأفقية بين المتحاورين، ولعله من غير المعقول ألا تكرس مثل هذه العلاقة في مثل هذه الظروف، ذلك أن الذي ينشأ عن مثل هذا الحوار هي علاقة تضامنية في سبيل معرفة العالم وإدراكه (...) ومن واجبنا أن نعرف أن الحب الزائف والتواضع المصطنع والإيمان الضعيف، لا يمكن لها أن تولد مثل هذا النوع من الثقة. » ②

① محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص125
② باولو فرايري: تعليم المقهورين، ص70

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الرابع : مواضيع الحوار

مواضيع الحوار كثيرة ومتعددة، ومتشابكة كذلك، بحكم أن النبي يهز بحركته التغييرية كل شأن من شؤون المجتمع، سواء في تعلقها بعالم الغيب أو عالم الشهادة، فهو يحاورهم ليقر كل معروف، و ينكر كل منكر. و إذ انه ليس في الإمكان أن نلمَّ في فصل من رسالة، بكل مواضيع الحوار، لأن ذلك يتطلب أطروحات كثيرة وأسفارا، فإننا نلم ببعضها على سبيل المثال.

- **التوحيد:**

إذا كان مركز الثقل ومحور الحركة في التاريخ هو الإنسان، فإن محور الحركة ومركز الثقل في الإنسان هو محتواه الداخلي. ومركز الثقل في هذا المحتوى الداخلي هو "المثل الأعلى"، وهو يكتسب -لمحوريته ومركزيته وتأثيره الشامل المهيمن- صفة "الإله"، إذ عنه تنبثق الغايات والرؤى والتصورات والمعايير والقيم وشبكة العلاقات بين عناصر الوجود.

« إذن المثل الأعلى هو نقطة البدء في بناء المحتوى الداخلي للجماعة البشرية وهذا المثل الأعلى يرتبط في الحقيقة بوجهة نظر عامة إلى الحياة والكون، يتحدد من قبل كل جماعة بشرية على أساس وجهة نظرها العامة نحو الحياة والكون على ضوء ذلك تحدد مثلها الأعلى. » ①

و يطلق على المثل الأعلى -مهما كان نوعه- اسم"الإله". لأنه صار مصدر قيم و معايير، و رؤى و تصورات، و توجيه و غايات لكل من يؤمن به.

وكل من صار يملك هذا الدور و هذا الشهود على حركية الإنسان، فهو إله، و ربما هذا الذي يقصده القرآن في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ ﴿الفرقان: 43﴾

و هذه المسألة في المحور الأهم في الحوار أو الجدال، الذي يكون بين النبي والملأ المستكبرين، باعتبارهم "الناطق الرسمي" باسم الاستكبار. ونجد في القرآن الكريم، أن هذه النقطة تلامس كل الإشكالات التي تهم الإنسان في حركته الوجودية.

إن مسألة التوحيد تستغرق الشطر الأوفر من القرآن الكريم، وتستنفد الجهد الأكبر من حوار النبي وجداله ودعوته، وكل القضايا الأخرى ، هي من توابع هذه المسألة ومتعلقاتها، منها تصدر وإليها تعود.

لكن التوحيد الذي دعا إليه النبي و فهمه الملأ المستكبرون قديما، ليس هذا الذي صار عليه الناس، مستضعفين و مستكبرين، لقد أفرغ من محتواه التغييري الانقلابي، فصار لا يحرض مستضعفا ولا يهدد مستكبرا جبارا.

① باقر الصدر: المدرسة الإسلامية، ص146

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن "التوحيد" الذي اعترض عليه الملأ وقاوموه بشدة وعنف هو ذلك الذي يطرح "رؤية كونية" شاملة، متجانسة متفاعلة، تحدث انقلابا معرفيا وتصوريا عاما، يستدعي بالضرورة حدوث التغيير الجذري في شتى البنى التي تقوم عليها حياة الجماعة الإنسانية، بما في ذلك البُنَى النفسية والشعورية، وما يتحرك في مجاهل النفس والضمير.

من ثم نستنتج «أن أي أسلوب و أية فلسفة في الحياة لابد أن يكونا مبنيين -شئنا ذلك أم أبينا- على لون خاص من الاعتقاد و التقييم للوجود، و على لون معين التفسير و التحليل.

و يوجد لكل مبدأ انطباع محدد وطراز للتفكير معين في الكون و الوجود، ويعتبر هذا أساسا وخلفية فكرية لذلك المبدأ.

و يصطلح عادة على هذا الأساس وتلك الخلفية باسم "الرؤية الكونية" (...). إن كل الأهداف التي يعلنها مبدأ ما، ويدعو الناس إلى الحرص عليها، وكل الأساليب التي يعينها، وكل الواجبات والمحرمات التي ينشئها، وكل المسؤوليات التي يوجدها، ليست إلا نتائج لازمة وضرورية للرؤية الكونية التي تشكل القاعدة الأساسية له.» ①

و المحور الأساس في الرؤية الكونية التوحيدية كما يطرحها النبي هو "الله" سبحانه، بكل صفاته و أسمائه التي يعرضها القرآن الكريم ليصير التوحيد الإسلامي أنقى صورة و أرقاها لفكرة التوحيد، بشهادة المتدينين و غير المتدينين.

و على هذا ينبني أن الله هو الذي خلق الكون بدقة، وبث فيه من كل شيء موزون بحيث لا خلل ولا فتور، وأن كل قواه وفعالياته تتحرك وفق نسق دقيق متفاعل من السنن، وأن هذه السنن تتحرك نحو غاية رسالية -بما فيها حركة الإنسان- تستهدف الخير و الحق وإبطال الشر و الباطل، « و إيصال الموجودات إلى كمالاتها اللائقة بها وتعني أيضا أن للكون قطبا واحدا ومحورا واحدا وتعني أن "ماهية الكون" هي منه (إنا لله)، وأنها إليه تتجه (إنا إليه راجعون)، وكل موجودات الكون تتكامل بنظام وانسجام في "اتجاه" واحد، و لم يخلق أي موجود عبثا و بلا فائدة و لا هدف. و الكون يدار بوساطة سلسلة من الأنظمة القطعية التي تسمى بـ"السنن الإلهية" و الإنسان يتمتع من بين الموجودات بالشرف و الكرامة و له رسالة خاصة و واجب معين، و هو مسؤول عن تكميل و تربية ذاته وإصلاح مجتمعه، فالكون مدرسة للإنسان و الله يجازي الإنسان حسب نيته ومحاولاته (...)، و لهذه الرؤية التوحيدية جاذبية، و هي تبعث في أوصال الإنسان النشاط و الحماس، وتعرض أمامه أهدافا رفيعة و مقدسة فتكون منه إنسانا باذلا و مضحيا.» ②

و ليس سهلا على الذهنية الجاهلية أو الخيال الوثني أن يتصور -ناهيك عن أن يتقبل- وجودا خاضعا

① مرتضى المطهّري: الرؤية الكونية التوحيدية، ص8

② مرتضى المطهّري: نفس المرجع، ص20

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ساجدا منقادا لإله واحد، يعمل بنواميس متناسقة منساقة لإرادة واحدة، وإنسانا مكرما حرا أصيلا، ذا رسالة وجودية، ذا نسب واحد، ولا تفاضل بين الناس إلى بالتقوى والعمل الصالح، فلا عرقية، ولا سلالات ولا أنساب، ولا أبناء آلهة ولا أنصافها !

بهذه الرؤية الأصيلة تصير العلاقات النفسية والاجتماعية، والكونية عامة، أكثر موضوعية وإنسانية، فتنهار آلاف الآلهة والأوثان، لتنهار معها آلاف العلاقات والقيم والمفاهيم والمؤسسات، التي تنبع عن تلك الآلهة والأوثان، وتدور في فلكها، ليأخذ كل مخلوق حجمه الطبيعي ودوره الطبيعي.

إنهم لا يرون في هذا الانقلاب "الانقلاب الكوني" الشامل إلا الفوضى التي لا يأمن فيها ناس من ناس، والفتنة المنفلتة من كل إلزام أو التزام.

إنهم لا يستطيعون أن يتصوروا مئات، بل آلاف، الآلهة تسقط، و تنهار بكل ما ترمز إليه، و بكل ما ينبني عليها، و قد عوضت بإله واحد. قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ(5)وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ ﴿ص: 5-6﴾.

فكأن في الأمر رائحة المؤامرة الخبيثة و القصد المبيت !. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿الأعراف: 123﴾. فالفرعون لم يستشف من دعوة التوحيد إلا "إلا الطابع التآمري!"، الذي سوف يفقد المجتمع نظامه و تنظيمه، ويدمر مؤسساته، و يهين أعرافه، و يدوس على قوانينه ليصير نهبا للفوضى و الفتن!

لكن القرآن الكريم يجبه منطقهم هذا المتهافت، فلا يعتبر أن النظام من صنع الآلهة والأوثان، بل إنه من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه، وهذا النظام الدقيق المحكم المتناسق دليل على أن الذي خلقه واحد سبحانه، لأن تعدد الآلهة يستدعي التنافس على مركز "كبير الآلهة"، أو "أبي الآلهة"، والتنافس يفضي إلى الفساد والخراب.

قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿الأنبياء: 22﴾.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿المؤمنون: 91﴾.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ ﴿الإسراء: 42﴾

و أبسط ما يستنتج من هذه النصوص القرآنية الكريمة هو أن تعدد الإرادات يفضي إلى تعدد النواميس و الأفعال ، و عندما يكون هذا تنعدم الوحدة و التناسق و النماء ، و تنعدم الحياة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كما أن تعدد الآلهة يجعل كل إله يتصرف في خلقه بالطريقة التي تشبع فيه إحساس الربوبية و الألوهية، و العلو و الظهور، و هذا يفضي إلى الصراع كذلك.

و مهما أجهد الإنسان نفسه في تصور كون قائم على تعدد الآلهة والأرباب، فإنه لن يستطيع ذلك، خاصة عندما يعطي لكلمة "الإله" معناها الحقيقي، ولكلمة "الرب" دلالتها الحقيقية.

لكنها الأهواء والمصالح البشرية التي تصطلح على أسماء ورموز، تجعل منها ثوابت اجتماعية أو قومية، تستبطن نحوها شعورا لا يختلف عن شعور العابد اتجاه المعبود، و ما ذلك من الناس –و من الملإ المستكبرين بالضبط- إلا قضاء لمصالح وحفاظا على أخرى، وهو الذي يكاشفهم به النبي.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: 25]، و قال سبحانه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: 40].

فالوثنية هذه، نشأت نتيجة قراءة خاطئة، ثم إنها رموز لمصالح ومودة قائمة بين جماعات بشرية كثيرة، كل جماعة ترمز لعلاقاتها بوثن معين، ثم تعبده استبقاء لتلك المودة. والكثير من الناس يعبدون هذه الأوثان ، أو يتظاهرون بعبادتها، استبقاء لهذه المصالح، وهذه المودة، التي تجعل منهم أشخاصا في كيان اجتماعي ذي سلطة وسطوة، و قدرة على الضر و النفع، و الحماية والدفع.

و يضرب القرآن مثلا عن الإنسان في حالة التوحيد أو الشرك، ومن ورائه المجتمع الإنساني عامة، لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 29].

فالإنسان لما يسلم أمره للأرباب متفرقين متشاكسين، من خلال استبطانهم جميعا والشعور بهم جميعا و عبادتهم جميعا يتمزق و يضيع، و يحتار، و تذهب حيويته في استرضاء هذه الأرباب المتصارعة المتخاصمة، و عبثا يحاول ذلك!.. أما الإنسان الذي يسلم أمره لرب واحد، من خلال استيطانه و الشعور به وعبادته، فإنه يعيش في أمن و سلام، مجموع القوى، لاتفاق اتجاهه مع حركته، و ما ينطبق على الفرد ينطبق على المجتمع بالتأكيد.

« و هذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال، فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى، لأن بصره أبدا معلق بنجم واحد على الأفق فلا يلتوي به الطريق. و لأنه يعرف مصدرا للحياة و القوة و الرزق و مصدرا واحدا للنفع و الضر، و مصدر واحد للمنح و المنع، فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد، يستمد منه وحده، و يعلق يديه بحبل واحد يشد عروته،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و يطمئن اتجاهه إلى هدف واحد لا يزوغ بصره، و يخدم سيدا واحد يعرف ما يرضيه فيفعله و ما يغضبه فيتقيه، وبذلك تتجمع طاقاته وتتوحد، فينتج بكل طاقته وجهده، وهو ثابت القدمين على الأرض متطلع إلى إله واحد في السماء. » ①

عندما نقلب بصرنا في التاريخ البشري، و نرى أية طاقة إنسانية جبارة أهدرها الشرك و الوثنية في تشييد في صروح الآلهة الوهمية و معابد الأوثان، و قصور الجبارين، وأضرحة المستكبرين، حينها نتساءل ماذا لو أن هذه الطاقة قد وقعت بين يدي "التوحيد" ليوجهها في تحقيق الاستخلاف الإنساني و عمارة الأرض وإسعاد الإنسانية ؟ حينها ندرك أن هذه الإنسانية كانت تختصر قرونا من التحضر و آمادا من الرقي والتمدن.

و الحديث عن التوحيد والشرك في بعدهما الحضاري لا تكيفه المجلدات والأسفار، فكيف يلم به جزء من فصل من بحث؟!. فحسبنا هذه الإشارة الخفية واللمحة الخاطفة.

- **يوم القيامة و المعاد :**

تمثل القيامة و المعاد ركنا أساسيا في الخطاب النبوي، وتمثل كذلك نقطة اختلاف شائكة بين الملأ المستكبرين والنبي، وهي تتواجد على قطاع عريض من القرآن الكريم، وكل طرف يبني على إنكارها أو إثباتها موقفا وجوديا مصيريا، فالنبي حين يثبت البعث والحساب يهيئ الإنسان ليكون صالحا، من خلال شعوره بالمسؤولية و الرسالية. والملأ حين ينكرون ذلك، فإنما يهيئون الإنسان ليكون عبثيا، ومنفلتا من كل ضبط، فاقدا لأي شعور بالمسؤولية، لا يستقر في ذهنه معيار، ولا تثبت فيه قيمة.

و قد اتبع القرآن -كما هو شأنه مع كل القضايا- طرقا شتى، و ضرب أمثلة متنوعة عديدة، لتقريب مسألة القيامة والحساب إلى أذهان الناس.

و ليس خطورة هذه المسألة في الاعتقاد بها أو إنكارها، إنما تكمن حساسيتها وخطورتها فيما ينبني على ذلك كله من تصورات و أفكار، و قيم و مشاعر، و مواقف و مسؤوليات، و سلوكات لا تتوقف عند الكائن الفرد، بل إنها تتشرّشُ في كل الكيان الاجتماعي.

قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿المؤمنون: 115﴾،

و يقول سبحانه :﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا(66)أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ ﴿مريم: 66-67﴾، و يقول عز من قائل مثبتا اعتراض الملأ المستكبرين: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ(35)هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ(36)إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿المؤمنون 35-37﴾.

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 24، ص3049

و يسجل القرآن الكريم موقفا انفعاليا متشنجا للملأ المستكبرين حول هذه المسألة الحيوية، وليس مستبعدا أنه ما حاربوها لتلعقها بالغيب، إنما حاربوها لتعلقها بالواقع الاجتماعي، و ما تحدث فيه من تغيير وانقلاب.. ولهذا راحوا يثيرون حولها الشكوك و الظنون، و التساؤلات المعاندة المغرضة، لكي يجعلوها لا تستقر في أذهان الناس وأرواحهم، بكيفية تصير معها طاقة محرضة على العمل الصالح، والشعور بالمسؤولية على العمل: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ «الكهف 48».

إذن، فلا داعي للإنسان الكيس الفطن أن يرهن موقفه للحياة بموقف فلان، مهما كانت سطوته ومكانته، ولا بموقف الجماعة أو الطائفة أو العشيرة، أو القوم إلا أن يكون على هدى، لأن يوم القيامة يوم تنفصم فيه كل العرى، وتنقطع فيه كل الوشائج والعلاقات، ومن ثم فما ينبغي للإنسان أن يكون في حياته الدنيا عبدا لعرى الجاهلية، وتابعا ذليلا لعلاقات مصلحية. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ «النحل: 111».

- **تحرير الإنسان :**

لقد اعترض الملأ المستكبرون على الصورة التي يطرحها النبي عن الإنسان منشأ و رسالة و مصيرا، وأصالة وتكريما.

وكان اعتراضهم ذاك نابعا من ركام جاهلي معقد، منه الديني، و منه الفلسفي، و منه الاجتماعي و التاريخي وغير ذلك.

على سبيل المثال، فقد كان "الهندوكيون" -كعينة جاهلية بسيطة- يعتقدون أن الناس جميعا، خلقوا من إله واحد هو "مانو"، « فمن رأسه جاء أفضل الناس و أعظمهم قدسية، وهم الكهنة و البراهمة. و من ذراعه جاء من يليه في الأفضلية وهم الملوك والمحاربون، و يسمون بـــ: "الأكشرية"، ومن فخذيه جاء أرباب المهن في العالم بين زراع وتجار ممن يوفرون مسائل العيش للكهان و الملوك والمحاربين، و هؤلاء هم "الفيشية"، ومن قدميه جاء بقية الناس الذين ينتمون إلى الطبقة السفلى، وليس لهم من مهمة سوى خدمة الطوائف الثلاث السابقة في أخص حاجاتها، و هؤلاء هم الذين يسمون بــ"الشودرا" أو "المنبوذون".

ويضبط العلاقة بين هذه الطوائف الاجتماعية قانون عنصري جائر يسمى "منوشاستر"، لا يسمح لأي واحد من الطبقة التحتية، أن يتطلع نحو الأعلى، مهما كانت قدراته وملكاته.وكل الجاهليات تقوم على ما يشبه هذا التصور.

لكن النبي يطرح بديلا أكثر إنسانية عن هذا المسخ الذي يسمي 'الإنسان' ! . فيجعله من مصدر واحد جسدا و روحا ذا وظيفة واحدة، يملك قابليات واحدة ، قابلة للتنمية و التزكية.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و ألا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى و العمل الصالح. قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ و أُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ﴿الحجرات: 13﴾.

و هذا الإنسان كائن عاقل حر مسؤول مستأمن مكرم، ذو أصالة، مستخلف في الأرض، وذلك جوهر رسالته الوجودية.

و هذه الصورة التي يقدمها النبي عن الإنسان صورة سامية متسامية، لكنها تعترض تماما مع المصالح المادية و المعنوية للملإ المستكبرين، فيسعون إلى تكريس الأفضلية العنصرية والطبقية، ويتجلى ذلك في اعتراضهم على أنصار النبي، باعتبارهم من الطبقات الدنيا، فهم ليسوا مؤهلين لإدراك الرسالات الكبيرة، وفي اعتراضهم على مساواتهم مع الفقراء والعبيد، وهذا الذي يلاحظه "السيد محمد حسين فضل الله" فيقول: « لقد واجه الأنبياء –منذ البداية– اعتراضات الأقوياء المترفين المستكبرين على الجماعات الفقيرة الضعيفة المرذولة، التي تعتبر القاعدة العريضة للدعوات الرسالية، التي تنطلق من الأنبياء. وكانت هذه الاعتراضات تتحرك من موقع الاحتقار لهذه الفئات المستعبدة التي لا تمثل أي حجم كبير في المقاييس الاجتماعية للقوة. » ①

■ **تحرير الكون من القداسة الزائفة :**

إن النبي لما يخوض معركة التوحيد ضد الملأ المستكبرين ومن شايعهم من المستضعفين، فإنه لا يكتفي بأن يثبت لهم أن الله هو الرب وهو الإله المعبود بحق، بل يثبت لهم أن كل ما دونه ليسوا من الربوبية أو الألوهية في شيء، بل هي مخلوقات وظـواهر جامدة صماء، تؤدي وظيفتها الكونية، ضمن النسق الكوني، وهي في حالة خضوع كامل لله. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ ﴿الحج: 18﴾.

فهذا النص القرآني الكريم يؤكد أن كل المخلوقات من أعلاها و أخفاها إلى أدناها و أظهرها في حالة عـبادة و سجود، و ليس فيها جاحد أو ناكر أو متمرد، إلا بعض الناس.

و لا أحد يستطيع تقدير هذه الحركة النبوية، إلا بعد أن يلم إلمامة ولو بسيطة بالهوان الذي وصلت إليه الإنسانية في عصورها السابقة، إذ كان الإنسان يركع أمام كل مظهر يغريه أو يخيفه، أو يطمعه، ووصل به ذاك الهوان إلا أن عبد الديدان والحشرات وباقي الهوام!، « يركع أمام أشياء صنـعها بنفسه ويخافها ويرجو منها الخير. إنه لم يخر ساجدا للجبال و الأنهار و الأشجار و الحيوانات و الأرواح والشياطين و سائر مظاهر الطبيعة فحسب، بل سجد للحشرات والديدان، و قضى حياته كلها بين هـواجس و وساوس، و بين أخيلة و أوهام،

① محمد حسين فضل الله: مع الحكمة في خط الإسلام، ص29

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و أمان و أحلام، كانت نتيجته الطبيعية الجبن و الوطن، و الفوضى الفكرية و القلق النفسي، و فقد الثقة وعدم بالاستقرار. وامتازت الهند البرهمية -بصفة خاصة- بكثرة المعبودات و الآلهة، و قد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس المسيحي فبلغ عدد الآلهة في هذا القرن إلى 360 مليونا.» ①

و من الحتمي أن يشل هذا التقديس الزائف حركة الإنسان عن أن تنطلق في أرجاء الكون الفسيح، وعطل طاقته المبدعة أن تتحرر من قيود الوهن والخرافة، كي تفكك وتبني وتعمر.

و قد أحدثت الدعوة النبوية انقلابا كونيا شاملا، وأعادت ترتيب علاقة عناصره بعضها بعضا إعادة جذرية، فهي في علاقاتها مع الله عابدة ساجدة، خاضعة مستسلمة لا تملك إلى أن تلبي و تستجيب. قال الله تعالى:﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ﴿فصلت: 11﴾.

وهي في علاقاتها مع الإنسان مسخرة له خادمة، لا تملك أن تعصيه أو تتمرد عليه، ما أحسن فهمها والتعامل معها. قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿الجاثية: 13﴾.

و زاد فوق هذا أن جعل الكون، بكل ما فيه آيات بينات على وحدانية الله سبحانه، فهو ذو وظيفة إيمانية، و مظاهره ليست آلهة، بل مفردات في كتاب التوحيد الهائل!.

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿فصلت: 37﴾.

لكن الملأ المستكبرين يرفضون هذا من النبي، و يقاومونه مقاومة شديدة، دفاعا عن آلهتهم و ما نسج حولها من أوهام، سواء كانت هذه الآلهة في السماء، كالشمس و القمر و النجوم، أو وراء السماء كالجن و الشياطين، أو في الأرض بكل ما فيها من مظاهر، حتى و إن أدى ذلك إلى توقف حركة الحضارة!.

- **الاعتراض على النبي :**

تثير النبوة في المجتمع الذي تظهر فيه جملة من التساؤلات والاعتراضات، باعتبارها حركة بعث وتجديد في مجتمع خامل ساكن، مستسلم لآليات ذات حركة رجعية ماضوية.

وهي بهذا تفرح قوما وتبشرهم، و تجد لها بينهم أنصارا، و تسوء قوما آخرين وتحزنهم، وتجد لها بينهم أعداء.

و اعتراضات الملإ المستكبرين على النبي شتى، لكن سنذكر بعضها، أولها أنهم تعجبوا أن يكون لبشر مثلهم علاقة واتصال بعالم السماء البعيد الغريب. ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ

① أبو الحسن الندوي : الإسلام: أثره على الحضارة وفضله على الإنسانية، دار الصحوة - القاهرة، ط(1)، 1406 هـ، ص18

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿الإسراء 94﴾، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ ﴿المؤمنون: 33﴾ و ليس هذا عيبا أو عارا حتى يتملص منه النبي أو ينفيه، بل إنه يؤكده بطريقة هادئة: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿ابراهيم 11﴾.

و ليس في وسع النبي أن يأتيهم بالخوارق والمعجزات إلا بإذن الله، كأن يفجر لهم ينبوعا في أرض قاحلة، أو تكون له جنة من نخيل كشأن الموسرين من الملإ المستكبرين، أو تكون له كنوز ما بين أصفر وأبيض، أو يرقى في السماء فيأتيهم بكتاب يقرأونه، إلى آخر الشروط التي تكشف عن ذهنية صبيانية، وخيال طفلي، والتي يرى فيها الملأ المستكبرون تعجيزا للنبي، أو برهانا على القدرات غير العادية التي يتمتع بها، وبذلك يكون أهلا لهذا الأمر الخارق. لكن الله يوجه نبيه إلى الإجابة القاطعة للجدل و المراء: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿الإسراء: 93﴾.

و بعدها يقترحون وسيطا بين النبي وبين عالم الغيب، كأن يكون ملكا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ(8) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ ﴿الأنعام 8-9﴾.

ثم هم يعترضون على مسلكيات النبي، التي لا تشي بأنه يحمل أمرا عظيما جليلا، كهذا الذي يزعمه ويدعيه، فهو بسيط متواضع، يأكل الطعام، ويلم بالأسواق قضاء لبعض حاجاته!. وإن الأمر الذي يدعيه -حسب زعمهم- لكفيل أن يرفعه عن الناس ملكا ومالا ومكانة، وكفيل بأن يجعله لا يتحرك إلا في حشم وخدم، وحراس يسعون من بين يديه ومن خلفه. ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا(7)أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ ﴿الفرقان: 7-8﴾.

ثم إنهم -انطلاقا من الاعتبارات المادية المسيطرة على معاييرهم وحساباتهم- يرون أنه من الأولى أن يكون النبي رجلا عظيما، ذا حسب ونسب في قومه، وذا أتباع ومريدين، يكونون له أعوانا على هذا الأمر وأنصارا فيه، و بذلك -حسب ظنهم- يوفر جهدا ووقتا.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ﴿الزخرف: 31﴾.

فيجيبهم القرآن مبطلا زعمهم وداحضا فكرهم: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ﴿الأنعام: 134﴾.

فهؤلاء الملأ المستكبرون قد أهمتهم أنفسهم، وتضخمت ذواتهم، فصاروا يرون أنفسهم محوريين ومهمين، ولابد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أن تكون الرسالة فيهم، أو يكون لهم رأي في حركتها وموقعها. لكن الله سبحانه، لا يضع اعتبارات البشر، ولا بمعايير البشر، حين يوزع أفضاله على عباده، فلا دخل لأحد في شأنه -سبحانه- حين يصطفي بشرا ويجعله موصولا به، ويكلفه بما يريده بين عباده.

وحين لا تفلح محاولات الملأ المستكبرين في كل ما سلف، ويقابلهم الرسول بموقف إيماني لا يتزعزع، ولا يهادن أو يداهن يواصلون نشر التهم والأباطيل حول كل شأن من شؤون الرسول، فيقولون عنه مثلا: إنه ساحر وكاهن، ومجنون وضال ومضل، ومفترى وكذاب، و سفيه، ومريد سلطة وكبرياء، وناشر فوضى، و مفرق وحدة الأمة، إلى غير ذلك من التهم و الأباطيل التي تتفتق عنها الذهنية الجاهلية المهووسة، الخائفة على مصالحها ومواقعها.

و لكن القرآن الكريم، يواصل تسفيه رأيهم، و فضح مزاعمهم بالسلطان البين، و البرهان الواضح و الحجة الدامغة، إن كانوا يعلمون في قرارة أنفسهم، أنه ليس مما يقولون في شيء.

قال الله تعالى:﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ ﴿الأنعام: 33﴾.

« و واجه النبي ذلك كله بصفة النبي الذي لم تكن ذاته تمثل شيئا بالنسبة إليه إلا بمقدار ارتباطها برسالته، ولذا فإن حملة التشويه لا تثير لديه أي رد فعل إلى من خلال حاجة الرسالة إلى ما يحميها من التشويه الذي يسيء إلى أثرها العلمي في حياة الناس.. فدعاهم إلى أن يوازنوا بين الشعر، من خلال القضايا التي يثيرها الشعراء، والأجواء التي يعيشونها، والأساليب التي يتبعونها، و بين القرآن وقضاياه وأجوائه وأساليبه، ليروا أنه بعيد كل البعد عن الشعر وزنا وقافية وقضايا شخصية.. وهكذا الأمر -في موضع السحر والكهانة- فلم يكن القرآن كتابا يعتمد على خداع أبصار الناس وأفكارهم، أو النفاد إلى غيب الماضي والمستقبل في قضاياهم الخاصة.. كما يفعل السحرة و الكهان. » ①

و ما حدث القرآن الكريم أن هذه التهم السخيفة التي كانت تترى، ويملأ بها الملأ المستكبرون الجو الاجتماعي الذي تتحرك فيه الدعوة، كانت ذات تأثير عميق معرقل، لأن تتابعها في غير روية وتعقل دليل قاطع على أنها ما كانت تفعل في نفوس الناس ما يريد منها الملأ المستكبرون.

■ الاعتراض على أنصار النبي :

يثير الملأ المستكبرين شبهة أخرى، ويسجلون اعتراضا آخر على النبي، وتكمن هذه الشبهة وهذا الاعتراض في طبيعة الوضع الاجتماعي والموقع الطبقي لأنصاره، فهم من الطبقة المرذولة اجتماعيا، الذين -

① محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن، ص111

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حسب زعم المستكبرين- لا يحسنون قراءة المعطيات، و لا تقدير العواقب، ولا يعرفون أين الخير وأين الشر، ولا أين الصواب وأين الخطأ، وإن التفافهم حول النبي، مع قلة ملحوظة في من اتبعه من ذوي المراكز الاجتماعية المرموقة، دليل على أنه على ضلال، وأنه سوف لن يذهب بعيدا بدعوته. يقول الله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿هود: 27﴾.

« أي دون تروي ولا تفكير.. وهذه قمة كذلك توجه دائما من الملإ العالين لجموع المؤمنين..إنها لا تتروى، ولا تفكر في اتباع الدعوات، ومن ثم فهي متهمة في اتباعها واندفاعها، ولا يليق بالكبراء أن ينهجوا نهجها، ولا أن يسلكوا طريقها، فإذا كان الأراذل يؤمنون، فما يليق إذن بالكبراء أن يؤمنوا إيمان الأراذل. » ①

و لو أن هذه الدعوة –حسب زعمهم- دعوة خير وفضل، ما كان يسبقهم إليها أحد، لأنهم يحسنون التفكير والتقدير، ويحسنون قراءة عواقب الأمور، بما يملكونه من معطيات تؤهلهم لذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ ﴿الأحقاف: 11﴾.

وما داموا لم يهتدوا به، و لم يهتدوا إليه، فلابد أن يختلقوا فيه عيوبا ونقائص، تصد الناس عنه صدا، وتبرر لهم نكوصهم عنه، وترضى عاهاتهم النفسية، وتشبع غرورهم، فليكن إذن: إفك قديم، أعانه عليه قوم آخرون!!.

و لما يرون أن الدعوة ماضية في طريقها، و أن اعتراضاتهم لم تجد نفعا، يطرحون سؤالا آخر، و هو أن مكانتهم عند الله، لا تقل عن مكانتهم الاجتماعية في الدنيا، و لو كان في هذا الأمر خير لمنَّ الله عليهم به، وإلا «كيف يمكن أن يختص الله من بيننا بالخير هؤلاء الضعاف الفقراء ؟.. إنه لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقونا إليه، و لهدانا الله به قبل أن يهديهم!.. فليس من المعقول أن يكون هؤلاء الضعاف الفقراء هم الذين يمن الله عليهم من بيننا، و يتركنا و نحن أصحاب المقام و الجاه! » ②

ثم إنهم، وفي شيء من الغرور و الحمق، يتقدمون إلى النبي باقتراح، يكشف عن مدى الكبر الذي يملأهم، وهو: إن كان النبي –حسب زعمهم- يريد خيرا لدعوته، فما عليه إلا أن يطرد الأراذل والفقراء والمستضعفين ، ليؤمنوا هم به.

و عندما يرى الناس السادة والكبراء قد آمنوا بدعوة النبي، فإنهم سيؤمنون جميعا في غير مشقة أو جهد، أو تعرض للأخطار، بحكم أن الناس على دين ملوكهم. و ليس مستبعدا أنهم يرون أن مقترحهم هذا يحوز شيئا كبيرا من الجدية و العملية، و أنه قابل للنقاش و الإثراء. لكن النبي يرد عليهم بكل ما في الرسالة من صرامة و وضوح و مفاصلة.

---

①سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 4، الجزء 12، ص1872

②سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 2، الجزء 7، ص1100

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ(114)إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿الشعراء: 114-115﴾
﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ(29)وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿هود: 29-30﴾

يستشف من هذا الرد أن النبي صاحب رسالة موجهة إلى الإنسان.. إنه ليس رسولا قوميا أو طبقيا، أو طائفيا أو مذهبيا، ومن ثم فهو لا يملك إلا التبشير والإنذار، ولا يهمه بعدها من يتكبر عن البشارة ويستخف بالنذر أو من يستجيب ويحدث له الإنذار ذكرا.

و هو لا يسأل عن دعوته أجرا أو مركزا اجتماعيا، حتى يتمتع لديه أصحاب المال و الجاه بمكانة مرموقة أو اعتبارات خاصة، و معاملات خاصة.. إنه ما جاء إلا ليهدم هذا التقييم و يلغيه و يطرح مكانه التقييم الإسلامي المجرد من الأهواء، و القائم على أساس أن الأفضلية تكتسب بالتقوى و العمل الصالح.

- **الاعتراض على القرآن :**

إنهم حين يعترضون على النبي، ويتهمونه أنه كذاب ومفترى، و ساحر ومجنون فنفس هذه الأوصاف يطلقونها على الكتاب الذي جاءهم به، فهو كذب محبوك، و افتراء قوي، و سحر مستمر، وهو أساطير الأولين أكتتبها عن القصاص و أهل التاريخ، و أحبار اليهود ورهبان النصارى. قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿الفرقان: 5﴾.
لكن النبي ما كان قارئا، و لا كان كاتبا، ولا يشهد عليه أحد أنه كان يجالس من يقرأون أو يكتبون على قلتهم: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿العنكبوت: 48﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿يونس:16﴾.
و ذاك ما تؤكده كل الشواهد التاريخية فقد عاش فيهم أربعين سنة من قبله، و لم تظهر عليه مقدمات هذا الأمر الجلل، ولقد كان عاديا تماما، « و في هذا دلالة كبيرة على أن الرسالة لم تتحرك في أفكارها ولا في قرآنها من موقع الإمكانات الذاتية التي تخضع لطبيعة الأمور، فإن من الصعب بل من المستحيل عادة، على أي إنسان يستقبل فكرة تنبع من تخطيطه وتفكيره، أن يعيش الصمت المطلق في حياته اتجاهها في أضواء تكاملها ونموها في نفسه، فإن سلوك الإنسان وأقواله تعتبر انعكاسا -عفويا- بأفكار و أرائه في الحياة. » ①

و في مواضيع أخرى يتحداهم أن يأتوا بشيء يشبه القرآن، خاصة وهم يعرفون المعارضة بين الشعراء، وتأثر بعضهم ببعض وأخذهم عن بعضهم بعضا فتتقاطع الأساليب الإبداعية وتتلاقى في محاور، فتصير متشابهة،

① محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن، ص108

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ر نفترق في أخرى، لتبقى كل واحدة على خصوصيتها. و لقد حاولوا ذلك فما أنتجوا إلى ما يثير الضحك والاستخفاف. قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: 13].

و ربما في مرحلة من مراحل الجدل، يسلمون أن للقرآن خاصية أسلوبية تأثيرية آسرة، لكن ذلك –في نظرهم– ليس دليلا على كونه من عند الله، إنما هو صنف من هذه الأصناف القولية التي تتنزل بها الشياطين –حسب زعمهم– على قلوب أوليائهم من الشعراء والكهان، وهم بهذا يجعلون القرآن مظهرا من مظاهر العبقرية، فيرد عليهم القرآن بنبرة حاسمة.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: 69].

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ(210)وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: 210].

ثم إن التشكيك في مصدرية القرآن، وطريقة وصوله إلى النبي، تشكيك في محتواه، و في مبادئه و قيمه ودعوته، و هذا هو المقصود الحملة الشرسة التي يشنونها ضده. وهم عندما يشبهونه بالسحر و الشعر، و الكهانة والجنون، فلكي يوقفوا تأثيره عند حدود تأثير هذه الأمور، التي غالبا ما تصير في نهاية أمرها مادة [illegible]ير و التفكه و الاستمتاع.

لكن القرآن الكريم يحدد لهم مصدريته، وطريقة نزوله، وطريقة تلقيه، ووظيفته في الحياة، ثم يخلع على نفسه مجموعة من الصفات والأسماء، لا تتحقق لأي كتاب آخر، وهي كلها مذكورة في ثنايا القرآن الكريم.

و هذه الأسماء والصفات لا يستطيع قول بشري، أن يدعيها في ذاته ويحققها كلها، ولا يستطيع أي بشر، يتسم بالعلمية والموضوعية، أن يعترض عليها متعلقة بالقرآن الكريم إلا إذا كان جاحدا ومرائيا.

- **السخرية والاستهزاء :**

يلجأ الملأ المستكبرون إلى إثارة جو خانق من السخرية والاستهزاء، حول النبي وما يدعو إليه، وما يأمر به، و ما يسلكه، وكل ما يصدر عنه، حتى لا يأخذ الناس أمره مأخذ الجد، و حتى يختلط في أذهانهم و عقولهم بالفوضى، فيفقد الموقف الكثير من صرامته و وقاره.

يقول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: 212].

لقد صار زخرف الحياة الدنيا و زينتها محور اهتمام الملأ المستكبرين واستغراقهم، حتى إذا رأوا أحدا يدعو إلى التعلق بقيم مجردة متجردة، سخروا منه، و سخروا من كل شيء يتعلق به، واعتبروا ذلك ضربا من اليوتوبيا، و أحلام اليقظة، و شكلا من أشكال السذاجة و البلاهة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و من هذا المنطلق المتهافت المغـــرور، يجعلون كل شأن من شؤون النبي و حركتـــه و أنصاره مثـــار سخريـــة و استهزاء، فهم يستهزؤن بالنبي، و يسخرون من أنصار النبي، و يسخرون من صلاة النبي و شعائره و شرائعه، ولغته، و لغة كتابه.

و من هذا الموقف المتكرر مع كل الرساليين على مر التاريخ، يستنتج « أن أساليب السخرية التي يستخدمها خصوم الرسالات، جزء من وسائل حرب الأعصاب التي يراد منها تدمير المؤمنين تدميرا معنويا لدى أنفسهم، ولدى الآخرين بما توحيه من إعطاء صورة واضحة عن قابلية الفكرة و أصحابها للسخرية و لاعتبارها موضعا للتندر والاستهزاء، مما يمنع الآخرين من الانتماء إليها خوفا من التعرض لذلك، و يضعف الروح المعنوية، و لهذا فإنها لم تنشأ من حركة عفوية، بل كانت خاضعة لخطة مدروسة، فلابد من مواجهتها بخطة مثلها أو أفضل منها.» ①

و الاستهزاء بالنبي والسخرية من أنصاره سنة ماضية إلى يوم الدين، مادام هناك ملأ مستكبرون لا يأخذون الحياة وما يضطرب فيها بجدية ووقار، ويوحون إلى أوليائهم والمتأثرين بهم أن يفعلوا مثل ذلك، لأن أوضاع الترف قد أفسدت فطرهم، وغلظت أحاسيسهم فصاروا يحيون على معايير مهتزة متهافتة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿الزخرف: 7﴾.

لكن النبي، يعد الملأ المستكبرين أنه سوف يرد على الاستهزاء والسخرية، بما يقابلهما من سخرية واستهزاء، وشتان ما بين سخرية وسخرية، وما بين استهزاء واستهزاء.

﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ ﴿هود: 38﴾

- **رفض التدخل في الشؤون الاجتماعية:**

إن الملأ المستكبرين عندما يرفضون دعوة النبي على مستوى الطروحات النظرية، لأنها تهدد مرجعيتهم، فإنهم يرفضون كذلك تدخل النبي في الشؤون الاجتماعية بالتقويم والتوجيه، أو الهداية والإصلاح، وقد استغربوا -مثلا- أن تكون هناك علاقة ما بين الصلاة وبين المعاملات المالية والمكاييل!.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ(84)وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿هود: 84-85﴾

إن النبي يقرن دائما الدين بالقانون، والدنيا بالآخرة، والصلاة بالمعاملات، والأخلاق بالسلوك، ومن ثم فلابد على هؤلاء القوم أن ينظموا معاملاتهم الاقتصادية وفق ما تقتضيه دعوة التوحيد، ذلك « أن المعاملات والأخلاق لابد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة.. هذه هي نظرة الإسلام، وهي تختلف من

① محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص231

الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية و الأخلاقية، التي ترتكز إلى تفكيرات البشر، و تصوراتهم و أوضاعهم، ومصالحهم الظاهرة لهم.» ①

لكنهم يردون عليهم بنظرة المتعجب و المستهزئ المستخف: هل وصل تأثير صلاتك وامتداد إشعاعها إلى الحد الذي تتدخل فيه في تصريف الأموال، وإقامة الموازين والمكاييل بالقسط، وكل ذلك متعلق بشؤون الحياة ونباهة الناس!.

﴿قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ﴿هود: 87﴾.

إذن فليس أمرا جديدا أن تظهر اللائكية والعلمانية في هذا العصر فلها جذورها في كل مجتمع جاهلي .ابق، يرفض أن يحتكم إلى أخلاق السماء في كل شؤونه أو بعض شؤونه، ليفسح المجال أمام أخلاق المنفعة المؤقتة، تحلل اليوم ما تحرمه غدا، و تمنع في لاحق الأيام ما كان في سابقها مباحا.

« إن رفض هؤلاء للمبدأ التشريعي الذي يحرم التطفيف، يرجع إلى اعتقاد خاطئ، و هو حرية التصرف المطلق فيما يملكه الإنسان من مال، فليس لأي تشريع أن يقترب من هذه الحرية بأي نوع من أنواع التضييق والتقييد، وهذا ما يعبر عنه احتجاجهم على ذلك بقولهم.. أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ..» ②

و نفس الموقف نلاحظه في قصة النبي "لوط" مع قومه، فقد رفضوا أن يتدخل في شؤونهم وحريتهم الخاصة، في ما يأتون أو يدعون من السلوكات، حتى وإن كانت منحرفة شاذة.

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿العنكبوت 29/28﴾.

إنه لم يبد منهم أي دفاع عن انحرافهم، أو اعتذار عما استغرقوا فيه، ولم يبد منهم أي تبرير، حتى ولو كان باطلا متهافتا، وهذا كله يشي أنهم قد استغرقوا في الشذوذ وأشربوه في قلوبهم، فانتهى فيهم إلى كل عصب وحلية!.

و هذا لم يجدوا سوى أن يواجهوه بتبجح و توقح.﴿قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿العنكبوت 29﴾

و ربما يكون قد ألح عليهم في ضرورة الارتداع عما هم فيه، فلم يطيقوا صبرا عليه، فهددوه بالطرد و النبذ و الإخراج من مدينتهم، حيث يمارس طهره وحده ويعيش عليه وحده!.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ ﴿الشعراء: 167﴾.

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 4، الجزء 12، ص1917

② محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص306

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و ما هذا إلا منطق الجاهلية وإجراؤها القديم المتجدد، فالجاهليون يضيقون بمن يخالفهم ويختلف عنهم، حتى ذاك الذي يكون أنظف وأشرف، وأنقى وأتقى، وأكثر تمثلا للقيم الإنسانية العليا... إنه يفضحهم، ويؤذيهم، لأنه دائما يذكرهم بالأفق السامي الذي هووا منه، والطهارة التي انسلخوا منها، وهذا التذكير يلح دائما على ضمائرهم و أعصابهم و أرواحهم، ويجعل استغراقهم في الشهوات فيه بعض المنغصات، التي لابد أن يتخلصوا منها، فيكون ذلك بالطرد والإخراج، لكي يخلو الجو للمدنسين والملوثين، يعيشون حياتهم كالبهائم، بل أضل من البهائم، و يوحون للضحايا من جماهير الناس، أنه لا يوجد وجه آخر للحياة إلا هذا الواحد، ولا توجد طريقة لممارستها والانخراط فيها إلا هذه الطريقة.

- **الإغراء بالمال والسلطان :**

استقر في أذهان الملأ المستكبرين أن من يرفع شعار التغيير، ويؤلب الجماهير على الحاكمين، فإنما يطمح إلى السلطة، والمال والجاه، وكل مقومات الكبرياء: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يونس: 78﴾.

فهم يعلمون أن التفريط في إيديولوجية "الآبائية" هو استسلام، وتسليم لمقاليد السلطة والحكم لتصير في يد النبي وأنصاره. ومن هذا المنطلق يستميتون في الدفاع، و قد يعرضون على النبي في مرحلة من مراحل الدعوة والمواجهة، بعض المال لقاء أن يسكت أو يلطف خطابه شيئا قليلا، أو يذكر آلهتهم بخير، حتى يطمئنوا أن مستقبلهم السياسي -بالاصطلاح المعاصر- مضمون و محفوظ، لكن النبي يرد عليهم بكل صراحة و وضوح: ﴿وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ ﴿هود: 29﴾.

لقد عرضت "قريش" على الرسول ﷺ المال و السيادة و الملك، ظنا منها أنه بدعوته هذه ما يريد إلا أمرا من هذه الأمور الثلاث، لكن النبي الكريم رد عليهم برد الواثق بالله، المطمئن إلى ما عنده، المترفع عن حطام الدنيا، وسفاسفها، فقال: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه".

وكل نبي في القرآن يظن به هذا الظن الآثم، فيعرضون عليه نفس العرض الخبيث، ليتلقوا منه نفس الرد الواضح الصريح: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الشعراء: 145﴾.

ثم يعرض عليهم بعدها فحوى رسالته، ليروا أنها تختلف عن كلام الأدعياء وتجار المبادئ، « ثم يطمئنهم من ناحية الدنيا وأعراضها، فماله فيها من أرب بدعوتهم إلى الله، وما يطلب منهم أجرا جزاء هدايتهم إليه، فهو يطلب أجره من رب الناس الذي كلفه دعوة الناس. وهذا التنبيه على عدم طلب الأجر يبدو أنه كان دائما

ضروريا للدعوة الصحيحة، تمييزا لها مما عهده الناس في الكهان ورجال الأديان من استغلال الدين لأكل أموال العباد. و قد كان الكهنة و رجال الدين المنحرفون دائما مصدر ابتزاز للأموال بشتى الأساليب. فأما دعوة الله الحقة فكان دعاتها دائما متجردين، لا يطلبون أجرا على الهدى، فأجرهم على رب العالمين.» ①

- **التهديد باستعمال العنف :**

إن لجوء الملأ المستكبرين إلى التلويح باستعمال العنف -بشتى صوره- دلالة قاطعة على شعورهم أن خطابهم غير مقنع، و أسلوبهم في التصدي للرسالة و الرسول فاشل غير مجد، و آية ذلك ازدياد الأنصار و المشايعين حول النبي، وثباته هو على خطه ونهجه.

و للعنف صور شتى، و درجات متفاوتة، منها، طبعا بعد العنف المعنوي، الذي مورس منذ بداية الدعوة، و الذي يتجلى أكثر في : الاستهزاء و السخرية، الاتهام بالجنون، الاتهام بالكذب، الاتهام بالضلالة و السفاهة و الإفساد، و إشاعة الفوضى، و التطلع إلى السلطة، الاتهام بالسحر و الكهانة، و الشعر، بعد هذا يأتي العنف الجسدي، و الذي يتجلى أكثر في: التهديد بالضرب و الرجم، التهديد بالسجن، النفي و التشريد، والطرد من المجتمع، القتل و التنكيل، المحاصرة الاقتصادية، و قطع العلاقات الاجتماعية.

وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة، تشير إلى هذه الإجراءات القمعية والعنف، منها: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ﴿الشعراء: 116﴾. ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ ﴿الشعراء: 29﴾. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ﴿غافر: 26﴾. ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا...﴾ ﴿الإسراء: 76﴾.
﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ﴿طه: 71﴾. ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ﴿الأنفال: 30﴾.

لكن النبي، وبحكم أنه موصول بالله واثق بما عنده، واضع في اعتباره أن طريق الأنبياء والربانيين كثيرا ما ينفتح على الشهادة فإنه لا يأبه بهذا التهديد، وهذا الوعيد، بل يعتبر ذلك ضربا من الحماقة والسفاهة، غالبا ما تلم بالجاهليين وأصحاب الامتيازات عندما يلبسون موقفا ومنطقا وخطابا.

فيرد على تهديداتهم بنبرة متحدية: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِي فَلَا تُنْظِرُونِي﴾ ﴿الأعراف: 195﴾،
﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿هود: 55-56﴾

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 19، ص2607

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن النبي لا ينصر دعوته بفصاحة اللسان، وقوة البيان، وتخير الألفاظ والمعاني فقط، بل إن أكبر دفع يعطيه لها يكون بقوة الموقف، وثبات المبدأ و وضوح الهدف، ونبل التضحية، ورفض المداهنة والمهادنة، إلا ما توجبه الحكمة، ويقتضيه الظرف الذي تتحرك الدعوة في أجوائه، و تستوجبه المرحلة: « إن الإنسان ليدهش ... رجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد، ولكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل والأسباب. إنه الإيمان. و الثقة. و الاطمئنان .. بالإيمان بالله، والثقة بوعده، والاطمئنان إلى نصره، الإيمان الذي يخالط القلب فإذا وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب، لا يشك فيها لحظة، لأنها ملء يديه، وملء قلبه الذي بين جنبيه.» ①

المبحث الخامس : كيف ينتهي الحوار

إن الحوار الذي كان النبي يريده هادئا وهادفا، يكون فضاء مشتركا بين الجميع، تتلاقح فيه أفكارهم من أجل كشف الحقيقة والاهتداء إلى الحق، وقد قدم لهم في سبيل ذلك مقترحات مهمة، وحافظ طول مدة الحوار -على تشعب مناحيه و تعدد وجوهه- على الرؤية الموضوعية، و الخطاب المنطقي، و روح التسامح، التي جعلته هادئا رزينا، رغم الجو المتوتر المشحون بالاستفزاز والشطط الإستكباري، لأنه «لم يكن يتحرك في حواره وسائر مواقفه من قاعدة المشاعر والأحاسيس الذاتية، بل من قاعدة الأساليب الرسالية، فلم تكن ذاته هي التي تتحرك، بل كانت رسالته هي التي تفرض نفسها على الجو في بدايته ونهايته... وهذا كانت المصلحة الرسالية هي ما يستهدفه النبي ﷺ من اللمسات الأخيرة التي يضعها لنهايات الحوار.» ②

و على العكس من هذا، يلاحظ أن الملأ المستكبرين قد بلغوا قمة التوتر و التشنج و الرغبة في الإنفصال، إلى الحد الذي وصفهم فيه القرآن الكريم،﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ ﴿الجن: 19﴾.

وهذا كله جعلهم عاجزين أن يخوضوا حوارا خاليا من السباب والشتائم، والتلويح بالتهديد و استعمال العنف ضد النبي و أتباعه، وكان النبي خلال كل ذلك صابرا محتسبا، ملتزما بما رسمه للحوار معهم من منهجية وأسلوب، مستجيبا لأمر ربه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿الروم: 60﴾.

و من ثم يريد النبي أن يحافظ على الجو الاجتماعي الهادئ، حتى بعد فشل الحوار مع الملإ المستكبرين، و وصوله إلى طريق مسدود وباب موصود، ويدعو إلى التعايش السلمي بين الأفكار والمبادئ، مع توفير الجو الحر الآمن الذي يسمح بامتداد هذه الفكرة، أو انتشار ذلك المبدإ. يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿الأعراف: 87﴾.

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 12، ص1899

② محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن، ص305

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهذا الاقتراح -من النبي- اقتراح موضوعي ومنطقي، ينبع من ذهنية لا يقلقها مطلقا التعايش مع من يخالفها أو يختلف عنها، لأن الحكم على صواب الفكرة أو فسادها، إنما يتم من خلال حركية اجتماعية ومن خلال جدلية من السنن تنبذ الخبيث فيذهب جفاء، أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

و بعدها يفاصلهم النبي مفاصلة غير آيسة منهم، إنها تشبه تلك المفاصلة التي يقصد بها التأديب والتأنيب والتربية، يفاصلهم بمنطق هادئ رصين، لا يخدش لهم كبرياء، و لا يستجيش فيهم غرورا ولا يعزز فيهم عزة بالإثم، يقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: 35]، ويقول سبحانه:﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 41].

« و هي لمسة لوجدانهم باعتزالهم وأعمالهم ، وتركهم لمصيرهم منفردين، بعد بيان ذلك المصير المخيف، وذلك كما تترك طفلك المعاند الذي يأبى أن يسير معك في وسط الطريق وحده، يواجه مصيره فريدا، لا يجد منك سندا، وكثيرا ما يفلح هذا الأسلوب من التهديد » ①. يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: 50].

فهذه الآية تشير إلى التزام النبي بمنهجية الحوار وروحيته حتى في نهايته، فهو هادئ معهم، يرد عليهم أن الذي يَضِل ويُضل فإنما على نفسه يقع وبال الضلال والإضلال، فربما ينتهي به الضلال إلى حتفه وإلى الضياع والتلاشي، وربما ينتهي به الإضلال إلى أن يتفطن إليه الناس و ينفضوا من حوله، و يفضحوه ليبقى منبوذا و طريدا. أما إن كان مهتديا، فليس ذاك بفضل عبقرية فيه، أو خصوصية له عليهم، إنما بفضل الوحي الإلهي.

و كثيرا ما يلجأ الملأ المستكبرون إلى طرق خسيسة خبيثة، بغية جر النبي إلى معارك هامشية، وإخراجه من موقعه الرسالي الحصين، ومنطق الرسالة الرزين، الذي يمتلك من خلاله قوة الحجة والدليل، إلى مواقع أخرى يصير الحوار فيها جدالا، والجدال مراء، قوامه التعنت و العناد، و الباطل واللغو، فما يكون من النبي إلا أن يعلن بصراحة ومفاصلة، أنه ما بعث ليماري ويواجه باطلا بباطل، و يقابل شتما بشتم، و يرد على اللغو باللغو، أنه مأمور أن يعرض عن اللغو، وأن يتجرد من المراء، وأن يترفع عن الجاهلية. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: 55].

﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: 25]

ففي هذا النص القرآني ورغم المفاصلة الواضحة، فإن النبي يفاصلهم بطريقة تلمس فيهم قلوبا فتدفعها إلى الخوف المرتقب، وعقولا فتثير فيها شكا وتدفعها إلى التفكر والتدبر.

فهم يغلقون باب الحوار مع النبي، لكنه يظل مفتوحا بينهم وبين ضمائرهم وأرواحهم وعقولهم.

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 11، ص1794

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و في نص آخر يحذرهم الرسول من عاقبة هذا العناد، و هذا التعنت، بما قد تخفيه الأيام من مصير سيئ لهم أو له :

يقول الله تعالى: ﴿وَيَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ﴿هود: 93﴾.

فلكل واحد أن يظل وفيا لخطه، منطلقا من مبدإه، ساعيا إلى غايته، ليكون الحكم الأخير للأيام وما تخفيه. وفي هذا كله ما يكشف أن النبي واثق كل الثقة من العاقبة والمصير، ويكشف كذلك أن النبي لا يضيره مطلقا أن يضلوا كفارا ما داموا لا يحولون بينه وبين الناس يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويخاطبهم بالحسنى.

« و هكذا نجد في ذلك كله ، أنه يغلق باب الحوار بمهمة، ويبرر انسحابه منهم بأسلوب رائع لا يسيئ -فيه- إلى خصومه، بل يقودهم معه إلى موقع المسؤولية، ليتحركوا في إطارها، وينطلقوا منها ومعها في أكثر من مجال.. وتبقى الرسالة على الطريق تنتظر القادمين الذين يأتون إليها، والراجعين والمتراجعين، فلعلهم يأتون من جديد... ويتركون ما هم فيه من ضلال و انحراف.» ①

لكنه ليس من شأن الملأ المستكبرين أن يتركوا الحوار ينفتح على أشواط أخـــرى، ليمضي إلى نهايتــه و أهدافه، وليس من شأنهم كذلك أن يطيقوا رؤية بديل عنهم وعن دينهم، يتحرك في الساحة الاجتماعية، ليلفت الناس إلى وجود طريقة أخرى لتعاطي الحياة، تتسم بالصفاء و الصدق و الأخلاق الإنسانية المثلى، فيلجأون -كما رأينا سابقا- إلى القوة و الإرهاب، و التهديد و الوعيد، و القمع و الإكراه، حتى يخاف النبي فيكف عن دعوته، أو يكيفها وفق شروطهم، و يخاف أنصاره فينفضون من حوله، و يخاف الناس فلا يفكرون في اعتناق دينه، والتخلي عن دين السلف.

ومن ثم يلجأون إلى الاغتيالات والقتل والإخراج، كإجراء أخير يستهدف التخلص من الرسالة بالتخلص من الرسول، ومن الدعوة باغتيال الداعية. قال الله تعالى:﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ ﴿الأعراف: 88﴾.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ﴿الأنفال:30﴾

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ(20)فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَــوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿القصص: 20-21﴾

من خلال هذه الآيات الكريمة، وغيرها يتضح لنا، كيف ينهي الملأ المستكبرون الحوار، وهي نهاية متجددة على مر التاريخ لأن الكافر لا يطيق المؤمن، ولأن المبطل يضيق بالحق، ولأن الظالم لا يسعده أن يرى العــادل، و لأن الدنس النجس لا يصبر طويلا على المتطهر العفيف، و هكذا دواليك.. فالـملأ المستكبرون

① محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص208.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و«الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود، ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت.. إن وجود جماعة مسلمة في الأرض، لا تدين إلا لله، ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه، ولا تحكم في حياتها شرعا إلا شرعه، ولا تتبع في حياتها منهجا إلا منهجه.. إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت، حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي موعده. إن الطاغوت يفرض المعركة فرضا على الجماعة المسلمة-حتى لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة-إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل.» ①

و هذا الموقف من الملأ المستكبرين يؤدي إلى أن يبدأ فصل آخر من معركة النبي معهم، فصل يتسم بالمجابهة و المغالبة و استعمـــال العنف و القوة ، ليرد عليهم النبي بـــما يحفظ سيرورة دعوته و سلامة أنصـــاره، و ربانية مسيرته.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① سيد قطب: في ظلال القران، المجلد 3، الجزء 8، ص1318

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة

عندما تتسع دائرة الدعوة النبوية، و تفرض نفسها كحالة واقعية مستقطبة لعناصر من شتى الشرائح الاجتماعية، وتصير محل نقاش وجدال، وأخذ ورد بينهم، باعتبارها مشروعا قد يصلح ليكون بديلا عن وضع قائم سائد، طالما اعتقد الناس أن لا بديل عنه.

عندما يكون هناك مشروع بديل -ممثلا في الدعوة النبوية- يبدأ الناس في اكتشاف سلبيات الوضع القائم و إيجابياته، و يكتشفون كذلك مدى تماسك الإيديولوجية التي أنتجته أو مدى تهافتها، و حينها قد تبدأ طائفة منهم في التفكير في إمكانية التغيير، وحتى الذين لا يفكرون في ذلك، يقل حماسهم وتفتر عصبيتهم للوضع القائم و ايديولوجيته و آلياته، بعد أن اكتشفوا أنه ليس مطلقا، بعد أن كان يمثل لهم الواقع المطلق الذي لا بديل عنه، و هؤلاء -في حقيقتهم- ضحايا الألفة و العادة و الخمول، التي يوجدها المجتمع الساكن، و ضحايا التسلط الاستكباري، الذي يسعى دائما إلى حصر الناس في إطار نظرته ورؤيته حفاظا على المواقع والامتيازات والمصالح. قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 29].

في هذه المرحلة من حياة الحركة النبوية سيخرج الرسول فعلا لا إنفعالا، و يهاجر تخطيطا لا هروبا، و يجاهد إنطلاقا من مما تمليه عليه طبيعة دعوته التحريرية، و انسجاما كذلك مع روح الكون العميقة النابذة للباطل و الفساد، لا دفاعا أو ردا لعدوان، و ينتصر تحقيقا و إبرازا للنواميس الأزلية في بنية الكون. قال تعالى: ﴿و لقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون و إن جندنا لهم الغالبون﴾ [الصافات: 171-173] و يقيم دولة الحق و العدل و التوحيد اتساقا مع تطلعات الناس عامة، و المستضعفين خاصة ﴿و نريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض و نجعلهم أئمة و نجعلهم الوارثين﴾ [القصص: 5].

المبحث الأول : الإخراج

عندما يصل الوضع الاجتماعي إلى هذا الحد، يبدأ المستكبرون في التفكير في القيام بإجراءات "تطهيرية" "وقائية"، قد يقومون بها تحت مسميات شتى، لكنها لا تخرج في جوهرها عن القمع والعنف، لأنها تستهدف إسكات الآخر، بطريقة فيها إرغام و إكراه. « و لا نعرف في التاريخ كله أن العنف قد بدأ به المقهورون، إذ كيف يتصور أن يكونوا البادئين، و هم في الحقيقة نتاج ممارسة العنف ضدهم؟. بل كيف يمكن أن يبادر هؤلاء إلى العنف، والعنف هو في حد ذاته عمل موجه ضدهم، فمن المستحيل إذا أن يكون هناك مقهور بدون أن يكون هنالك عنف قد مورس ضده، فالعنف لا يبدأ به إلا القاهرون الذين لا يستطيعون إدراك الحقيقة الإنسانية في غير أنفسهم. » ①

① باولو فرايري : تعليم المقهورين، ص36

و إمعانا في التدليس و التلبيس، يجعل المستكبرون من خوفهم الخاص خوفا عاما مشتركا، و يجعلون من مصلحتهم الخاصة مصلحة وطنية عليا، ويجعلون من مصيرهم الفردي مصير أمة ومصير شعب ومصير بلد...

وبالتالي فهم عندما يتحركون ضد النبي وضد أنصار النبي، إنما يفعلون ذلك حرصا على الأمة والمجتمع والوطن ككل. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ﴿غافر: 26﴾.

« أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟. أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟. أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟. إنه منطق واحد، يتكرر كلما التقى الحق و الباطل، والإيمان و الكفر، والصلاح و الطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان. و القصة قديمة مكررة تعرض بين الحين و الحين. » ①

و هذا الموقف الاستكباري الذي يقفه المستكبرون -على اختلاف الأعصار و الأمصار- ضد دعاة التغيير، حتى يصير كافرهم مدافعا عن الدين، والجلاد فيهم دافعا عن الشعب، والجبار المنبوذ حبيب جماهير، هذا الموقف المتناقض الغريب يعبر عنه "باولو فرايري" بصيغة أخرى، ويكتشف فيه وجها آخر، بل ملمح آخر من ملامح الاستكبار، حيث يقول: « و لما كان الناس قليلا ما يعترفون بخوفهم من الحرية، فهم يميلون دائما إلى تمويه هذه الحقيقة، و ربما دون وعي في بعض الأحيان -بتنصيب أنفسهم مدافعين عنها، فالذين يخافون الحرية يحاولون دائما أن يغلفوا شكوكهم في إطار من العقلانية والتدبر العميق، الذي هو في حقيقته خوف من الحرية، وفي معظم الأحيان، فإن هؤلاء لا يرغبون للحرية أن تؤثر على وضعهم الاجتماعي الثابت، فإذا كان الوعي يشكل تهديدا لهذا الوضع، فإنه بالتالي في نظرهم تهديد للحرية ذاتها. » ②. ومن ثم يلجأ المستكبرون إلى تضييق على الدعوة النبوية، ومحاصرتها في إطار ضيق من الأنصار والأتباع، وعزلها عن الامتداد وسط جماهير الناس، مسخرين في سبيل ذلك كل ما يملكون من وسائل الدعاية والعنف والإكراه، ليبقى النبي ومن معه ثابتين، يحاولون قدر الإمكان تجنب الاستفزاز والتصرفات المغرضة، التي تستهدف جرهم إلى معركة لم يحن وقتها بعد.قال الله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ(88)قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ ﴿الأعراف: 88-89﴾.

إن النبي قد حاول أن يجنب هذا المجتمع الذي هو فيه الفوضى، و الكر و الفر، و المواجهة بين أفراده، فدعاهم إلى تعايش سلمي بين مختلف الحساسيات والاتجاهات، ليتولى الله سبحانه الحكم و الفصل من خلال

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 24، ص3078

② باولو فرايري : تعليم المقهورين، ص20

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جدلية من الأحداث و التفاعلات تتمخض عنها الأيام و الأعوام، « و لكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت...

إن وجود جماعة مسلمة في الأرض، لا تدين إلا لله، ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه، و لا تحكم في حياتها شرعا إلى شرعه، ولا تتبع في حياتها منهجا إلا منهجه... إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت لحكم الله حين يأتي موعده.

إن الطاغوت يفرض المعركة فرضا على الجماعة المسلمة –حتى لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة– إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل.

وهذا الموجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل... إنها سنة الله لا بد أن تجري. » ①

و غالبا ما يكون "الإخراج" مسبوقا بممارسات استفزازية، وأحداث بريئة في ظاهرها، مدروسة ومقصودة في باطنها، الغرض منها دفع النبي إلا أن يسلك سلوكا غير مدروس العواقب، وأن يتصرف تصرفا، يقيمون عليه به الحجة عند جماهير الناس، ويكون مبررا كافيا ومقبولا للقيام في حقه بإجراءات قد تقضي عليه، وقد تقضي عل حركته، وتشتت أنصاره وأشياعه ،وتجعلهم غرضا لحركة العنف والإكراه.

يقول الله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ ﴿الإسراء: 103﴾، وقال جل من قائل: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ﴾ ﴿الإسراء: 64﴾، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا(76)سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿الإسراء: 76-77﴾.

يقول "سيد قطب" في تفسيره للآية الرابعة والستين من سورة "الإسراء" مصورا حالة الاستفزاز :« و هو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول، فهي المعركة الصاخبة، تستخدم فيها الأصوات و الخيل و الرجل على طريقة المعارك والمبارزات، يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم، و يخرجهم من مراكزهم الحصينة، أو يستدرجهم للفخ المنصوب و المكيدة لمدبرة، فإذا استدرجوا إلى العـراء أخذتهم الخيـل و أحاطت بهم الرجال. » ②

وهو نفس الأسلوب يقبسه المستكبرون و يطبقونه في صراعهم مع النبي، بغية دفعهم إلى تصرفات غير محسوبة.

و حسب المنظور القرآني، فإن المسألة كلها سنة من سنن التاريخ، لا تتبدل ولا تتحول، قد كانت مع كل الرسل والأنبياء، وستبقى مع كل السائرين على نهج الرسل وشريعة الأنبياء.

و إن هذا الاستفزاز الاستكباري هو –في صورة من صوره– استدراج رباني لهؤلاء المستكبرين كي

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 8، ص1318

② سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 4، الجزء 15، ص2239

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يسوقهم إلى أجل محتوم، وإن ممارسة الاستفزاز ضد المعارضة الرسالية هو شروع في السقوط والهلاك بالنسبة للمعسكر الاستكباري، أي « أنه إذا وصلت عملية المعارضة إلى مستوى إخراج النبي من هذا البلد، بعد عجز هذه المعارضة كل الوسائل والأساليب الأخرى، فإنهم لا يلبثون إلا قليلا، ليس المقصود من أنهم لا يلبثون إلا قليلا، يعني أنه سوف يترل عليهم عذاب الله سبحانه و تعالى من السماء (...) و إنما المقصود في أكبر الظن من هذا التعبير أنهم لا يمكثون كجماعة صامدة معارضة، يعني كموقع اجتماعي لا يمكثون، لا كأناس، كبشر، وإنما هذا الموقع سوف ينهار نتيجة هذه العملية، سوف ينهار هذا الموقع، لا يمكثون إلا قليلا لأن هذه النبوة التي عجز هذا المجتمع عن تطويقها سوف تستطيع بعد ذلك أن تهدم هذه الجماعة كموقع للمعارضة، وهذا ما وقع فعلا. » ①

■ **أسباب الإخراج :**

عندما نقرأ القرآن الكريم، نجد أن المستكبرين يتسترون خلف دعاوى باهتة، عندما يلجأون إلى "إخراج" الذين يختلفون عنهم في الدين والرؤية و التصور و غير ذلك، و هم في الحقيقة لا يفعلون ذلك إلا لأن الحقيقة منحازة ضدهم، فتجدهم يتصرفون باندفاع و عصبية، مروجين بين العامة خطابا فضفاضا، عاريا من الصحة، لو كانت العامة من الناس تستطيع أن تقرأ و تحلل و تستنبط !. فليس صعبا على المستكبرين أن يتهموا النبي أنه طالب سلطة و حكومة وكبرياء في الأرض، و ما الدين إلا قناع!

و ليس صعبا عليهم أن يروجوا بين العامة أن النبي يريد إشاعة الفوضى و الفساد و الاضطرابات وسط الناس، من خلال دعوته إلى تغيير الدين وتوابعه من شرائع وعادات و سلوكات وقيم. وقد يبررون مسلك الضعف اتجاه النبي، أنه يريد الخروج على النظام والملة و القوانين السائدة، و مخالفة العرف الاجتماعي.

لكن السبب الحقيقي للإخراج هو عبادة الله وحده، والكفر بمن دون.. إنه التصور المختلف عن تصور قوى الجاهلية و الاستكبار، بكل ما تحمله كلمة التصور من سعة وشمولية وامتداد.

يقول اله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ «[الحج : 40]».« و من أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم. فهو البغي المطلق الذي لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين. وهو التجرد من كل هدف شخصي من ناحية المعتدى عليهم، إنما هي العقيدة وحدها من أجلها يخرجون، لا الصراع على عرض من أعراض هذه الأرض، التي تشتجر فيها الأطماع، و تتعارض فيها المصالح، و تختلف فيها الاتجاهات، و تتضارب فيها المنافع. » ②

① محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية، ص62

② سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 4، الجزء 17، ص2425

و المخالفة في الدين ينجر عنها -حتما- مخالفة في السلوك والأخلاق، فتكون هذه المخالفة السلوكية سببا آخر للنبذ و الطرد و الإخراج، و هذا ما نعيشه في عصرنا في تعامل المؤسسات التعليمية الغربية مع فتيات مسلمات، يرتدين اللباس الشرعي، الذي يختلف عن لباس فصلته اللائكية والعلمانية، قال الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ ﴿النمل: 56﴾.

فمجتمع ملوث دنس لا يطيق أبدا أن يتحرك فيه أفراد أطهار، لأنهم يشوشون عليه استغراقه في الشهوات، وقد يوحي للناس الذين ما زالت فطرهم على بقية من رمق! ، يوحي لهم بوجود شكل آخر لممارسة الحياة، أي بوجود بديل سلوكي أخلاقي، و لا شيء يزعج القوى "المحافظة" -في أي وضع كانت- إلا البديل عنها في أي صورة كان، و من ثم تلجأ إلى التخلص منه بالطرد و المطاردات، و التصفية، والتضييق، والحصار، والمقاطعة الاجتماعية و الاقتصادية، و غير ذلك. و كل هذا مظاهر مختلفة لشيء واحد هو الإخراج.

إن التطهر -كقيمة سلوكية و مبدأ أخلاقي- غريب عن النسق القيمي و المعيار الأخلاقي لقوم "لوط". و إذا تسرب إليه (التطهر)، فإنه سيربكه و يقلقه، و يجعله لا يمضي هيّنا ليّنا، ذلك أنه ليس مستبعدا أن بعضهم قد ينتبهون، و قد يدفعهم هذا الانتباه إلى التساؤل و الاستفهام، و قد يدفعهم هذا التساؤل و الاستفهام إلى المقارنة والتفكير في الفروق، وقد يجرهم هذا التفكير إلى موقف قد لا يكون في صالح المستكبرين المنتفعين بالأوضاع المنحرفة، و لهذا يتحركون بدءا لئلا تكون هذه السلسلة من التفكير و المقارنة و التساؤل، إنهم يريدون -دائما- مجتمعا نمطيا سكونيا متجانس البنية.

و اللجوء إلى إجراءات العنف والردع دليل ميداني على أن المستكبرين في موقف الضعيف من أمرهم، إذ أنهم فقدوا القدرة على الإقناع بالتي هي أحسن، و أن حجتهم -و منطقهم عادة- لم تعد قادرة على التكيف وفق مستجدات الواقع الحياتي.

و إن "الآخر"-الذي يعملون على إخراجه- ممثلا في النبي و أنصاره، لم يضرهم و يهددهم بوجوده الذاتي، إنما بوجوده المعنوي، الذي انغرس في أفكار الناس و ضمائرهم، و ليس قتل النبي أو إخراجه بالذي يضر دعوته أو يقتلها أو يلغيها في واقع الناس.

و هذه الحالة يعبر عنها "محمد حسين فضل الله"، فيقول: « إن الظلم الذي يمارسه الطغاة ضد المظلومين من الفقراء و المساكين و الضعفاء، لا يعبر عن موقف، لأن القوي يشعر بحماية القوة له في جميع علاقاته مع الناس، سواء في ذلك تصرفاته في الحياة كحاكم، أو تصرفاته كمحكوم... فهو لا يشعر بالحاجة إلى ظلم الناس، لأن الظلم يمثل الحالة التي يخاف فيها من الآخرين، فلا يجد طريقة يدافع فيها عن خوفه إلا باضطهادهم والاعتداء عليهم ليسكتوا عنه، فتضعف قوتهم بذلك، فيطمئن لضعفه... ولو كان يملك طريقا آخر يقف فيه وجها لوجه أمام الناس فيما يريدونه و فيما لا يريدونه لما لجأ إلى ذلك.» ①

① محمد حسين فضل الله : الإسلام و منطق القوة، ص309

إذن، فالقوة حيث تستعمل ضد فكرة ودعوة، فهي دلالة على أن صاحب القوة لا يملك من الأفكار والحجج ما يجعله يقف في وجه صاحب الدعوة، وإن الأمم والدول تبقى ما دامت تملك أفكارا وقيما، حتى إذا صارت مجرد "ظاهرة عسكرية" أو بوليسية...، يكون ذلك مؤشرا على أن زوالها قد أوشك.

و قد يكون هذا كله أو بعضه هو مقصد قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا(76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء: 76-77].

- سننية الإخراج :

نفهم مما سبق أن "الإخراج"، الذي يعني الإبعاد من المحيط الاجتماعي، ومحاربة الدعوة في إمكانية تأثيرها في الناس، وانتشارها بينهم، هذا "الإخراج" ليس حدثا طارئا على المسيرة الرسالية، إنما هو مرحلة – ضرورية – بل حتمية– من مراحلها الأساسية، التي لا بد أن تقطعها كي تصير جديرة بالتمكين. وعندما نقرأ التاريخ نجد أن كل الحركات الرسالية –على اختلاف مناهلها ومشاربها– قد تعرضت لهذا التصرف من طرف القوى الاستكبارية المحافظة على اختلاف مناهلها ومشاربها.

يقول اللهب تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا(76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: 76-77].

إذن، فطبيعة الرسالة و محتوى الدعوة هو الذي يحدد –بطريقة أو بأخرى– طبيعة التحديات التي ستواجهها. فرسالة مثل رسالة الأنبياء في تميزها و مفاصلتها وطرحها الانقلابي، لا بد أن تلقى مقاومة عنيفة من أصحاب المصالح، من بينها الإخراج و الطرد و المطاردة و ما شابه ذلك.

يقول الله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: 43]

« إنه وحي واحد، ورسالة واحدة، وعقيدة واحدة. وإنه كذلك استقبال واحد من البشرية، وتكذيب واحد، واعتراضات واحدة. » ①

و بقدر ما يبدو لقوى الاستكبار أنها بإخراج النبي ودعوته من الوسط الاجتماعي، قد مكرت مكرا عظيما، يعرض لنا القرآن هذه الصورة بطريقة مغايرة، بحيث يقدمها أن ذكاءهم كان غباءً، ومكرهم كان استدراجا لهم من حيث لا يعلمون، وأنهم بهذه الفعلة قد عجلوا في سقوطهم، واقتربوا أكثر من أجلهم، ولو أنهم كانوا يعلمون ما يترتب على هذا الإجراء من عواقب و خيمة لما فعلوه، لكنهم لا يستطيعون شيئا من ذلك، لأنه ليس في وسع أحد أن يبدل السنن، أو يحول مسارها، أو يتحايل عليها.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 05 ،الجزء 24 ، ص3127

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المساومة بالإخراج :

إن قوى الاستكبار تلوح بورقة "الإخراج" للضغط على النبي و من معه، و جره إلى شيء من المداهنة و مهادنة، إذ ليس في متناول الناس جميعا أن يتحرروا، أو أن يتجردوا من الروابط الاجتماعية و الحياة الاجتماعية لصالح منازلة إيمانية مبدئية، إن ذلك يشق على كثير من ذوي النظرة القصيرة القاصرة. و المعرفة هذه النفوس المهتزة، بل المعرفة بفطرية الإنسان الاجتماعية، ونزوعه إلى الحياة الاجتماعية، هذا كله يستغله المستكبرون للضغط على النبي لكي يجعلوه يراجع موقفه، أو يتراجع عن موقفه المبدئي الصارم.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ ﴿الأعراف: 88﴾.

و قال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿إبراهيم: 13﴾.

إنهم لا يريدون لدعوة النبي أن تبقى متميزة، ولا يريدون لأنصار النبي أن يبقوا متميزين، فما عليهم إلا أن ينسحبوا من المجتمع (المدينة) حيث التلاشي والضمور، أو أن يعودوا إلى الملة ويلتزموا بكل ما يوجبه النظام القائم من تصور وسلوك وأخلاق، إذ ليس في وسع مجتمع المستكبرين أن يطيق دعوة إيمانية، وحركة إيمانية، « هنا تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية... إن الجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها. و لا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها. و هي لا تسالم الإسلام حتى لو سالمها. فالإسلام لابد أن يبدو في صورة تجمع حركي مستقل بقيادة مستقلة وولاء مستقل، وهذا ما لا تطيقه الجاهلية. لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسلهم مجرد أن يكفوا عن دعوتهم؛ ولكن يطلبون منهم أن يعودوا في ملتهم، وأن يندمجوا في تجمعهم الجاهلي، وأن يذوبوا في مجتمعهم فلا يبقى لهم كيان مستقل. وهذا ما تأباه طبيعة هذا الدين لأهله، و ما يرفضه الرسل من ثم و يأبونه. » ①

فتكون المفاصلة الميدانية، بعد أن كانت مجرد مفاصلة تصورية، أخرجه إلى ميدان التطبيق العملي "الإخراج" الذي قام به المستكبرون، و من ثم تنقطع كل أشكال المودة و الولاء، حتى تلك التي كانت في إطار المصالح المشتركة. يقول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ ﴿الممتحنة: 1﴾.

« فماذا أبقوا بعد هذه الجرائر الظالمة للموالاة والمودة؟. كفروا بالحق وأخرجوا الرسول والمؤمنين، لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله ربهم؟ إنه يهيج في قلوب المؤمنين هذه الذكريات المرتبطة بعقيدتهم. وهي التي حاربهم المشركون من أجلها، لا من أجل أي سبب آخر. ويبرز القضية التي عليها الخلاف والخصومة والحرب، فهي قضية العقيدة دون سواها.» ②

---

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 4، الجزء 13، ص2092

② سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 6، الجزء 28، ص3540

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و قد كان "الإخراج" على مر التاريخ مبررا كافيا، و حجة قاطعة بيد الحركات الرسالية، حين تسلك مسلك العنف و الجهاد، في سبيل البقاء و الدفاع عن كيانها المستقل و تصورها المتميز، بعدما يراد لها من تلاشي و تميع و ضمور وسط مجتمع لا يجانسها مبدئيا و قيميا و تصوريا.

ولهذا يرتبط "الجهاد" بـ "الإخراج" في نصوص كثيرة من القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ ﴿البقرة: 246﴾.

و قال سبحانه: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(39)الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ ﴿الحج: 39-40﴾.

إن الفضاء الاجتماعي والمجال البشري أمر ضروري بالنسبة لكل حركة رسالية، ولهذا يدافع الأنبياء بكل ما أوتوا من أجل البقاء ضمن هذا الفضاء، حتى إذا أخرجوا منه إرغاما وإكراها، قاتلوا من أجل العودة إليه حتى يعرضوا دينهم على الناس، ليحي من حيي عن بيّنة، ويهلك من هلك عن بيّنة.

و عندما نقرأ القرآن الكريم نجد أن "الإخراج" يرتبط بالهجرة، كأحد مسبباتها الظاهرية، ونلاحظ أن الفصل بينهما صعب، إذ أن كل من أخرج يكتسب صفة "المهاجر"، مادام لم يدعن، و لم يهادن.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿النساء: 100﴾.

وقال سبحانه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ ﴿آل عمران: 195﴾.

« و قد كانت هذه صورة الداعين للمخاطبين بهذا القرآن أول مرة، الذين هاجروا من مكة وأخرجوا من ديارهم، في سبيل العقيدة، وأوذوا في سبيل الله، لا في أي غاية سواه، و قاتلوا و قتلوا... و لكنها صورة أصحاب هذه العقيدة في صميمها... في كل أرض وفي كل زمان... صورتها وهي تنشأ في الجاهلية -أية جاهلية- في الأرض المعادية لها -أية أرض- و بين القوم المعادين -أي قوم- فتضيق بها الصدور، و تتأذى بها الأطماع و الشهوات، وتتعرض للأذى والمطاردة، و أصحابها في أول الأمر قلة مستضعفة... ثم تنمو النبتة الطيبة -كما لابد أن تنمو- على الرغم من الأذى، و على الرغم من المطاردة، ثم تملك الصمود و المقاومة و الدفاع عن نفسها. فيكون القتال، و يكون القتل.» ① ، وقبل هذا يكون الإخراج وتكون الهجرة، كمراحل تصاعدية، تكون فيها التخلية والتزكية، وتجديد الولاء لله، ولرسوله وللمؤمنين.

① سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد 01 ، الجزء 04 ، ص 549

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و هكذا نرى أن القرآن الكريم يمزج بين الإخراج و الهجرة و الجهاد، لأنها حلقات سننية تفضي كل واحدة إلى التي تليها، فكل من أخرج فهو مهاجر، وكل من هاجر فهو مجاهد.

المبحث الثاني : الهجرة

عندما نقرأ القرآن الكريم، نجد أن الله سبحانه في كثير من النصوص الكريمة يربط بين "الإخراج" و"الهجرة"، و"الأذى"، و"القتال" و"الجهاد".

و كأن هذه المواقف تفضي إلى بعضها بعضا بالضرورة؛ فالأذى يفضي إلى الإخراج، و الإخراج ينفتح على الهجرة، و الهجرة إعلان للجهاد، بصيغة أو بأخرى. قال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ ﴿آل عمران:195﴾. وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿النحل: 41﴾، وقال عز من قائل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿النحل: 110﴾.

و نلاحظ في نصوص كريمة أخرى أن القرآن يعبر بمصطلح الهجرة على أمور قد نضعها في خانة الأخلاق، أو خانة المواقف المبدئية، دون أن نستشف منها أدنى دلالة على تحرك ميداني من موقع إلى آخر. يقول الله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ﴿المدثر: 5﴾. ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ ﴿المزمل: 10﴾، ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿العنكبوت: 26﴾.

نفس المعنى تؤكد عليه أحاديث كثيرة للنبي ﷺ منها: « المهاجر من هجر السوء فاجتنبه». ①، « الهجرة أن تهجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن، و تقيم الصلاة و تؤتي الزكاة. » ②

من خلال هذه النصوص الكريمة، نستنتج أن الهجرة، ليست كما يفهمها عامة الناس فقط، أي الانتقال من مكان إلى آخر، بل هي كذلك الانتقال من حالة إلى أخرى أحسن وأطهر، هي نقلة نوعية في المشاعر والقيم، هي الانتقال من معايير الجاهلية و تصوراتها و روابطها و وشائجها إلى معايير الإسلام و تصوره و روابطه ووشائجه.

و هذه الهجرة النفسية هي الدافع و المعين على أعباء الهجرة الحركية و الميدانية. والذي لم تكتمل فيه الهجرة كحالة نفسية، كشكل من أشكال التزكية، لن يستطيع أن يمارسها كحركة ميدانية، تعني التخلص والتملص من شبكة العلاقات الجاهلية.

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 1، الجزء 4، ص539

②مسند الإمام أحمد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و بهذا التعريف، يصير المؤمن الممتاز هو ذاك الذي استطاع أن يتفرغ كلية من الجاهلية ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿الحجرات: 3﴾.

إذن، فالهجرة فعل توصل إليه جدلية من الأحداث الفاعلة في تاريخ أية حركة مؤمنة نفسيا و ميدانيـــا، و ليست رد فعل لحركة قام بها المعارضون المحافظون استهدفت قتل النبي.
و بالتالي هي ليست قرارا شجاعا اتخذته الجماعة المؤمنة في وقت محدد للانتقال من مكان إلى مكان آخر، بل إنها في حقيقتها مستوى معين من الإيمان، يملك المسلم –من خلاله– القدرة على التحرر و الانعتاق، و الانطلاق وراء مبدئه بمبادئه، تاركا خلفه كل ما يشد الناس، و يجعلهم يخلدون إلى الأرض، بكل ما ترمز إليه الأرض من غرائز و شهوات و حسابات و مصالح، و ما ينظم هذا كله من أواصر و علاقات و وشائج و حميميات.

و من خلال هذا كله، قد نفهم لماذا سمّى النبي ﷺ أصحابه بـــ "المهاجرون"، فقد كان بوسعه ﷺ أن يسميهم "المتقون" أو "الأطهار"، أو "الطيبون"، و قد كانوا فعلا متقين و طيبين و أطهارا، لكنه ﷺ، ولحكمة عميقة ورؤية بعيدة سماهم "المهاجرون"، بكل ما في هذه الكلمة من إيحاءات نفسية و عاطفية و شعورية وتصورية، و دلالات واقعية ميدانية، و ظلال تشي الحرية و الانعتاق، و التمرد، و عدم الركون إلى كل ما ينتقص من كرامة الإنسان، وكل ما يعيق انطلاقه على درب كمالاته المتصاعد.
إن في هذا لدليلا كبيرا على مكانة "الهجرة" ليس في تاريخ الإسلام فقط، بل في حركيته وديمومته وامتداده عبر الأزمان والآفاق، فالهجرة لازمة من لوازم الإسلام والمهاجرون هم جنوده المخلصون، وطليعته الثورية المحاربة...

و عندما يتحدث الشهيد "سيد قطب" عن "الطبقات الإيمانية" في المجتمع الإسلامي الأول، يضع "المهاجرون" في المقدمة، باعتبارهم قد مارسوا المفاصلة الميدانية مع الجاهلية حين انتفضت لتدفع عن نفسها خطر الموت الداهم، « و عندئذ تعرض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى و الفتنة بكل صنوفها، إلى حد إهدار الدم في كثير من الأحيان... و يومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، والانضمام إلى التجمع الإسلامي الوليد، والدينونة لقيادته الجديدة، إلا كل من نذر نفسه لله، وتهيأ لاحتمال الأذى و الفتنة و الجوع و الغربة و العذاب و الموت في أبشع الصور في بعض الأحيان.

و بذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عودا في المجتمع العربي، فأما العناصر التي لم تحتمل هذه الضغوط، فقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى، وكان هذا النوع قليلا، فقد كان الأمر كله معروفا مكشوفا من قبل، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و هكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة، ليكونوا القاعدة الصلبة لهذا الدين ، مكة، ثم ليكونوا القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة، مع السابقين من الأنصار.» ①

و قد يجوز لنا القول: إن الهجرة قانون تاريخي -كباقي السنن التي تضبط الساحة التاريخية- يقذف ماء التجدد في أوصال الحضارات وحركات التاريخ الكبرى، وقد لاحظ هذا المؤرخ البريطاني "أرنولد توينبي"، ورآه يبرز ويتكرر في كل حضارة فاعلة مؤثرة، فاستنبطه كقانون تاريخي، أو كنظرية تحت اسم: "أصل الهجرة والرجعة" وذلك بعد أن لاحظ أن كل الشخصيات وكل الحركات المؤثرة في التاريخ الإنساني، و التي بفضلها كانت الديانات الكبرى، و الحضارات العظيمة، كل هؤلاء قد هاجروا، و قد مارسوا الهجرة كضرورة، بل كحتمية ميدانية، حتّمتها سيرورة الأحداث التي اندمجت فيها.

إن كل الحضارات العروفة في التاريخ الإنساني كانت بذرة هجرة، إما هجرة فكرة، أو هجرة قوم، أو هجرة نبي، وهذا نفسه يؤكد عليه الدكتور "علي شريعتي" فيقول: « و اعتقد أن قراءة الأديان المغلقة والمنفتحة، ودراسة المجتمعات والحضارات المغلقة والمنفتحة في تاريخ البشرية تثبت الحقيقة العلمية الاجتماعية التالية: إن الهجرة "قطع علاقة المجتمع بالأرض" تغير رؤية الإنسان للعالم، وتحولها إلى رؤية شاملة. وفي المحصلة تذيب جليد الجمود والانحطاط الاجتماعي والفكري العاطفي، ويحصل المجتمع المتكلس الراكد على الحياة والحركة. وبعبارة أخرى: بحكم كون الهجرة بذاتها حركة ونقلة إنسانية كبرى، فهي تبث في رؤية المجتمع روح الحركة، وبالتالي تهز المجتمع وتنقله من إطاره الجامد إلى سلّم الرقيّ والكمال المتصاعد.

من هنا تختفي وراء بزوغ كل حضارة هجرة، وحينما نصغي لتاريخ أي مجتمع عظيم نجد لغته أو أساطيره تحكي عن هجرة. » ②

إذن، فالهجرة لا تعني الانتقال من مكان إلى مكان آخر إلاّ في شكلها الظاهري، أما في باطنها، فهي عملية تطهّر وتزكية، وتنمية للقابليات الإنسانية السامية، المركوزة بالفطرة في نفس الإنسان وروحه، وقد يصّدق هذا القول الرسول ﷺ: « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها.» ③

فهناك ارتباط جدلي بين التوبة كانقلاع وانخلاع عن الذنوب و السيئات، وكل ما يجعل إنسانية الإنسان ترتكس و تنتكس، وبين الهجرة كممارسة ميدانية لكـل ما يودّ الإنسان أن تكـون عليه نفسه من التحـرّر و الكمال، « فالهجرة توبة، و التوبة هجرة، و كلاهما انتقال من الخطأ و الجمود و التخلف، و انتقال من البيئات التي ترعى السلبيات الموقفة للارتقاء، الخانقة للعيش، المانعة للحياة. » ④

① مسند الإمام أحمد

② سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 10، ص1571

③ علي شريعتي : محمد ﷺ خاتم النبيين من الهجرة إلى الوفاة- ترجمة : أبو علي الموسوي، دار الهدى، ط(1) 1410، ص6

④ سنن الدارمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نستنتج من كل ما سبق أن الهجرة انتقال من وضع إلى وضع، ومن حال إلى حال، وهي إما انتقال حِسي من مكان إلى مكان آخر أكثر أمنا وأكثر تقبّلا للدعوة واحتضانا للفكرة، أو انتقال معنوي نفسي يسجّل الإنسان المؤمن من خلالها عملية التخلي والاكتساب التي تقوم في ذاته، فهو يتفرّغ من قيم الجاهلية ليمتلئ بقيم الإسلام والإيمان، وهي بهذا تكون شكلا من أشكال التزكية النفسية، التي يمارسها المؤمن الواعي، أو هي عودة إلى الذات، وإقبال عليها بغية تحقيق كمالاتها المكنونة فيها...

من هذا المعاني السامية تأخذ الهجرة حقيقتها و أبعادها الدينية و التاريخية، « إنها تعبر عن معنى في داخل الإنسان قبل أن تعبر عن معنى في خارج حياة الإنسان، كيف ؟ لأن المهاجرين ماذا فعلوا عندما انطلقوا في خط الهجرة؟. و ماذا فعل المهاجرون حتى أصبحوا مهاجرين ؟

إن المهاجرين كانوا يعيشون في مكة حياة الإنسان الذي تربىّ في هذا البلد، كانت مصالحه، كانت عاداته وعلاقاته وامتداداته كلها في هذا البلد، هكذا كانوا يعيشون... لكل واحد أكثر من مصلحة و أكثر من قضية وأكثر من جو حميم يعيشه في نفسه عندما كان يعيش في هذا البلد، وكانت قضية انتقاله من هذا البلد إلى بلد آخر يعني أن يسحق كل عواطفه، وأن يسحق كل مشاعره و مصالحه و علاقاته من أجل قضية الإيمان و من أجل الله سبحانه و تعالى (...) وعلى هذا كانت قيمة هجرتهم أنهم استطاعوا أن ينتصروا على كل النوازع وعلى كل العواطف وعلى كل المصالح الحميمية الموجودة في حياتهم من أجل الله وفي سبيل الله.» ①

و قد نتقدم خطوة أخرى لنقول إن "الهجرة" ليست سنة تاريخية فقط، تجرى على الحركات الرسالية التي تستهدف تغيير الأوضاع الاجتماعية نحو الأحسن، وتحرير الإنسان من كل ما يخلّ بكرامته وأصالته، بل إنها ناموس كوني صميم، مودع في بنية هذا الكون، ينسحب على ما ظهر من حركاته وخفيّ، فحتى الجماد يتحرك وينتقل، ليأخذ صورا مختلفة في كل مرة:﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ..﴾ ﴿النمل:88﴾ فالهجرة هي حركة الإنسان والمخلوقات والأشياء، ومن أجل الحياة، ومن أجل إنتاج الحياة على صورة أفضل، « و الذين لا يعون استمرارية الهجرة، وما ينتج عنها من تجديد في الشؤون والعلاقات والتطبيقات، لا يفقهون مضمون الهجرة المطلوبة، و يقلعون في الاتجاه المعاكس للتاريخ، فيرتدّون إلى الآبائية، ويسقطون في التخلف، ويلفهم اللبس و الحيرة، و ينتهون إلى البوار.

فالهجرة بمعناها الشامل عملية تكيّف نفسي وحسّي مع حوادث الخلق المستمرة، وهي حركة تجديد مستمر، ترتكز على انتقاء العناصر الصالحة من كل جيل من البشرية كلها، ثم إعدادها لما يناسب الطور الجديد، وحمل رسالة الإسلام، واستمرار الترقّي البشري. » ②

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① ماجد عرسان الكيلاني : إخراج الأمة المسلمة، ص51

② محمد حسين فضل الله : على طريق كربلاء، دار التيار الجديد، بيروت ط(1) 1404، ص21

و القرآن الكريم عندما يحرّك المؤمنين على طريق الهجرة، إنما يحرّكهم نحو الأحسن والأفضل، وإن كان هذا الأحسن والأفضل مغلّفا بحالات ومواقف غير جذابة، كالخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس، وما شابه ذلك من المظاهر التي تصدّ كثيرا من الذين لا يقين لهم، فتصدهم عنت تقحّم طريق الهجرة، حيث المطهرة الكبرى.

إن القرآن يحركهم نحو:

1. إما مجتمع سليم البنية، إنساني النسق، عادل المؤسسات، لا استضعاف فيه ولا استكبار.

2. وإما إلى مجتمع ذي قابلية لأن يتشكّل في بنية عادلة، وذي قابلية واستعداد نفسي كي يحتضن الأفكار والمبادئ التي يؤمن بها المهاجرون، والتي تبشر بمجتمع عادل تكون كرامة الإنسان فيه محفوظة، وأصالته مصانة.

بهذا المفهوم تأخذ حركة الهجرة طابعها الثوري التحرري، من أجل تحرير الإنسان و المجتمع، من خلال تفاعل مع الناس والأفكار و التاريخ، والمحيط البيئي و الاجتماعي، عكس إرادة المستكبرين الذين يريدون مجتمعا سكونيا راكدا، بآليات رجعية محافظة، تقدس الماضي، و تدين المستقبل لأنه لا آباء فيه و لا سلف!! .

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿النساء: 100﴾.

يترتب على هذا النص القرآني الكريم نتيجتان أساسيتان، هما:

1- إن الهجرة في عمقها انفلات من ضيق وشدة وضغط، وانفتاح على سعة وانبساط، انبساط في الرزق، و في النفس، وفي الآفاق، وفي التطلعات والطموحات، لأن المهاجر بإعلانه الهجرة، يكون قد فارق مجتمعا متعصبا، ضيق عليه وحاصره، ورصد خطواته، وعدّ عليه أنفاسه، وسدّ في وجهه كل سبل التطلع والطموح، وأقبل على مجتمع يحتضنه، ويعطيه قدر جهده وعرقه، ويزكّي فيه أي تطلع أو طموح، وقد يكون هذا المجتمع يتقاطع –مبدئيا– مع المهاجر في جملة من الأفكار والتصورات، أو قد يكون ذا قابلية للنقاش والحوار، والتقبلّ والفقه والاكتساب، وحينها قد يجد المهاجر نفسه شخصية محورية، مؤثرة وموجهة، وفاعلة لصالح قيمها ومبادئها، وليس أسعد من مناضل يجد الفضاء الإنساني الذي يحتضن فكرته.

2- إن الهجرة بما تفتحه أمام تطلعات المهاجر و طموحه من مجالات و آفاق، سوف تمكّنه من امتلاك وسائل القوة و أدواتها المادية و المعنوية و التنظيمية، تلك القوة التي سوف يجبرهم بها على الإذعان لقيم الحق والعدل و الحرية، ليأخذ كل إنسان حجمه الحقيقي وفق ما تؤهله إليه مواهبه و قدراته.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و بهذا تكون الهجرة – في دلالاتها الظاهرة و العميقة– هي بذرة الثورة الرسالية، بل هي مشحذها "Catalyseur"، الذي يحرّض الطاقة الكامنة في أعماق النفوس ويسرّعها، من أجل قلب الأوضاع لصالح قيم الحق والعدل والحرية، وبطبيعة الحال لصالح المستضعفين، لأنهم ضحايا المجتمع الاستكباري القائم على الجور والظلم والاستعباد.

و إذا كانت الهجرة هي بذرة الثورة الرسالية، فإنه « لا يمكن أن تنمو بين الفضلات العفنة التي تبعثرها حضارة سابقة في مرحلة الانهيار، وكما لا يلد الانغماس في الوحل قلبا نظيفا وعقلا مستقيما، فكذلك لا يمكن تحقيق صفاء قلبي أو عقلي وسط أوضاع متردية نفسيا و فكريا، و لا حل إلا بالاعتكاف أو الاعتزال والمراقبة أو بناء جدار يحمي الجرثومة الغضة من الانسحاق العاجل أو نقل أمراض البيئة، أو حمل بعض خصائصها أو فقدان النمو الذاتي المستقل.» ①

و هذه نفس "النظرية" التي أكّد عليها " توينبي" من قبل، إذ كان يعتقد أن نشوء الحضارة، وسيرورة التاريخ تعتمدان أساسا على "التحدي والاستجابة"، ثم عاد في آخر ما كتب ليؤكد على فكرة ثالثة، لا بمن توفّرها في الحركة التاريخية وهي "العزلة" أو "الاعتكاف" أو "الانسحاب" من المجتمع، ثم العودة إليه، ونرى أن أوفى ترجمة لمصطلح "توينبي" هي "الهجرة".

يقول "توينبي": « إن التجلّي باتخاذ طريق الاعتزال يصبح بلا غاية، و يغدو لا معنى له، اللهم إلا إذا أصبح توطئة لعودة الشخصية المتجلية على الوسط الاجتماعي الذي وفدت منه أصلا، يتضمن الوسط البيئة الأصلية للحيوان الاجتماعي، و لن يستطيع الإنسان التغرب عن هذه البيئة إلا إذا أنكر صفته البشرية، فيغدو مصداقا لعبارة أسطو إما وحشا وإما إلها(...) إن العودة هي جوهر الحركة برمتها، كما أنها علتها النهائية.» ②

و نجد في القرآن الكريم إشارة لطيفة إلى هذا المعنى، إذ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿القصص: 85﴾.

« فما هو بتاركك للمشركين، وقد فرض عليك القرآن وكلفك الدعوة، ما هو بتاركك للمشركين يخرجونك من بلدك الحبيب إليك، ويستبدون بك وبدعوتك، ويفتنون المؤمنين من حولك، إنما فرض عليك القرآن لينصرك به في الموعد الذي قدّره، و في الوقت الذي فرضه، و إنك اليوم لمخرج منه مطارد، و لكنك غدا منصورا إليه عائد. » ③

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

① د. ماجد عرسان الكيلاني : إخراج الأمة المسلمة، ص49

② د. عبد الحليم عويس : الحضارة قبل أن تولد– مجلة المسلم المعاصر، العدد 32، 1401، ص8

③ أرنولد توينبي : مختصر دراسة التاريخ– ترجمة: فؤاد شبل. القاهرة 1975، ص63

المبحث الثالث : الجهاد

نجد مكتوبا في القرآن الكريم أن الله قد خلق كل ما في الكون–ظاهرا و باطنا– بالحق وأقدار لطيفة، هي غاية في الدقة والتقدير، بحيث لا مجال فيه للاعتباطية والصدفة، بل إن الحق أصيل فيه خلقا وتفاعلا و مآلا. بهذا يكون الحق هو فطرة الكون، كما هو فطرة الإنسان، و هو روحه الحافظة و المدافعة و الدافعة.
يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ «الأنعام: 73»، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ «الفرقان: 2».

و هذا الكون المفطور على الحق خلقا و تفاعلا و مالا، لم يتركه الله هملا، بل أنه أودع فيه نسقا سنيا دقيقا جدا، يشكل له ما يشبه "جهاز دفاع ذاتي" أو "جهاز مناعة" ضد الباطل، وما يندسّ في آلياته من هوى و فساد، إذ بمجرد ما يتسرب إليه باطل أو فساد، حتى يصاب بما يشبه "الحساسية" اتجاه ذلك الفعل الغريب على بيبه ونسقه، ليشرع ذلك النسق السنني في الدفاع، فيصيب الإنسان من ذلك شر وأوجاع.
يقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ «الروم: 41»

و إن هذ الشر و هذه الأوجاع هي حاصل الكسب الإنساني الباطل، و قد لفظه النسق السنني المانع و تقيأه، لأنه غير متجانس مع بنيته القائمة على الحق.

و نفس الشيء يقال عن الساحة التاريخية، التي هي –في معظمها– من صنع الإنسان بكل ما ركز فيه من عقل و وعي وشهوات و قابليات كثيرة، فهذه الساحة تنبذ الباطل وتدفع الفساد، ليس من خلال الخوارق و المعجزات و القوى الغيبية، إنما من خلال حركة الإنسان و وعيه وتطلعاته، من خلال اندماجه في نسق سنني دقيق قاهر، الذي يكسب الساحة التاريخية "جهاز دفاع ذاتي"، أو "جهاز مناعة" ضد الباطل و الفساد. إذ بمجرد ما يقع باطل أو يحدث فساد حتى يتحرك هذا النسق السنني –من خلال حركة الإنسان وكسبه– ليدفع الباطل و يلفظ الفساد، و يصيب الإنسان من ذلك شر و أوجاع.
و لابد لهذه الحركية أن تحقق هدفها الأخير، المتمثل في التوازن الكوني والسلام، والتصديق الواقعي والتطبيق ... لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ «الذاريات: 56»، وإن التاريخ الإنساني كله ليمضي في سبيل تحقيق هذه الغاية الإلهية، « و في هذا الطريق لبلوغ ذلك التوازن والتناسق تشيل كفة وترجح كفة، و قد يغلب على الأرض جبارون و ظلمة و طغاة، و قد يغلب عليها همج و متبربرون و غزاة، وقد يغلب عليها كفار و فجار يحسنون استغلال قوى الأرض و طاقاتها استغلالا ماديا، و لكن هذه ليست سوى تجارب الطريق، و الوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين، الذين يجمعون بين الإيمان و العمل الصالح، فلا يفترق في كيانهم هذا العنصران ولا في حياتهم. » ①

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 5، الجزء 20، ص2715

و هذا الصراع و المغالبة بين بني الإنسان، في سبيل المصالح والمنافع وفي سبيل المبادئ والقيم، يطلق عليه القرآن مصطلح "التدافع".يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ «البقرة: 251»، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ «الحج: 40».

إن ذاك الفساد الذي لفظته السنن المودعة في الكون العميق، هو ذات الفساد الذي لفظته السنن الضابطة لحركة التاريخ، والذي دفعه الله عن الناس بالناس، فكلا الساحتين تدفعان الفساد وتلفظانه من خلال آلية سننية دقيقة.

« فالإنسان كما قد يشيع الفوضى والاضطراب والخلل وفي وجوده الاجتماعي، يشيع الفساد والخراب في الوجود الكوني والطبيعي، وبالتالي فإن ضبط العلاقة وفق مقاييس الحق والعدل من شأنها أن ترفع الفساد من الوجود، وأن تعيد إليه الوئام و السلام، و بذلك ينضبط الكل في مسير كوني واحد هو مسير العبودية لله.» ①

وحول أهمية "التدافع البشري" و سننيته، يقول "سيد قطب": « لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، و لولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية الغريبة، لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم، وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبدا يقظة عاملة، مستنبطة لذخائر الأرض، مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة.. و في النهاية يكون الصلاح و الخير و النماء. » ②

أما "محمد حسين فضل الله" فيجعل منه قانونا طبيعيا، و سنة تاريخية، لا يختلف في شيء عن باقي القوانين و السنن التي تضبط الحياة في هذا الكون، تضمن مسارها التصاعدي نحو الأكمل و الأرقى، فيرى « أن كل إنسان يعمل في اتجاه الأشياء التي يألفها و يريدها و يؤمن بها، و في اتجاه مقاومة الأشياء التي يكرهها ويرفضها أو يمر بها، لأنها تعطّله عن الحصول على ما يريد.. وربما يتحقق ذلك في الأفكار، وربما يتحقق في الأشياء العامة، وقد يحصل في القوى التي تحيط به، فإذا لاحظ أن هناك فكرا يقاوم فكره، أو شيئا يواجه بعض الأشياء التي يحبها، أو قوة تريد أن تصادم قوته فتصرعها و تهزمها، فإنه يبادر إلى الوقوف أمام تلك الأفكار و الأشياء، و القوى ليحمي فكره و أشياءه و قوته... و هكذا تسير الحياة في أجواء الصراع، فيتولد من ذلك الفكر المتنوّع المتحرّك، و القوة المتجددة فيما يملك من أساليب الحرب و أدواتها، و الأوضاع المختلفة المحيطة بالأشياء في وجوهها المختلفة.

إن الله يريد أن يشير إلى هذا القانون الفطري الذي سارت عليه الحياة، و لا تزال تسير في حركتها الاجتماعية» ③

---

① م.ن : المجلد 5، الجزء 20، ص2715

② مصطفى الحاج علي : الأمة والشهادة، مجلة المنطلق، العدد 1411/70هـ، ص105

③ سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 1، الجزء 2، ص270

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و لولاه لفسدت الأرض، وذلك بأن يتمكن فيها المفسدون والظلمة الطغاة، دون أن يجدوا من يردعهم أو يدفعهم، فتعم الفوضى وتنسحق القابليات الخيّرة، ولتنتعش القابليات الشرّيرة والقدرات المفسدة، وتنتكس حركة الحياة نحو الخلف، عكّس ما أريد لها أن تمضي نحو الأمام.

و هنا لابد من وجود أمة من الناس، متجردة ومترفعة من كل الأهواء التي جعلت الناس يتدافعون وتصارعون، وظيفة هذه الأمة من الناس هي تنظيم التدافع الإنساني بما يضمن انطلاقه نحو الأمام في طريق تصاعدي تكاملي، وهذه الأمة هي " الأمة الإسلامية، وقد رشحها إلى ذلك الدور، دور الشهادة على الناس طبيعة رسالتها ومحتواها، يقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ ﴿آل عمران: 110﴾.

هذا النص القرآني الكريم قد يفهم منهم البعض -إن لم نقل أكثر الناس- أنه قد ضمن امتيازا وتفوّقا للمسلمين عن بقية الأمم، ليصير الأمر لا يختلف عن زعم اليهود في أنهم "شعب الله المختار"، و في ظنهم أنهم "أبناء الله و أحباؤه"، وإن كانوا يتحركون في واقعهم عكس ما يحب الله وعكس ما يأمر به!. « ولكن القضية ليست كذلك، بل هي بعيدة كل البعد عن هذا الإيحاء السلبي، وذلك من خلال التدقيق في المفهوم العميق للأمة، فإننا نلاحظ أنها تثير الموقع وأفضلية الدرجة من خلال أهمية الدور الحركي الذي يتصل بالخط المستقيم المتفتح على مسألة تصحيح المسار العمليّ في الحياة فيما يتحمّله المسلمون، في المضمون التشريعي لحركتهم، و من مسؤولية عن إقامة المعروف في واقع الناس، باعتباره العنوان الكبير لكل القضايا الحيوية التي ترتفع بهم إلى الدرجات العليا التي تحقق لهم السمو و النجاح و السعادة في الدنيا و الآخرة، و عن إزالة المنكر، باعتباره العنوان الواسع لكل القضايا السلبية التي تبتعد بالإنسان عما يصلح أمره ويبني حياته و يحقق له الفوز في الدارين.. ثم فيما ينفتحون عليه من الإيمان بالله الذي يمثل الأفق الواسع الذي يطل على كل مواقع الحقيقة التي تنطلق من الله في توحيده لتتحرّك في كل مواقع خلقه وتدبيره في آفاق السمو و أسرار الإبداع و امتداد العظمة، ليعيش الإنسان وحدة الخط و الموقع و الهدف عندما يلتقي بوحدة الله و وحدة الكون، التي توحي للإنسان بكل العمق العميق للوحدة الشاملة أمام الحقيقة الكاملة.» (1)

و هذه الخيرية بمقوماتها الثلاثة، عندما تتحرّك بمقتضاها، وتعمل على هداها الأمة المسلمة، فإنها تكسبها صفة الوسطية، التي قد تعني العدل، أي أمة تعدل بين الناس في تدافعهم. و قديما قال الشاعر:

"هم وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا طرقت إحدى الليالي بمعظم".

و قد تعني الأمة الواقعة بين إفراط الأمم وتفريطها، وتقصيرها وغلوّها.

---

(1) محمد حسين فضل الله : من وحي القرآن، الحلقة 4، ص220

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقد ورد في "المفردات في غريب القرآن": « و الوسط تارة يقال فيما له طرفان مذمومان.» ① قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿البقرة: 143﴾.
و يقول سبحانه:﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ﴿الحج: 78﴾.

و لا يجهل أحد أن الشهادة تستدعي الحضور والتواجد في موقع الأحداث، كذلك تستدعي الحضور في توجيه الأحداث نحو الأصوب، إنها حضور فعّال ومؤثر بين الأمم المتدافعة المتغالبة، التي تدّعي كل واحدة منها أنها هي التي تمتلك الحق و الحقيقة، و من ثم تكون شهادة الأمة المسلمة عن علم ودراية و خبرة و حضور، « فهي التي تضع لهم الموازين و القيم، و تبدي فيهم رأيها، فيكون هو الرأي المعتمد، و تزن فيمهم و تصوّراتهم وتقاليدهم و شعاراتهم، فتفصل في أمرها و تقول: هذا حقّ منها و هذا باطل، و لا التي تتلقى من الناس تصوراتها و قيمها و موازينها، و هي شهيدة على الناس و في مقام الحكم العدل بينهم... و بينما هي تشهد على الناس هكذا، فإن الرسول هو الذي يشهد عليها، فيقرر لها موازينها وقيمها، ويحكم على أعمالها وتقاليدها، ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيه الكلمة الأخيرة... و بهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها، لتعرفها، ولتشعر بضخامتها، ولتقدر دورها حق قدره، وتستعدّ له استعدادا لائقا.» ②

و يضيف السيد "محمد حسين فضل الله" إلى هذا النص ما يزيده و ضوحا و عمقا و تأصيلا، فيقول: « وقد يكون من الطبيعي، في هذا المضمون، أن تنطلق الأمة في دورها المميّز من موقع الوعي والشمول لكل الساحات الأخرى على مستوى العالم، بحيث تتعرف اتجاهاتها وأوضاعها وحركاتها وأساليبها وأهدافها وعلاقاتها، لتستطيع رصد نقاط الضعف والقوة، والاستقامة والانحراف لديها، لتملك الحصول على المعرفة الشاملة التي تجعلها في موقع الشاهد الحي الواعي الذي يعيش الحضور الواسع لكل التطوّرات والمتغيّرات في كل جيل، لأن ذلك وحده هو الذي يجعل للشهادة عمقا وامتدادا وسعة على جميع المستويات. وإذا كنّا نفهم من دور الشهادة، أنه يتسع لكل الأمم الأخرى التي تختلف في مضمونها الفكري ومسارها العملي عن الإسلام، فإن معنى ذلك أن على الأمة الشاهدة أن تعيش الحضور على مستوى العالم كله، الأمر الذي يمنع أفرادها من الاستغراق في المواقف السلبية، وفي أجواء اللامبالاة، و في أوضاع الساحة الفكرية و العملية في مواجهة الأحداث.» ③

و عندما تبدأ الجماعة المسلمة في ممارسة دورها الشرعي و التاريخي، فإنها تجابه بـــمن لا ينتهون من منكر، ولا يأمرون بمعروف، لأن مصالحهم في موقع معارض لهذه القيم الخالدة، وهم مستعدون للاستماتة في

---

① محمد حسين فضل الله : تأملات في كلمة الأمة في القرآن، مجلة المنطلق، العدد 1411/70هـ، ص18

② الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، مادة : وسط

③ سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 1، الجزء 2، ص130

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سبيل مصالحهم التي ارتبطت بالمنكر، وانفصلت عن المعروف، وحينها يكون العنف.

و العنف درجات، فقد يمارسه أفراد مدفوعين برغبات، وقد تمارسه جماعات أحست بالمظلومية واستغلال المستكبرين لهم فهي تهدف إلى دفع الظلم ورفعه، وعنف آخر تمارسه الجماعة المسلمة، هو "العنف الرسالي"، القائم على تصوّر شامل للحياة، مرتبط بالله منطلقا و تصوّرا، وممارسة و أهدافا، وهذا الذي يسمّى في الإسلام "الجهاد" وقد يأخذ أسماءً أخرى لدى الاتجاهات الايديولوجية الأخرى كالثورة، والتصحيح، والإصلاح، وما شابه ذلك.

إذن، فطبيعة هذا الدين، وسيرورته التاريخية، هي التي جعلت "الجهاد" من أركانه الأساسية، إلى درجة أن قال الرسول ﷺ: "من مات و لم يغز، و لم يحدّث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق".

و إذا كانت الرهبانية هي قمة العبادة في الديانات الأخرى، فإن قمة التدين في الإسلام أن يجاهد المرء في سبيل الله، قال رسول الله ﷺ: "إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله عز وجل". قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿البقرة: 216﴾. فالله سبحانه كما كتب على هذه الأمة الشاهدة، الحج، الصيام، و غير ذلك، كتب عليها القتال، و إذا كان الحج و الصيام الصلاة ليست ممارسات وقتية طارئة، فكذلك الجهاد، إنه « ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة. إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة! و ليست المسألة -كما توهّم بعض المخلصين- أن الإسلام نشأ في عصر الإمبراطوريات، فاندس في تصوّرات أهله -اقتباسا مما حولهم- أنه لابد لهم من قوة قاهرة لحفظ التوازن! (...) و لو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة ما استغرق كل هذه الفصول من صلب كتاب الله في مثل هذا الأسلوب، و لما استغرق كذلك كل هذه الفصول من سنة رسول الله ﷺ و في مثل هذا الأسلوب (...) وإن الله سبحانه يعلم أن الشر متبجح، ولا يمكن أن يكون منصفا، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو -مهما يسلك الخير من طرق سلمية موادعة- فإن مجرّد نموّ الخير يحمل الخطورة على الشرّ. ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل، ولابد أن يجنح الشرّ إلى العدوان، لابد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة!.

هذه جبلّة! وليست ملابسة وقتية...

هذه فطرة! وليست حالة طارئة

ومن ثم لابد من الجهاد.. لابد منه في كل صورة... ولابد أن يبدأ في عالم الضمير، ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود... ولابد من مواجهة الشرّ المسلح بالخير المسلح.» ①

---

① محمد حسين فضل الله : المرجع السابق ، ص15

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و إن الذي يفهم الإسلام في تاريخيته -منذ إبراهيم عليه السلام- يعرف كيف صار الجهاد ركنا من أركانه، فكلّ الأنبياء جاهدوا و قاتلوا و أوذوا في سبيل الله، لأنهم يهدفون إلى تحرير "الإنسان" من كل الضغوط النفسية و الخارجية، التي تجعله يتحرف عن صراط الفطرة إلى سبل أخرى احتطتها شياطين الإنس والجن، و لن يكون ذلك إلا بمجاهدة المؤسسات الاستكبارية التي تنتج الانحراف و تنمي الذلّ والهوان في أعماق الإنسان ليكون سهل الانقياد والتوجيه.

و في تحرّر "الإنسان" يمكن انهيار هذه المؤسسات الاستكبارية، وبالتالي فهي مضطرة لكي تدفع عن مصالحها وبقائها، وهذا الذي يجعل "الجهاد" حتمية، بل سنّة تاريخية.

« و الذي يدرك طبيعة هذا الدين -على النحو المتقدم- يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف -إلى جانب الجهاد بالبيان- ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية -بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح "الحرب الدفاعية"- كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر، وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد في الإسلام، إنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير "الإنسان" في "الأرض" بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري وفي مراحل محددة لكل مرحلة منها وسائلها المتجددة.» ①

و إذا كانت طبيعة هذا الدين وأركانه الأساسية، ومنطلقاته وأهدافه، هي التي تحتّم على معتنقيه أن يجاهدوا ويقاتلوا، فهي نفسها تحتّم على الآخرين أن يقاتلوهم، بمعنى أن طبيعة هذا الدين تحتّم على معتنقيه أن يقاتَلوا وأن يقاتِلوا. لأنّ دينا كهذا الدين في أركانه وخطابه ومنطلقاته، وأهدافه، لابدّ أن يكون بلا أنصار ولا اتباع، وإلاّ فإنها الكارثة على المستكبرين!.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ «البقرة: 217». هذه حقيقة مطلقة لابد أن يفقهها كل واحد مسلم؛ إن لم يقاتِل سيُقاتَل حتى يكفر بالله و يتنكر لدينه!، وحينها ستكون الخسارة في الدنيا والآخرة، و هذه الحقيقة سنّة مطردة باقية، إنها « ليست قضية تاريخية تخضع للظروف المحدودة الموجودة في التاريخ، بل هي قضية مستمّرة مادام هناك كفر و إسلام وحق و باطل، و ما دامت التحديات تفرض نفسها على الساحة مما يجعل من هدف اضعاف الكفّار للدين باضعاف القاعدة الدينية بإخراج الناس من دينهم وإضلالهم وإبعادهم عن الخط المستقيم، هدفا يوميا لكل القوى المعارضة للدين، من خلال الوسائل المتنوعة المادية والمعنوية، مما يجعل عملية الاستعداد للمواجهة عملا يوميا للمؤمنين لا مجال فيه للشعور بالأمن، ولا للإستسلام والاسترخاء ولا للوقوف فيه على موقع هدنة .» ②

---

① م.ن : ص15

② سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 2، الجزء 5، ص741

و حسبنا من موضوع الجهاد هذه الصفحات، التي أثبتنا فيها أن الجهاد سنّة مطّردة، لا تختلف عن باقي السنن الضابطة للساحة التاريخية، مهما حاول بعض الناس أن يجدوا لها تبديلا أو يجدوا لها تحويلا، تحت ضغوط ظروف مرحلية وما تقذفه في النفوس من هزيمة وخوَر.

المبحث الرابع : النصر

إن الذي كتب الجهاد وجعله سنّة تاريخية مطردة إلى يوم القيامة، هو الذي كتب النصر لكل من يجاهد في سبيله، ممتثلا بكل المثل العليا و القيم السامية، و جعل منه سُنّة تاريخية، لا تتحوّل و لا تتبدّل، و لا تقدّمها رغبة، و لا تأخّرها أو تؤجّلها أخرى، بل إنها تأتي في الوقت المحدد و الأجل المضروب.

و إن قطاعا عريضا من القرآن الكريم ليتحدث عن النصر، ويرسم له منطلقاته، ويضع له شروطه وتشريعاته، قد يساوي ذلك القطاع العريض من القرآن الكريم الذي يتحدث عن الجهاد، ويرسم له منطلقاته ويضع له شروطه وتشريعاته، وذلك لارتباط العمليتين (الجهاد والنصر) ببعضهما ارتباطا عضويا وثيقا، إذ أن الأولى مقدمة للثانية، والثانية نتيجة الأولى، يقول الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ﴿الأنبياء: 18﴾.

و هذا النص القرآني الكريم، يجسد لنا هذه السنة في صورة حسية ماثلة؛ فكأنما الحق قذيفة أو طلقة في يد القدرة الإلهية و المشيئة الربانية، تقذف به على الباطل في ميدان الصراع، فتصيبه، فإذا هو صريع لا يقدر لنفسه شيئا، « هذه هي السنة المقررة، فالحق أصيل في طبيعة الكون، عميق في تكوين الوجود، والباطل منفيّ عن خلقة هذا الكون أصلا، طارئ لا أصالة فيه، ولا سلطان له، يطارده الله، ويقذف عليه بالحق فيدمغه» ①. و هذا المعنى هو الذي يوضحه القرآن، ويؤكد عليه في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(171)إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ(172)وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿الصافات: 173/171﴾، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿المجادلة: 21﴾، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ﴿الأنبياء: 105﴾، ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿الأنعام: 34﴾.

هذا النصوص القرآنية كلها تؤكد على سنية النصر وحتميته، لأنه مرتبط ارتباطا عضويا بما قبله، وينبني انبناءً عضويا ما بعده من الأحداث...

فالنصر متعلق بكلمة من الله سبقت وسرت كالروح في كل خلايا الوجود، إنها متجذرة في صميم حركة التاريخ،

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 9، ص1435

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و الملاحظ أنّ كل الذين حاربوا الأنبياء، قد انهزموا -بطريقة أو بأخرى- و انتهوا إلى بوار فكرًا و تشريعاً، ومنطقا وتصوّرا، ليبقى الأنبياء وأتباع الأنبياء شامخين في قلوب الناس شموخ الحق الذي آمنوا به وجاهدوا في سبيله، وما مر على ذكراهم الزمان إلا ازدادوا تألقا ومصداقية، وازداد الناس هم تعلقا و حول مبادئهم التفافا.

ثم إن تكذيب المستكبرين سنة تاريخية كذلك، وقتالهم في سبيل مصالحهم و مواقعهم و مراكزهم الاجتماعية هو الآخر سُنّة، و الذي ينجرّ عن هذا الاقتتال من أذى متنوع كلمة سبقت، لا يمكن للنبي أن يتفاداه أو يتجنّبه، مهما حاول، ليأتي النصر بعد ذلك تتويجا لهذا المرحلة الطويلة المريرة من الصراع و الجهاد.

« هذا الوعد سُنّة من سنن الله الكونية. سُنّة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، و كما يتعاقب الليل و النهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء... و لكنها مرهونة بتقدير الله، يحققها حين يشاء، و لقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة. ولكنها لا تخلف أبدا و لا تتخلف و قد تتحقق في صورة لا يدركها البصر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر و الغلبة، لا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين. و لقد يريد البشر صورة معينة من صور والغلبة لجند الله و أتباع رسله، و يريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى. فيكون ما يريده الله.» ①

و إذا كان للنصر شروطه و مقوماته، و التي تتمثل أساسا في تجرّد كامل لله أثناء عملية الجهاد، وفي امتلاء كلّي بكل ما يحبه الله من القيم و الأخلاق وتفرّغ كبير من كل ما ينبذه الله من القيم و الأخلاق، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40].

إذا كان هذا من شروط النصر ومقوماته، إضافة إلى شروط أخرى ومقومات، يضيق المجال عن ذكرها، فإن لتحقق النصر علامات وآيات، تكاد أن تكون سننا، بل هي سنن إذا نظرنا إليها على طول الساحة التاريخية. و أكبر العلامات أن ييأس الرسول والذين معه من النصر، أن يظنوا أنهم قد كُذبوا، و غيرها من الظنون التي تساور النفوس المجاهدة، التي تتمنى لدين الله أن ينتصر، و أن تكون له دولة وكيان.

يقول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: 110]، و يقول سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214].

« و قد جاءت هذه الآية لتعبّر للمسلمين عن هذه الفكرة من خلال المثل التاريخي للرسالات السابقة، التي عاش فيها المؤمنون الأوّلون مع أنبيائهم التحديات الصعبة التي جعلتهم يواجهون حالة الزلزال النفسي والروحي، وربّما الزلزال الفكري، من خلال صعوبة ما واجهوه من مشاكل وتحديات، فقد مستهم البأساء والضراء في أنفسهم وأموالهم ومصالحهم العامة والخاصة، وحاولت مجتمعات الكفر لديهم أن تضعفهم وتقهرهم، فاستخدمت كل

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 4، الجزء 14، ص2372

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأساليب التعسفية في مجال القهر الجسدي والروحي والفكري، حتى تهزّ قناعاتهم وتحطم مواقفهم، وترجعهم إلى الحالة التي كانوا عليها قبل الإيمان.» ①

و للشهيد "سيد قطب" "قراءة" رائعة لهذه الآية، إذ يتعامل معها بكل إحساسه ووجدانه، وبكل مقدرته على تخيّل المشهد، واستحضاره حيًّا، ينبض بالحركة و الحياة، فيقول:

« إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه... من الرسول الموصول بالله، والمؤمنين الذين آمنوا بالله، إنّ سؤالهم "متى نصر الله؟" ليصوّر مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة، ولن تكون إلا محنة فوق الوصف، تلقي ظلالها على هاتيك القلوب، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب: "متى نصر الله؟"(...) إنه مدخر لمن يستحقونه، و لن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية، الذين يثبتون على البأساء والضرّاء، الذين يصمدون للزلزلة، الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة (...).

إن الصراع و الصبر عليه يهب النفوس قوة، ويرفعها على ذواتها، و يطهّرها في بوتقة الألم، فيصفوا عنصرها ويضيء، ويهب العقيدة عمقا وقوة وحيويّة، فتتلألأ حتى في أعين أعدائها وخصومها. وعندئذ يدخلون في دين الله أفواجا كما وقـــع وكما يقع في كل قضية حق، يلقى أصحابها ما يلقون في أوّل الطريق، حتى إذا ثبتوا للمحنة انحاز إليهم من كانوا يحاربونهم، وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين.» ②

المهم أن النصر سُنّة ولا بد أن تتحقق، كما تحقق ما قبلها من السنن، و لابد من أن تنكّس أعلام المستكبرين، و تنحني رؤوسهم ذُلاًّ، ولابد أن ترتفع أعلام النبي خفاقة، ليرتفع معها الحق، وترتفع حجته وسلطانه، و لابد أن يفرح المؤمنون، و يستيقن الذين لا يقين لهم أن الدعوة كانت حقاً، و أن الصراع الذي دار حولها كان جهادا وكفاحا مقدّسا، وأن الذين انخرطوا فيه كانوا من طينة نقية ومعدن خالص، وحتما أن جهادهم قد زادهم نقاءً وإخلاصا، فهم جديرون أن يكونوا قدوة وأسوة وأمثلة رائعة في كل القيم المثلى والأخلاق الرفيعة، التي تسمو بالمجتمع الإنساني و تزكيه، و تهبه من أصالتها أصالة، و من كرامتها كرامة، ومن سموّ نظرتها عمقا، ينفتح على آفاق إنسانية واسعة سامية.

فلم يبق للنبي وللمهاجرين، إلا أن يبدأوا في تثبيت مؤسسات مجتمع التوحيد و العدالة و الحرية و الحق، على أنقاض مؤسسات مجتمع الاستكبار القائم على الظلم و العنصرية و الاستعباد.

قال الله تعالى:﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ﴿القصص: 6/5﴾.

و ما فرعون هنا إلا رمز لكل مستكبر، و ما الذين استضعفوا إلا رمز لأية جماعة مؤمنة، تتكـــون في الميـــدان، و تتطهر بالآلام و الشدائد و المحن، و تهيئها للسنن لكي ترث الأرض و تبني دولة العدالة، و البقية الباقيـــة من

① محمد حسين فضل الله : من وحي القرآن، الحلقة 4، ص106

② سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 1، الجزء 2، ص218

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المستكبرين و أشياع المستكبرين تنظر، فترى الذي كانت تحذره من هؤلاء المؤمنين، قد صار حقيقة واقعية، مجسدة في الميدان.

المبحث الخامس: النصر بين الرشاد والتيه

إن الانتصار النبويّ ليس انتصار جيش على جيش، لكنه انتصار مبدأ على مبدأ و دين على دين، و مشروع مجتمع بديل على مجتمع لم يعد يستطيع أن ينتج توتّرا حياتيا، يدفع التاريخ نحو الأمام. بل إن النصر النبوي -كما سبق- إفراز حتمي لنسق فاعل من السنن، وهو يدفع عن حركية الحياة الباطل والفساد.

و الانتصار -في المنظور القرآني- ليس نهاية للمعركة الرسالية، بل هو بداية لشوط جديد، قد يكون هو الشوط الأهم والأكثر حسما فيها. ولذلك اعتبره الرسول ﷺ "الجهاد الأكبر"، المتمثل في جهاد "خمائر" العدوّ المثبوتة في حنايا و المشاعر والأفكار والميولات والرغبات، تبحث عن إشباع يأتيها من خارجها لتخرج شطأها وتؤتي ثمارها المرّة.

و نجد في القرآن الكريم تحذيرا خفيّا من الحالة النفسية و الشعورية، التي يخلقها النصر في نفوس المنتصرين، و ما تدفع إليه تلك الحالة من سلوكات و تصرّفات يشوبها بعض الزهو و يخالطها بعض الغرور.
ونجد كذلك تذكيرا بعواقب النصر، وأنها ليست مضمونة وآمنة، فكم من ثورة انهزمت عشية ظنت أنها انتصرت، وكم من حركة تمكّن منها عدوّها نفسيا و تصوريا، و قيميا، يوم تمكنت هي من مقاليد الحكم، وكرسي السلطة، و تاريخ الثورات حافل بهذه الأمثلة، وهذه النماذج.
قال الله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(128)قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 128-129].

« إنه ينظر بقلب نبيّ فيرى سنّة الله تجري وفق وعده، للصابرين، وللجاحدين، ويرى من خلال سنة الله هلاك الطاغوت وأهله، واستخلاف الصابرين المستعينين بالله وحده، فيدفع قومه دفعا إلى الطريق، لتجري بهم سنّة الله إلى ما يريد... وهو يعلمهم -منذ البدء- أن استخلاف الله لهم، إنما هو ابتلاء لهم. ليس أنهم أبناء الله وأحبّاؤه -كما زعموا- فلا يعذبهم بذنوبهم، وليس جزافا بلا غاية. وليس خلودا بلا توقيت، إنه استخلاف للامتحان "فينظر كيف يعملون."» ①

---

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 9، ص1355

إذ لا شيء يضمن للمنتصرين بقاءهم على الخط الأصيل لحركتهم إلا نباهتهم و يقظتهم، فهم في كل لحظة معرضون لأن يصيروا شيئا آخر غير "المجاهدين" أو "المهاجرين" أو "الثوار"، و في كل لحظة تكون ثورتهم و حركتهم الرسالية معرّضة لأن تصير "لا ثورة"، خاصة إذا وجدت في الواقع المعيش ما يدفع إلى التخفف أو التملّص من عبء المبادئ ورقابتها الصارمة، وفي هذا السياق يفهم قول النبي ﷺ لأصحابه: "فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بُسطت على الذين من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم" (متفق عليه).

فنفس خشية موسى عليه السلام على قومه من النصر وما يفتحه عليهم من أبواب الملذات، هي نفس خشية الرسول ﷺ على قومه من أن تبسط لهم الدنيا، وتستدرجهم، وتجعلهم يتخففون من أخلاق الهجرة، ويقبلون عليها فتهلكهم كما أهلكت الذين من قبلهم. فالأمر سُنّة مطّردة، وهو أن النصر دائما لا ينفتح على مجال واحد، مضمون العواقب، بل إنه ينفتح على مجالين أو على خطّين:

- الخط الأول: هو خطّ الفتنة، أو التيه، أو ما يسمّى باللغة المعاصرة "الثورة المضادة".
- الخط الثاني: هو خطّ الرشاد، الذي يعني الوفاء لخط الرسالة، و التمكن لها بين الناس، حتى تصير مجتمعا و دولة و واقعا معيشا.

- **التيه:**

و يكون هذا عندما تستطيع قوى الثورة المضادة الاستحواذ على النصر و الانحراف به عن مقصده المبدئي، و عن أهدافه الرسالية، لتتحرّك "الثورة المضادة" بقناع الثورة، و تتحرك الفتنة و الردة في إيهاب الإيمان.

و هذا الذي يشير إليه "مالك بن نبي" و يعتبره ظاهرة تاريخية ملازمة لكل الثورات، فيقول: « فالثورة قد تتغيّر إلى (لا ثورة)، بل قد تصبح (ضد الثورة) بطريقة واضحة خفيّة. والأمر الذي لا يجوز أن يغيب عن أذهاننا وفي هذا الصدد هو أن مجتمعا ما بمقتضى طبيعته البشرية ينطوي على خمائر من روح "ما ضد الثورة" طبقا لمبدأ التناقض تناقضا مستمّرا، حتى في فترة ثورية نستطيع تتبُّع آثاره في تاريخ كل الثورات، تتبُّعا لا يغني معه أن ندفع عجلة الثورة في وطن ما، بل يجب أن نتتبّع حركتها ورقابتها بعد ذلك.» ①

إن الحركة الرسالية التي لا تهزم عدوّها في النفوس، من خلال كسر نموذجيته المهيمنة على الأفكار والتصورات والمشاعر، لا ينفعها أن تهزمه في ميدان المعركة، لأنها سرعان ما تتقمّص روح العدوّ، فتعمل على إعادة إنتاجه، لتصير هي ذاك الذي حاربته بالأمس، لتجد نفسها مجبرة ومضطرّة على أن تمارس دور عدوّها شبرا بشبر و ذراعا بذراع.

---

① مالك بن نبي : بين الرشاد و التيه، ص16

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن حركة "الثورة المضادة" تعمل على أن تفقد المجتمع الرسالي مناعته، تعطّل فيه نباهته الجماعية، من خلال إثارة حالات جاهلية، و قيم جاهلية، تحت مبررات شتى، و بطرائق ماكرة خفية، غالبا ما تكون للناس ذرائع يتملصون بها من إلزامات المبادئ و القيم الرسالية، ليقبلوا على الدنيا بكل ما ترمز إليه، فتصبح هي همهم ومسعاهم، و مجال تنافسهم، و حيثما يمتد الترف والمتاع تنتعش "الذهنية الاستهلاكية" المنفلتة من كل ضبط أخلاقي أو التزام مبدئي، وتضمر الروح الرسالية بكل مقوماتها، لتصير النفس أو الذات عرضة للتفريغ من أخلاق "الهجرة" —التي حققت النصر، والامتلاء بقيم الجاهلية وتصوراتها، وكل هذا يتم بأقنعة ذات بريق زائف، يتحرك بها أعداء الثورة بين المجاهدين والمهاجرين، وهؤلاء يسميهم "مالك بن نبي" "القوارض"،« "التي تُعمل أسنانها في العلاقات الاجتماعية بالمجتمع الإسلامي.» ①

و يصور الإمام "علي بن أبي طالب" بداية وقوع "الثورة المضادة" أو الفتنة، واستحكامها في واقع المجتمع، بتخلي الناس عن الشريعة ومبادئ الرسالة في تقييم أوضاعهم، واتباع "أهواء" طارئة، مصادمة لروح الرسالة، يتبعها الناس خدمة لبعض المصالح، وإشباعا لنوازع كامنة. ثم قد تتطور "الفتنة" أو "الثورة المضادة" لتفرض على المجتمع بعض التشريعات التي لا تتماشى مع مبادئ النصر و منطلقاته الكبرى، و يتم ذلك بطرق مموهة ذكية، لا يشعر معها أحد أنه قد انسلخ من قيم ودخل في قيم أخرى. يقول الإمام "علي" ﷺ: «إنما بدء وقوع الفتن أهواء تُتّبع، و أحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجال رجالا على غير دين الله. فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، ولو أن الحق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكنّ يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث فيمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على قلوب أوليائه (وينجو الذين سبقت لهم منا الحسنى.» ②

و في تقدير الإمام "علي" ﷺ، فإن "الثورة المضادة" أو "الفتنة" إذا استحكمت، وقويت شوكتها، فإنه تأخذ -في الحياة- وجهة معاكسة لوجهة الثورة، وتمضي بالمجتمع في غير اتجاهه، وتنطلق به عكس طموحاته وآماله، ليشعر الجميع أنهم يمضون في غير اتجاه، وإلى غير هدف، وذاك هو "التيه"، قال الإمام "علي" ﷺ: «يا أيها الناس لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق، و لم تهنوا عن توهين الباطل، لم يطمع فيكم من ليس مثلكم، و لم يَقْوَ من قوي عليكم، لكنكم تهتم متاهَ بني إسرائيل، ولعمري ليُضَعَّفَنَّ لكم التيه من بعدي أضعافا، بما خلفتم الحق وراء ظهوركم، وقطعتم الأدنى و وصلتم الأبعد. » ③

و عندما تستحكم "الثورة المضادة" أو الفتنة فكريا وتصوريا في الواقع الاجتماعي، فإنها بالضرورة توجد آلية، أو حركية سياسية تشريعية نابذة لكل ما لا يجانس "الثورة المضادة"، ليجد المهاجرون والمجاهدون أنفسهم على هامش الحركية الاجتماعية، و أنهم غير مؤثرين و فاعلين فيها، و تحت ضغط "القوة الطاردة" التي

① مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ص89

② الإمام علي: نهج البلاغة، الخطبة رقم 50

③ الإمام علي: نهج البلاغة، الخطبة رقم 166

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تنتجها الثورة المضادة، تجدهم يؤثرون العافية ويفضلون الانسحاب، قبل أن تجري عليهم سنة النبذ والطرد بالقتل والتصفية، وهذا الذي لاحظه "الشيخ محمد الغزالي" حيث قال:« و الأنصار-في تاريخ الدعوات- مُثل فريدة للرجال الذين تقوم بهم الرسالات العظمى، حتى إذا استوت على سوقها، وتجاوزت أيام محنتها و مؤنتها، وتدلّت ثمارها وحَلاَ جناها، جاءت أيد غير أيديهم فقطعت ما تشتهي، و لم تكتف بذلك، بل لطمت أيدي الغارسين حتى لا تلقط من الثمار الساقطة قليلا ولا كثيرا (...) غير أننا نتساءل: أكان من مصلحة الرسالات نفسها أن تقع هذه الأثرة، أم كان من سوء حظ الإسلام أن يلقى هذا اللون من الحكام، فيقصى أصحاب السبق و أولو النصرة، و يملك زمام الذين آخر الناس دخولا فيه، و نصرا له.»(1)

و إذا تعلّق الأمر بالحركة التاريخية، فإنه كما يدلّ الماضي على الحاضر و يضيء زواياه، و يكشف خباياه، فإن الحاضر يستطيع أن يجعلنا نفهم ما حدث في الماضي، لأن السنن التي تحكّمت في ذاك هي التي تحكمت في هذا، ومن هذا المنطلق نضرب مثلا معاصرا عن "الثورة المضادة" أو الفتنة التي تتحرك في واقع الناس لتجهض الثورة فكرة ومشروعا، لتبقى ايديولوجية عدوّ الثورة هي المهيمنة والمسيطرة، كأن جهادا لم يكن، وكأن استقلالا لم يتحقق. وأبلغ مثال على هذا كله هي "الثورة الجزائرية"، التي أدرك الكثير من أبنائها أنها قد صودرت، أو أجهضت أو شوّهت، ومن بين هؤلاء الدكتور "محمد العربي الزبيري"، في كتابه "المؤامرة الكبرى أو إجهاض الثورة"، والرئيس "محمد بوضياف" في كتابه "إلى أين تذهب الجزائر"، والرائد "سي لخضر بورقعة" في كتابه "شاهد على اغتيال الثورة"، والسيد "عباس فرحات" في كتابه "الاستقلال المصادر"، و"محمد أعراب بوالسعد" في كتابه "سعداء الشهداء الذين لم يروا ما حدث!".

يقول د. "محمد العربي الزبيري": « لقد كان الجنرال ديغول يدرك أن الثورة إنما تُضرب من الداخل. وعليه أشرف بنفسه على تطبيق عملية استراتيجية أساسها الإنسان المتشبع بالفكر الاستعماري والمتواجد في كل الميادين الحيوية، وهدفها جعل النظام الجزائري الفتي يركن إلى الحلول السهلة ويرتاح إلى الاتكالية (...).

ومع مرّ السنين اتّضح أن العملاء لم ينوبوا لكنهم واصلوا مسيرتهم التي خطط لها الاستعمار، واستطاعوا في غياب الوعي و اليقظة، أن يبيضوا و يفرّخوا وأن تنتشر فراخهم عبر مختلف الأجهزة و في كل المجالات.»(2) ليفرضوا على المجتمع نمطا حياتيا غربيا، وقوانين المستعمر، ليجد المواطن الجزائري نفسه غريبا في الحرية كما كان غريبا في الاستعمار، أما جلّ المجاهدين الذين رفضوا التواطؤ والتشوّه والتزوير، فقد ابتعدوا عن الحياة السياسية، وانصرفوا إلى حياتهم الخاصة آسفين، بعد ما رأوا أن الكثير منهم قد طالته يد "الثورة المضادة" تصفية و سجناً و نفيا.

---

(1) محمد الغزالي : فقه السيرة، دار الشهاب، الجزائر، ص430

(2) محمد العربي الزبيري : المؤامرة الكبرى أو إجهاض ثورة، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ص29

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و من ثم تكون "الثورة المضادة" أو "الفتنة" هي إعادة إنتاج "الجاهلية" تصورًا وقيما وسلوكا، أي هي قطع التواصل التصوري بين شوطي المعركة الرسالية، "الجهاد الأصغر" والجهاد الأكبر"، ويكون ذلك بتبنّي ايديولوجية المستكبرين، وما ينبني عليها من قيم وسلوك ومؤسسات، وفي هذا دليل على أن نفوس المستضعفين لم تتطهر كما ينبغي من نموذجية المستكبرين، فأحيانا ترضى قوى الاستكبار أن تبوء بما يشبه الهزيمة العسكرية الميدانية، إذا كان ذلك يضمن لها البقاء بين المستضعفين كإيديولوجية آسرة مهيمنة.

ومن ثم يستنتج أن النصر العسكري، ليس هو كل المعركة كما يتوهم البعض، بل هو خطوة قصيرة فيها، وعندما تحدث الرسول ﷺ عن "الجهاد الأكبر" الذي هو جهاد النفس، فما كان يعني إجهادها بأشكال من التقرب والعبادات، إنما كان يعني تطهيرها من كل القيم و المشاعر و النزوع، التي تكون بذورا لاستنبات الجاهلية، التي تنسحب إلى مجاهل النفسّ دون أن تموت.

و أحسن مثل يضربه القرآن الكريم عن هذه المرحلة الحاسمة من عمر الرسالات، هو ما حدث لبني إسرائيل بعد انتصارهم على "فرعون" مباشرة، يقول الله تعالى:﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ(50)وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿البقرة:50، 51﴾

معنى هذا أن بني إسرائيل -كأمة تريد أن يكون لها كيانها القائم على عقيدتها المتميزة- قد حققت "استقلالها" عن الفرعون. و أن الفرعون لم يبق له في حياتها ذلك الوجود الميداني المتحرك القاهر، لأن الله سبحانه، قد أغرقه وجعله لمن خلفه آية، أي ألغى وجوده كمحور لملإ متحمسين، وجنود خاطئين مندفعين. لكن الفرعون والملأ والجنود، بكل ما يعنونه من كيان مخيف و مقومات قاهرة، ظلّوا باقين ومستمرين في "العجل" الذي هو ربهم و مصدر تشريعهم، و رمز عقيدتهم وتصوّرهم.

وحين يعبد بنوا إسرائيل "العجل" بدل الله، فإن ذلك سوف يجعل منهم عبيدا ويجعل منهم فراعين بعد سنين، ليستقين الجميع أن الفرعون قد صار أكثر امتدادا وتأصيلا في حياة أمة موحّدة كما يزعمون.

وليستيقن الجميع أن الفرعون هو الذي انتصر النصر الحقيقي، لأنه استطاع أن يمسخهم على صورته، واستطاع أن يحافظ على هيبته ونموذجيته في قلوبهم، و لا معنى لجهاد أو ثورة تقتل الفرعون القاهر لتسجد لربه، و تتخذه مثلها الأعلى، ومصدر تصوّرها و نظامها، و فكرها و فنها، و دعام مؤسساتها، و لنا أن نستنتج من النص القرآني السابق أن "الثورة المضادة" أو "الفتنة" دائما تتحرك في غياب القيادة الرسالية التاريخية لأية حركة.

و يستنتج كذلك أن "الثورة المضادة" أو "الفتنة" دائما تؤول إلى "الحرب الأهلية"، لأنها تفكك المجتمع وتشوّهه. وتجعل من الإخوة أعداء متقاتلين، ربما إلى هذا المعنى يشير النص القرآني الكريم: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿البقرة: 54﴾، ذلك أن محاولة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

"التوبة" أو "العودة إلى الذات" التي شوّهتها و مسختها "الثورة المضادة" لا يكون سهلا و يسيرا في ظل "الفتنة"، إنما يتطلب ذلك جهادا وقتلا وقتالا.

إن الركون و الاستكانة لداعي "الثورة المضادة" أو "الفتنة" ذنب جماعي، يستوجب "توبة جماعية"، وهذا ما يريده موسى عليه السلام من قومه، بصفته الحفيظ على الهدي الإلهي، والشاهد على مسار الرسالة، إنه يدعو إلى إصلاح الانحراف الذي حدث بُعيْد الانتصار، و هو يعدّ ذلك ظلما كبيرا، لأنه يستحيل أن يحدث انسجام وتجانس بين الله الذي عبدوه قبل الانتصار، و بين العجل (معبود فرعون) الذي اتخذوه بعد الانتصار ربّا.
ومن المستحيل أن يكون هذا المزج النّكد مصعّداً لمسيرة الجماهير نحو التطّور والنّماء، بقدر ما يكون مدمّرا لهذه المسيرة و متبّراً لها لاستحالة انبثاق مشروع قيمي تنموي حضاري من مزج تصورين متناقضين، فلن ينتج عن هذا المزج التعسفي إلا العطالة والدمار.

الثورة المضادة ضلال :

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ(92)وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ «البقرة 92-93».

فالعجل –في هذا النص القرآني الكريم- هو ايديولوجية "الثورة المضادة" التي تزعّمها "السامري" بين بني إسرائيل، وهو هنا يقف على النقيض من "البيّنات" التي جاء بها موسى، التي توضح المسار وتحدّده وتضع له معالمه وأهدافه، بل إنها تبني على ذلك نتائج حتمية. فالثورة المضادة ضلال وتيه، فلا مسار واضح، ولا خط ثابت، و لا معالم بينة، ولا أهداف تلوح في نهاية الطريق، بل إنّ الأمر كله ضباب و ضلال، واحتمال لكل شيء.

و يصوّر لنا القرآن الكريم أن "الثورة المضادة" من خلال رمزها الإيديولوجي الذي هو العجل (رب فرعون)، قد تشرّشت في كل خلاياهم، ولامست كل مشاعرهم وأحاسيسهم وأفكارهم ووجدانهم، لقد تشرّبوا العجل! ليس عن طريق الفم والشفاه، إنما عن طريق القلب، ليصل سحر العجل وتأثيره إلى حيث يصل الدم النابع من القلب! « و يظل الخيال يتمثل تلك المحاولة العنيفة الغليظة، وتلك الصورة الساخرة الهازئة: صورة العجل يُدخَل في القلوب إدخالا، ويحشر فيها حشرا، حتى ليكاد ينسى المعنى الذهني الذي جاءت هذه الصورة المجسمة لتؤديه، وهو حبهم الشديد لعبادة العجل، حتى لكأنهم أُشرِبوه شرابا في القلوب.» ①

---

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 1، الجزء 1، ص 91

إن "الثورة المضادة" أو "الفتنة" عندما تتمكن من القلوب والأفكار، لا تنتج إلاّ تعصّبا وقحاً أعْمى، وعنادا أرْعن أهوج، يجعله ينحرف -في شيء من المكابرة والمفاخرة- عن سبيل الحق إلى سبيل الباطل.

وما "العجل" -كوثن من ذهب منتصب أمام الأعين- إلا معادل موضوعي لما يضطرب في النفس والضمير والأفكار من أوثان وآلهة، من رغبات منحطة، وأهواء رخيصة، وغرائز مسعورة، فائرة ثائرة، ومادامت البيّنات التي جاء بها موسى تضبط الرغبات المنحطة، وتكبح جماح الأهواء الرخيصة، وتلجم هذه الغرائز المسعورة، الفائرة الثائرة، فإن العجل هو الأفضل وهو الأولى بالنسبة للذهنية المسكونة بنموذجية الفرعون!.

الثورة المضادة ذلة:

ما كان للعصور السالفة أن تفهم كيف أن "الثورة المضادة" ذلة، كما يفهمها هذا العصر الأخير، عندما لجأت كل حركات التحرر إلى تبني إيديولوجية مستعمريها، والإبقاء على مؤسسات جلاديها، بغية تحقيق التقدم و الازدهار، لكن إيديولوجية "الثورة المضادة" قد أهّلت كل الشعوب لتكون مسرحا كبيرا للحروب الأهلية، و الصراعات الطائفية و القبلية، وكل أمراض الجاهلية الأولى. و قد جعلت "الثورة المضادة" من هذه الشعوب مسخا مشوّها، كل أمانيها أن يقلّد الاستعمار و أن تكونه!. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ ﴿الأعراف: 152﴾.
إن الغضب الرباني لا يفهم كما ينبغي، إلا إذا فُهم رضاه كما ينبغي، فإذا كان الرّضا يعني شيوع الأمن والسلام والمحبة، والنماء والتقدم والانسجام الاجتماعي، فإن الغضب يعني شيوع الفوضى والخوف، والتباغض، والتخلف، وتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية، وانتشار القلق والجشع والأنانية، وانطلاق كل المكبوتات الجاهلية تنخر المجتمع قيما وتصورا ومؤسسات، ليحصل التخلف في المجتمع بدل التقدم، والفوضى الاجتماعية بدل الانسجام، إلى غير ذلك من أشكال التشوّه البنيوي والنفسي، التي تحدثها إيديولوجية "الثورة المضادة" في مجتمع المستضعفين، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَانُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي(٩٠)قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ ﴿طه ٩٠-٩١﴾.

إن "السامرية" -إذا جاز هذا المصطلح- دائما تجنح بجماهير الناس نحو ما ينمّي شهواتها، ويشبع غرائزها، ويضع عنا كل مشاق التكليف وأعباء الرسالة، بينما تصعد بهم الحركة النبوية الطريق الشاق، لكنه يصفّي النفوس ويطهرها من كل الشوائب في مطهر الابتلاءات و المحن، ومن ثم فليس غريبا أن تنحاز أغلبية الناس إلى "الثورة المضادة" حيث السهولة و اليسر، و تنفض من حول الرساليين حيث مشاق التكاليف، وأعباء التبليغ، بل إن هذه الجماهير المفتونة، المشحونة بوحي الثورة المضادة، تقـــوم بإجـــراءات التصفية الجسدية،

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و التحقير لكل من يقف في طريقها و يحاول إرجاعها إلى مسارها الرسالي الصحيح. ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿الأعراف: 150﴾.

فهذا النص القرآني الكريم، يؤكد أن هارون -باعتباره خليفة النبي- قد بقي وحده، أو في نفر غير ذي غنى، و أنّ "السامري" قد حاز أغلبية بني إسرائيل، ولقد همّت به هذه الأغلبية أن تقتله، لئلاّ يعترض سبيل مشروعها.

و يبدو أن أسلوب التصفية الجسدية لعناصر الثورة مسلك سنني قديم تسلكه "الفتنة" أو "الثورة المضادة" اتجاه المحافظين على الخط الأصيل للرسالة و الدعوة، لظنها أنها، بقضائها على الشخص الرسالي تقضي على الرسالة. و خير مثال على ذلك أصحاب الرسولﷺ ، فقد صفوا قتلا و اغتيالا دون أن يتساءل أحد عن سر ذلك !.

إن القرآن الكريم، يعتبر "الفتنة" أو "الثورة المضادة" معادلا موضوعيا لما بالنفس، فالحالة الموضوعية التي يتحرك فيها الناس هي معادل موضوعي لما يستبطنونه في نفوسهم. وهذا الذي نفهمه من قول الرسول ﷺ: "كما تكونون يولّ عليكم". فعندما يتخذ بنو إسرائيل ربّ "فرعون" ربا لهم، و"السامري" الفتّان قائدا لهم بدل "هارون"، فذلك بوح بما تختزنه نفوسهم، و الذي أخفاه الحضور الجسدي للرسول. فرغم قيمة الذهب في الضمير اليهودي النكد، فقد استطاعوا أن يفرّطوا فيه في سبيل ما هو أهمّ منه وأعزّ، إنه ربُّ قاهرهم ومعبود جلاّدهم، إنها صورة الفرعون تملأ كل كيانهم، ونموذجيته تسدّ عليهم كل آفاق التصور وإمكانات التفنّن والتخيّل... إنهم يخسرون أعزّ ما يملكون -بعد المبادئ والقيم- في سبيل أن يقلّدوا قاهرهم، وأن يبنوا صورة جلاّدهم وسيّدهم القديم، بعدما استبطنوها في نفوسهم طويلا.

لكنّ هذا "الإفراز الموضوعي" مجرّد إدّعاء وهوس مؤقت، ولن يجنوا من ورائه إلا الذلة والغضب، لأنهم لن يستطيعوا -مهما بالغوا في المسخ و التشوّه- أن ينسجموا كلية مع إملاءات "السامري"، لأن الذي يعبد أكثر من إله، سوف تتوزّع خطاه في أكثر من سبيل، وبالتالي سوف لن يسير. والذي تتعلق عيونه بأكثر من هدف، سوف لن يحقق أي هدف، و الذي يحاول أن يسمع أكثر من صوت، ويستجيب لأكثر من توجيه، سوف لن يسمع أي صوت، ولن يستجيب لأي توجيه!

و يصوّر الإمام عليّ ﷺ الآثار المدمرة للفتنة أو "الثورة المضادة"، فيقول: « والله لا يزالون حتى لا يدعوا لله محرّما إلا استحلّوه، ولا عقدا إلا حلّوه، وحتى لا يبقى بيت مدَر ولا وبر إلا دخله ظلمهم، ونبا به سوء رعْيهم، وحتى يقوم الباكيان يبكيان: باكٍ يبكي لدينه، وباكٍ يبكي لدنياه، وحتى تكون نُصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده.» ①

من خلال هذا النص نستشف أن "الفتنة" أو "الثـــورة المضادة" تفضي بالضرورة إلى انتهاك حرمة القانون، وحرمة الدين وحرمة كل القيم. ثم إن ظلمها سيعم كل الأمصار، ليمس كل الشرائح الاجتماعية،

① الإمام علي: نهج البلاغة، الخطبة رقم : 98

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حتى حدم "الثورة المضادة" أنفسهم، ويصير ليس في مقدور طلاّب الدنيا أن ينالوها إلاّ بذلّة وهوان، وليس في مقدور طلاّب الآخرة أن يعيشوا لها إلاّ على خوفٍ وترقّب، ليصير الجميع في مصاف العبيد. وحينها يستعرض الناس التاريخ، و يستحضرون الذكريات، فيودّون له يعودون إلى زمن النبي ومن معه من الربّانيين، وما كان يعد به النبي ويعمل له الربّانيون. « فعند ذلك تودّ قريش -بالدنيا وما فيها- لو يرونني مقاماً واحداً، ولو قدْر جزْرِ جزور، لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلا يعطونيه.» ①

و دائما يفرض التيه على المجتمع الذي تتمكن منه "الثورة المضادة"، قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: 26]

فلا فرق -في الحقيقة- بين "أرض مقدسة" كُتبت للمنتصرين، حيث يعيشون فيها على مستوى رفيع من أ[illegible]ى النبوّة وعدْلها وكرامتها، وبين "هدف مقدّس"، يحمل في طياته مبادئ عادلة وأفكارا سامية، تضمن لكل واحد كرامته وإنسانيته، ولا فرق بين النكوص عند دخول أرض، وبين النكوص عن الوفاء لمبدأ، حتى يُرى منهجا حياتيا وشريعةً حاكمة، ومؤسسات تنتج الحياة، ولا فرق بين التيه في فضاء جغرافي فاقد المعالم، وبين التيه في فضاءٍ إيديولوجي، تتحرّك معالمه كما تتحرّك رمال الصحراء، وتلمع أفكاره ومناهجه كما يلمع السراب بقيعة. « و هكذا أسلمهم الله -و هم على أبواب الأرض المقدسة- للتيه، و حرّم عليهم الأرض التي كتبها لهم... والأرجح أنه حرّمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة، وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الذلّ والاستعباد والطغيان في مصر، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل!. والذل والاستعباد والطغيان يفسد فطرة الأفراد كما يفسد فطرة الشعوب.» ②

الثورة على الثورة المضادة:

بعد ما يرى المفتونون حجم الخسران الذي لحق بهم بنكوصهم عن نصرة النبي والربانيين، ويرون كذلك حجم التشوه والمسخ الذي ألحقته بهم "الثورة المضادة"، والذي لم يسلم منه أيّ مجال من مجالات حياتهم، حينها يفكرون في الثورة على "الثورة المضادة"، ويتحرّكون لإيقاف سيرورة الفتنة، ومن ثم تكون "[illegible]ب الأهلية" بغية الخروج من سلطة الفتنة.

و إن المعركة التي سيخوضونها هي ذات المعركة التي نكصوا عن خوضها تحت قيادة النبيّ، فها هم يتشوّقون إلى خوضها تحت أي قيادة!، يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 246]

① الإمام علي: نهج البلاغة، رقم النص 93

② سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 2، الجزء 6، ص871

« و هذا التحديد منهم لطبيعة القتال، و أنه "في سبيل الله" يشي بانتفاضة العقيدة في قلوبهم، و يقظة الإيمان في نفوسهم، و شعورهم بأنهم أهل دين و عقيدة و حق، و أنّ أعداءهم على ضلالة و كفر و باطل.» ①

و الملاحظ في التاريخ أنّ كل الدول التي خاضت ثورات ضد الاستعمار والاستغلال، ثم تمكنت "الثورات المضادة" من الانتصار على تلك الثورات والاستحواذ عليها، الملاحظ أن تلك الدول قد شهدت حروبا أهلية، بعد ثلاثين سنة أو أربعين سنة من استقلالها و تحرّرها، وتلك الحروب تضعها في سياق أن "الثورة" تريد أن تسترجع موقعها استكمالا لرسالتها، و أن "الثورة المضادة" تريد الحفاظ على موقعها ومصالحها.

و لابدّ للثورة أن تنتصر ولو بعد حين، لتجري عليها سُنّة المراحل الثلاثة، التي سوف نعرض لها في غير هذا الموضع.

المبحث السادس: الخلافة الراشدة

قد يُحسن المهاجرون المنتصرون الحفاظ على النصر وتثمينه، وقد يحسنون تزكيته وتوظيفه، من أجل تحقيق الهدف الذي كانت تسعى إليه الدعوة والجهاد، وهو إحداث الانقلاب الاجتماعي وفق مبادئ الدعوة وتصورها، فينطلقون في إعادة ترتيب المجتمع والذهنيات والعلاقات الضابطة على هدى مما لديهم من شريعة وكتاب، ومن ثمّ يكون "الحكْمُ الراشد" (خلافة أو إمامة)، من حيث روحيته وعقيدته انعكاسا لروحية الرسول، ويكون من حيث دوره حافظا للمبادئ التي جاءت بها النبوة، وشاهدا بها ولها ووصيّا عليها حتى تجد طريقها التطبيقي إلى دنيا الناس، ذلك أن عمر الرسول -في الغالب، وبمقتضى أنه عمر كأعمار البشر- لا يكون كافيا ليستغرق مرحلة الدعوة والتبليغ والجهاد، ومرحلة بناء الحياة الاجتماعية وفق مقتضيات الدعوة، ووفق التصور النبويّ للتغيير الاجتماعي، ومن ثم يتولىّ هذا الأمر خلصاء النبيّ ومقرّبوه وطليعة دعوته، الذين كانوا يهيّأون لأداء هذا الدور، وهذا الذي يُسمّى في الأدبيات المعاصرة "الشرعية الثورية".

و هؤلاء الذي سوف يحكمون باسم "الشرعية الثورية"، يكونون بحكم حركتهم النضالية، قد تلقّوا تكوينا ميدانيا عميقا، خلّصهم من كثير من شوائب الجاهلية و رواسبهـــا، و أخلصهم لقيم العـــدل و الحـــق و الخير، و قد يكون هذا هو المقصود بـــ"الاجتباء" في التعبير القرآني، قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(77)وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَـــا

① سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 1، الجزء 2، ص266

جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ﴿الحج: 77-78﴾

و لا يغيب عن ذهن أن المستضعفين، قبل أن يصيروا ورثة سلطة وحكم، يكونون قد تلقّوا تدريبا وتأهيلا، وتكوينا ميدانيا شاقا وعسيرا، أرغمهم أن يحرّروا مخزون الطاقة الكامنة فيهم، كي يجتازوا كل مراحل المحنة والابتلاء، وكي يصلوا إلى مستوى الاستحقاقات الوجودية، التي تؤهلهم إليها مبادئهم.

فإبراهيم عليه السلام قد مرّ بمجمـــوعة من الابتلاءات سمّاها القرآن بـــ"الكلمات"، و قد اجتازها بصبر و ثبات، فاستحق مقام الإمامة في الناس. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ﴿البقرة: 124﴾، ونفس الشيء يقال عن المستضعفين، وقد قال فيهم الله: ﴿و نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿القصص: 5﴾

فالنبيّ إمامٌ بحكم سيرورة من الأحداث، وكذلك المستضعفون، يصيرون أئمة بحكم سيرورة من الأحداث، حتى إذا تحكّموا في الناس كانوا قدوةً وأسوةً.

و هذا الذي أشار إليه "باولو فرايري"، حين قال: « و بمجرد أن يحس المقهور نفسه من خلال الشخصيات الجذابة للقادة، يبدأ في الشعور أنه يمتلك نفس الحيوية و الفعالية.» ① ، و بذلك يكون قد بدأ يتفرّغ من شخصية القاهر والجلاّد، التي ملأت كل كيانه، ليمتلئ بصورة النبي، وما تعنيه من قيم وأخلاق.

« غير أنه من أجل أن يصبح هذا النضال ذا جدوى، فإنّ على المقهورين ألاّ يمارسوا في النهاية دور القاهرين، بل عليهم أن يدافعوا عن إنسانيتهم، وإنسانية قاهريهم في نفس الوقت.» ②

و هذه الالزامات المبدئية الإيمانية، والالتزامات الإنسانية العليا، هي التي ترشّح هؤلاء ليحكموا باسم "الشرعية الثورية"، لأنها -في مرحلتها ووقتها- تمثّل ضرورة تاريخية لمجتمع بدأ ينشأ، وحتمية لأمة بدأت تخرج للناس. وإن أولى الناس بقيادة المجتمع هو صاحب العقيدة التي تعمل على إعادة صياغة الأفراد في شكل مجتمع، ذي فعالية جديدة، وهو صاحب العقيدة، التي تحمل صورة مشروع أمة، لطائفة من الناس صاروا أفرادا، فهو أمين على مشروعه الذي ضحى من أجله، و شاهدٌ على الناس، « إنه الشخصية التي يصلب عودها في محيط العمل الثوري وتجاربه. يولد في اتّجاه "الجهاد مع العقيدة"، ويحيا فيه، يهاجر من ذاته إلى الناس، وهناك يجد ذاته. يصنع مصير مجتمعه، فيخلق مصيره، وكلّما يصنع شيئا أو يربّي أحدًا فهو يصنع ذاته ويربّيها. ومن هنا يصمد أمام سيل المشكلات اليومية، ولا يتعفّن في الضياع، ولا يكون ضحية الانحطاط وضيق الأفق وقصر النظر في دنيا الحسّ، وبل يرشد ويتكامل -في عالم الجاهلية الضياع- يوماً بعد يوم. يخلق ويكبر ويهدم حصون المحيط المظلمة من حوله، ويسيطر في المحصلة على عصره ومجتمعه ومصير شعبه » ③

①باولو فرايري : تعليم المقهورين، ص57

②م.ن : ص27

③د. علي شريعتي : الأمة و الإمامة- ترجمة : أبو علي، مؤسسة الكتاب الثقافية، ص115

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و "الشرعية الثورية" حقّ اجتماعي لأفراد المجتمع جميعهم، على هؤلاء الذين آمنوا بالرسالة ونصروها وانتصروا بها، وجيّشوا حولها الناس. وإن الأمر ليشبه تماما حق الطفل على أبويه في سنوات طفولته، قبل أن يشبّ و يصلب عوده و يكتمل وعيه و عقله، حتى إذا بلغ أشدّه واستوى، فللأبوين أن يتركا ولدهما يحيا حياته، وسوف يسيئان إليه أيّما إساءة إذا ظلاّ يصرّان عليه، و يرغمانه أن يبقى أسير نظرتهما للحياة.

إن المهاجرين المجاهدين المنتصرين، سوف لن يخسروا شيئا إذا حُرِموا من قيادة المجتمع وإرشاده، إنما يخسر المجتمع، لأنه سوف يقوم مدخول التركيب مغشوش التوجّه، ذا تشوّه بنيويّ، سوف يتجلّى ويظهر في أوّل أزمة تعترض سبيله لينتكس إلى جاهليته الأولى، ليظلّ المهاجرون المجاهدون ذكرى جميلة في مشاعر الناس، تزداد تألقاً وحضوراً كلّما مرّ الزمن.

و ليست نباهة المهاجرين المجاهدين هي التي توصلهم إلى الحكم و القيـــادة باسم "الشرعية الثوريـــة"، و ليست طيبتهم هي التي تحرمهم من ذلك. إن الأمر كله متعلق بطبيعة المحتوى النفسي لجماهير الناس؛ فالمجتمع الذي يستبطن في نفسه و فكره و شعوره قيم "الثورة المضادة"، لن تحكمه "الشرعية الثورية"، والعكس الصحيح كذلك، وهذا يصدّقه الرسول ﷺ: "كما تكونوا يُوَلّ عليكم".

فبنوا إسرائيل كانوا يستبطنون صورة "الفرعون" فحكمهم "السامري" -بدل موسى- بالقيم التي كانت تملأهم، والمستمدة من "العجل"، وليس "السامري بأذكى من "موسى" و"هارون" وصالحي بني إسرائيل، لكنّ طبيعة المجتمع ومحتواه الفحوى أفرزا قيادة على تلك الشاكلة. « إن القضية عندنا منوطة أوّلا بتخلّصنا مما يستغلّه الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته، من حيث نشعر أو لا نشعر، ومادام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا، وتبديدها وتشتيتها على أيدينا، فلا رجاء في استقلال، ولا أمل في حرية، مهما كانت الأوضاع السياسية.» ①

يُستنتج من خلال هذا كله أن إقامة مجتمع العدل وأمّة الرشاد ليس بالأمر السَّهْلِ اليسير، وإنّ أَمَدَ ذلك أطول من عمر الرسول ﷺ، ومن ثم لابد للمجتمع من قيادة ربّانية، تكون -بدرجة ما- استمراراً للدور النبويّ في الدعوة والتوجيه والشهادة، « و بتعبير آخر يخلف "أشخاص الأمة" الرسول في نصرة "أفكار" الرسالة فتظهر -الخلافة- وتتحدد مواقع الأفراد ووظائفهم طبقا لدرجة قدرتهم على "خلافة" الرسول في "فقه" أفكار الرسالة وتطبيقاتها والإخلاص في حملها. وتطابق مواقف "الخلفاء" من نموذج الرسول في الفقه والتطبيق يؤهّل خلافتهم لتوصف بأنها خلافة راشدة.» ②

ومن ثم تكون نموذجا حيًّا مستمرا وممتدا لحيوية النص الثابت، رغم اختلافات الظروف و الصروف وما ينشأ عنها من متغيّرات.

①مالك بن نبي : شروط النهضة، ص159

②د. ماجد عرسان الكيلاني : إخراج الأمة المسلمة - العصر الحديث، بيروت (ط1)- 1412 هـ، ص151

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يقول الله تعالى:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُـدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ(23)وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿السجدة 23-24﴾. في هذا النص القرآني الكريم، توجد خمسة مصطلحات، أو خمسة محاور أساسية، و هي:

1- موسى : (الرسول)،

2- الكتاب : (المشروع الاستخلافي)،

3- الهدى :(طبيعة المشروع الاستخلافي)،

4- بنوا إسرائيل : (الأمة)،

5- الأئمة : (الأمناء على المشروع الاستخلافي بعد الرسول).

هذا النص يوضّح أن مهمة الأئمة أو "الخفاء الراشدين" هي هداية الناس إلى طريق الله، والإشراف الرسالي (أو التوجيه الرسالي، أو الشهادة على المجتمع) وفق الهدى الذي في الكتاب، هذا الإشراف أو التوجيه أو الشهادة الذي كان من مهمة الرسول ﷺ. حتى إذا مات قام مقامه أصحابه و أوصياؤه ، الذين تعلّمـوا منه و تشكلوا بين يديه.

و وجود هؤلاء -كما سبق القول- ضرورة وحتمية، لأن الناس كانوا على عهد الرسول ﷺ لا يجدون انفصالا بين النص والواقع، بل إنهم ليجدون الواقع شارحا للنّص، أو يجدون النص تسجيلا لنبضات الواقع، بكل احتمالات تطهيره وتصعيده، بينما الأمر يختلف بعد وفاة الرسول ﷺ؛ فالدين انتهى والنص انقطع واستقرّ على صيغة معينة، والواقع مازال متغيّراً متحرّكا، حينها سيعاني الناس صعوبة "إسقاط" النص الثابت على هذا الواقع المتحرّك دون شطط أو تلفيق، و هذا ما يتطلّب صبراً و مجاهدة و يقيناً لا يتوفّر إلا عند الرجال الربانيين، الذين عايشوا هذا المبادئ و القيم و هي تتنزّل و تتشكل، و تتناسق فيما بينها يوماً بعد يوم، و تختلط بدمهـم و مشاعرهم وذكرياتهم، فمع كل مبدأ ذكرى، و إحساس، و مع كل نص جهاد، « فالثورة لا تُرتَجل، إنها اطّراد طويل، يحتوي ما قبل الثورة، و الثورة نفسها، و ما بعدها. والمراحل الثلاث هذه لا تجتمع فيه بمجرد إضافة زمنية، بل تمثل فيه نموّا عضويا وتطوّراً تاريخياً مستمراً، وإذا حدث خلل في هذا النمو وفي هذا التطور، فقد تكون النتيجة زهيدة تخيّب الآمال.

إن الثورة الفرنسية تضمنت عهد ما قبل الثورة، في صورة مقدّمات وجدتْها في أفكار "جان جاك روسو" والعلماء الموسوعيين، فكان لهذه الحركة ما يدعّمها حتى تحقق لها النجاح يوم 14 تموز (يوليو) 1789. لكن عبورها إلى مرحلة ما بعد الثورة كان فيه خلل، جعل أشباه الثوريين مثل (دانتون وميرابو) يسيطرون عليها، ويحاولون بناء مجدهم على حسابها.» ①

①مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه، ص14

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث السابع : الدورات الثلاثة

تماشيا مع منطق الأشياء و سيرورة الحياة، فإن لكل حدث بداية ونهاية، وحياة ما بين البداية والنهاية، وهذا الذي ينطبق على مسيرة حركة رسالية انتصرت؛ فلابد أن تخضع لهذا القانون الطبيعي التاريخي، فهي ستمر بثلاثة مراحل أساسية. هي مرحلة الروح، ومرحلة العقل، ومرحلة الغريزة، ولكل مرحلة ميزاتها وشروطها، و قد نستأنس في هذا يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا(58)فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(59)إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ ﴿مريم 58-59-60﴾.

فالمرحلة الأولى هي مرحلة هؤلاء الربانيين، الذين يتّصفون بأنهم شديدو الحساسية اتجاه الله سبحانه، وما يصدر عنه، وما يستوجبه قدره ومقامه. والمرحلة الثانية، هي مرحلة ورثة ثقيلي الإحساس والشعور، متهاونين بأوامر الدين وزواجره، سعيا وراء مصالح ومنافع، أما المرحلة الثالثة، فهي مرحلة أولئك الذين لم يكتفوا بإضاعة الصلاة، بل أنهم صاروا عبيدا لشهواتهم وملذّاتهم، فهي مثلهم الأعلى، عنه يصدرون، و إليه يفيئون، وهذا هو الجيل الذي يقبر الرسالة، وبموتها يموت هو كذلك.

و على هذا المعنى يؤكد الحديث النبويّ الشريف: "إن هذا الأمر بدأ رحمةً ونبوّةً، ثم يكون رحمةً وخلافة، ثم كائن ملْكاً عضوضاً، ثم كائن عتُوًّا وجبريّةً و فسادا في الأرض، يستحلّون الحرير والفروج والخمور، يرزقون على ذلك و ينصرون، حتى يلقوا الله عز وجل" (الطبراني بإسناد جيد).

و في "المقدّمة" يتحدث العلامة "ابن خلدون" عن هذه المراحل الثلاث، إذ تتسم المرحلة الأولى بوفور "العصبية"، التي تعني ما يجعل مجموعة من الناس يجتمعون حوله و يتحدون فيه، ويناضلون به و له: « إنّ العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه.» ①
فهي أداة للحماية، لأنها تعطي أي مجتمع ملامحه وخصوصياته. وهي أداة للمدافعة حين يُستهدف هذا المجتمع في وجوده. وهي أداة للمطالبة، إذ غالبا ما يرفع الذين يطالبون جملة من المطالب، هي زبدة عصبيتهم، وذاك هو الملاحظ في التاريخ البشري، فكل غزو، أو فتح أو استعمار، دائما يتستر وراء إيديولوجية (عصبية)، يحفظ بها كيانه، ويستهدف بها تفكيك كيان الآخرين...
بينما تتسم المرحلة الثانية بانغماس أهل "العصبية" في الترف والنعيم، « و الأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس، والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو إليه من توابع ذلك،

① عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة، ص139

فتذهب خشونة البداوة، و تضعف العصبية.» ① ، و تنسحب المبادئ من الحياة الاجتماعية لتحل محلّها المصالح و المنافع، و تضمرُ الروح لتضخم العقل.

أما المرحلة الثالثة، فإن العقل ذاته ينسحب من الحياة الاجتماعية أو يصير خادما للشهوات، هذه الشهوات التي سوف تستهلك كل الطاقة الضرورية لقضاء ضروريات المجتمع، و على قدر اتساع الشهوات يكون حرمان المجتمع من ضرورياته إشباعا لكماليات الحاكمين و المتسلطين. يقول العلامة "ابن خلدون":

« و تنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترفّع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم، ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية، حتى يصير ذلك خلُقاً لهم وسجيّة، فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الأجيال بعدهم، يتعاقبها إلى أن تنقرض العصبية، فيأذنون بالانقراض، و على قدر ترفهم و نعمتهم يكون إشرافهم على الفناء» ② ليسلّم الأمرَ قوم آخرون أهل عصبية وبسالة ومغالبة.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ ﴿الأنعام: 6﴾

« إنها حقيقة ينساها البشر -إلا من عصم الله- وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف، و يمضون على غير سنّة الله، ولا يتبيّن لهم في أوّل الطريق عواقب هذا الانحراف، ويقع الفساد رويدا رويدا، وهم يتزلقون ولا يشعرون... حتى يستوفي الكتاب أجله، ويحقّ وعد الله... ثم تختلف أشكال النهاية.» ③

نفس هذه المراحل الثلاثة يؤكّد عليها "مالك بن نبي"، وإن كان يعبر عنها بمصطلحات أخرى، فالمرحلة الأولى هي مرحلة "الروح"، حيث تخضع غرائز والفرد والمجتمع إلى تهذيب وتوجيه، نحو مثُل عليا مشتركة، تكون منبثقة من الفكرة الرسالية المنتصرة، « و هذه العملية الشرطية ليس من شأنها القضاء على الغرائز، ولكن تتولّى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية، فالحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز بصورة محسوسة، لم تُلغَ، ولكنها انضبطت بقواعد نظام معين» ④، بحيث تكون الفكرة الدينية في هذه المرحلة، قد أخرجت الإنسان من دائرة الفردية، أو من صورته "الخام"، وأكسبته "شخصية"، لما وضعته في إطار نسيج اجتماعي، فما عاد يدرك ذاته إلا من خلال شبكة من العلاقات والقيم والمفاهيم، التي يؤثر فيها ويتأثر بها، بل إنه يرى نفسه ممتدًّا بها وممتدًّا لها، فيطغى لديه الشعور بأداء الواجب عن الشعور باستخلاص الحق، « و في هذه الحالة يتحرّر الفرد جزئيا من قانون الطبيعة المفطور في جسده، ويخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسهن بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح.» ⑤

---

①عبد الرحمن ابن خلدون : المقدمة ، ص140

② م .ن : ص140

③سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 3، الجزء 7، ص1037

④مالك بن نبي : شروط النهضة، ص75

⑤ م.ن : ص75

أما المرحلة الثانية، فيسميها "مرحلة العقل"، وتتسم باستقرار التوتر الروحي وميله نحو الأفول، ويكون ذلك بعد اكتمال شبكة العلاقات الاجتماعية واتساعها، لتشمل على أوسع قدر من أشكال الحياة.

« فتنشأ المشاكل المحسوسة لهذا المجتمع الوليد نتيجة توسُّعه، كما تتولّد ضرورات جديدة نتيجة اكتماله. وحتى تستطيع هذه الحضارة تلبية هذه المقاييس المستجدّة تسلك منعطفا جديدا (...) هو منعطف العقل، غير أن هذا العقل لا يملك سيطرة الروح على الغرائز، وحينئذ تشرع الغرائز في التحرّر من قيودها بالطريقة التي شاهدنا في عهد بني أمية، إذ أخذت الروح تفقد نفوذها على الغرائز بالتدريج، كما كف المجتمع عن ممارسة ضغطه على الفرد.» ①، هذا الفرد الذي يكف عن أداء الواجب، ويشرع في المطالبة بالحقّ، واسترجاع "فردانيته" وتحرّره من شخصيته، لأن المجتمع قد بدأ يتحلّل من الالتزام والإلزام الأخلاقيين، وفي هذه المرحلة يتوقف "خطاب التغيير" ليحلّ محلّه "خطاب التبرير"، وتصير "الشرعية الثورية" "شرعية تاريخية"، تُطلب بها الدنيا والمنافع والمصالح، التي تكون قد تنوّعت وازدهرت بفعل النشاط العقلي، ليبدأ التنافس فيها والتنافس عليها، «هي مرحلة تجمد هذا المثل الأعلى بعد أن يستنفد طاقته وقدرته على العطاء، ويتحوّل هذا المثل حينئذ إلى تمثال، ويتحوّل القادة الذين كان يعطون ويوجهون على أساسه إلى سادة وكبراء، كما يتحوّل جمهور الأمة من مشاركين في الإبداع والتطوير إلى مطيعين منقادين.» ②

و هذه المرحلة –حسب رؤية مالك بن نبي– تحقن الحضارة أو مسيرة الحركة الرسالية بالمرض الذي سوف يقضي عليها، لكن يغطي عليه ازدهار وتطوّر وترف، يحصل نتيجة التطور العقلي، ونتيجة حركة الناس من أجل إشباع رغباتها النامية، فما يدرك هذا المرض إلا قليل من العلماء. قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: 21].

فليست القوة المادية –في المنظور القرآني– دلالة عن العافية الحضارية، أو آية عن الرّضا الإلهي، بل قد تكون تلك القوة هي "جرثومة" المرض الخبيث! وكفى به مرَضاً أنه يحجب هؤلاء عن الرؤية الحقيقية للتاريخ ومصارع الغابرين، ويعزلهم عن مصدر القوة الحقيقي الكامن في الإيمان وما يستوجبه من عدل وحرية.

أما المرحلة الثالثة، فتكون عندما يبلغ المجتمع حدّاً كبيراً من التحررّ، من إلزامات الفكرة الموجدة له،

« و هنا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية التي تصبح عاجزةً عن القيام بمهمتها تماماً في مجتمع منحل يكون قد دخل نهائيا في ليل التاريخ، وبذلك تتم دورة في الحضارة.» ③

وتتسم هذه المرحلة بإيجاد المسوّغات والمبرّرات، للتغلّب من الزامات الفكرة، فتخضع للتأويل والتفسير، الذي

---

①مرتضى مطهّري : المجتمع و التاريخ، القسم 2، ص122

②مالك بن نبي : شروط النهضة، ص77

③مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 30

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يخالف روحها و مبادئها، و القرآن الكريم، يعدّ ذلك زيغا، قال الله تعالى:﴿فلمّا زاغوا أزاغ الله قُلُوبَهُمْ﴾ ﴿الصف: 5﴾، و قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ ﴿آل عمران: 7﴾.

و بهذا تكون النهاية عكس البداية، ففي المرحلة الأولى، كان الأشخاص يدورون في فلك الفكرة، وفي المرحلة الأخيرة، صارت الفكرة تدور في فلك الأشخاص. وإلى هذه الفكرة يشير "مالك بن نبي" عندما يقول: « و لكن أوضاع القيم تنقلب في عصور الانحطاط الاجتماعي، إذ هو لا يقوى على البقاء بمقوّمات الفن والعلم والعقل فحسب، لأن الروح، والروح وحده هو الذي يتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فُقد الروح سقطت الحضارة وانحطّت، لأن من يفقد القدرة على الصعود، لا يملك إلاّ أن يهوي بتأثير جاذبية الأرض. وعندما يبلغ مجتمع ما هذه المرحلة، أي عندما تكف الرياح التي منحته الدفعة الأولى عن تحريكه، تكون نهاية (دورة) وهجرة (حضارة) إلى بقعة أخرى تبدأ فيها دورة جديدة، طبقا لتركيب عضوي تاريخي جديد.» ①

و يصوّر لنا القرآن الكريم المجتمع -في صورة شخص- و هو يتملّص تحت ضغط الشهوات، و ينسلخ من "الفكرة الدينية"، التي بها ارتفاعه وسموّه، ثم يخلد إلى الأرض وينجذب إليها، بفعل قيم الطين التي تحرّكت فيه، يقول الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ(175)وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ﴿الأعراف: 175-176﴾

الهلاك:

إذا كان هلاك الفرد يتمثل في توقّف بنيته البيولوجية عن إنتاج الحياة، فإنّ هلاك أمة يتمثل في عجز شبكة العلاقات الاجتماعية عن تحريض قدر معين من القوة والطاقة، يجعل المجتمع يندفع نحو الأمام، مصاحبا لحركة التاريخ، وذلك راجع للإفلاس القيمي والأخلاقي المنظّم لطاقات الأفراد بعضها مع بعضها، « و عندما يرتخي التوتر في خيوط الشبكةن فتصبح عاجزةً عن القيام بالنشاط المشترك بصورة فعّالة، فذلك أمارة على أن المجتمع مريض، و أنه ماضٍ إلى نهايته. أما إذا تفككّت الشبكة نهائيا، فذلك إيذان بهلاك المجتمع، و حينئذ لا يبقى منه غير ذكرى مدفونة في كتب التاريخ. و لقد تحين هذه النهاية و المجمع متخم بالأشخاص و الأفكار و الأشياء.» ② ، إنما لا توجد الفكرة الناظمة لها، لأنها في تلك الفكرة الدينية التي خانها المجتمع وتخلّى عنها، فخانته وتخلّت عنه، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿الحشر: 19﴾، فالله سبحانه باعتباره المثل الأعلى، منه تُستمدّ جميع القيم التي تضفي على الحياة قيمة ومعنى، وتعطي للإنسان إنسانيته، حتى إذا تخلّى الإنسان عن هذه القيم، فإنه يفقد إنسانيته وكرامته وأصالته، وتفقد حياته معناها ومغزاها، لُيطبق عليه القلق، ويمتد أمام خطاه التيه، و يكون دليله الضلال!.

---

①مالك بن نبي : ميلاد المجتمع، ص39

②سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد 2، الجزء 7، ص1090

و لقد تحدث القرآن الكريم أن الحضارة، أو المجتمع، أو الأمة قد يحين هلاكها، و هي في أوجّ القوة المادية، سوى أن الروح الداخلية التي تسري في ذلك كله منعدمة، وبالتالي فإن انهيار تلك القوة يكـــون مدمّراً وساحقا. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44)فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الأنعام: 44-45﴾ فهذا النص القرآني الكريم يصوّر مشهد أمّة من الأمم، وقد أعرضوا عن ذكره وجعلوه وراءهم ظهريا، وتنكروا لكل ما فيه من شرائع وشعائر، وأقبلوا على متاع الدنيا، يتفننون في تحصيله وجمعه والاستغراق فيه، وهو يواتيهم من غير كدّ أو كبير عناء، « و غمرهم الخيرات والأرزاق المتدفقة؛ واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها – بلا شكر ولا ذكر– وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر النعم ومن خشيته وتقواه، وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع، واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة، كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع. وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق، وجرّ هذا وذلك على نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها... عندئذ جاء موعد السنة التي لا تتبدل.» ①

و في مواضيع كثيرة من القرآن، يعتبر الترف آية كبرى على الشروع في السقوط، لما يستدعيه الترف من أجواء اجتماعية موبوءة، و مستوى روحي فارغ وطئ، و التزام أخلاقي لا يكاد يُذكر، وامتلاء كبير بالنظرة المادية و الشهوات، و فراغ كلي من المبادئ و الاهتمامات المبدإية، ونظرة سطحية ظاهرة لرسالة الإنسان في الوجود.

و الترف –فوق هذا كله– إهدار للطاقات المادية و العقلية للأمة أو المجتمع، و استتراف للقوة المبدعة في ما لا طائل من ورائه، و لن يتسنى للمترفين أن يصلوا بالمجتمع إلى هذا الدرك من الانحطاط إلا إذا كانوا فاسقين، أي خارجين عن منظومة الضوابط الأخلاقية والعرفية والقانونية للمجتمع، لما يحسّونه في أنفسهم أنهم أكبر من كل ذلك!، وهذا الذي يعلّله العلامة "ابن خلدون" قائلا: « و ذلك أن الأمة إذا تغلبّت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها، كثر رياشها و نعمتها، فتكثر عوائدهم، و يتجاوزون ضرورات العيش و خشونته إلى نوافله ورقّته وزينته، و يذهبون إلى اتباع من قبلهم من عوائدهم وأحوالهم، ويصير لتلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها ويترعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعـــم و الملابس و الفُرش و الآنية، و يتفاخرون في ذلك، و يفاخرون فيه غيرهم من الأمم في أكل الطيب و لبس الأنيق و ركوب الفاره و يناغي في ذلك خلفُهم سلفهم إلى آخر الدولة.» ②

و لن يتسنّى للمترفين فعل كل هذا أو بعض هذا، إلاّ إذا عملوا على تغيير الأجواء الاجتماعية، و ذاك الذي لا

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 2، الجزء 7، ص1090

② عبد الرحمن ابن خلدون : المقدمة، ص167

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يستطيعونه إلاّ إذا غيّروا التصوّر و الذهنيات، وهذا بدوره يكون استجابة لفراغ قيمي مدروس ومخطّط له، وذاك الذي يسميه القرآن "الاستخفاف"، الذي يعني تجريد الناس من كل ما يجعلهم ذوي قيمة ووزن وحضور في الشأن اليوميّ المصيري للمجتمع، ليصيروا في مرتبة الأشياء قيمة ونزوعا.

و عن طريق "الاستخفاف" ينحرف عن وجهة إلى وجهة، ويخرج من موقع إلى موقع، ويتخلّى عن أخلاق، ليتخلّق بأخرى، فيصير امتدادا طبيعيا للمترفين، و كما تخلق الشعوب قيادتها، فإن القيادات كذلك تسعى إلى تشكيل شعوبها على صورتها، أو في الصورة التي تحب، تصير معها تلك الشعوب لا تؤمن بقدرتها وفاعليتها، فتمعن في الذلّ والاستسلام، مع عجز فاضح في النباهة العقلية أو النباهة الاجتماعية الإنسانية.
وفي ضوء هذا قد يُفهم قوله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ ﴿الزخرف: 54﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ ﴿الإسراء: 16﴾.

فهذا النص القرآني الكريم، يبين سُنّة مطردة، و هي أنه ما تحكّم المترفون إلاّ دمّروا الأخلاق، واعتدوا على حرمة الشرائع والقوانين استجابة لإلحاح الضرورات الموضوعية والنفسية للترف، ثم يشيعون الفسوق وسط المجتمع، وبحكم أن المغلوب مولَع بتقليد الغالب -في الغالب-، فإن الناس سوف يعرضون عن الاهتمامات الرسالية والتطلعات المبدئية، ويعرضون عن المجالات الحيوية التي ينبغي أن تُصرَف فيها طاقتهم وأقدارهم، وحيويتهم العقلية الروحية، ويقبلون على ممارسة الفسوق، كل قدر استطاعته وطاقته، ثم إنهم قد لا يجدون بين أيديهم ما يكفيهم لإشباع ضرورات الترف، فيستهينون بالأخلاق، ويسترخصون القيم، ويستبيحون الدماء والذمم والأعراض وكل ركائز الحياة الإنسانية ومقوماتها.

« و المترفون في كل أمّة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم، ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة، حتى تترهّل نفوسهم وتأسن، وترتفع في الفسق والمجانة، وتستهتر بالقيم والمقدسات

'مات، وتلغ في الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فسادا ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها. ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتُطوى صفحتها.» ①

و يقدّم الرسول ﷺ أعراضا رئيسة للأمة التي تهلك، و هي : « إذا رأيت شحّاً مطاعاً، وهوًى متّبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودعْكَ من أمر العامة.» ②،لأنهم لا ينفع فيهم وعْظ، ولا ينفع معهم إرشاد، فهم قد شرعوا في الوفاة، كما يشرع الفرد الهالك في الغرغرة.

① سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد 4، الجزء 15، ص2217

② رواه الترمذي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و بعد الهلاك يكون "التقطيع في الأرض"، ويكون "الابتلاء بالحسنات والسيئات" ويكون "الاستبدال"، ويكون "الإنشاء لقوم آخرين"، يكونون أوّل ما يكونون نطفة في رحم السيرورة التاريخية، ليمرّ عليهم ما يمرّ على الجنين من أطوار، ليكون المخاض، وتكون الولادة الجديدة للمجتمع البديل، أو للأمة الأخرى، وذلك عبر المراحل التي مرّت معنا، لتكون نهاية دورة حضارية أو تاريخية، هي البداية لدورة حضارية أو تاريخية أخرى،

« فدورة الحضارة إذن تتم على هذا المنوال، إذ تبدأ حينما تدخل التاريخ فكرة دينية معينة أو عندما يدخل التاريخ مبدأ أخلاقي معيّن (ZTHOS) على حدّ قول "كسرلنج"، كما أنها تنتهي حينما تفقد الروح نهائيا الهيمنة التي كانت لها على الغرائز المكبوتة أو المكبوحة. وقبل بدء دورة من الدورات أو عند بدايتها يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة. أما في نهاية الدورة فإن الإنسان يكون قد تفسّخ حضاريا وسلبت منه الحضارة تماما، فيدخل في عهد ما بعد الحضارة.» ①

قال الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿الأعراف: 168﴾.

فالأمة التي كانت واحدةً في شريعتها ومشربها، واتجاهها، صارت أمما ذات شرائع مختلفة، ومشارب متباينة، واتجاهات متضاربة.

وقال سبحانه: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ ﴿الأنعام: 6﴾.

فالإهلاك يكون بالذنوب والمعاصي، التي تقترفها الأمة في مجموعها، وأفظع ما ترتكبه الأمة من ذنب هو مخالفة شروط التمكين في الأرض، وشروط البقاء.

وقال عز من قائل: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ ﴿محمد: 38﴾. فالأمة التي لا تقدّر قيمة ما أُعطيت من مبادئ و أفكار، ولا تستطيع أن تعيش في ذلك الأفق العالي، الذي تصنعه المبادئ والأفكار، وتمضي تبحث عن مستويات أخرى للحياة، تحياها بأقل تُكلفة وأقل تضحية، هذه الأمة إنما تقوم بعملية تملّص وتهرّب، ولابد للأفكار والمبادئ أن تتملص منها هي كذلك، لتتركها تسقط وتتلاشى، وربما تفنى، وليس تهلك فقط!، ليختار الله قوماً آخرين، يختلفون عن هذه الأمة ولا يشاكلونها في شيء.

وفي هذا يقول الدكتور "ماجد عرسان الكيلاني": « قد تخطئ الجماعات المقطعة في الأرض استراتيجية الرجوع إلى الإسلام، وإخراج الأمة المسلمة من جديد، ثم يكون من نتائج هذا الخطأ أن لا تحسن فقه "الابتلاء بالحسنات والسيئات" و"الخبرات" الإيجابية والسلبية التي تمرّ بها بيئات "التقطيع"، وبالتالي لا تحسن إخراج الأمة المسلمة من جديد حتى تصل إلى حالة "الفناء"، والفناء نهاية مأساوية يشير إليها قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(41)ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ(42)مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ ﴿المؤمنون: 41-43﴾ » ②

---

① مالك بن نبي : شروط النهضة، ص78

② ماجد عرسان الكيلاني : إخراج الأمة المسلمة ، ص 149

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهؤلاء تفرّغوا -أو فُرِّغوا- من كل ما يكسبهم كرامة وأصالة ووجودا، من قيم وإيمان ومبادئ وأخلاق، فصاروا يشبهون ذلك "الغثاء" المختلط من الحشائش والزبد والأعشاب، والتي يجرفها السيل في غير مشقة وعناء، وما السيل إلاّ حركة السنن التاريخية، وهي تمضي غير آبهة بمن يقف في طريقها، وغير آبهة بمن يركبها أو يتعلق بها صوب أهدافه.

و يرى مالك ابن نبي أن الإنسان الخارج من دورة حضارية أو تاريخية، بفعل الهلاك، يختلف اختلافا جذريا عن الإنسان ما قبل الدورة. لأن هذا الأخير يملك كل القابليات للإنخراط في حركة تاريخية، و الإندماج في فعل حضاري بينما الأول لا يمكنه شيء من ذلك إلا إذا تغير جذريا، بانخراطه في آلية معقدة من سنن الإنشاء و البعث.

و هو يشبهه بجزيء الماء قبل دخوله في الخزان المنتج للكهرباء و بعد خروجه منه و قد فقد طاقته المذخورة. « و هو ما يعطينا صورة الإنسان المنحل حضاريا أو الإنسان الذي خرج من دورة الحضارة. ذلك أن هذا الجزيء الخارج من خزانه لم يعد في إمكانه أن يستعيد حالته إلا بواسطة عملية جوهرية، تتمثل في عملية التبخر التي ترجع به إلى حالة بخارية و في التيارات الجوية الملائمة التي ترجعه إلى أصله، حيث يتم تحوله من جديد إلى جزيء مائي واقع (قبل) خزان معين. » ①

هذا في ما يتعلق بالفرد، أما ما يتعلق بالامة فإنها تخضع لثلاث درجات من الهلاك، إن جاز هذا التعبير، أو ثلاثة مستويات هي :

1- **التقطيع** : أي أن الهلاك يجري على الامة تقطيعا و تمزيقا، فإذا كانت أمة تصير شعوب متباغضة متنافرة ، و إذا كانت شعبا تصير قبائل تناصب بعضها بعضا العداوة و البغضاء، لتفقد بعدها كل ما يشكل شخصيتها و وجودها بين الآخرين، و تصير مزقا تبحث عن أي اندماج و عن التصاق بفضاءات تاريخية أو تكتلات حضارية كأقليات موسومة و موصومة، و تحاول التملص و التخلص من بقايا هويتها تسهيلا للإندماج و بحثا عن التوافق و التجانس قال الله تعالى:﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿الأعراف: 168﴾.

2- **الرجوع** :هو أن تبقى في الأمة الهالكة بذور انبعاث جديد، و إمكانيات انطلاق تماما كما قد يعتمد المريض على بقايا نفس فيه للإنطلاق في الحياة من جديد .

فقد ترجع الأمة الهالكة إلى ساحة المشهد الحضاري، و لكن عبر مرحلية دقيقة محكومة بسنن صارمة تعرضها على سلسلة من الإختبارات و الإبتلاءات، تحرض فيها امكانات الرجوع و قابلياته، و تطهرها في بوتقة

---

① مالك بن النبي : شروط النهضة ، ص 79

الآلام و الآمال من كل العاهات التي أهلكتها ، لتكتسب الأمة رؤية جديدة قائمة على المفاصلة الجذرية مع كل الأخلاقيات التي أدت إلى الهلاك قال تعالى:﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿الأعراف:168﴾.

و لحكمة ما نجد أن الأمم التي تشعر بالهلاك و تحس بأس الله، يشيع لديها خطاب يتحدث عن : البعث، الانبعاث، التجديد ، الوثبة ، إعادة الهيكلة ، إعادة البناء، إلى غير ذلك من الإشارات التي توحي أن أهل العقل في تلك الأمة قد استشعروا الهلاك و دنو الأجل.

3- **التبديل** : يكون عندما لا تستطيع الامة الهالكة الرجوع إلى ساحة المشهد الحضاري، لتظل مجموعة من الافراد تافهين تائهين، يعيشون لاهتمامات محدودة، تتناسب تماما مع محتواهم الفحوي و مثلهم الأعلى. ليبدأ هذا " الغثاء البشري " يتشكل و يجتمع حول اهتمامات غريزية، لتنطلق دورة تاريخية جديدة، بأن يفرز هؤلاء مكنوناتهم الغريزية و استعداداتهم المركوزة فيهم إلى الساحة الإجتماعية، لتتجلى هذه المكنونات في قطبين اجتماعيين، قطب يملك و يكتنز و آخر لا يملك و لا يكتنز، ليبدأ هذا الوضع الإجتماعي في إفراز ذهنية جديدة.

و هكذا يشرع التاريخ في دورة جديدة، سوى أن النبي قد يحل محله و يقلد دوره الملهَمون و الملهمون من البشر، و ليس شرطا أن يكون خطاب هؤلاء إيمانيا أو ربانيا، إنما حسبهم أن يجندوا قومهم و يقنعوهم بضرورة التغيير، و حسبهم أن يقنعوهم بجدوى البديل الذي يحملونهم إليهم في شكل مشروع ثوري، أو نهضوي، أو تحرري، إلى آخر ذلك من أشكال المشاريع التي تحبل بها الساحة الإنسانية التي تتدخل في تحديد طبيعتها و محتواها ملابسات شتى.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أخيرا، وبحكم منطق الأشياء، هانحن في خاتمة بحث لا نعتقد أن له خاتمة. لأن كل فصل فيه، بل كل مبحث، يصلح كي يكون دراسة قائمة بذاتها ذات مباحث وفصول.
لكن شروط البحث العلمي، حتمت أن نختصر حيث كان بالإمكان أن نستفيض شرحا وتبيانا، وأن نجمل حيث لم نكن عاجزين عن الإطالة والتفصيل في غير سأم ولا إملال. لكن لابد أن نلتفت إلى ما كتبناه، ففي قليله المسطور على الصفحات غنى عن كثيره الذي مازال طي الصدر، و حنايا النفس وخلجات الضمير، وليس محالا أن نجد له يوما ما متنفسا و مصبا إذا واتتْنا الظروف.

ولقد حرصت هذه الدراسة أن تتجرد للحق ما استطاعت إلى التجرد للحق سبيلا، وحرصت أن تنحاز للحقيقة على مرارتها، وتؤثرها على عذوبة الرغبات وحلاوة الأهواء، وقد أجهدت صاحبها في أن يأخذ [illegible] حكمة، دون الالتفات إلى اللسان الذي قال ها، وأن تتجاوز الرقابة المذهبية المتمسحة بمسوح [illegible] كثيرا ما تلبس على الباحثين دينهم ورأيهم ومنهجهم، فتراهم يهادنون ويداهنون، ولو على حساب [illegible] الدين، واستقامة المنهج، وصرامة المبدأ.

و رغم هذا فلن يستطيع باحث أن يتجرد للحق كل التجرد، وأن ينحاز للحقيقة مؤثرا مرارتها على عذوبة الرغبات النفسية، وأن يفصل الحكمة عمن قالها كما تفصل الثمرة الحلوة عن قشرتها الشائكة، وأن يتجاوز الرقابة المذهبية وقد انساحت حتى في اللاشعور. ومن ثم، فإن النتائج المستخلصة لا ندعي لها عصمة ولا نزعم لها كمالا، حين نوردها ونثبتها في خاتمة البحث، إنما نفعل ذلك كي نلفت الأنظار إليها، فقد تصادف هوى، وتلقى تعلقا في قلوب الآخرين، فيغنونها بحثا، ويزيدونها إثراء، ويتعمقون فيها قراءة وتحليلا.

و إن هذا العنوان الكبير "الجدلية التاريخية في القرآن" قد غل جملة من النتائج والاستنتاجات، نزعم أنها على شيء من الأهمية، و هانحن نورد بعضها على سبيل الذكر ليس إلاّ :

أ. إنه لا مجال للمصادفة والاعتباطية في حركة التاريخ، بل إن كل آلية فيها خاضعة لنظام دقيق من "التفاعلات" بين القيم والأوضاع والحالات وغير ذلك.
سوى أنّ عامة الناس حين لا يستطيعون ضبط حركتهم على حركة التاريخ، وحين لا يستطيعون ضبط توقيتهم على توقيته، ينسبون إلى التاريخ الاعتباطية و المصادفة العمياء.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2. أثبتت الدراسة أن "الاعتبار" -كمصطلح قرآني- هــو أوفى وأعمــق وأشمل في دلالته من -الوعي التاريخي-، لأنه (الاعتبار) يوحي بوجود علاقة جدلية بين الزمان في أبعاده الثلاث، ويوحي بوجود قراءة ووجود استشراف وتجاوز، بينما "الوعي التاريخي" لا يوحي بهذا إلا بعد شرح وتأويل.

3. لقد كشفت الدراسة عن "النسق السنني" الناظم لجملة السنن المبثوثة في النفس والمجتمع والتاريخ والفضاء الطبيعي، وهي تعمل متناسقة متكاملة، سواء ما كان منها ظاهرا مركزيا، أو ما كان منها خفيا هامشيا.

4. أقامت الدراسة الدليل العلمي المنطقي على أن الإنسان هو "البنية التحتية" في حركة التاريخ، ليس بكتلته أو بوجوده البيولوجي، إنما بنفسه ومحتواه الفحوي، الذي يكون مركز الجذب فيه "المثل الأعلى"، الذي لا ينفك عن الثوب الديني، ومن ثم يمكن الاستنتاج أن الدين هو "البنية التحتية" في المحتوى للإنسان، وليس شرطا أن يكون الدين سماويا.

5. استخلصت الدراسة أن الحركة التاريخية ليست سببية فقط، إنما هي غائية كذلك، أي أن الوجود الذهني للمستقبل أو التصور الذهني له يحركها ويدفعها.

6. أثبتت الدراسة كذلك أن الناس يختلفون لاختلاف القابليات والاستعدادات، وهذه لا تختلف إلا لاختلاف طرائق تحريضها واستثارتها، وأنهم لا يختلفون بدْءًا إلا في ما على الأرض، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿الكهف: 7﴾.

7. وفي موضع آخر، أكدت الدراسة على وجود علاقة جدلية بين الموقف التصوري الفكري، وبين الوضع الاجتماعي، فكما يوجد الوضع الاجتماعي الموقف التصوري الفكري، كذلك الموقف التصوري يوجد الوضع الاجتماعي.

8. توصلت الدراسة كذلك إلى أن الاستكبار والاستضعاف انحراف عن خط الإنسانية المثلى، يحصلان نتيجة خضوع النفس للظرف ومؤثراته، التي تجعل المرء لا يقدر نفسه حق قدرها، فيراها فوق الناس استكبارا، أو دونهم استضعافا، وكلا الموقفين شعور بالنقص.

9. توصلت الدراسة إلى استكشاف سياسة طاغوتية مقيتة، يمارسها المستبدون ضد المستضعفين، وهي سياسة "الاستخفاف"، التي تستهدف إفراغ الإنسان من كل قيمة تجعله شخصا وفردا، ذا وزن وذا حضور وجودي، ولا تبقى منه إلا كتلة بيولوجية حية.

10. أكدت الدراسة على أن "التبعية"، التي هي قوام شبكة العلاقات الاجتماعية في مجتمع الاستكبار، هي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عملية "لا أنسنة"، من خلال ما تقوم به من عملية مسخ وتشويه للمستضعفين، حتى يصير هؤلاء يستبطنون شعورا دينيا طاغيا اتجاه متبوعهم.

11. خلصت الدراسة إلى أن الجاهلية، ليست فترة زمانية سابقة على الإسلام فقط، وليست وضعا أخلاقيا و تصورا متهافتا فحسب، بل هي حالة استلاب واغتراب، يتورط فيها الأفراد والمجتمعات، يفقد فيها الإنسان أصالته وكرامته، ومركزيته الوجودية، ليصير هامشيا، نكرة في فوضى الأشياء وعالم التكديس.

12. أكدت الدراسة على أن النبوة ظاهرة تاريخية، يستدعيها وضع متأزم في قوم أو في أمة، وأن وظيفتها تصعيد المسيرة البشرية، وأنها ليست موقعا طبقيا، وإن بدا للناس شيء من ذلك عندما يعملون النظر في طبيعة التركيبة البشرية لأنصار النبي وأعدائه.

13. أثبتت الدراسة أن النبي -ومن ورائه أشياعه وأنصاره- بريء من تهمة "العنف" وأن أول من يلجأ إلى العنف والإرهاب هم الملأ المستكبرون.

14. توصلت الدراسة إلى أن الخطاب النبوي -في حواره مع المستكبرين- خطاب علمي موضوعي هادىء، بينما خطاب المستكبرين انفعالي قشري متشنج.

15. اكتشفت الدراسة أن حركة "الردة"، أو "الفتنة"، أو "السامرية" -كما سميتها- أو 'الثورة المضادة'، كما هو شائع في الأدبيات الاجتماعية والسياسية المعاصرة، هي حركة ملازمة للثورات الرسالية الكبرى وهي دائما تتحين الفرص لإجهاض الثورة أو الإجهاز عليها باختراقها وضربها من داخلها. وفي هذا المنظور ينبغي أن يفهم ما وقع للإسلام على أيدي الطلقاء بعد ثلاثين سنة من وفاة الرسول ﷺ.

16. أثبتت الدراسة أن الهلاك متعلقا بالأمة لا يعني الهلاك البيولوجي المتعلق بالأفراد بل هـــو فوضى و انحلال و انحلال جراء تفكك شبكة العلاقات الاجتماعية، للأسباب التي برع -بل يدع- المفكر 'مالك بن بي' في تحليلها وتوضحيها.

17. أثبتت الدراسة أن الهلاك يفقد الأشخاص صفتهم التاريخية الاجتماعية، وينمي فيهم القابليات الغريزية، ويعيدهم إلى صورهم "الخام"، بمجرد أفراد ينتظرون فكرة ما يعيدون بها الاندماج في دورة حضارية أو تاريخية جديدة، ونادرا ما يكون في عمر الفرد متّسع لذلك.

هذه أهم النتائج التي توصلنا إليها في هذا البحث، ورجاؤنا كبير في أننا قد أصبنا في توضيحها وتبيانها، وبالله التوفيق.

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المصادر و المراجع

القرآن الكريم برواية ورش

ابن الأثير(عزالدين أبو الحسن علي الشيباني) الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت، 1965

أحمد محمود صبحي في فلسفة التاريخ- منشورات الجامعة الليبية. (د.ت)

أبو الأعلى المودودي المصطلحات الأربعة في القرآن. دار التراث العربي. ط(2). 1406هـ

أبو الحسن الندوي النبوة والأنبياء في ضوء القرآن. دار القلم. دمشق. ط(6) 1404هـ

أبو الحسن الندوي الإسلام : أثره على الحضارة وفضله على الإنسانية، دار الصحوة، القاهرة، ط(1)، 1406 هـ

أبو القاسم حاج حمد العالمية الإسلامية الثانية : جدلية الغيب و الإنسان و الطبيعة، دار المسيرة (د.ت)

أبــو جرير الطــبري جامع البيان في تأويل القرآن، دار الكتب العلمية. بيروت، ط (1)، 1412هـ

أبو حامد الغزالي إحياء علوم الدين، دار الجيل، بيروت

أبــو علي الفضل بن الحسن الطبرسي مجمع البيان في تفســير القرآن، دار المعرفة، بيروت. ط(1)، 1406هـ

أبو يعقوب إسحاق السجستاني كتاب إثبات النبوءات. المطبعة الكاثوليكية. بيروت. 1966

أبوحامد الغزالي معارج القدس في مدارج معرفة النفس، شركة الشهاب، باتنة- الجزائر

أحمد بن فارس معجم مقاييس اللغة : تحقيق عبد السلام محمد هارون. دار الجيل. بيروت ط(1). 1411 هـ

إدوارد كار ما هو التاريخ : ترجمة ماهر كيالي و بيار عقل. المؤسسة العربية للدراسات و النشر. بيروت 1980

أرنولد توينبي مختصر دراسة التاريخ. ترجمة: فؤاد شبل. القاهرة 1975

إمام عبد الفتاح إمام الطاغية : مكتبة مدبولي. القاهرة 1997

ابن سيده (أبو الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي) المخصص، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت)

ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم) لسان العرب. دار المعارف القاهرة (د.ت)

الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين ابن محمد) المفردات في غالب القرآن. ضبط و مراجعة محمد خليل عيتاني. دار المعرفة بيروت.ط(3)، 1422 هـ

الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . دار الفكر . دمشق ط(1) . 1397هـ .

الميداني (أبو الفضل احمد بن محمد النيسابوري) مجمــع الأمثال. دار مكتبــة الحيــاة. بيــروت. 1985

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفيروز آبادي	**بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز.** المكتبة العلمية . د . ت
باولو فرايري	تعليم المقهورين، تحقيق دكتور يوسف نور عوص، دار القلم، بيروت، ط(1)، 1985
بدران بن مسعود بن الحسن	**الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري،** أنموذج مالك بن نبي، سلسلة كتاب "الأمة" العدد 73، رمضان 1406، قطر . ط (1)
بوتومور(ت. ب)	**النخبة والمجتمع.** ترجمة: جورج جحا. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. (ط1). 1972
بيار لاروك	**الطبقات الاجتماعية** . ترجمة جوزيف عبده كبة . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . ط1. 1973
جودت سعيد	**حتى يغيروا ما بأنفسهم،** دار الهجرة، دمشق. ط(7)، 1407هـ و ط(8)، 1978
جودت سعيد	**لا إكراه في الدين.** العلم والسلام للدراسات والنشر. دمشق. ط1 . 1418هـ .
حسين سلمان	النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ . مؤسسة الوفاء . بيروت 1406هـ
حسين مؤنس	التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، مصر 1984
حلمي المليجي	علم النفس المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، ط(2)، 1972
رابح لونيسي	**البديل الحضاري.** دار المعرفة. الجزائر
رشيد رضا	**تفسير القرآن الحكيم،** دار المعرفة، بيروت، 1414هـ
سالم أحمد محل	**المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب،** سلسلة كتاب الأمة العدد: 60 رجب1418، ط (1) 1418، قطر
سعيد حوى	**الرسول (ص)** دار الشهاب . الجزائر
سيد قطب	**في ظلال القرآن** . دار الشروق . القاهرة . ط11 . 1405هـ .
سيد قطب	**معالم في الطريق** . دار الشروق . القاهرة . ط1 . 1407 هـ .
سيد قطب	**خصائص التصور الإسلامي ومقوماته** . دار الشروق . ط9 . 1407 هـ .
شهاب الدين الألوسي	روح المعاني في **تفسير القرآن العظيم** والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
صلاح بعد الفتاح الخالدي	الأتباع والمتبوعون في القرآن، دار المنار، عمان، ط(1)، 1417هـ 1992
ظهير الدين الروذراوري	**ذيل كتاب تجارب الأمم،** الجزء 3، شركة التمدن الصناعية مصر 1917
عائشة عبد الرحمن	**مقال في الإنسان** . دار المعارف . القاهرة . 1969
عائشة عبد الرحمن	**القرآن وقضايا الإنسان،** دار العلم للملايين، بيروت، ط(4)، 1981،
عباس محمد العقاد	**التفكير فريضة إسلامية،** مكتبة رحاب، الجزائر
عباس محمد العقاد	**الإنسان في القرآن الكريم،** المكتبة العصرية، بيروت

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فاضل رسول كذا تكلم علي شريعتي. دار الكلمة للنشر. 1982
فرانز فانون معذبو الأرض. سلسلة الأنيس. المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. ط. 1990
ماجد عرسان الكيلاني إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها . سلسلة كتاب الأمة . صفر 1412 . قطر
مارسيل غوشيه وبيار كلاستر أصل العنف والدولة. تحقيق علي حرب. دار الحداثة. بيروت
مالك بن نبي شروط النهضة. دار الفكر. دمشق. ط 1987
مالك بن نبي فكرة الإفريقية الأسيوية. ترجمة: عبد الصبور شاهين. دار الفكر. دمشق. ط(3). 1413هـ
مالك بن نبي في مهب المعركة . دار الفكر . دمشق . ط(1) . 1991 .
مالك بن نبي الظاهرة القرآنية . دار الفكر . دمشق . تصوير 1986 . عن طبعة 1981
مالك بن نبي بين الرشاد والتيه. دار الفكر . دمشق . ط(2) . 1408 هـ .
مالك بن نبي وجهة العالم الإسلامي .دار الفكر . دمشق . ط(2) . 1980 .
مالك بن نبي ميلاد مجتمع : ت. عبد الصبور شاهين .دار الفكر – دمشق . 1985 .
محمد تقي المدرسي المنطق الإسلامي، أصوله ومناهجه . دار البيان العربي. بيروت. ط(3) (د . ت)
محمد تقي المدرسي الفكر الإسلامي ، مواجهة حضارية. دار الجيل الجديد. بيروت . ط (2). 1975
محمد أبو زهرة محاضرات في المجتمع الإسلامي، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة
محمد الطاهر بن عاشور تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984
محمد العربي الزبيري المؤامرة الكبرى أو إجهاض ثورة. المؤسسة الجزائرية للطباعة. الجزائر
محمد الغزالي فقه السيرة. دار الشهاب. الجزائر
محمد باقر الصدر السنن التاريخية في القرآن الكريم، دار المعارف، بيروت
محمد باقر الصدر اقتصادنا . دار التعارف للمطبوعات . بيروت . ط(20) . 1408 هـ
محمد باقر الصدر النبوة الخاتمة . دار التعارف للمطبوعات . بيروت . 1410 هـ
محمد باقر الصدر الإسلام يقود الحياة. وزارة الإرشاد الإسلامي. طهران. 1403هـ
محمد باقر الصدر المدرسة القرآنية. دار الكتاب الايراني . بيروت 1401 هـ
محمد تقي هربر الاستكبار والاستضعاف من وجهة نظر القرآن الكريم، منظمة الإعلام الإسلامي، إيران، ط(1)، 1407هـ
محمد حسين الطباطبائي الميزان في تفسير القرآن . موسسة الأعلمي . بيروت . ط(1) . 1991 .
محمد حسين فضل الله مع الحكمة في خط الإسلام، موسسة الوفاء، بيروت، ط(1)، 1406

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

محمد حسين فضل الله **من وحي القرآن** . دار الزهراء . بيروت . ط2 . 1402هـ .

محمد حسين فضل الله **الحوار في القرآن**. المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع. بيروت. ط(3). 1405هـ

محمد حسين فضل الله **الإسلام ومنطق القوة، الدار الإسلامية**، بيروت، ط(3)، 1986

محمد حسين فضل الله **على طريق كربلاء**. دار التيار الجديد. بيروت ط(1) 1404.

محمد سعيد رمضان البوطي **منهج الحضارة الانسانية في القرآن** . دار الفكر . دمشق . ط(1) . 1982

محمد شلتوت **تفسير القرآن الكريم**، الأجزاء العشرة الأولى، تفسير سورة الأعراف،دار الشروق القاهرة، ط(1)، 1403،

محمد شلتوت **الإسلام عقيدة وشريعة**، دار الشروق، القاهرة

محمد عبد الرحمن مرحبا **من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1973

محمـد عزيز الحبابي **من الكائن إلى الشخص**، الجزء الأول، دار المعارف، مصر 1962

محمـد عمارة **هذا إسلامنا، خلاصات وأفكار**، دار الوفاء، القاهرة، ط(1)، 1421هـ

محمد عمارة **الإسلام والثورة**. دار الشروق. القاهرة. ط(3) 1988

محمد مهدي شمس الدين **حركة التاريخ عند الإمام علي**. مكتب الإعلام الإسلامي. طهران. ط(1).1405 هـ

محمود شلتوت **تفسير القرآن الكريم**. الأجزاء العشرة الأولى. دار الشروق. بيروت. ط(10). 1983

مرتضى المطهري **الإنسان والإيمان** . ترجمة عبد المنعم الخاقاني .طهران . ط2 . 1409 هـ .

مرتضى المطهري **المجتمع والتاريخ**. ترجمة محمد علي آذر شب. مؤسسة البعثة. طهران. ط(1). 1406 هـ

مرتضى المطهّري **مقالات حول الثورة الإسلامية في إيران**. ترجمة عبد المنعم الخاقاني. دار البعثة. طهران (د . ت)

مرتضى المطهّري **الرؤية الكونية التوحيدية** . ترجمة عبد المنعم الخاقاني . مطبعة علامة طباطبائي . طهران . (ط2) . 1409 .

مرتضى المطهري **الدوافع نحو المادية** . ترجمة محمد علي التسخيري . مطبعة فجر الإسلام . طهران . 1402 هت .

معروف زريق **علم النفس الإسلامي، دار المعرفة، بيروت**، ط(2)، 1414هـ

نبيل محمد توفيق السمالوطي **المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع**، دار الشروق جدة، ط(2)، 1406 هـ

نعمان عبد الرزاق السامرائي **نحن والحضارة والشهود**، الجزء 1 سلسلة كتاب الأمة، العدد 10، السنة العشرون، قطر، ط (1) 1421 هـ

نعمان عبد الرزاق السحراني **في التفسير الإسلامي للتاريخ**، مكتبة المنار، الأردن، ط(1)، 1406هـ

يوسف القرضاوي **العبادة في الإسلام**. مؤسسة الرسالة. بيروت. 1987

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

آية الله الخزعلي	**السنن الإلهية الحاكمة في الإنسان والعالم**، مقالات المؤتمر الثاني لفكر الإسلامي في طهران، نشر : معاونية العلاقات الدولية في الإعلام الإسلامي: سيهر طهران، ط (1) 1406 هـ
عبد الباسط عبد المعطي	**التبعية في العلم الإجتماعي**. مجلة الوحدة. السنة 4. العدد 45 ــ جوان 1988. المجلس القومي للثقافة العربية. المغرب
عطيات أبو السعود	**الوعي التاريخي بين الماضي والمستقبل... (النهضة الأوروبية نموذجا)**، مجلة عالم الفكر، المجلد 29، العدد 04، أبريل-يونيو 2001، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت
علي حرب	**نحو إعادة قراءة لإشكالية التوحش/ التمدن**. مجلة : دراسات عربية. العدد 4- السنة 19. 1983 دار الطليعة - بيروت
فالح عبد الجبار	من تاريخ **مفهوم الاغتراب** : مجلة الفكر الديمقراطي. فصلية فكرية ثقافية ، العدد 11 1995 ، نيقوسيا
الفضل شلق	**حول الوعي التاريخي**، مجلة الاجتهاد، العدد 22 / السنة 06 / 1414 هـ، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت
محمد البعلبكي	**الحرية في القرآن الكريم**، مجلة دراسات إسلامية، المعهد العالمي للدراسات الإسلامية، بيروت، العدد 3، الموسم الثقافي 1989
محمد حسين فضل الله	**تاملات في كلمة الأمة في القرآن**. مجلة المنطلق. العدد 1411/70هـ ، الإتحاد اللبناني للطلبة المسلمين- لبنان
محمد على التسخيري	**مستقبل المجتمع الإنساني في ضوء القرآن الكريم**، ملتقيات الفكر الإسلامي في الجزائر، نشر معاونية العلاقات الدولية في منظمة الإعلام الإسلامي، طهران، 1046
مصطفى الحاج علي	**الأمة والشهادة: المفهوم والدور**. مجلة المنطلق. العدد 70. ربيع الأول: 1411هـ
ميشال فوكو	**الكلمات و الأشياء**، نقلا عن : علي حرب : نحو فهم تكاملي للإنسان، مجلة دراسات عربية، العددان 11-12، السنة 19 سبتمبر / اكتوبر 1913، دار الطليعة بيروت
نبيل مرقس	**الجوهر الأخلاقي لظاهرة التنمية** : مجلة الحوار. العدد3.السنة 1-1986، دار الكوثر ، بيروت
وجيه كوثراني	**الوعي التاريخي في النظرة القرآنية ودوره في عملية التغيير**، مجلة الحوار، العدد 03، السنة 01، 1986 ، دار الكوثر – بيروت

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

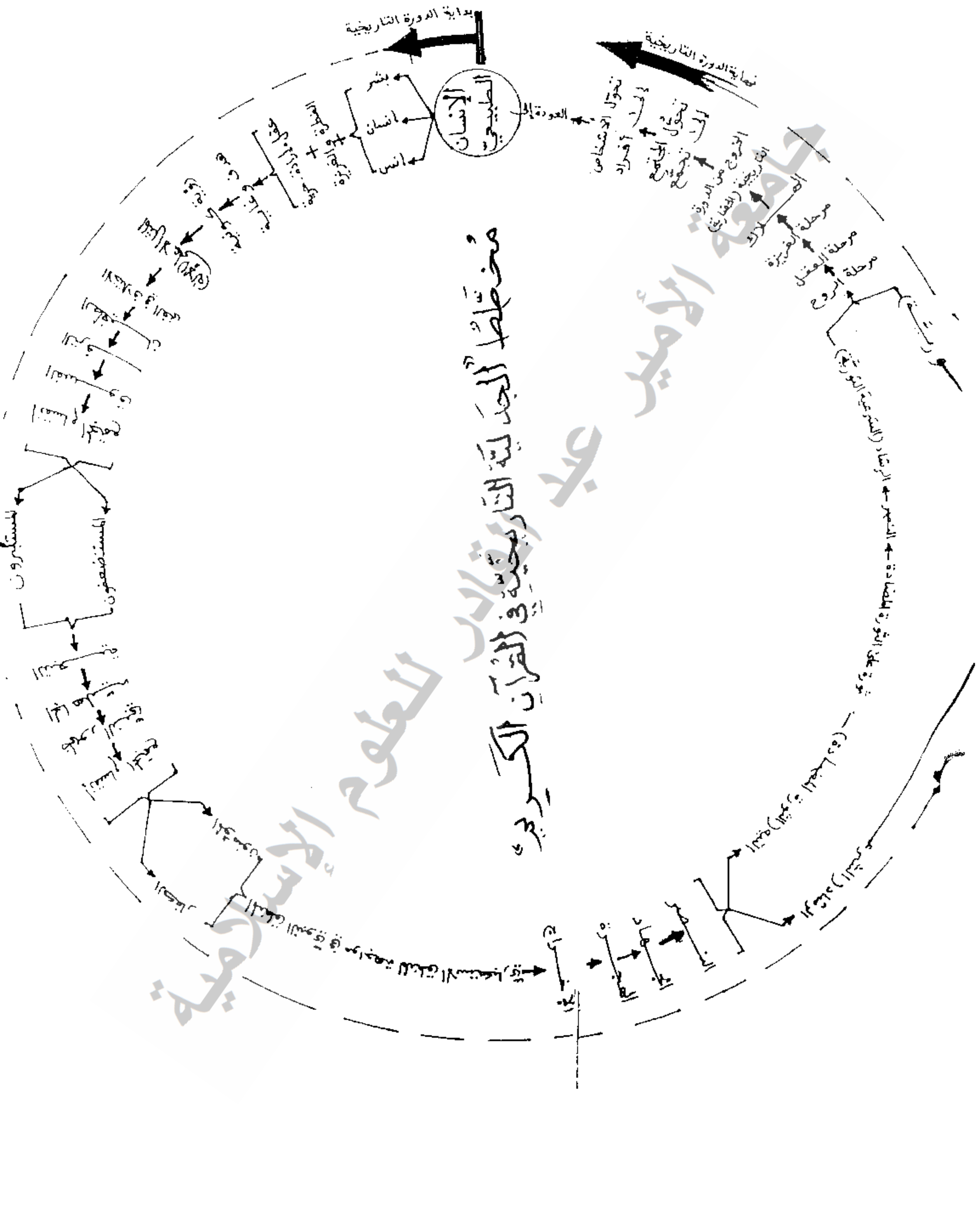

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية